

محمد احريك

الوعد الخرافي

أسطورة التواجد الإسرائيلي في فلسطين



وهو

محمد أحريك

الوعد الخرافي

أسطورة التواجد الإسرائيلي في فلسطين

2022

الفهرس

الإهداء.....	7
✓ المقدمة.....	8
مدخل إلى فهم صحيح.....	10
✓ الجزء الأول: البدايات	
حقائق ومسلمات لا بد لكل باحث أن يقر بها.....	14
هيروودوت أكبر كذاب ومزور للتاريخ.....	17
صناعة الخرافة.....	20
لكل شعب أرضه إلا اليهودي.....	33
معضلة عدم تطابق السرد التوراتي مع تاريخ المنطقة.....	36
التوراة؛ كمرجعية دينية، ومستند تاريخي، ودليل جغرافي؟.....	38
صورة الله في التوراة.....	42
صورة الأنبياء في التوراة.....	43
✓ الجزء الثاني: سامية مختلقة	
الأوروبيون والعداء للسامية.....	49
قانون معاداة السامية.....	51
السامية بين الرفض والقبول.....	53
أسطورة شعب الله المختار.....	62
محاولة التوفيق بين الجغرافية الفلسطينية وأحداث التوراة.....	66
لغانف وادي قمران.....	68
حانط المبكي واستفزاز المشاعر الدينية.....	71
فحوصات الحمض النووي والمآزق التوراتي.....	73

الجزء الثالث: الخرافات التوراتية ✓

هدم الخرافات التوراتية	81
بنو إسرائيل، العبرانيون، اليهود؟	83
اليهودية، الاسم المسروق	87

الجزء الرابع: القرآن وهدم الخرافة ✓

القرآن وهدم الخرافة، هل عاد بنو إسرائيل إلى مصر بعد خروجهم؟	91
القرآن وهدم الخرافة، جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا	93
القرآن وهدم الخرافة، أهدم خير أم قوم تبع	95
القرآن وهدم الخرافة، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة	97

الجزء الخامس: فلسطين وجغرافيا التوراة ✓

سرقة التاريخ والجغرافيا	101
تزوير الجغرافيا الفلسطينية	108
آلهة وثنية أصبحت أقواما	112
فلسطين، أم فلستيم؟	114
فلسطين أم إسرائيل؟	119
فلسطين أم أرض كنعان؟	122
الكنعانيون والحقيقة الآشورية	126
كنعانيون أم شعب نجس؟	129
فلسطين والجغرافيا الخرافية	133
خرافة تلد أخرى	137
هناك في اليمن من يملك رواية أخرى تتطابق مع النص التوراتي	140
قادش برنيع	142

الجزء السادس: النقوش الآشورية والحقيقة التاريخية ✓

اللاهوتيون وترجمة النقوش الآشورية/الآشورية	145
ترجمة النقوش الآشورية، خطوة لتنقيح التاريخ الفلسطيني	149
نقش تجلات بلاسر الثالث	152

نقش B-L NASHQ DEMIRJIAN ونقش شلمانصر الثالث	156
نقش سرجون الثاني	161
نقش سرجون الثاني رقم 18	165
نقش سنحاريب (681-705) ق.م، الذي يسمى (COL III)	169
نقش شلمانصر الثالث	174

الجزء السابع: هدم الأساطير التوراتية ✓

الوعد الخرافي	178
أسطورة الرحلة الإبراهيمية	182
الرحلة الإبراهيمية الحقيقية	186
أسطورة البكورية	190
أسطورة العدس والبكورة	193
هل تحقق الوعد الإبراهيمي أم لا؟	197
حقيقة تحقق وعد الإله لإبراهيم	202

الجزء الثامن: ✓

أسطورة التواجد بنو إسرائيل في مصر الحالية ✓

مصر والخرافة الفرعونية	209
خرافة عزيز مصر الحالية	212
مصر الجوف أم مصر وادي النيل؟	215
الخروج الأسطوري من مصر وادي النيل	218
النتية السينائي الأسطوري	220
أسطورة سيناء القاحلة وألوف العجول، وأطنان البخور	223

الجزء التاسع: أسطورة التواجد الإسرائيلي في فلسطين ✓

أسطورة دخول يشوع أريحا	228
أسطورة أورشليم الفلسطينية	232
الملك سمعي التوراتي، حقيقة أم أكذوبة؟	239

أسطورة حبرون التوراتي	243
أسطورة مملكة مؤاب الأردنية	248
أسطورة شمشون ودليلة	253
أسطورة السبي البابلي من فلسطين	259
1- المملكة الإسرائيلية الشمالية	259
2- المملكة اليهودية الجنوبية	263
3- مراحل السبي	268
4- حقيقة السبي	272
السبي البابلي بين الحقيقة التاريخية والتفريق التوراتي	275
الترحيل البابلي أم السبي البابلي؟	280
مرحلة ما بعد السبي	296
ممالك التوراة والتاريخ اليمني	302
الجزء العاشر: مملكة سليمان الخرافية ✓	
عرش بلقيس وهيكل سليمان	307
الأبنية، والمحاريب، والتماثيل، والجفان، والقصور	315
سليمان وإعادة بناء معبد المقه/ الهيكل	320
المصادر والمراجع	322

الإهداء

إلى نفس أمي الغالية..... رحمةُ الله عليهما

إلى أبي المبرجل أطل الله في عمره وأمدّه بالصحة
والعافية.

إلى إخوتي..... سَندي وعُضدي ومشاطري أفراحي
وأحزاني

إلى جميع الباحثين وطلبة العلم

إلى دولتي فلسطين واليمن الشقيقتين.

المقدمة

تعرض فلسطين وقضيتها منذ ما يزيد عن مائة عام لحملة شنعاء لقبر هويتها العربية- الإسلامية ومحو تاريخها الأثري الموعر في أعماق تاريخ الشرق العربي، ساهم في تلك الحملة شردمة من العرب الصهاينة الخونة. وبدأنا نسمع صوت نعيهم. ونجاح آخرين ممن يحمل جمجمة جوفاء من الحقيقة. وممن وجد فرصة ليصدر عما في خُده من شرارة الحقد والكرهية تجاه فلسطين وشعبها. فبدأ يُعول عويله ليعيد أكاذيب التوراة والوعد المزعوم بورثة عجل السامري في أرض عربية.

فلسطين بمثابة تلك المرأة التي تعكس حال الأمة العربية، وريدتها الإسلامية. فضعف الأمة يؤدي إلى ضياع فلسطين وخروجها من محيطها العربي، وقوتها تظهر عند استرداد فلسطين وردها إلى حاضنتها الأم. وفي جميع حالات خروج فلسطين من أيدي أصحابها الشرعيين، كان الصراع حول جغرافية الأرض، بمعنى صراع حدود. إلا أن الصراع مع الصهيونية حول فلسطين ليس صراعاً حول أرضها فقط، بل هو صراع حول تاريخها، وثقافتها، وماضيها وحاضرها ومستقبلها وموروثها الأدبي وتراثها الإنساني، إذ لم يترك المحتل أي شيء يخص فلسطين وأهلها إلا سرقه، بدءاً من تزيف التاريخ والتلاعب بالجغرافيا اسماً ورسماً، وصولاً إلى سرقة شطيرة الفلافل، وصدن الحمص، والثوب المطرز بألوان مرج بني عامر في فصل الربيع.

المحتل لم يكتف بسرقة الأرض وما عليها وما في باطنها، بل وضع قبل ذلك أسساً مُمنهجة لسرقة تاريخها، ونسبته إلى أقوام غريباء، لم تعرفهم في أية مرحلة تاريخية، سبقت الاستيطان الذي بدء مع ظهور الفكر الاستعماري.

لذلك على الفلسطيني قبل تحرير أرضه، التحرر من التزوير الاستشراقي الذي طمس تاريخه الحقيقي، وصنع له تاريخاً خرافياً، ونسباً شيطانياً. لذلك فإن المهمة الأولى تكمن في عزف لوحة موسيقية فلسطينية نقية من كل شوائب الاستشراق التّعسُفي، والتزوير اللاهوتي، والخرافة التوراتية.

وبما أن كل فرد عربي بصفة عامة وفلسطيني بصفة خاصة يقف على ثغر من ثغور الوطن، واسترداد الحق له مسارات متعددة تنتهي كلها في ذات المصب، وكل له موقعه، وعليه جهده، فإن هذا الكتاب المتواضع جداً، جهد المقل نحو تحقيق الهدف، والخروج من بوتقة الأحلام إلى رحابة الميدان العملي. أنا لا أدعي أن الكتاب لبنة في بناء الصرح الأمل، ولا أقول إنني الباحث الذي لا يشق له غبار، شمس الشمس باقر بواطن الكتب، فلا أدعي ذلك إطلاقاً، فلست أهلاً لبلوغ ذلك المقام، كل ما هنالك أنني حاولت بجهد متواضع جمع نتائج فرسان الميدان.

الكتاب يعود الفضل فيه بدرجة أولى إلى الباحث في التاريخ، الأستاذ محمد العبيدي، بفضلته بعد الله تعالى تم إخراج هذا الكتاب، ثم أبحاث أهل الاختصاص من لاهوتيين، وعلماء النقد النصي الأعلى، ومستشرقين، وباحثين، وأثريين، ومختصين عرباً وعجماً، ودوري يقتصر على جمع مادة الكتاب من مصادرها، وتجزئتها، والتعليق عليها، وتبسيط المعنى اللغوي، ناسباً الفضل لأهله، وذكر أسماء أولئك العملاقة حسب تسلسل الأحداث.

في هذا الكتاب سنسلط الضوء بشكل مركز على التزييف الاستشراقي الذي طال تاريخ وجغرافية فلسطين، ومدى تطابق السرد التوراتي مع جغرافية العراق وبلاد الشام ومصر، وهل عرفت تلك البلاد الشعوب التي تدعي التوراة أنها استوطنتها، وهل يتطابق السرد التوراتي مع حقائق التاريخ المدون على المسلات، وورق البردي، وجدران المعابد، والمقابر، التي تم اكتشافها وتحليل رموزها؟ ونبين أذوية النسب التوراتي، وبطلان الوعد الخرافي، المتعلق برحلة الجد الأرامي، من حيث مكان ولادته، وهجرته، والطرق التي سلكها، وأين استقر أخيرا ونوضح كيف تم اختراع التاريخ اليهودي الذي أدى الى قيام دولة الكيان الصهيوني، استنادا الى هوس استشراقي، وتدبير بريطاني، وجهد عربي تأمري. نعم تأمر عربي قاده النظام الرسمي، لأن ما قام به بعض العرب، أخطر من التخطيط اليهودي والتدبير البريطاني، كونهم احتضنوا النطفة الحرام التي قذفها التخطيط والتدبير في رحم الأمة، وتعهدوها عند ولادتها، وأمدها بكل مقومات الحياة، ثم أرسلوا جيوشهم لحماية حدودها، وما زالوا يفعلون. وسنبين أن القدس ليست أورشليم، ونابلس ليست شكيم، والخليل ليست حبرون، وأن المدفونين في مغارتها ليسوا أنبياء، في ظل تفاخرنا بتلك الأسماء التوراتية، وكوكبة أنبياءها. فلا وجود لهيكل وضع داوود له الأساس، وأكمل سليمان البناء، وأصبح ساحة نزال بين المسيح وحاخامات اليهود. سنبين بالدليل القاطع أن بني إسرائيل قبيلة عربية النسب واللسان، وأن اليهودية ديانة عربية يمنية قديمة، وأن المصريين لا تعرف بلادهم حاكما اسمه أو لقبه فرعون، وأن مصر وادي النيل غير مذكورة في القرآن، ولم تعرف بالاسم مصر في زمن الأنبياء المذكورين في القرآن والتفاسير، بينما هو يفاخر الدنيا بجده مدعي الألوهية، وبلده التي من دخلها كان أمنا مطمئنا. وسنبين أيضا أن صحراء سيناء لا تعرف موسى عليه السلام ولم تسمع به، ورمالها لم تشهد تتيه.

أعي جيدا صعوبة المهمة، واستحالة إقناع من سيطرت على عقله خرافات توراتية ليست ثوبا إسلاميا، بفعل عدم تحقق أهل التفاسير من صحة الأخذ منها، وقلة درايتهم بالمادة التاريخية. سنخوض المعمة متسلحين بنصوص التوراة ذاتها، ومطابقة ما فيه مع النص القرآني إن وجد، وما نطقت به آلاف النقوش التي ضمتها المعابد، والمسلات، وأوراق البردي، ومدافن وادي النيل وبلاد الرافدين، وسرديات جزيرة العرب، خاصة اليمنية، وخمسة مجلدات يحتضنها المتحف البريطاني، وما رشح من كتب التاريخ العربي، ونتائج أبحاث كوكبة المبدعين العرب في هذا المجال، والمنصفين من علماء الغرب واليهود.

المؤلف

محمد أحريك

مدخل إلى فهم صحيح

يعتقد الكثير من المسلمين أن قوله تعالى: **{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}**¹، يحمل علامات المدح للقوم، وإضفاء الخيرية عليهم، وهذا يتعارض مع الفهم الصحيح للغة القرآن العربية. في الحقيقة، هذه الآية تحمل من الذم ما لا تحمله غيرها من الآيات، لأن التذكير لا يأتي إلا بعد جحود ونكران للفضل والنعمة. فالله الذي أنعم على بني إسرائيل ونجاهم من فرعون الذي استعبدهم، وقتل أبناءهم، واستحى نساءهم، فأغرقه وجنوده، ثم أنزل عليهم من السماء المن والسلوى طعاماً، والماء المتفجر من حجارة صماء سقياً، وظلّل فوقهم الغمام ليقبهم حر الشمس المتوهجة، قابلوا كل ذلك بعبادة العجل السامري، بعد أن قالوا لنبيهم: **{يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}**² قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. بعد كل تلك النعم جاءهم التقرير والتائب والتذكير كمن يقول لهم: يا بني إسرائيل، من جاحدين ومنكرين! اذكروا نعمتي عليكم.

كما أن القول بأن تفضيل بني إسرائيل يعني الخيرية، يتعارض مع الفهم الصحيح للغة القرآن العربية، لأن التفضيل لا يعني الخيرية. فقوله تعالى: **{وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ}**³، لا يعني أن الغني خير من الفقير، أو الأقل منه رزقاً ومالاً. لأن الخيرية تنبع من الإيمان، أما الفضل فهو من الزيادة.

لذلك فإن هذه الآية تحمل من الذم لبني إسرائيل ما لا تحمله غيرها، لأن الله يُذكرهم بنعم فضلهم بها على غيرهم، بلغت 15 نعمة ذكرها بعد الآية.

لو نظرنا في قوله تعالى: **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}**⁴، نجد خيرية أحر الأمم، وليس أفضليتها. لكنّه ربط ذلك بشرطي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الأغرب من الفهم المغلوط للآية الأولى، هو ما ذهب إليه الكثير من المفسرين عند تفسير قوله تعالى: **{يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا}**

¹ سورة البقرة الآية 40.

² سورة الأعراف الآية 138.

³ سورة النحل الآية 71.

⁴ سورة آل عمران الآية 110.

خَاسِرِينَ⁵، فجعلوا فلسطين حقاً لبني إسرائيل بنص القرآن، الأمر الذي استند إليه المرجفون والمرتدون على ثوابت الأمة، فاعتقدوا وأرادوا منا الاعتقاد أن تواجد اليهود الحالي في فلسطين، راجع إلى صلح ملكية إلهي مهورا بهذه الآية. وهذا من الفهم الخاطئ للمعنى اللغوي. فمثلا عندما نقول للمدين: ادفع المال الذي كُتِبَ عليك، نفهم أنه كُتِبَ عليه وطلب منه دفعه وسداده. كذلك قولنا للطالب: أكتب الدرس الذي كُتِبَ عليك، نفهم أنه مطالب أن يكتب الدرس الذي طلب منه كتابته. وهنا يكون قول موسى عليه السلام لقومه: **أدخلوا الأرض التي كتب الله لكم**، أي طلب الله منكم دخولها، وهذا لا يعني إطلاقا ملكيتهم لها، ولا أحقية لهم فيها، خاصة بعد رفضهم الدخول، وهم من حرموها على أنفسهم بنص الآية كما سنبيين خلال أجزاء الكتاب.

والأهم من الفهم الصحيح، أن الآية لا تشير لا تصريحاً ولا تلميحاً إلى أن الأرض المقدسة هي فلسطين عامة، والقدس خاصة. لأن البركة شيء، والقداسة شيء آخر.

قامت فكرة عودة الشعب اليهودي إلى أرض الميعاد، على سند توراتي منسوباً للسماء، أبرم مع الجد الأعلى "أبرام الأرامي"، كما جاء في التوراة. ويلاحظ القارئ المحقق لنصوص السرد التوراتي، حجم التخبط الذي وقع فيه مدونه، ومدى التلاعب تعديلاً وتبديلاً بنص الوعد الخرافي المنسوب للسماء، والمرفوع إلى رتبة القداسة.

يدعي مدون التوراة أن الجد الأعلى "أبرام الأرامي" ولد في أور الكلدانيين من أرض جنوب العراق، ثم هاجر مع عائلته الصغيرة إلى أرض "حاران" التي هي جزء من تركيا الحالية، ليدخل منها إلى أرض كنعان ومصر. ويظهر هنا جهل مدون التوراة بحقيقة الجغرافيا، فمتى كانت تركيا تحُدُّ فلسطين أو مصر؟

فجأة وبدون مقدمات نجد التوراة تخبرنا أن الجد الأرامي مستقراً في أرض كنعان، التي تدعي التوراة أنها فلسطين الحالية، ليغادرها بدون سبب إلى مصر الحالية، ليعود منها محملاً بالهدايا والماشية، وفتاة اسمها "هاجر" أهديت لزوج "ساراي". ولأن الزوج "ساراي" كانت عجوزاً عقيماً، فقد أهدت جاريتها للزوج الذي يتمنى ولداً يرثه. وعندما أنجبت "هاجر" ابنها "إسماعيل"، أكلت الغيرة قلب "ساراي"، فطلبت من الزوج نفيها من مضارب العشيرة، فخرج مصطحباً الجارية وولدها متوجهاً إلى "فاران" (حاران اليمينية) في جنوب جزيرة العرب، حيث تركهما، ثم قام عائداً إلى أرض كنعان، حيث أستقر، وأمضى ما تبقى له من أيام.

كانت طاعة الجد الأرامي للسماء أولاً، ثم امتثاله لرغبة "ساراي"، سبباً في مكافئته، فنجد الرب يمنحه ولنسله من بعده ملكية الأرض الممتدة بين الفرات والنيل، وخضوع شعوبها العشر لهم. ولأن ابن الجارية من النسل الوارث، فقد اجتهد مدون التوراة على إخراجه من النسب المقدس،

⁵ سورة المائدة الآية 21.

مقدمة لحرمانه من الميراث. لذلك نجد التخبط والتضارب في نصوص الوعد، والتعديلات التي طرأت عليه.

كذلك هل تعرف الجغرافيا شعوباً استوطنتها تحمل أسماء: الأراميين، والكنعانيين، والأموريين، والكلدانيين، والآشوريين، وخذ ذكرها التاريخ على مسلاته ونقوشه، أم أن الأمر كله مجرد تزوير واختلاق؟

ربما يظن البعض أن التطرق لهذا الأمر، يدخل في تنفيذ الروايات القرآنية وما جاء في التفاسير شرحاً لها، والذي يكاد يكون متطابقاً مع السرد التوراتي. وهذا تجني، لأن مادة القصة حسب النص القرآني لا يرقى إليها شك، فهي جزء من العقيدة، وأمامها نقف بجلال لنقول:

{وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}⁶. ولكن، علينا الاعتراف بأن القرآن ليس كتاباً تاريخياً حتى يأتي بالأحداث مؤرخة، ولا كتاباً جغرافياً يحدد رقعة الحدث. لذلك إذا كان النص القرآني الجغرافي غير مرتبط بتشريع أو عبادة، كارتباط مكة والبيت الحرام بالحج والعمرة، فإن النص يخضع للبحث والتفكير تحت توجيه النص السماوي القائل: **{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ}**⁷. فعندما نقرأ: **{وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ}**، علينا أن نسأل: أين تقع مدين؟ وهل كانت نقطة انطلاق موسى عليه السلام من مصر الحالية، كما في السرد التوراتي، والتفاسير الإسلامية؟ وإذا صدقنا السردين التوراتي والإسلامي، فإن الآية التي سبقتها نقول: **{فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ}**⁸، والفعالن: خرج، يترقب لا تصلح لغويا لوصف حالة رجل انتقل من مصر الحالية، إلى أرض مدين الممتدة من حدود الأردن حتى تخوم اليمن.

⁶ سورة النساء الآية 87.

⁷ سورة الأنعام الآية 11.

⁸ سورة القصص الآية 21.

الجزء الأول: البدايات

حقائق ومسلمات لا بد لكل باحث أن يقر بها

كل باحث في التوراة ملزم ضرورة أن يُسَلِّم بمجموعة من الحقائق وهي:

الحقيقة الأولى: لم يرد إطلاقاً اسم فلسطين والفلسطينيين في التوراة العبرية، إنما جاء اسم "هافلشتيم وهافلشتين"، والجذر اللغوي للكلمتين هو "فلش" بالعبرية الصناعية، وفلس بالعربية الحميرية. ولو كان كاتب التوراة يقصد فلسطين والفلسطينيين، فلماذا كتب حرف "الشين" عوضاً عن حرف "الطاء" الذي تعرفه الأبجدية العبرية؟

لو بحثنا في تاريخ اليمن، وآلهة القبائل التي استوطنته استناداً إلى كتاب وصف جزيرة العرب للهمذاني، وكتاب الأصنام للكلبي، سنجد أن هناك مجموعة قبيلة عربية قحطانية عبادت صنماً اسمه "فلس أو فلش" ودعيت باسمه، وعرفت باسم الفلستيم، أو الفلشتيم - على اختلاف النطق بين الحميرية السبئية، وكما نعرف فإن حرفي الياء والميم في اللهجات اليمنية أداتي تثنية وجمع. في النص العبري نجد جملة "هافلشتيم هامشحيث"، وترجمتها الحرفية: الفلشتيم آكلوا السحت، لكن مدون التوراة عندما ترجمها للعربية وباقي اللغة، جعلها: المُخربون الفلسطينيون، وذلك من باب شيطنة شعب فلسطين محور الصراع، وما زال الصهاينة يطلقون كلمة مُخرب على كل فلسطين.

الحقيقة الثانية: لا يوجد في الموسوعة الإغريقية إطلاقاً، أي ذكر أو اسم لقبائل تدعى الفلسطينيين، هاجرت ساحل المتوسط الشرقي، واستقرت على شواطئ فلسطين الحالية، لتعطي المنطقة اسمها فيما بعد. وأول ظهور لهذه الأكذوبة كان في القرن بداية القرن التاسع عشر، ثم دست في المراجع التاريخية عند إعادة طباعتها. ومن يملك ما يدحض هذا القول، عليه أن يثبت ذلك.

الحقيقة الثالثة: لا يوجد في النص العبري للتوراة على وجه الإطلاق، لا تلميحاً، ولا تصريحاً، ولا جملة، ولا كلمة تشير إلى أن القدس الفلسطينية هي أورشليم. وما دون يتحدث عن جبل مقدس يُدعى "قدش"، وعن مدينة دينية اسمها أورشليم فيها معبد ديني مقدس. أما جغرافية المدينة حسب التوراة فلا تتطابق البتة مع جغرافية القدس الفلسطينية.

الحقيقة الرابعة: أن التوراة التي تسلمها موسى عليه السلام لا تزيد على الوصايا العشر، كتبت على لوحين حجريين فقط، وبقي ما فيها من فقرات، هي من شروحات موسى الشفهية، ومن تعاليم وآراء من جاء بعده من الأنبياء، والكهان، والقضاة، وما زاده فيها النساخ سواء بقصد أو عن طريق الخطأ عند إعادة النسخ. وأن التوراة، خاصة ما يعرف بأسفار موسى الخمسة، لم تُكتب في زمنه، ولا حتى في الألف سنة الأولى بعده.

الحقيقة الخامسة: أن التوراة تعرضت للتلف، والحرق، والضياع، والإتلاف، عشرات المرات، سواء بأيد اليهود أنفسهم خوفا من وقوعها بيد أعداءهم، أو بأيد القبائل التي حاربتهم. وعند إعادة كتابتها فإنها حوت الكثير من خرافات، وأساطير، وعقائد الشعوب التي عاصرت التدوين، علاوة على ما دسه المدونون من نسج خيالهم، أو اعتقادهم أنهم يبسطون المعنى.

الحقيقة السادسة: أن هناك اختلافات مذهلة بين أقدم نص توراتي مكتوب بالعبرية الصنعانية، وباقي الترجمات الأخرى. علاوة على أن أقدم نص توراتي متكامل مكتوب، يعود إلى القرن الرابع الميلادي، ولا يوجد نص أقدم إطلاقا، ما خلا قصاصات تحتوي جمل غير متناسقة، يعود أقدمها إلى منتصف القرن الثاني الميلادي، يجهل تماما كتبته. أما ما يعرف بالتوراة السبعينية، التي يدعي اليهود ترجمتها من اليونانية إلى العبرية في بداية القرن الثالث ق.م، فلا يقر صحة العمل معظم العلماء، لأن لا أحد يعرف متى ولماذا ترجمت على وجه الدقة. أما القول بأن سبب الترجمة حاجة يهود مصر إلى توراة بلغتهم العبرية، فهذا هراء وتزييف. إذ لم يكن في مصر أية تجمعات يهودية في ذلك الوقت. كذلك فإن القول بأن الترجمة جاءت بناء على رغبة يوناني مصر الذين تهودوا، يعتبر من الهذيان، إذ لم تعرف مصر الديانة اليهودية في ذلك العصر، كي يعتنقها اليونانيون المحتلون، إضافة الى أن كل المصادر التاريخية تؤكد وثنية اليونانيين.

الحقيقة السابعة: أن التناقض بين المخطوطات التوراتية يعجز أي باحث متخصص، فلا يوجد بين تلك المخطوطات التي بلغ عددها 5525 مخطوطة، مخطوطتين متشابهتين، بل يوجد كم هائل من التناقض بين أسفار المخطوطة الواحدة. وأن النسخة الأخيرة للتوراة ظهرت بشكلها الحالي في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين.

الحقيقة الثامنة: أن جغرافية بلاد الشام ومصر وسيناء، تتعارض مع جغرافية التوراة المدونة قبل القرن التاسع عشر، بشكل يستحيل التوفيق بينهما، وأن القرن التاسع عشر وحده، شهد إعادة كتابة جغرافية التوراة عدة مرات.

هذه الحقائق يقر بها علماء النقد النصي⁹، والنقد النصي الأعلى¹⁰، ويضعونها نصب أعينهم عند دراسة الكتاب المقدس. وقد دارت بينهم عشرات المداولات والمناقشات حول الكثير من

⁹ النقد النصي يبحث في حقيقة النصوص المدونة في المخطوطات ويقارن بينها.

¹⁰ يبحث النقد النصي الأعلى في حقيقة المخطوطات من حيث عمرها التاريخي.

نصوصه، منها على سبيل المثال النقاش الذي استمر لساعات طويلة على مدى عدة أشهر حول سر تطابق جغرافية اليمن مع الشرح التوراتي.

هيرودوت أكبر كذاب ومزور للتاريخ

لو سألنا أي إنسان مهما كانت حصيلته المعرفية عن "هيرودوت"، فسيجيب على الفور: "أبو التاريخ". فهل حقا هو كذلك، أم أنه أشهر كذاب ومزور للتاريخ؟

في الواقع، اعتبر المختصون في التاريخ خاصة علماء المصريين، الرجل بأنه رائد المزيّفين أصحاب الأهواء، وأن معظم ما كتبه لا يعدو عن كونه أساطير لفقها، وأن جل اهتمامه انصب على تشويه صورة الأمم والإمبراطوريات الأخرى، بهدف رفع الإمبراطورية اليونانية فوق الجميع، خاصة حضارة وادي النيل، كونها إحدى أشهر الحضارات التي تفوقت على حضارة اليونان، وتقدمت عليها في كل المجالات.

هيرودوت (425-484) ق.م، لم يكن مؤرخا بالمعنى المفهوم، بل رحالة يسافر كثيرا، ويدون الملاحظات، والمشاهد، والقصص التي يسمعا شفويا من السكان المحليين بدون تحقق. وقد كتب أسفاره في تسع مجلدات، خصص المجلد الثاني لمصر الحالية، حيث تطرق لكل ما يتعلق بها من تاريخ، وجغرافيا، وفنون وملوك، وسياسة، وحالة اجتماعية. وعندما ترجم مؤلفه الخاص بمصر، أطلق عليه اسم: هيرودوت يتحدث عن مصر.

ومنذ أن أطلق الأديب الروماني "شيشرون" لقب {أبو التاريخ} على "هيرودوت"، تمتع الرجل بهالة من القداسة، رغم الكم الهائل من الأساطير التي حوتها كتبه. إلا أنه بقي العلم الأشهر عند المؤرخين، وقوتهم في صناعتهم. لكن المهتمين بالمصريات لهم رأي آخر، فقد وصفه الدكتور عبد الحليم نورالدين، رئيس اتحاد الأثاريين المصريين، في بحثه الرائع عن "هيرودوت" بأنه صانع الخرافات، إذ اعتمد على السماع من عامة الناس، ثم يضع النص بلغته، مضيفا آرائه الخاصة في محاولة متعمدة لتزييف التاريخ. فمن خرافات "هيرودوت" سرده لقصة بناء هرم ابنة الملك خوفو، إذ ادعى أن ابنة الملك طلبت من أبيها الملك أن يبني لها ولوصيفاتها هرما، فرفض الملك بحجة أن خزينة الدولة لا تكفي، واقترح عليها ممارسة الزنا مع الرجال، وأن تطلب من كل من يعاشرها حجرا، وهكذا جمعت الحجارة اللازمة للبناء. وهذا من الكذب والتزييف، لأن عدد حجارة هرمها حسب تقديرات العلماء 800 ألف حجر. فهل عاشرت ابنة الملك 800 ألف رجل؟! بعملية حسابية بسيطة، على اعتبارا أن كل معاشرة زنا دامت دقيقتين فقط، سنجد أن ابنة الملك مارست الزنا لمدة تزيد على 1100 سنة. فكيف تقبل المؤرخون مثل هذه الترهات، خاصة أن هيرودوت زاد منطقة الأهرامات كما ادعى، وبالتأكيد عابن جبل المقطم الصخري الضخم، الذي تكتفي صخوره لبناء عشرات الأهرامات. كما لم يفقه أن حضارة وادي النيل قامت أساسا على الحجارة التي شيدت بها الأهرامات والمعابد والمسلات، فمثلا يبلغ عدد حجارة هرم الملك خوفو 2.3 مليون حجرا.

ومن أكاذيب "هيرودوت" الادعاء أنه شاهد بأمر عينيه فرس النهر المجنح، وأن حبة ضخمة ذات أجنحة كانت تهاجم المصريين، ثم قتلوها وحنطوها واحتفظوا بعمودها الفقري، علما أن جسم الحية لا يحوي عمودا فقريا.

أضفى المؤرخون الغربيون خاصة الإغريق هاله من القداسة على "هيرودوت"، ونسبوا إليه العبارة المشهورة: مصر هبة النيل، وهذا أيضا من الكذب، إذ أن الدكتور وسيم السيسي، عالم المصريات الشهير توصل من خلال دراسته إلى أن "مانيتون" هو أبو التاريخ الحقيقي، وأنه صاحب مقولة "مصر هبة النيل"، وأن الملك "بطليموس الثاني 285 ق.م" كلفه بكتابة تاريخ مصر القديمة، وأمه بكل ما تحتفظ به المعابد من نقوش وكتابات. وأنه من قام بقسيم الدولة إلى دول قديمة، ووسطى، وحديثة، وقسم كل دولة إلى أسر، وعدد ملوك كل أسرة، وتاريخ حكم كل ملك، وإنجازاته.

أما الدكتور أحمد حميدة، رئيس المتحف الأثوني، فأثبت في بحثه مغالطات "هيرودوت"، خاصة المتعلقة بأسماء الملوك وعدد سنوات الحكم، إضافة إلى ما يتعلق بالجوانب الأخلاقية للشخصية المصرية، ومواقع المعابد، وأسماء آلهة القدماء من سكان البلد. وأشار الدكتور أحمد حميدة إلى أن "هيرودوت" والمؤرخ الروماني "بلوتارخ"، والمؤرخ الصقلي "ديودور" زاروا مصر في زمن ضعفها نتيجة الغزو الفارسي، فاستقوا الكثير من معلوماتهم عن طريق الخرافات والأساطير، لا تعكس حقيقة الطابع المصري ولا التاريخ والحضارة المصرية.

ويؤيد عالم المصريات بسام الشماع وصف "هيرودوت" بأبي الأكاذيب، معددا الكثير من أكاذيبه، خاصة قوله إن الرجل المصري القديم كان يجلس في بيته ليقوم بأعمال النسيج، بينما تقوم المرأة بكافة الأعمال الأخرى. وهذا من التلفيق، لأن سكان وادي النيل برعوا في الزراعة والتحنيط وبناء الأهرامات والمعابد والهيكل الدينية. وإذا كان الرجل المصري يجلس في بيته ليقوم بأعمال النسيج، فهل قامت النسوة بتقطيع الحجارة الضخمة، ونقلها من مقالعها، ورفعها لبناء الأهرامات والمعابد؟ والغريب أن "هيرودوت" الذي يدعي أنه وقف طويلا أمام الأهرامات، وتجول في ساحاتها، ومع ذلك لم يذكر كلمة واحدة عن تمثال أبي الهول، فهل يعقل أنه لم ير ذلك التمثال الضخم؟

يحفل كتاب: الحالة الاجتماعية في مصر القديمة، تأليف حسن محمد جوهر وعبد المنعم عبد الحلیم، وهما من رواد التاريخ المصري القديم، بسرد أكاذيب "هيرودوت"، وتفنيدها.

ومن المؤرخين القدماء الذين زاروا مصر "هيكاتييه الملطي"، وكانت مدوناته عن مصر القديمة أكثر مصداقية مما نقله "هيرودوت".

لا يهمننا من هذا السرد إثبات أكاذيب "هيرودوت"، أو إنصاف غيره من المؤرخين، إنما القول: لم يذكر أيا من "هيرودوت" أو "مانيتون"، أو "بلوتارخ"، أو "ديودور الصقلي"، أو "هيكاتييه

الملطي"، ولا أي مؤرخ آخر كلمة واحدة عن يوسف عليه السلام عزيز مصر، أو عن سنين الخصب والمجاعة، أو تواجد بني إسرائيل في مصر القديمة، أو أن أياً من ملوكها إدعى الألوهية، ولا علم لهم بشخصية موسى عليه السلام ويوم الزينة وما حدث فيه، أو غرق أيا من ملوكها. كذلك لا وجود في كتبهم للقلب فرعون. كما أن المخطوطات القديمة لكل المؤرخين حتى بداية القرن الرابع قبل الميلاد، لا يوجد فيها اسم مصر، بالمعنى الذي يشير إلى جغرافية البلد الحالية، مع الإشارة إلى أن جملة مصر هبة النيل التي أطلقها "مانيتون"، أخذ الاسم من سكان ما يعرف بسيناء، الذين خالطهم أثناء تتبع حركة الجيوش المتجهة إلى الشرق، والطرق التي سلكتها. وحسب الاكتشافات الأثرية في سيناء، فإن سكان تلك الصحراء كانوا يطلقون على وادي النيل: مصر النيل، كما أطلقوا على سوريا: مصر الشام، وعلى العراق: مصر الفرات، أي بلد النيل، وبلد الشام، وبلد الفرات، فغلب الاسم على الصفة، فعرفت باسم مصر.

الغريب أن نجد المصري يفخر بلقب فرعون، ويفاخر الدنيا به، ويردد بعضهم جملة "نحن الفراعنة" على أنه نسب حقيقي لهم. والحقيقة أن تاريخ مصر، كما هو حال تاريخ سوريا الكبرى والعراق، كتبه الغربيون ممن يؤمن بقدسية التوراة، بعد إسقاط أكاذيبها بشكل متعمد ومدروس، لتفتيت جسم الأمة. فاستولدوا من رحم الأساطير؛ الأمة الآشورية، والسورية، والمصرية الفرعونية، وخرافة الشعب الكنعاني، لفصل فلسطين عن محيطها العربي، كي يسهل ابتلاعها، لتكون نقطة الانطلاق نحو ابتلاع الأرض العربية من الفرات إلى النيل، مستندين إلى وعد خرافي. ونحن العرب، أخذنا بدون تحقق ما دونه الغربيون من أهل الاستشراق اللاهوتي، واعتبرناه تاريخاً مقدساً، خاصة أن له سند في الموروث الإسلامي الذي استند إلى النص التوراتي، لتفسير الآيات المتعلقة بأنبياء القبيلة الإسرائيلية.

صناعة الخرافة

من عادات القبائل والشعوب، التفاخر بأبائها الأوائل وأفعالهم، وسيرتهم، وعاداتهم، وأخلاقهم، وحروبهم، وكل ذلك شكل فيما اصطلح على تسميته تاريخاً.

في البداية سناخذ النص التوراتي على علاته، ثم في الأجزاء القادمة نتطرق إلى التزييف الذي طال جغرافية أحداثها، وزمنها، وشخصياتها الفاعلة والمؤثرة، كمقدمة للتعرف على حاجة بني إسرائيل، ومن لحق بهم من قبائل وأمم آمنت بالتوراة ككتاب عقدي، وتاريخ يحمل ختم السماء، لصنع أسطورة تكون ركيزة للسطو على الأرض العربية من نيلها الى فراتها.

اعتاد بنو إسرائيل على التزوير والتحريف منذ تشكل أول تجمع بشري لهم كقبيلة ثم كشعب. وشواهد القرآن تؤكد أنهم مارسوا نوعين من التحريف.

الأول: التحريف الفوري لكل أمر لا يتفق وعقلية القوم، إما برفضه، أو تحريف الكلم، أو السخرية منه. وقوله تعالى: **{مَنْ لَدَيْنَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ لِكَلِمٍ عَنْ مَوَاضِعِهِ}**¹¹، إشارة إلى التحريف والتبديل الفوري، لأن جملة: **{عَنْ مَوَاضِعِهِ}** تعني ساعة تنزيله، كما في الآيات: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَرِدُ الْمُحْسِنِينَ. فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ}**¹². فالآية تشير إلى الأمر بأن يقولوا حطة، لكنهم لم يستجيبوا لذلك، وقالوا حنطة. كما جاء في كتب بعض المفسرين -من باب السخرية بموسى عليه السلام.

الثاني: التحريف والتبديل المتأخر، أي بعد أن أخذوا النص من الله عن طريق الأنبياء، وعقلوه ودرسوه؛ حرفوه لمصالح شخصية، وهو ما أشار إليه القرآن في الآية: **{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ}**¹³، إذ جملة **{مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ}** تعني بعد نزوله وتدوينه وفهمه، ومثال ذلك أن لوح الوصايا نص على تحريم السرقة، ثم حرف الأبحار النص بجواز سرقة غير اليهودي، وأصبح ذلك عقيدة عندهم.

¹¹ سورة النساء الآية 46.

¹² سورة الأعراف الآيتين 161 . 162.

¹³ سورة المائدة الآية 41.

أراد بنو إسرائيل صناعة تاريخ بطولي للأباء الأوائل، ولرموز لعبت دورا مؤثرا في حياتهم، ليكونوا قدوة للأجيال، وحافزا على صنع مستقبل لهم. وكانت بداية التزوير خلق أبوة جديدة للبشرية تبدأ بنوح عليه السلام وثلاثي من الأبناء هم سام وحام ويافث، وطمس تاريخ البشرية بين آدم ونوح.

انطلق مدونو التوراة لخلق أنساب جديدة للبشرية من مواليد بني نوح: سَامَ وَحَامَ وَيَافَثَ، وأفردوا الإصحاح العاشر من سفر التكوين لها كالتالي:

بَنُو يَافَثَ: جُومِرُ وَمَاجُوجُ وَمَادَايَ وَيَاوَانَ وَثُوبَالَ وَمَاشِكُ وَتِيرَاسُ.

ومن نسل يافث إستولدوا الذرية التالية:

بَنُو جُومَرَ: أَشْكَنَازُ وَرِيفَاثُ وَتُوجْرَمَةُ.

بَنُو يَآوَانَ: أَلَيْشَةُ وَتَرَشِيشُ وَكَتِيمُ وَدُودَانِيمُ.

بَنُو حَامَ: كُوشُ وَمِصْرَايِمُ وَقُوطُ وَكَنْعَانُ.

ومن نسل حام إستولدوا الذرية التالية:

بَنُو كُوشَ: سَبَا وَحَوِيلَةُ وَسَبْتَةُ وَرَعْمَةُ وَسَبْتَكَا. وَبَنُو رَعْمَةَ: سَبَا وَدَدَانُ، وَأَشُورُ وَبَنَى نِينَوَى وَرَحُوبُوتَ: عَيْرَ وَكَالْحَ،

وَمِصْرَايِمُ وَلدَ: لُودِيمُ وَعَنَامِيمُ وَلَهَابِيمُ وَتَفْتُوحِيمُ. وَفَتْرُوسِيمُ وَكَسْلُوحِيمُ. الَّذِينَ خَرَجَ مِنْهُمْ فِلِشْتِيمُ وَكَفْتُورِيمُ.

وَكَنْعَانُ وَلدَ: صِيدُونُ بِكَرَهُ، وَحَنَّا وَالْبَيْوسِيَّ وَالْأَمُورِيَّ وَالْجَرَجَاشِيَّ وَالْجَوِيَّ وَالْعَرَقِيَّ وَالسَيْنِيَّ وَالْأَرُودِيَّ وَالصَّمَارِيَّ وَالْحَمَاتِيَّ: [وَبَعْدَ ذَلِكَ تَفَرَّقَتْ قَبَائِلُ الْكَنْعَانِيَّ. وَكَانَتْ تُحَوْمُ الْكَنْعَانِيَّ مِنْ صِيدُونُ، حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ جَرَارَ إِلَى عَزَّةَ، وَحِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَأَدَمَةَ وَصَبُويِمَ إِلَى لِاشَع].

بَنُو سَامَ: عِيلَامُ وَأَشُورُ وَأَرْفَكْشَادُ وَلُودُ وَأَرَامُ.

ومن نسل سام إستولدوا الذرية التالية:

وَبَنُو أَرَامَ: عُوَصُ وَحُولُ وَجَاتْرُ وَمَاشُ.

وَأَرْفَكْشَادُ وَلدَ شَالِحَ، وَشَالِحُ وَلدَ عَابِرَ.

وَلِعَابِرَ وُلْدِ ابْنَانِ: اسْمُ الْوَادِحِ فَالْحُ لَأَنَّ فِي أَيَّامِهِ قُسِمَتِ الْأَرْضُ. وَاسْمُ أَخِيهِ يَقْطَانُ.

وَيَقْطَانُ وُلْدُ: الْأُمُودَادِ وَشَالَفَ وَحَضْرَمُوتَ وَيَارِحَ وَهُدُورَامَ وَأَوْزَالَ وَدِقْلَةَ وَغُوبَالَ وَأَيْمَائِلَ
وَسَبَا وَأُوفِيرَ وَحَوِيلَةَ وَيُوبَابَ. جَمِيعُ هَؤُلَاءِ بَنُو يَقْطَانِ.

ما يهمنا من خلال هذا السرد التوراتي للأنساب البشرية معرفة الأمور التالية:

1- هل {كَنْعَانُ} إسم بشري حقا؟، وهل حقا ذريته مكونة من {صِيدُونُ بَكْرَهُ، وَحَنَّا وَالْيَبُوسِيُّ
وَالْأُمُورِيُّ وَالْجَرْجَاشِيُّ وَالْحَوِيُّ وَالْعَرَقِيُّ وَالسِّيْنِيُّ وَالْأَرْوَادِيُّ وَالصَّمَارِيُّ وَالْحَمَاتِيُّ}؟

2- هل حقيقة كانت مساكن ذرية كنعان كما جاء في التوراة كالتالي: {وَبَعْدَ ذَلِكَ تَفَرَّقَتْ قَبَائِلُ
الْكَنْعَانِيِّ. وَكَانَتْ تُحْوَمُ الْكَنْعَانِيَّ مِنْ صِيدُونَ، حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ جَرَارَ إِلَى عَزَّةَ، وَحِينَمَا تَجِيءُ
نَحْوَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَأَدَمَةَ وَصَبُويِيمَ إِلَى لَاشَعِ}.

3- هل حقا {أَرَامُ} إسم بشري من نسل سام؟ وهل هو والد {شَالِحُ} الذي {وُلِدَ عَابِرُ} الذي {وُلِدَ
فَالْحُ}؟ وهل حقا {أَرَامُ وَيَقْطَانُ} إخوة؟

ابتدأ نُوحٌ يَكُونُ فَلَاحًا وَغَرَسَ كَرْمًا. وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكَرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَانِهِ. فَأَبْصَرَ حَامَ
أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخُوَيْهِ خَارِجًا. فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافِثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا
وَمَشَى إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَ عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. فَلَمَّا
اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ. فَقَالَ: مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدُ الْعَبِيدِ يَكُونُ
لِإِخْوَتِهِ.

وَقَالَ: مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلَهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. لِيَفْتَحِ اللَّهُ لِيْنَاثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِينِ سَامٍ،
وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ¹⁴.

نلاحظ من الفقرات أن سام ويافث سترا عورة أبيهما، بينما أبصرها ابنه الأصغر حام. لكن نوح
عندما أفاق لم يلعن حام، بل لعن ابنه كنعان، مع أن النص لا يقول إن كنعان رأى عورة جده.

¹⁴ سفر التكوين 9(20-27).

السؤال هنا: لماذا يلعن كنعان وحده دون سائر إخوته، ويدع نوح على نسله بأن يصبحوا عبيدا لنسلي سام ويافث، علما أنه أصغر إخوته سنا حسب الترتيب التوراتي لأبناء حام كما في الفقرة: **{وَبَنُو حَامٍ: كُوشٌ وَمِصْرَايِيمُ وَقُوطٌ وَكَنْعَانُ}**15.

لو عدنا إلى الأنساب التوراتية نجد أن نسل كنعان، الشعوب التالية: **{وَكَنْعَانُ وَلَدٌ: صِيدُونٌ بَكْرُهُ، وَحِثَّا. وَالْيَبُوسِيُّ وَالْأَمُورِيُّ وَالْجَرْجَاشِيُّ. وَالْحَوِيَّةُ وَالْعَرَقِيُّ وَالسِّيْنِيُّ. وَالْأَزَوَادِيُّ وَالصَّمَارِيُّ وَالْحَمَاتِيُّ}**16، المقيمة بين النيل والفرات.

تخبرنا التوراة؛ أن نسب **{أَبْرَامَ}** كالتالي: **{سَامُ، أَرَفْكَشَادُ، شَالِحُ، عَابِرُ، قَالِجُ، رَعُو، سَرُوجُ، نَاحُورُ، تَارِحُ، مَوَالِيدُ تَارِحَ: أَبْرَامُ وَنَحَاورُ وَهَارَانَ}**.

ما أرادت التوراة قوله: أن كنعان وسلسلة الشعوب المنبثقة عنه، ملعونين دون بقية أبناء وأحفاد حام، وبالتالي سيصبحون عبيدا، وأرضهم ملكا لأبناء **{أَبْرَامَ}**، دون بقية أبناء سام الآخرين لأن الرب التوراتي وعد بذلك كما في **{فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلًا: لِنَسْلِكَ أُعْطِي هَذِهِ الْأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرَ الْفُرَاتِ. الْقَيْنِينَ وَالْقَنْزِينَ وَالْقُدْمُونِيِّينَ. وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفَرَزِيِّينَ وَالرَّفَائِيِّينَ. وَالْأَمُورِيِّينَ وَالْكَنَعَانِيِّينَ وَالْجَرْجَاشِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ}**17.

هكذا أصبح الجد **{أَبْرَامَ}** التوراتي وذريته أصحاب الأرض العربية، وسكانها عبيدا لهم. لهذا يجب صناعة تاريخ بطولي له ولذريته، رغم أن التوراة أخبرتنا أنه خرج مهاجرا من أرض مولده الى أرض كنعان التوراتية مصطحبا **{فَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ امْرَأَتَهُ، وَلُوطًا ابْنَ أَخِيهِ}**18.

لم يمكث أرام طويلا حتى **{انْحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَعَرَّبَ هُنَاكَ}**، لكنه خاف أن يقتل بسبب جمال زوجته، لذلك خاطبها: **{قَالَ لِسَارَايَ امْرَأَتِهِ: إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ امْرَأَةٌ حَسَنَةٌ الْمَنْظَرِ. فَيَكُونُ إِذَا رَأَى الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هَذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَبْقُونَكَ. فُولِي إِنَّكَ أُخْتِي، لِيَكُونَ}**

15 سفر التكوين 10(6).

16 سفر التكوين 10(10-27).

17 سفر التكوين 15(18-20).

18 سفر التكوين 12(5).

لِي خَيْرٍ بِسَبَبِكَ وَتَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكَ¹⁹. أي أن مدون التوراة لم يجد حرجا في أن يصفه بالجين والمتاجرة بجمال زوجته [سَارَائِ].

وبعد عودة الركب من مصر، دب خلاف بين رعيان كل من أبرام وابن أخيه لوط، فقررا الانفصال، فاستوطن أرام أرض كنعان، وارتحل لوط الى أرض سدوم في الشرق.

بعد ذلك تخبرنا التوراة في سفر التكوين عن حرب بين حلف ضم: {أَمْرَافَلِ مَلِكِ شِنْعَارَ، وَأَزْيُوكَ مَلِكِ الْأَسَارَ، وَكَدْرَلْعَوْمَرَ مَلِكِ عِيلَامَ، وَتِدْعَالَ مَلِكِ جُوبِيمَ}²⁰، وحلف آخر ضم {بَارَعَ مَلِكِ سُدُومَ، وَبِرَشَاعَ مَلِكِ عَمُورَةَ، وَشَنَابَ مَلِكِ أَدْمَةَ، وَشَمْنِيْبِرَ مَلِكِ صَبُؤِيْمَ، وَمَلِكِ بَالَعَ}، أسفرت عن هزيمة الحلف الثاني، {فَأَخَذُوا جَمِيعَ أَمْلَاقِ سُدُومَ وَعَمُورَةَ وَجَمِيعَ أَطْعَمَتِهِمْ} وكان من ضمن الأسرى {لُوطًا ابْنَ أُخِي أِبْرَامَ وَأَمْلَاكَهُ}.

ثم {فَأَتَى مَنْ نَجَا وَأَخْبَرَ أِبْرَامَ الْعِبْرَانِيَّ... فَلَمَّا سَمِعَ أِبْرَامَ، أَنَّ أَخَاهُ سُبِّيَ جَرَّ عِلْمَانَهُ الْمُتَمَرِّينَ، وَوَلَدَانَ بَيْتِهِ، ثَلَاثَ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَتَبِعَهُمْ إِلَى دَانَ. وَانْقَسَمَ عَلَيْهِمْ لَيْلًا هُوَ وَعَبِيدُهُ فَكَسَرَهُمْ وَتَبِعَهُمْ إِلَى حُوبَةَ الَّتِي عَنْ شِمَالِ دِمَشْقَ. وَاسْتَرْجَعَ كُلَّ الْأَمْلَاقِ، وَاسْتَرْجَعَ لُوطًا أَخَاهُ أَيْضًا وَأَمْلَاكَهُ، وَالنِّسَاءَ أَيْضًا وَالشَّعْبَ}.

هكذا جعلت التوراة أبرام يهزم أربعة ملوك، ويسترجع كل ما سلبوه، بل ويستولي على أملاكهم، كل ذلك بمفرده ومعاونة {وَلَدَانَ بَيْتِهِ، ثَلَاثَ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ}. السؤال: ماذا يعني مدون التوراة بعبارة {وَلَدَانَ بَيْتِهِ} والرجل لم ينجب أولادا حتى ذلك الوقت؟

رغم النصر الخرافي الذي صنعه الجد، إلا أن التوراة وصفت لنا كيف وقف يتوسل بخضوع لشعب {بَنِي حِثَّ} كي يعطوه أرضا صغيرة ليحفر قبرا لزوجته التي ماتت، ويستجديهم قائلاً: {أَنَا غَرِيبٌ وَتَزِيلٌ عِنْدَكُمْ. أَعْطُونِي مَلِكَ قَبْرِ مَعَكُمْ لِأَدْفِنَ مَيْتِي مِنْ أَمَامِي}، وعندما وافقوا، نجده {فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ وَسَجَدَ لِشَعْبِ الْأَرْضِ، لِبَنِي حِثَّ}²¹.

هكذا صنع مدون التوراة بطولية خرافية للجد الأعلى لبني إسرائيل، ليستحق وعد السماء.

¹⁹ سفر التكوين 12(10-13).

²⁰ سفر التكوين (14).

²¹ سفر التكوين 23(1-7).

لم تحفل التوراة كثيرا بسيرة الأب الثاني للقبيلة الإسرائيلية، ونقصد به إسحاق عليه السلام، فلم تولف له بطولات خارقة. إلا أنها لم تغفل عن رمية بالجبن والكذب، إذ خاف أن يقتله الفلسطينيون بسبب جمال زوجته، فادعى أنها أخته، كما في الفقرة: **{وَسَأَلَهُ أَهْلُ الْمَكَانِ عَنْ امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: هِيَ أُخْتِي. لِأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَقُولَ: امْرَأَتِي لَعَلَّ أَهْلَ الْمَكَانِ يَقْتُلُونِي مِنْ أَجْلِ رِفْقَةٍ، لِأَنَّهَا كَانَتْ حَسَنَةً الْمُنْظَرِ}**²²، ثم عادت التوراة لتخبرنا أن الرجل أصبح عظيما وغنيا جدا، يمتلك مواش من البقر والغنم والكثير من العبيد، فحسده الفلسطينيون واستولوا على آبار المياه التي كانت له، فطموها وملأوها ترابا: **{فَتَعَاظَمَ الرَّجُلُ وَكَانَ يَتَزَايِدُ فِي النَّعَاطِمِ حَتَّى صَارَ عَظِيمًا جِدًّا. فَكَانَ لَهُ مَوَاشٍ مِنَ الْغَنَمِ وَمَوَاشٍ مِنَ الْبَقَرِ وَعَبِيدٌ كَثِيرُونَ. فَحَسَدَهُ الْفِلِسْطِينِيُّونَ وَجَمِيعَ الْآبَارِ، الَّتِي حَفَرَهَا عِبِيدُ أَبِيهِ فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ أَبِيهِ، طَمَّهَا الْفِلِسْطِينِيُّونَ وَمَلَأُوهَا تَرَابًا}**²³.

أما فارس الفرسان وعظيم الزمان عند مدون التوراة، فكان الأب الفعلي للقبيلة الإسرائيلية، وبه تسمت، ونقصد به يعقوب عليه السلام. حدثتنا التوراة أن يعقوب تصارع مع رجل من أول الليل حتى طلوع الفجر، فغلبه يعقوب. ثم تبين له أنه كان يصارع الرب ذاته²⁴.

لكن في سفر التكوين نجد يعقوب الذي صارع الرب وصرعه، يسجد إلى الأرض سبع مرات خوفا من أخيه عيسو، **{وَرَفَعَ يَعْقُوبُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا عَيْسُو مُقْبِلٌ وَمَعَهُ أَرْبَعُ مِئَةِ رَجُلٍ..... وَأَمَّا هُوَ فَاجْتَازَ قُدَّامَهُمْ وَسَجَدَ إِلَى الْأَرْضِ سَبْعَ مَرَّاتٍ}**²⁵.

ثم تنقلنا التوراة إلى مشهد اغتصاب **{دِينَةُ ابْنَةُ يَعْقُوبَ}** على يد: **{شَكِيمُ ابْنُ حَمُورَ الْحَوِيِّ رَئِيسِ الْأَرْضِ، وَأَخَذَهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَأَذَلَّهَا}**²⁶، وهنا جاء دور صانع البطولة الخارقة: إذ أخذ كل من: **{مَنَّاَنُ ابْنُ يَعْقُوبَ، شِمْعُونُ وَلاوِيٌّ أَخَوَيْ دِينَةَ، أَخَذَا كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ وَأَتَيَا عَلَى الْمَدِينَةِ بِأَمْنٍ وَقَتَلَا كُلَّ ذَكَرٍ. وَقَتَلَا حَمُورَ وَشَكِيمَ ابْنَهُ بِحَدِّ السَّيْفِ، وَأَخَذَا دِينَةَ مِنْ بَيْتِ شَكِيمَ وَخَرَجَا. ثُمَّ أَتَى بَنُو يَعْقُوبَ عَلَى الْقَتْلَى وَنَهَبُوا الْمَدِينَةَ، لِأَنَّهُمْ نَجَسُوا أُخْتَهُمْ. غَنَمَهُمْ وَبَقَرَهُمْ**

²² سفر التكوين 26(7).

²³ سفر التكوين 26(13-25).

²⁴ سفر التكوين 32(22-29).

²⁵ سفر التكوين 33(1-3).

²⁶ سفر التكوين 34(2).

وَحَمِيرُهُمْ وَكُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ وَمَا فِي الْحَقْلِ أَخَذُوهُ. وَسَبَّوْا وَنَهَبُوا كُلَّ تَرَوَاتِهِمْ وَكُلَّ أَطْفَالِهِمْ،
وَنِسَاءَهُمْ وَكُلَّ مَا فِي الْبُيُوتِ}27.

اثنان فقط من أبناء يعقوب قتلا الملك وابنه وكل رجال المدينة، ونهبوا كل ما فيها من نساء وأطفال وماثية وثروة. لكن مدون التوراة غير رأيه فجأة وأخبرنا أن يعقوب غضب من صنيع ابنه، {فَقَالَ يَعْقُوبُ لِسَمْعُونَ وَلَاوِي: كَدَّرْتُمَانِي بِتَكْرِيهِكُمَا أَيَّامِي عِنْدَ سُكَّانِ الْأَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرْزِيِّينَ، وَأَنَا نَفَرٌ قَلِيلٌ. فَيَجْتَمِعُونَ عَلَيَّ وَيَضْرِبُونَنِي، فَأَبِيدُ أَنَا وَبَيْتِي}28.

فلماذا يخاف يعقوب وعنده عشرة أبناء رجال يستطيع كل اثنان منهم قتل رجال مدينة، ونهب النساء والأطفال والماثية والثروة؟

لن نستطيع سرد كامل البطولات الخرافية التي اخترعها مدون التوراة، وإصاقها برجال القبيلة الإسرائيلية، كخرافة قتل داوود عليه السلام جالوت ملك الفلسطينيين بمقلاع وحجر، ولا صولات وجولات الملك شاوول، أو قوة سليمان الجبارة التي لا تضاهيها خرافة أخرى، رغم أنه مدون التوراة أخبرنا أن سليمان صاهر فرعون مصر²⁹، كي يؤمن حدود مملكته لينفرغ لقتال الكنعانيين. إنما سنذكر بعض الأسلحة الفعالة التي اخترعتها التوراة، وزودت أبناء القبيلة بها منساس البقر الذري.

سلاح فتاك اخترعه مدون التوراة ليتسلح به أحد قضاة القبيلة وهو شَمْجَرُ بُنْ عَنَاءَ.

منساس البقر يعرفه كل فلاح في الدنيا، وهو عبارة عن عصى يصل طولها إلى متر أو أطول قليلا، أحد طرفيها مدبب يثبت عليه قطعة من الحديد لنخز البقر أثناء حراثة الأرض، إذا قصرت في عملها.

²⁷ سفر التكوين 34(25-29).

²⁸ سفر التكوين 34(34).

²⁹ سفر الملوك الأول 3(1).

بذلك المناساس إستطاع شَمْجَرُ بْنُ عَنَاءَ قَتَلَ 600 فلسطيني محارب، ويخلص شعب إسرائيل من تسلط الفلسطينيين عليه: {وَكَانَ بَعْدَهُ شَمْجَرُ بْنُ عَنَاءَ، فَضْرَبَ مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ سِتًّا مِئَةَ رَجُلٍ بِمِنْسَاسِ الْبَقْرِ. وَهُوَ أَيْضًا خَلَّصَ إِسْرَائِيلَ}30.

يظهر أن مدون التوراة نسي أنه أخبرنا أن الفلسطينيين تحكّموا بشكل قاس بأبناء القبيلة الإسرائيلية، ومنعّوهم من حمل أي سلاح مهما كان بدائيا أو بسيطا، لدرجة أنهم أجبروا كل إسرائيلي أن يأخذ الإذن إذا أراد حيازة فأس أو محراث أو منجل أو معول: {وَلَمْ يُوجَدِ صَانِعٌ فِي كُلِّ أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّ الْفِلِسْطِينِيِّينَ قَالُوا: لِنَلَّا يَعْمَلُ الْعِيزَانِيُّونَ سَيْفًا أَوْ رُمْحًا. بَلْ كَانَ يَنْزِلُ كُلُّ إِسْرَائِيلَ إِلَى الْفِلِسْطِينِيِّينَ لِيُحَدِّدَ كُلَّ وَاحِدٍ سِكِّتَهُ وَمِنْجَلَهُ وَقَاسَهُ وَمِعْوَلَهُ}31. منسّاس بيد شَمْجَرُ بْنُ عَنَاءَ، يقتل به (600) رجل.

فك الحمار النووي.

{وَلَمَّا جَاءَ إِلَى لَحْيَ، صَاحَ الْفِلِسْطِينِيُّونَ لِلِقَانِهِ. فَحَلَّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ، فَكَانَ الْحَبْلَانِ اللَّذَانِ عَلَى ذِرَاعَيْهِ كَكَتَّانِ أَحْرَقَ بِالنَّارِ، فَانْحَلَّ الْوِثَاقُ عَنْ يَدَيْهِ.

وَوَجَدَ لَحْيَ حِمَارٍ طَرِيًّا، فَمَدَّ يَدَهُ وَأَخَذَهُ وَضْرَبَ بِهِ أَلْفَ رَجُلٍ. فَقَالَ شَمْشُونُ: بِلَحْيِ حِمَارٍ كَوْمَةٌ كَوْمَتَيْنِ. بِلَحْيِ حِمَارٍ قَتَلْتُ أَلْفَ رَجُلٍ". رغم أن التوراة أخبرتنا أن الفلسطينيين كانوا مسلحين بالسيف والرمح، إلا أن شمشون قتل ألفا منهم بفك حمار فقط، وكانهم فراش أو أقل شأنًا.

سلاح ابن آوى الناري.

القضاة 15(4-5): " وَذَهَبَ شَمْشُونُ وَأَمْسَكَ ثَلَاثَ مِئَةِ ابْنِ آوَى، وَأَخَذَ مَشَاعِلَ وَجَعَلَ ذَنْبًا إِلَى ذَنْبٍ، وَوَضَعَ مَشْعَلًا بَيْنَ كُلِّ ذَنْبَيْنِ فِي الْوَسْطِ. ثُمَّ أَضْرَمَ الْمَشَاعِلَ نَارًا وَأَطْلَقَهَا بَيْنَ رُوعِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، فَأَحْرَقَ الْأَكْدَاسَ وَالزَّرْعَ وَكُرُومَ الزَّيْتُونِ}32.

30 سفر القضاة 3(31).

31 سفر صموئيل الأول 13(19-20).

32 سفر القضاة 15(14-16).

أخبرتنا التوراة في سفر صموئيل الثاني 23 أن أحد ضباط الملك داوود واسمه "يوشيب بشبث التحكوني" وقد هزّ رمحه فقتل (800) شخص من الفلسطينيين دفعة واحدة. لكن التوراة عادت وسردت القصة مرة أخرى في سفر الأيام الأول 11(11)، وأصبح إسم الضابط "يشبعام بن حكوني"، وعدد القتلى (300) شخص دفعة واحدة. في الحقيقة نحن لا نعلم هل هي قصة واحدة لكن مدون التوراة أخطأ في إسم الضابط وعدد القتلى، أم نحن أمام فلم هندي توراتي بنسختين مختلفتين؟

يا له من إله توراتي يهوى الأفلام الهندية وأفلام الخيال العلمي. وهل يمكن تخيل أن يهز إنسان رمحه فيقتل (300) أو (800) شخصاً؟ أعتقد أن هذا مستحيل إلا إذا كان الرمح عقنودي من نوع توراتي خرافي.

لكن هل كان أبناء القبيلة الإسرائيلية بتلك الشجاعة كي تصنع التوراة لهم تاريخاً بطولياً خارقاً؟ ألم تخبرنا التوراة أن القبيلة الإسرائيلية سامها فرعون صنوف العذاب واليهوان، وصدق القرآن على ذلك كما في الآية: { وَإِذْ نَجَّيْنَاهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۗ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ }³³، ألم يفضل رجال القبيلة العودة إلى مصر والبقاء عبيدا لفرعون وقومه على المضي مع موسى عليه السلام والقتال، كما في الفقرات: { وَقَالُوا لِمَوْسَىٰ: هَلْ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَسْتَفْهَرُوا فِي مِصْرَ أَخَذْتَنَا لِنَمُوتَ فِي الْبَرِّيَّةِ؟ مَاذَا صَنَعْتَ بِنَا حَتَّىٰ أَخْرَجْتَنَا مِنْ مِصْرَ؟ أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي كَلَّمْنَاكَ بِهِ فِي مِصْرَ قَائِلِينَ: كُفَّ عَنَّا فَنُخْذِمِ الْمِصْرِيِّينَ؟ لِأَنَّهُ خَيْرٌ لَّنَا أَنْ نَخْذِمَ الْمِصْرِيِّينَ مِنْ أَنْ نَمُوتَ فِي الْبَرِّيَّةِ }³⁴، ألم تشهد التوراة على رفض بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة بحجة أن فيها قوما جبارين، وعندما كرر موسى طلبه بدخولها رفضوا، وأيد القرآن ذلك كما في الآيات: { يُقِيمُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خُسِرِينَ. قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ. قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانكَبُوا عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا

³³ سورة البقرة الآية 49.

³⁴ سفر الخروج 14(11-12).

يُمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَتَلَا إِنَّا هَهُنَا فَعِدُونَ} 35. لقد رفض بنو إسرائيل كلهم طلب موسى، مما اضطره إلى مناجاة ربه قائلا: {قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} 36. ألم يخبرنا القرآن أنهم: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ} 37.

لكن يبقى السؤال: لماذا صنعت التوراة تلك الأعمال البطولية الخرافية؟

أجمعت كتب التاريخ مستندة إلى السرد التوراتي، أن موسى عليه السلام أحصى شعب إسرائيل في أيام التيه الأولى، فكان عدد الرجال القادرين على حمل السلاح من سن عشرين فما فوق (603550) رجلا، عدا النساء والشيوخ والأطفال: {فَكَانَ جَمِيعَ الْمُعْدُودِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَسَبَ بِيُوتِ آبَائِهِمْ مِنْ ابْنِ عَشْرِينَ سَنَةً فُصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ فِي إِسْرَائِيلَ. كَانَ جَمِيعَ الْمُعْدُودِينَ سِتِّ مِئَةِ أَلْفٍ وَثَلَاثَةَ آلَافٍ وَخَمْسَ مِئَةِ وَخَمْسِينَ} 38.

إذا أضفنا عدد النساء والأطفال وكبار السن، يصبح عدد القبيلة الإسرائيلية على أقل تقدير (2.5) إنسان.

التوراة ذاتها، والمنطق، وتاريخ مسيرة القبيلة الإسرائيلية، وعلم الإحصاء، كل ذلك ينسف خرافة تلك العدد، لجملة أسباب منها:

أولاً: جاء في التوراة بان عدد ذكور أفراد القبيلة الإسرائيلية، عند دخولهم مصر كان (70) شخصاً: {جَمِيعُ نَفُوسِ بَيْتِ يَعْقُوبَ الَّتِي جَاءَتْ إِلَى مِصْرَ سَبْعُونَ} 39. فإذا أخرجنا يعقوب عليه السلام من العدد كونه لم ينجب في مصر، يصبح العدد (69) رجلا.

³⁵ سورة المائدة الآيتين 21-24.

³⁶ سورة المائدة الآية 25.

³⁷ سورة الحشر الآية 14.

³⁸ سفر العدد 1(45-46).

³⁹ سفر التكوين 46(27).

ثانيا: نسب موسى عليه السلام كما في التوراة هو: " هو موسى بن عمرا (عمران) بن فاهت بن لاوي بن يعقوب. وبما أننا نعلم من التوراة إن يعقوب وجميع أبنائه ولدوا قبل الذهاب إلى مصر، نستنتج أن أربعة أجيال فقط ولدت قبل الخروج من مصر.

ثالثا: هناك عدة نظريات تاريخية حول مدة بقاء بني إسرائيل في مصر. إذ تتراوح الأقوال بين 230 إلى 400 سنة، لكن وحسب التوراة، فإن التواجد في مصر بدأ مع الأسرة (16) المصرية، وانتهى أثناء حكم الأسرة (17)، فإن المكوث الإسرائيلي دام أقل من 200 سنة.

رابعا: هناك عدة نظريات عن التكاثر السكاني، أشهرها نظرية "توماس مالتوس"

التي تنص أن السكان يتزايدون كل (25) سنة بنسبة متوالية هندسية (1، 2، 4، 8، 16،)، إذا لم يعيق تزايدهم أي عائق خارجي، مثل الكوارث والحروب. وإذا طبقنا النظرية على تكاثر القبيلة الإسرائيلية، فإن عددها لن يتجاوز بأي حال من الأحوال (6) آلاف إنسان.

خامسا: تقر التوراة أن المصريين ساموا بني إسرائيل سوء العذاب، يقتلون أبناءهم، وهذا ما صدقه القرآن. وتقتيل الأبناء الذكور يحد من تكاثر البشر.

سادسا: جاء في سفر الخروج 1(15)، وجود قابلتين تشرفان على مواليد الأطفال في القبيلة الإسرائيلية، وهما {شِفْرَةُ وَفُوعَةٌ}، والنص: {وَكَلَّمَ مَلِكُ مِصْرَ قَابِلَتِي الْعِبرَانِيَّاتِ اللَّتَيْنِ اسْمُ إِحْدَاهُمَا شِفْرَةُ وَاسْمُ الْأُخْرَى فُوعَةٌ}. هل يعقل وجود قابلتين فقط في شعب تعداده يزيد على (2.5) مليون نسمة؟

سابعا: جاء في سفر الخروج 18(13-16) أن موسى عليه السلام، وقف خطيبا في جميع الشعب الإسرائيلي، يشرح لهم الشريعة ويقضي بين الخصوم. ويستحيل أن يقف رجل يخطب أمام شعب تعداده بالملايين، فيسمعهم ما يريد قوله، ويكون هو القاضي الوحيد.

ثامنا: ذكرت التوراة أكثر من (35) رواية، أن القبائل الصحراوية، وسكان المدن والقرى التي كان يمر بجانبها الشعب الإسرائيلي، كانوا يطاردونهم، ويمنعونهم من الاقتراب من أراضيهم. فكيف يفر شعب عدد مقاتليه يزيد على (600) ألف محارب من أمام قبائل صحراوية، وسكان مدن وقرى محدودة السكان؟

تاسعا: اختار بنو إسرائيل الشعب الفرار من فرعون وجنوده تحت جناح الليل، كما أخبرتنا التوراة، وأيد ذلك القرآن **{فَأَسْرِبْ بَعِيدِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ}**⁴⁰. فلماذا يفر شعب يملك جيشا بذلك العدد ليلا؟

عاشرا: نعلم من التوراة ومن القرآن، أن القبيلة الإسرائيلية كانت أقلية بالنسبة لتعداد المصريين، **{فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ}**⁴¹. فإذا كانت الشرذمة (2.5) مليون نسمة، فكم كان عدد المصريين؟ أول تقدير لتعداد سكان مصر كان في عام 1846، وقدر بحوالي 2.5 إنسان حسب الوثائق البريطانية، إذ كانت بريطانيا تعد عدتها للتعامل مع الشرق تمهيدا لزرع الكيان الصهيوني في قلبه.

السؤال: عندما يفر شعب عدد جنوده يفوق (600) ألف مقاتل، ترى كم كان عدد جنود فرعون المطاردين لهم؟ علما بأن أكبر جيش جمعه أي ملك مصري، كان زمن "بسماتيك الثالث" عام (525) ق.م لحرب الفرس، أي بعد خروج بني إسرائيل بنحو (900) عاما، وبلغ تعدادهم (55) محارب حسب النقوش المصرية.

بقيت نقطة مهمة وحاسمة.

اعتادت الأمم منذ قديم الزمان حتى حاضرننا، استعمال الأرقام وحرف لغاتها عند العد والترقيم. فنحن نقول على سبيل المثال: المادة الأولى، أو المادة 1، أو المادة ألف، وهكذا.

عندما كتبت التوراة بعد عودة اليهود العودة السبي البابلي، كتبوها باللغة العربية السبئية، أو اللهجة الصنعانية التي اعتاد الناطقون بها استعمال الحرف (أ) كرقم يدل على العدد واحد. ولا زالت التوراة المكتوبة بالعبرية القديمة يطلق عليها التوراة الصنعانية. وفي التوراة الأورشليمية والسامرية الصنعانية كتب عدد من رافق موسى: (600 أ)، أي 600 واحد أو فرد حامل سلاح، و(3550 أ)، أي (3550) فرد أو واحد من الشيوخ والنساء والأطفال. وعندما تم ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية كتب عدد حاملي السلاح إلى 600 ألف مقاتل، وباقي عدد الشعب 3550 ألف إنسان. وهنا أصبح الرقم خيالي أي (4150000). وعندما قام الحبر اليهودي حنين بن

⁴⁰ سورة الدخان الآية 23.

⁴¹ سورة الشعراء الآيتين 54.55.

إسحاق بمراجعة وتدقيق الترجمة السبعينية اليونانية إلى اللاتينية⁴²، وجد أن تلك الأرقام خيالية، فجمع العددين لتصبح تعداد بني إسرائيل زمن موسى (603550)، ثم أخفى الترجمة الأولى.

⁴² ، كما في المرجع

لكل شعب أرضه إلا اليهودي

قامت الدعوة البروتستانتية على قاعدة الإصلاح الديني، كمدخل للخلاص من حلف النبلاء والكنيسة الكاثوليكية. ذلك الحلف الذي تحكم بحياة الناس وجعلهم عبيدا لسلطة الإقطاع المتمثل بالنبلاء، والكنيسة التي استغلت فقرة في الإنجيل أعطت رأسها وحجم الخطيئة. فظهرت فكرة صكوك الغفران التي زادت من مديونية الأفراد، وتبعيتهم للحلف الإقطاعي الكنسي.

فكرة البروتستانتية بحد ذاتها يهودية المنبع، هدفها التخلص من احتكار الحلف الإقطاعي الكنسي لسلطة المال. فاليهود الذين جمَّ "البابا" سلطة مغفرة ذنوب أتباعها وإدخالهم الفردوس، مقابل مبلغا من المال يتناسب مع ثروتهم من احتكار البيوت المالية القائمة على الإقراض الربوي، والإشراف المباشر على بيوت الدعارة المنتشرة في كل أنحاء أوروبا، شعروا بأن الكنيسة أخذت بالاستحواذ على ذهب طالبي الغفران. ولتحقيق هدم سلطتها والتخلص من احتكارها لقوة المال، نشر اليهود فكرة التمرد عليها. وعندما بدأ القس الألماني "مارتن لوثر" 43 "تمرده على الكنيسة، تبنى اليهود دعوته ونشروها في أوروبا، وشجعوا شعوبها على نصرتها.

"مارتن لوثر" لم يطرح تصورا للتعامل مع اليهود في أوروبا في بداية دعوته، بل لم تخطر على باله. ومع انتشار دعوته، واتضح مدى سيطرة المال اليهودي، بدأ تفكيره يأخذ منحى آخر، يقوم على عودتهم إلى أرض التي جاؤوا منها.

وقامت الدعوة على قاعدة أنهم أهل المسيح، والأولى بتجهيز المسرح لعودته الثانية، تمهيدا لحكم العالم. وبما أن الموروث المسيحي ينص على أن بداية المسيحية انطلقت من فلسطين، باتت هي الأنسب لتكون عودتهم إليها.

ومع منتصف القرن الثامن عشر ميلادي، أصبحت تلك الفكرة حديث أوروبا من أعلى الهرم السياسي، حتى أوكار العشوائيات التي يقطنها الفقراء والمشردين.

وعندما أسفرت الثورة الصناعية⁴⁴ في أوروبا عن تراكم المنتجات، التي فاقت طاقة استهلاك الناس، أصبح البحث عن مستهلكين أمرا ذا أهمية عند أصحاب المصانع، مصحوبا بهاجس البحث عن المصادر الطبيعية الكفيلة بامتداد المصانع بما تحتاجه للمحافظة على دورة المكاين المنتجة. لكن أهم إنجازات الثورة الصناعية تمثلت بسيطرة أباطرتها على مركز القرار السياسي،

⁴³ مارتن لوثر راهب ألماني وقسيس وأستاذ للاهوت ومُطلق عصر الإصلاح في أوروبا، بعد اعتراضه على صكوك الغفران.

⁴⁴ الثورة الصناعية هي انتشار وإحلال المكننة محل العمل اليدوي.

أما بالصعود إلى سدة الحكم، أو بدعم من بيده صنع القرار، فأصبحت السياسة والاقتصاد جسماً واحداً.

كان الشرق وما زال، قبلة المستشرقين والباحثين والمهتمين بالتاريخ والآثار، وكانت أبحاثهم محل اهتمام صنّاع القرار في الغرب.

وعندما بدأ التفكير في البحث عن أسواق جديدة لتصريف الإنتاج، وثروات طبيعة لرفد عجلة، انتبه صاحب القرار إلى أهمية الشرق كسوق بكر متعطش لكل ما هو جديد، ومورد للمواد الخام والثروات الطبيعية، وأصبح المستشرقون وأبحاثهم وكتبهم محل اهتمام. وفي ذلك الإطار حيث اختلط البحث عن أسواق وموارد طبيعية، كانت مسألة عودة اليهود تتداخل معها سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، لأن القفز نحو الشرق يتطلب نقطة ارتكاز تكون بمثابة خط الدفاع الأول لحماية مصالح أوروبا، لأن الأخيرة لا تستطيع القيام بفعل مباشر في وجود الدولة العثمانية⁴⁵ القوية. وهنا برزت أهمية الشعب اليهودي، وأصبحت مسألة عودته إلى الشرق كحامي للمصالح الأوروبية، أهم من إقامة دولة تنتظر عودة المسيح.

تشكل المجتمع اليهودي في أوروبا من طبقتين، الأولى فاحشة الثراء، والثانية تعيش في فقر شديد، شكلت عبأ على الأغنياء. ولهذا السبب تبنى الأغنياء فكرة عودة الشعب اليهودي إلى أرض الميعاد⁴⁶، للتخلص من الطبقة الفقيرة، لذلك استغلت سيطرتها على وسائل الإعلام، وقاعات الدراسة في الجامعات، لنشر كل ما يدعم فكرة العودة. وهكذا، وعلى سبيل المثال، أصبحت أشعار اللورد البريطاني "بارون"⁴⁷ التي أطلق عليها "الأغاني العبرية" تتردد على كل لسان من أعلى الهرم السياسي حتى عشوائيات فرانكفورت وباريس، والكل يردد:

لليمامة عشها، وللتغلب كهفه، ولكل شعب أرضه إلا اليهودي، فليس عنده إلا قبره.

إلا أن دخول الورقة اليهودية لم يكن بالأمر السهل، لأن وجود الدولة العثمانية القوية، وتمتع رعاياها من اليهود بالمعاملة الحسنة، كان حجر عثرة في إقناع يهود الشرق بإنشاء وطن واحد يجمع تشنتهم في المشرق. لذلك تبنت بريطانيا تلك الورقة، كي تكون الدولة اليهودية القادمة صمام الأمان، وخط دفاع عن مصالحها في الهند خاصة، والمشرق عامة. ولعل ما كتبه الزعيم الصهيوني "ناحوم سوكولوف (بالإنجليزية: Nahum Sokolow) (1859-1936)،

⁴⁵ هي دولة إسلامية أسسها عثمان الأول بن أرطغرل، واستمرت قائمة لأكثر من 600 سنة، وبالتحديد من 27 يوليو 1299م حتى 29 أكتوبر 1923م.

⁴⁶ هي الأرض التي يربعاها الإله، ثم هي الأرض المختارة، وصهيون التي يسكنها الرب، والأرض المقدسة التي تفوق في قدسيتها أي أرض أخرى لارتباطها بالشعب المختار.

⁴⁷ البارون لقب نبيل أرستقراطي في الأنظمة الملكية الإقطاعية.

بالعبرية: (נחום סוקולוב) 48" في مذكراته يفسر لنا ذلك، فقد كتب: "إنني سألت نفسي كثيراً عن أسباب تأييد إنجلترا لحركتنا، وتوصلت إلى أربعة أسباب أرتبها كالتالي:

- 1- الطابع الإنجيلي للشعب الإنجليزي.
- 2- تأثير الإنجيل في الأدب الإنجليزي.
- 3- محبة فلسطين عند الإنجليز.
- 4- السياسة الإنجليزية في الشرق الأدنى طوال القرن التاسع عشر.

ومن البدهي أن الأسباب الثلاثة الأولى تنتمي إلى عالم التأليف والإنشاء، أما السبب الرابع فهو وحده الذي ينتمي إلى عالم الحقائق والمصالح.

تقول الوثائق البريطانية أن الساسة بدء من رئيس الوزراء " لورد بالمرستون "49 درسوا تاريخ الحروب الصليبية⁵⁰، وأسباب فشلها وعودة الجيوش الأوروبية مهزومة، يعود إلى التواصل الجغرافي بين مصر وسوريا، إضافة إلى العوامل الأخرى. لذلك، وللمحافظة على المصالح البريطانية في الشرق، يجب خلق حاجز بينهما، وليس هناك من يقوم بهذه المهمة سوى اليهود. وهذا أهم سبب لتبني بريطانيا للورقة اليهودية، ودعم قيام دولة الكيان الصهيوني.

استغلت الكنيسة فقرة جاءت على لسان المسيح عليه السلام، أعطت التلاميذ سلطة مغفرة ذنوب المؤمنين به، {مَنْ غفرتم خطاياهم تغفر له}. وبما أن رأس الكنيسة هو ممثل المسيح، فقد منح نفسه سلطة مغفرة ذنوب المؤمنين بالإنجيل. الغريب أن هذه الفقرة لا وجود لها في أقدم المخططات التي تعود إلى القرن الرابع الميلادي، وأول وجود لها، عبارة عن شرح على هامش مخطوطة تعود إلى القرن الثامن، ثم أضيفت كنص على لسان المسيح، وأصبحت جزءاً من الوحي الإنجيلي.

48 كان صحفياً وكاتباً يهودياً بولندياً، من زعماء الحركة الصهيونية والمؤرخ الرسمي لها.

49 سياسي بريطاني (20 أكتوبر 1784-18 أكتوبر 1865). بدأ حياته كمصمم أزياء ورجل فكا في مقاهي لندن ثم تمكن لاحقاً من تولي منصب وزير الخارجية البريطاني في ثلاث مناسبات وخدم مرتين كرئيس وزراء كان له شأن كبير في توسيع دائرة بريطانيا الدبلوماسية الخارجية.

50 الحروب الصليبية هي حروب دينية شنتها أوروبا على العالم الإسلامي، من أجل السيطرة على الأماكن المقدسة في بلاد الشام، ولطرد المسلمين من الأندلس

معضلة عدم تطابق السرد التوراتي مع تاريخ المنطقة

إذا كان القرن السابع عشر قد شهد مولد فكرة عودة الشعب اليهودي إلى أرض الميعاد، فإن القرن الثامن عشر شهد بدايات شبابها، بينما بلغت عز فتوتها في القرن التاسع عشر، بحيث أصبحت السياسة مزيجاً من الأطماع التوسعية العسكرية، والمصالح الاقتصادية، والأحلام المالية، والأمال الاستيطانية العنصرية، والخرافات اللاهوتية، يضيف عليها الأدب والشعر مسحة إنسانية كي لا تظهر على حقيقتها وتوحشها. وهكذا أصبح موضوع توطيد اليهود في فلسطين، وإقامة وطن قومي لهم فيها، محور التفكير الأوروبي على كافة المستويات، حتى عام 1840 عندما احتكرت بريطانيا بشكل رسمي الورقة اليهودية، كما جاء في مذكرات أصبحت "صهر رئيس الوزراء البريطاني "بالمرستون" وأحد أقرب مستشاريه، والأب الروحي للحركة الصهيونية في بريطانيا.

إلا أن مشكلة عدم تطابق السرد التوراتي مع تاريخ المنطقة الممتدة بين الفرات والنيل وخرافتها بشكل عام، وفلسطين بشكل خاص، أرقّت القائمين على نشر فكرة العودة، مما استدعى إلى القيام بأكبر عملية تزوير في التاريخ، طالت جغرافية فلسطين، كي تتطابق مع أحداث التوراة.

وصف جزيرة العرب.

يعتبر كتاب "وصف جزيرة العرب" الذي ألفه في القرن الرابع الهجري؛ الرحالة والجغرافي "الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني" الملقب ابن الحائك، أهم مصادر معرفة تاريخ جزيرة العرب بصفة عامة، وتاريخ اليمن بشكل خاص. ويحتوي الكتاب وصفاً دقيقاً لكل الأنشطة الزراعية، والتجارية، وأسماء القبائل وحركة تنقلاتها، ومسار هجراتها، وأحوالها، وأماكن تجمعها. كما يروي صفة اليمن الأخضر، وأسماء المدن، والقرى، والجبال، والوديان، والسهول، والأنهار، والجداول، والجزر البحرية التابعة لليمن. كما شمل الكتاب شرحاً للأحداث التاريخية من حيث أسماء الملوك، وحروبهم، وأماكنها وما نتج عنها. كذلك شمل الكتاب شرحاً لآحول مدن اليمن كصنعاء، ومخاليف⁵¹ صعدة*، ونجران، وحران، وتهامة، وسبأ، وحمير، ومصرع معين، ومنازل أباد، وحاشد. ولم ينس الهمداني ذكر أصنام وآلهة القبائل اليمنية، وكل ذلك يتطابق مع ما ذكره "الكلبي" في كتابه "الأصنام".

الغريب أن الباحثين العرب أهملوا كتاب الهمداني، ما خلا قلة من العباقرة أمثال: عبد الوهاب المسيري وكمال صليبي

وفيليب حتى، وجواد علي، جمال حمدان.

⁵¹ مخاليف، مفردتها مخلاف، ويعني حاضرة أو محافظة بلغة العصر.

وكي لا تنتهم بالانحياز للهمداني، لن استشهد بما ذكره الذهبي، وابن حجر، وابن كثير، وإنما استشهد بما كتبه العلامة "أغناطيوس كراتشكوفسكي" صاحب كتاب "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"⁵²: "لم يكن الهمداني جغرافياً فحسب بل خبيراً كبيراً بأنسب العرب، وتاريخ الجزيرة العربية خاصة أثارها القديمة" (Archaeology)، وهو أمر نادر بين العرب. ومما يدع إلى الدهشة حقاً أنه استطاع فك رموز الكتابة العربية القديمة في جنوب الجزيرة".

وكعادة بعض الغربيين المنحازين للنص التوراتي، فقد شككوا في معرفة الهمداني بلغة حمير القديمة، لكن قراءة النصوص الكثيرة التي أوردها في كتابه "الإكليل"⁵³، حيث وضع رسماً لصور الحروف الأبجدية بالمسند الحميري مع ما يقابلها بالعربية، تدل على معرفته التامة بها. ويشهد له ما جاء في سرديات المتحف البريطاني، خاصة ما حوته الورقة رقم 49. ولمن يريد التوسع في معرفة الهمداني بلغة حمير القديمة، يحسن به الرجوع إلى ما كتبه د. جواد علي في كتابه "المفصل في تاريخ العرب"¹(99-90).

كان لا بد من هذه المقدمة عن الهمداني وكتابه كي نقول بكل ثقة: من يقرأ كتاب تاريخ وصف جزيرة العرب، خاصة ما يتعلق بالقسم الجنوبي-اليمن- سيصاب بالدهشة من تطابق أسماء شعوبها-قبائلها- التي استوطنته، ومسار هجراتها، وأسماء ملوكها وأصنامها وألتهها، ومدنها وقراها، والحروب التي خاضتها، وأماكن حدوثها، وأسماء الوديان والجبال والأنهار، مع سرديات وأحداث التوراة بنسبة مئة بالمئة. والأهم التطابق التام بين اللغتين الحميرية القديمة والعبرية، فكلماتهما تكتب بالحرف المربع، وتتكون من 22 حرفاً. وهذا الأمر قاد عشرات من المختصين اليهود سواء المؤرخون أو الأثاريين إلى القطع بأن مرويات التوراة وأحداثها حدثت في اليمن، ولا علاقة للعراق وبلاد الشام ومصر الحالية بها.

⁵² كتاب تاريخ الأدب الجغرافي العربي صفحة 170 ل أغناطيوس كراتشكوفسكي.

⁵³ كتاب الهمداني.

التوراة؛ كمرجعية دينية، ومستند تاريخي، ودليل جغرافي؟

يعاب علينا الطعن في مصداقية الكتاب المقدس، استنادا الى آيات من القرآن، تشير إلى أن التوراة كتاب منزل من السماء على موسى عليه السلام، أمرنا بأن نؤمن بها، كما في قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}** 54 وقوله تعالى: **{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}** 55، وهذا قول حق أريد به باطل، لأن إيماننا منحصر في التوراة كما أنزلت على موسى عليه السلام، وليس في التوراة التي بين أيدينا. ولو أخذنا الأسفار الخمسة الأولى: التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، التثنية، والتي يؤمن اليهود على أنها توراة موسى، سنجد استحالة نسبتها إلى الله ككتاب منزل من عنده، وذلك لعدة أسباب، أهمها:

1- تقر التوراة أن موسى عليه السلام أستلم من ربه لوحين فقط، كُتب عليهما: الشريعة والوصايا كما جاء في التوراة، **{وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «اصْعَدْ إِلَيَّ إِلَى الْجَبَلِ، وَكُنْ هُنَاكَ، فَأَعْطِيكَ لُوحِي الْحِجَارَةَ وَالشَّرِيعَةَ وَالْوَصِيَّةَ الَّتِي كَتَبْتُهَا لِتُعَلِّمَهُمْ}** 56، **{ثُمَّ أَعْطَى مُوسَى عِنْدَ فَرَاغِهِ مِنَ الْكَلَامِ مَعَهُ فِي جَبَلِ سَيْنَاءَ لُوحِي الشَّهَادَةِ: لُوحِي حَجَرٍ مَكْتُوبَيْنِ بِإِصْبَعِ اللَّهِ}** 57.

نفهم من الفقرتين أن ما أنزل على موسى عليه السلام من شريعة ووصايا، كتبت على لوحين من الحجارة، استطاع حملهما بيده بشهادة التوراة، **{فَانصَرَفَ مُوسَى وَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ وَلُوحًا الشَّهَادَةِ فِي يَدِهِ}** 58.

ولو أردنا تفريغ كل فقرات الأسفار الخمسة كما هي في التوراة التي بين أيدينا، سنحتاج إلى ما يزيد على 30 ألف لوح حجري، وخمسين جملا لحملها. وقد أيد القرآن ذلك بدون التطرق إلى عدد الألواح، كما جاء في الآية: **{وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ}** 59، ثم كررها

54 سورة البقرة الآية 4.

55 سورة البقرة الآية 285.

56 سفر الخروج 24(12).

57 سفر الخروج 31(18).

58 سفر الخروج 32(15).

59 سورة الأعراف الآية (150).

فقال: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾⁶⁰، وقد أوردت التوراة قصة اللقاء موسى عليه السلام للوحي الوصايا، ﴿ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: انْحَتِّ لَكَ لَوْحَيْنِ مِنْ حَجَرٍ مِثْلِ الْأَوَّلَيْنِ، فَأَكْتُبَ أَنَا عَلَى اللَّوْحَيْنِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى اللَّوْحَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ الَّذِينَ كَسَرْتَهُمَا﴾⁶¹.

1- الزمن التقريبي لنزول التوراة محل خلاف بين اليهود أنفسهم. فمنهم من يعيده إلى القرن (15) ق.م، في حين يعيده آخرون إلى القرن (11) ق.م. أما الربانيون اليهود فقالوا: ما بين (1271-1391) ق.م. ومهما كان زمن نزول التوراة، فقد أتلفت عدة مرات، ثم أعيد كتابتها. وأقدم مخطوطة تعود الى القرن الرابع ق.م، وتحوي عدة فقرات، في حين أن أهم مخطوطة متكاملة تعود الى منتصف القرن السابع الميلادي. أي أن بين موسى وأقدم مخطوطة ألف عام، وبينه بين اهم مخطوطة ألفي عام، وهذا وحده كاف لإسقاط شرعيتها الموسوية.

2- جميع فقرات السرد التوراتي التاريخي، جاءت بصيغة الفعل الماضي، مما يؤكد أن مدون التوراة كان يتحدث عن وقائع وأحداث حصلت كلها، ويفصله عنها مئات السنين.

3- يوجد في التوراة مئات الأحداث المكررة بشكل ممل ومتناقض. فمثلا قصة تنصيب داوود عليه السلام جاءت في سفر الأيام الأولى، ثم تكررت في سفر الملوك الأول. كذلك وصف ممل ومكرر لتابوت العهد وخيمة الاجتماع، ولباس الكهنة، ونوع البخور المستعمل، والأخشاب ومن أين أحضروها، مما ينفي علاقة ذلك بالسماء.

4- حرص مدون التوراة على سرد الأحداث بشكل تاريخي متسلسل، مع وصف جغرافية الأحداث مفصلة، وكأنما أنزل الله كتابا تاريخيا، ودليلا جغرافيا.

5- يوجد في التوراة فقرات تهدم ادعاء نزولها من السماء. فمثلا نقرأ: ﴿فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. وَدَفَنَهُ فِي الْجَوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَعُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ. وَكَانَ مُوسَى ابْنَ مِئَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَاتَ، وَلَمْ تَكَلَّ عَيْنُهُ وَلَا ذَهَبَتْ نَصَارَتُهُ﴾⁶²، فهل أنزل الله على موسى عليه السلام في التوراة أنه مات في موآب ودفن فيها عن عمر يناهز 120 سنة؟ والأغرب النص التالي: ﴿وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي

⁶⁰ سورة الأعراف الآية 154.

⁶¹ سفر الخروج 34(1).

⁶² سفر التثنية 34(6-7).

إِسْرَائِيلَ مِثْلَ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لَوَجْهِهِ⁶³. هل هذا كلام الله؟ ثم جملة: ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم، تؤكد الفاصل الزمني بين وقتي التنزيل وإعادة التدوين.

القرآن الكريم أشار إلى عدة تحريفات لما أمروا به، فهناك تحريف حصل وقت التنزيل كما يفهم من الآية: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ⁶⁴ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ. فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ⁶⁴﴾. وتحريف آخر حدث بعد التنزيل بزمن، كما جاء في الآية: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ⁶⁵ بِحَرْفٍ مِّنَ الْكَلِمِ مِّنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ⁶⁵﴾، وتحريف ثالث بعد زمن أطول، كما في الآية: ﴿فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ⁶⁶﴾.

الكتاب المقدس بشكله الحالي، لا يصلح بأي شكل من الأشكال مرجعاً دينياً، أو مصدرراً من مصادر التاريخ الديني، فزمن تدوينه الحقيقي مجهول، ومن قام بالتدوين أيضاً مجهول، وهذا إجماع بين علماء النقد النصي⁶⁷، والنقد النصي الأعلى⁶⁸، ويؤيد المؤرخون المتحررون من التعسف اللاهوتي هذا الرأي، ولعل ما كتبه البروفيسور " نورمان كانتور " الذي يعد أكبر كتاب التاريخ اليهودي بالحرف الواحد: " من المفارقات التي تستحق التأمل، أن كل ما قيل عن الوعد المقدس بفلسطين لليهود، لم يثبت عملياً "، ثم انتهى قائلاً: " ذلك الوعد، شيء ينتمي إلى عالم الأدب أكثر مما ينتمي إلى عالم الدين ".

أما الأستاذ الدكتور روبرت ألتر، أستاذ الديانة اليهودية في جامعة بيركلي/ كاليفورنيا، فيعد أن أمضى سنوات في تدقيق الحوادث التاريخية المستندة إلى الرواية التوراتية، خلص إلى الرأي

63

64 سورة المائدة الآيتين 58-59.

65 سورة المائدة الآية (41).

66 سورة البقرة الآية (75).

67 النقد النصي أو النقد السفلي هو فرع من الفيلولوجيا أو الببليوجرافيا يهتم بالتعرف على أخطاء نصوص المخطوطات وإزالتها.

68 النقد النصي الأعلى هو: دراسة كل ما يخص مؤلف الكتاب. من الذي كتب؟ متى كتب؟ لماذا كتب؟

التالي الذي تصدر بحثه: "إن التوراة المتداولة الآن، يجب قراءتها بعيون الأدب وليس بعيون التاريخ".

فإذا كان هذا رأي كبار المختصين، فكيف نطالب بأن نؤمن بالتوراة ككتاب سماوي معصوم؟

كتاب يدعي أصحابه عصمته، له 5525 مخطوطة أقدمها يعود إلى القرن الرابع الميلادي، والأهم لا يوجد بين تلك المخطوطات، مخطوطتين متشابهتين، لا يمكن أن يكون كتابا سماويا، ولا يصلح كمرجع ديني، ومستند تاريخي، ودليل جغرافي.

صورة الله في التوراة

يؤمن أتباع الكتاب المقدس بعصمة كتابهم، وخلوه من كل أنواع التزوير، والتبديل والتحريف، والزيادة والنقصان، وينسبون كل ما فيه إلى الرب. فالأسفار الخمسة الأولى كتبها بيده، والبقية كتبها الأنبياء في ظل الإشراف السماوي المباشر، مما يعصمه عن التزوير، ويتفق معهم بهذا أتباع الأنجيل.

لكن المتمعن في فقرات التوراة يصعب عليه تخيل الرب كما صورته مدونها، فهو رب متقلب المزاج، عاجز عن إدراك ما يدور حوله، يرهقه العمل فيجلس ليستريح. ففي سفر التكوين 2(3-1)، نجده بعد خلق السماوات والأرض وجندهما، يخلد للراحة في يوم السبت، ثم يقده. وفي نفس السفر 3(13-8) نجده بعد أن خلق آدم وزوجه، أمرهما بعدم الاقتراب من شجرة الحياة، لكنهما أطاعا الشيطان فأكلا منها وبانت عرواتهم، وعندما سمعا صوت الرب تواريا خجلا. فلما لم يجدهما أخذ ينادي آدم: أين أنت، فيخبره أنه متواري خجلا من عريه، فيسأله: ما أدراك أنك عريان، هل أكلت من الشجرة؟ فأبى رب هذا الذي يجهل أن آدم أكل من الشجرة، وبعد ظهور عورته توارى خجلا؟ ونجده في 6(8-1) في غاية الحزن لأنه خلق أبناء آدم مرتكبي المعاصي، فيقرر في ساعة غضب أن يهلك الإنسان وإغراق الأرض. وفي 8(22-20) نجد نوحا عليه السلام يقدم قربانا للرب الذي انتشى من رائحة الذبائح المحترقة، فيندم على إغراق الأرض، ويقول لنفسه: لا أعود أميت كل حي كما فعلت. ولأنه رب سريع النسيان، ويخشى أن ينسى فيكرر فعلته؛ خلق قوس السماء الذي يظهر عند اشتداد المطر، فإذا ظهر تذكر الطوفان، فيأمر المطر بالتوقف. ولكي يؤكد ذلك، أخبر نوح بذلك كي يكون شاهدا، كما في 9(17-10).

وهكذا يمضي مدون التوراة واصفا الرب بالعجز والضعف، لدرجة أنه انهزم أمام يعقوب عليه السلام في حفلة مصارعة، ولا يستطيع الخلاص من قبضته إلا بصك مباركة انعم به على المنتصر، كما في 32(30-22).

وتمضي التوراة ملصقة بالرب كل نقيصة حتى نصل إلى سفر زكريا 2(13) لنجد الأمر التالي:

{أَسْكُنُوا يَا كُلَّ الْبَشَرِ قُدَّامَ الرَّبِّ، لِأَنَّهُ قَدْ اسْتَيْقِظَ مِنْ مَسْكَنِ قُدْسِهِ.}

رب نائم سيستيقظ، فعلى البشر السكوت أمامه. لكن كيف تكون حالته عندما يستيقظ؟ الجواب في سفر المزمير 78(65): **{فَاسْتَيْقِظَ الرَّبُّ كَنَانِهِ، كَجَبَّارٍ مُعِيطٍ مِنَ الْخَمْرِ.}** أي رب هذا الذي ينام ويترك خلقه بدون مدبر، وعندما يستيقظ يكون على هيئة مارد نام مخمورا، واستفاق وقد هدته الخمر؟

الرب حسب التوراة يندم، ويذرف دمعين كل يوم، سريع الغضب، سريع النسيان، تفرحه رائحة الذبائح المحترقة، ينصب شأؤول ملكا ثم يندم. غيور لا يغفر الذنوب والخطايا، يصاب بالحمى، لكنه يزمجر ويزار كالأسد، شفتاه ممتلئتان سخطا، رجل حرب يسير أمام شعبه في الحروب، يصعد ويركب في السحاب، لباسه أبيض كالتلج، وشعر رأسه كالصوف، وعرشه لهيب نار. يسكن وسط شعبه، إذا نام كان له شخير، وإذا استيقظ قام تعباً كمارد هدته الخمر.

صورة الأنبياء في التوراة

لم تختلف نظرة التوراة إلى الأنبياء، عما دونته عن الرب. لكن الأمر الغريب أن النبوءة فيها تبدأ بموسى عليه السلام. أما الرعيل الأول: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف، فهم مجرد آباء يجب الاعتزاز بهم وبسيرتهم، مع وضعهم في صف الأفراد العادين على المستوى الأخلاقي. ورغم اعتراف التوراة بعلاقة الآباء الأوائل الممتينة بالرب، وأصباغ نوعا من القداسة عليهم، لم يجد مدون التوراة حرجا بالصاق كل التهم والموبقات والردائل بهم. فإبراهيم حسب التوراة يتاجر بشرف زوجه "سارة" مرتين، الأولى في مصر، تكوين 12(20-11)، وفي جرار 20(14)-1، كي ينال المال والثروة والماشية.

ويتكرر الأمر مع إسحاق، كما في 26(10-7). وتفنن المدون في سرد خديعة يعقوب لأبيه إسحاق وأخيه "عيسون" كي ينال بركة البكورة، التي هي محور التزوير الاستشراقي. ولم يفت المدون إخبارنا أن "راحيل" زوج يعقوب هامت عشقا بأصنام أبيها، فسرقتها عند رحيلها مع زوجها كي تعبدها، 31(19). أما أبناء يعقوب آباء القبيلة المقدسة، فقد ارتكبوا كل الموبقات، إذ زنا "رايين" بزوجه أبيه "بهلة"، 34(22)، بينما ضاع "يهودا" كنته "ثامرا" بعد أن ظنها زانية، فحملت منه وولدت له "فأرص"، 38(19-13).

الهالة المقدسة التي اصبغها مدون التوراة على أنبياء العشيرة الإسرائيلية، لم تمنعه التفاخر بزواحف "عمران" من عمته "يكابد" لينجب موسى، خروج 6(20). بل بلغ به الأمر حدا جعله يتهم الرب بالإيعاز لموسى كي يطلب من الإسرائيليين سرقة ذهب المصريات عشية خروجهم من مصر، 3(21-22)، و 12(35-36). أما الطامة الكبرى فتمثلت بالقول إن الرب قرر موت موسى وهارون لأنهما خاناه، التثنية 32(50-38). وسبب اختياره لشاؤول كأول ملوك القوم، مرده إعجاب الرب بطوله وجماله، صموئيل الأول 9(2)، و 10(23). أما داوود، أعظم ملوك التوراة وباني مجد أتباعها، فنراه حسب السرد يبدأ حياته عازف مزامار لإخراج العفاريث التي ركبت شاؤول، صموئيل الأول 16(23)، وأنه أقام علاقة شاذة مع الصبي جوناثان، صموئيل الثاني 1(26)، ولأنه أشقر الشعر وحلو المنظر، إخطاره الرب ليكون أعظم الملوك، صموئيل الأول 16(12)، و 17(42). ولأن الرب يحبه، سهل له البطش بالخسيس "نابا" ويتزوج أرملته "أبي جايل" لأنها عظيمة الفهم وفاتقة الجمال، صموئيل الأول 25. كذلك أخبرنا المدون بقصة هيمان داوود أبي جايل "بزوج" "أوريا" أحد ضباطه، عندما رآها تستحم عارية، فيتسلل إلى بيتها ويضاجعها، لتلد له من علاقة زنا ابنه "سليمان"، الذي بلغ به عشقه لزوجاته حدا جعله يترك عبادة الرب، متحولا إلى عبادة أصنامهن، صموئيل الأول 11(8-1). ولم يفت المدون إعلامنا أن سليمان قتل أخاه الأكبر صاحب الحق الشرعي في ملك أبيه، وأن ابنه "رحبعام" زنا بكل زوجات أبيه على مرأى جموع الشعب، ليذل أباه.

وهكذا يمضي مدون التوراة في سرد أخبار فسوق ومجون أنبياء شعب الله المختار، فلا نجد فيهم أحد بدون ذنوب وفواحش وآثام.

بعد كل ذلك نسال: هل التوراة التي بين أيدينا، حقا كتاب منزل من عند الله؟ وهل من زور صفات الرب ورسله، واتهمهم بكل رذيلة، يعجزه تزوير تاريخ المنطقة وجف رافيتها، واختلاق وعد مكذوب للسيطرة عليها؟ هذا ما سنجيب عليه في الأجزاء القادمة.

مهزلة الأنساب التوراتية وبداية التزوير

دونت سلسلة الأنساب التوراتية على قاعدة زوال البشرية بعد أحداث الطوفان، وأن نوح عليه السلام هو الأب الثاني لجميع الأمم، ومن ذرية أولاده "سام وحام" و"يافت" انبثقت شعوب الأرض. وقد تفنن مدون التوراة في وصف "الفلك" الذي صنعه نوح حسب تعاليم الرب، وحمل فيه زوجين من كل حي ذي جسد فيه روح،⁶⁹. وبعد أن انتهى المدون من سرد أحداث الطوفان، ذكر لنا أسماء الناجين وذريتهم كما في الإصحاح العاشر كالتالي:

سام وأبنائه عيلام، وأشور، وأر فكشاد، ولود، وآرام.

حام وأبنائه كوش، ومصراي، وقوط، وكنعان.

يافت وأبنائه جوم، ومأجوج، وماداي، ويوان، وطوبال، وماشك، وبتراس.

ثم ينتقل بنا إلى أكذوبة في غاية الغرابة، فيخبرنا:

﴿وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلَاحًا وَغَرَسَ كَرْمًا. وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خَبَائِهِ. فَأَبْصَرَ حَامَ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخُوَيْهِ خَارِجًا. فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَى إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجَّهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يَبْصُرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. فَلَمَّا اسْتَبَقَطَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، فَقَالَ: مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدُ الْعَبِيدِ يَكُونُ لِأَخُوْتِهِ. وَقَالَ: مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلَهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. لِيَفْتَحَ اللَّهُ لِيَنَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ⁷⁰. الغريب في القصة أن صاحب الخطيئة هو حام، ومع ذلك فإن عقوبة اللعن والعبودية طالت ابنه كنعان فقط دون سائر إخوته، وهذا هو دافع الأكذوبة التوراتية.

لو نظرنا في سفر التكوين 11(19-15) سنجد نسب جد القبيلة الإسرائيلية كالتالي: أبرام بن تارح بن نحاوور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أر فكشاد بن سام بن نوح.

وفي الإصحاح 10(19-15) نجد أبناء كنعان بن حام هكذا: ﴿وَكَنْعَانُ وَآدَ: صِيدُونُ بَكْرَهُ وَحَنَّا. وَالْيَبُوسُ وَالْأَمُورُ وَالْجُرْجَانِيُّ. وَالْحُوجُ وَالْعَرْقِيُّ وَالسَيْنِيُّ. وَالْأَرُودُ وَالسَمَارِيُّ وَالْحَمَاتِيُّ. وَبَعْدَ ذَلِكَ تَفَرَّقَتْ قَبَائِلُ الْكَنْعَانِيِّ. وَكَانَتْ تُخَوِّمُ الْكَنْعَانِيِّ مِنْ صِيدُونَ، حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ جَرَارَ إِلَى غَرَّةَ، وَحِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَأَدَمَةَ وَصَبُوبِكُمْ إِلَى الْأَشْعِ. هُوَ لَاءَ بَنُو حَامٍ حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ كَالسَّنِينَتِهِمْ بِأَرْضِيهِمْ وَأُمَّهَتْمْ﴾.

⁶⁹ سفر التكوين 6(22-18).

⁷⁰ الإصحاح التاسع (27-22).

لو ربطنا بين قائمتي الأنساب، يتضح لنا سبب الأكذوبة التوراتية القائمة على لعن كنعان بن حام، والحكم على نسله بالعبودية لأبناء سام. ولأن التزوير التوراتي جعل جميع سكان فلسطين من نسل حام، تم اختلاق هجرة خرافية للجد أبرام إليها، وبالتالي من حقه ونسله من بعده، امتلاك الأرض واستعباد سكانها، بناء على سند مقدس ممهور بختم نوح بعد أن استفاق من سكره.

هناك ملاحظة أخرى يجب التطرق إليها تتعلق بنسب "أشور بن سام"، ومن نسله قورس ملك فارس الذي أعاد اليهود من السبي البابلي. فقد جمعت التوراة بين نسبه ونسب جد القبيلة الإسرائيلية الأعلى وأرجعتها إلى سام بن نوح.

علماء النقد النصي يرجعون سبب إرجاع التوراة نسب قورس إلى سام كنوع من رد الجميل، كونه أعاد أبناء عمومته الإسرائيليين إلى الأرض التي وعدهم بها رب الجنود، علما أن التوراة ذاتها ترجع الفضل بعودتهم إلى زانية يهودية، دسها الأبحار في سرير قورس، فانترعت منه صك العودة وهو ثمل عريان بين ذراعيها، كما سنبين ذلك لاحقا.

يجمع علماء النقد النصي على عدم صلاحية التوراة كوثيقة تاريخية أو شجرة أنساب، كونها محل رفض عقلي ونقلي، علاوة على تناقض السرد فيها.

فقضية فناء البشرية بفعل الطوفان، ونشأتها من جديد من أصلاب أبناء نوح، تعد من خرافات التوراة وتخطبها. فمثلا مدون التوراة جعل "مصريي" جدا للمصريين⁷¹، ثم عاد فنسبهم للجد "قوط".

كذلك لا يوجد في سرديات ونقوش الأمم ما يشير إلى انقطاع الحياة. فمثلا نقوش وسرديات وبرديات وادي النيل ليس فيها فجوة تاريخية، وأخبار سلسلة الأسر التي حكمت الوادي المدونة والمقروءة، تخبرنا بتاريخ كل أسرة، وأسماء ملوكها، وكيف سادت ثم ضعفت لتنتقض عليها أسرة أخرى وتحل محلها. فحضارة نقادة الثالثة (2890-4000) ق.م مسبة بالفحص الكربوني، في حين لا تزال حضارة نقادة الأولى والثانية محل بحث. أما الأسرة الملكية الأولى فقد بدأت بالتشكل عام 3100 ق.م، وخاضت حروبا دامت 40 سنة قبل أن تقضي على حضارة نقادة الثالثة وترثها. وهكذا توالى ظهور الأسر الملكية واندثارها بدون انقطاع حتى الاحتلال الروماني. بمعنى أن حضارة وادي النيل استمرت بدون انقطاع ما يربو على 7 آلاف عام.

في المقابل، لو أخذنا التوراة كمصدر تاريخي، سنجد أن الفارق الزمني بين "نوح وإبراهيم" عليه السلام حوالي ألف عام. كذلك نجد أن الرحلة الإبراهيمية المزعومة لمصر الحالية حدثت حوالي عام 1850 ق.م. وبذلك نستنتج أن حضارة وادي النيل بدأت قبل حدوث الطوفان بألف

⁷¹ سفر التكوين 10(6).

عام، واستمرت بدون انقطاع. وبالتالي فإن حضارة وادي النيل لا تعلم شيئاً عن نوح وطوفانه والنسب الخرافي المنبثق عنه.

وينطق نفس الحكم على حضارة سوريا التاريخية⁷²، التي عرفت أشكالاً من الحضارة والاستقرار السكاني منذ استوطنتها قبائل "أراب" التي جاءت من قلب الصحراء العربية، وتخلو حضارة الهند، والصين، والتجمعات البشرية التي استوطنت أوروبا، من أية إشارة إلى طوفان أدى إلى انقطاع التسلسل البشري.

القول بأن البشرية أُنيت بفعل طوفان نوح، يخالف منطق العدل السماوي، الذي أخبرتنا به النصوص التوراتية التي لم تطلها يد التزوير. وبمنطق الموروث الإسلامي؛ يصبح ذلك الطوفان مجرد خرافة، لأن القاعدة التي يحاسب بها الله عباده قائمة على النص القرآني: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ۝٧٣﴾، بعد أن يتحقق البلاغ من الله بواسطة رسوله، كما أخبرنا الله بعد جمع تلك القاعدة بالبلاغ بقوله: "مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۗ" 74. فرسالة نوح انحصرت في قومه، فكيف يعذب الله باقي البشرية بجرم قوم نوح؟

مدون التوراة اختلق هذه الأسطورة كي تنتهي بلعن كنعان بجرم اقتترفه والده، كي يصل إلى نتيجة واحدة، اصطفاء نسل سام وبالتالي النسل الإسرائيلي، ولعن الفلسطينيين كونهم أحفاد كنعان، كمقدمة ضرورية للسطو على أرضهم.

⁷² سوريا التاريخية تشمل الأرض الممتدة بين الفرات والعريش، واسم آشور وما انبثق عنها بما عرف باسم الحضارة الآشورية، جزء من التزوير الاستشراقي لسلخ المنطقة عن عروبتها، فقد تم تحريف أسرو (سوريا) إلى آشور، واختراع حضارة آشورية منفصلة عن الآشورية.

⁷³ سورة فاطر الآية 18.

⁷⁴ سورة الأسراء الآية 15.

الجزء الثاني: سامية مختلفة

الأوروبيون والعداء للسامية

يعتقد الكثيرون خاصة العرب؛ أن مصطلح معاداة السامية من اختراع اليهود، لكنه في الحقيقة أوروبي الفكرة والنشأة، وأن الغاية منه فصل اليهود عن المجتمعات التي يعيشون بينها، والعمل على إخراجهم من الدول الأوروبية.

الأوروبيون المتعصبون هم من أطلق فكرة السامية لا لهدف سامٍ أو حُباً باليهود، بل كراهةً وبغضاً لهم، ويهدف إسقاطهم، وإبعادهم كلياً عن المواطنين أصحاب البلاد الأصليين، بعقلية الفصل والإيذاء والرفض الديني والتاريخي الكامن في نفوسهم لليهود. وقد ساهم في إطلاق المصطلح عدة عوامل أهمها:

- **العامل الديني:** الذي سيطر، بعد انتشار الطِّبَاعَة وتوفر الأناجيل بين أيدي جموع الأوروبيين، والمتمثل بمعرفتهم أن اليهود كانوا خلف صلب الرب يسوع، حسب الاعتقاد الديني المسيحي.

- **العامل التاريخي:** المتمثل بمعرفة النخب أولاً، ثم عامة الأوروبيين بعد انتشار المدارس والجامعات، حقيقة الجنس اليهودي الذي استوطن أوروبا قادماً من شرق القوقاز الآسيوي، فهم مستوطنون غرباء.

- **العامل الاقتصادي:** الناجم عن تحكم اليهود بمفاصل الاقتصاد والإنتاج والمال ودور النشر والإعلام.

- **العامل الاجتماعي الأخلاقي:** المتمثل بنشر الدعاية، التي سيطر اليهود على كل أوكارها.

لكل تلك العوامل تَمَّ اختراع "السامية" بعقلية الكراهية والطرْد والرفض الذي مورس ضدَّ المواطنين من الديانة اليهودية، فابتدعوا لهم "قومياً" منفصلة عنهم، رَدَّوْها إلى الخلف البعيد المتمثل بنسب "سام بن نوح" حسب توراة القوم، حتى يقطعوا أيَّ محاولة للوصل بينهم وبين الشعوب الأوروبية.

ظهر هذا المصطلح (معاداة السامية) أولاً في ألمانيا نهاية القرن التاسع عشر لتمييز العرق الآري الألماني عن العرق "السامي" اليهودي حسب زعمهم. وكان الباحث والصحفي "وليم مار William MAR" هو أول من استخدم هذا المصطلح عام 1879م، لتمييز الحركة التي تعاد اليهود آنذاك عن غيرها. وقد لاقت حركة معاداة السامية تأييداً من المستشار الألماني "بسمارك آنذاك". وحسب البحث الذي أعده السيد وليد ملحم من مركز بيت المقدس للدراسات؛ فقد تمكنت جمعية معاداة السامية من جمع 255 ألف توقيع للمطالبة بطرْد اليهود، كما حصل حزب "معاداة السامية" 15 مقعد عام 1893م. ومن ألمانيا انتقلت حركة معاداة السامية إلى بقية دول أوروبا، حيث تجذرت في روسيا عام 1881، وتم تكوين حركة لمعاداة السامية في النمسا عام 1895 كما نشأت حركات معادية للسامية في إنكلترا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية، وكلها تهدف لمحاربة اليهود تحت شعار (معاداة السامية) الأوروبية.

ساعد تسريب "بروتوكولات حكماء صهيون"⁷⁵ الهادفة إلى إفساد الدين المسيحي والمجتمع الأوروبي أولاً، وكمقدمة لإفساد شعوب العالم كلها، تمهيدا لسيطرة اليهود، في سرعة انتشار معاداة السامية وتبنيها من قبل النخب، والأحزاب السياسية، ودور العبادة الكنسية، ومساندة الشعوب الأوروبية للفكرة.

وقد واجهت القوميات الأوروبية الناشئة في القرن الثامن عشر، معضلة إثبات هويتها الإثنية والدينية، في ظل وجود أقليات يهودية تتكون من مستوطنين غرباء، ومن دخل في ديانتهم من السكان الأصليين.

قامت القومية المخترعة أي "السامية" نسبة للشخصية الأسطورية "سام" غير المثبتة تاريخياً، لتعطي معنى وبعدا لاهوتياً وتاريخياً وأسطوريا لليهودية التي يرفضها الأوروبيون، رغم كونها -اليهودية - هي الديانة المعروفة لعدد من القوميات في العالم. وأصبح الشعار في أوروبا: نعم أنتم ساميون أو يهود، لكننا نكرهكم، فلستم أصلاً منا لا دينا ولا "قومياً"، ولستم أوروبيين نسباً. وأصبحت الكلمتان "سامية ويهودية" في النفخ الغربي تعبران عن "قومية"، لم يكن لها في التاريخ من أساس قط. ولاحقاً استغلت الحركة الصهيونية دعوة "معاداة السامية" كسيف مسلط على الرقاب، فردوا الصاع صاعين على منشئي المصطلح، وحاربوهم والعالم به.

هناك عامل آخر ساعد على تبني الحكومات الأوروبية فكرة معاداة السامية، وتجديرها لصالح أطماعها الاستعمارية، القائمة على فتح أسواق جديدة لتصريف الإنتاج الصناعي، ومورد رخيص للموارد الطبيعية اللازمة للمحافظة على دورة المكاين المنتجة، فظهر الأوروبي الأبيض العنصري الاستعماري المغرور بذاته، والطامح للسيطرة على العالم. وكان قشل نابليون الفرنسي المستعمر في السيطرة على مصر بعد أن هزمته عكا الفلسطينية، سببا في إطلاق النداء النابليوني للتخلص من يهود أوروبا بإغرائهم بفلسطين، كستار لإضعاف المشرق العربي المتمثل بفصل سوريا عن مصر، وقطع الطريق بين الجزر البريطانية ودرة تاجها، الهند. ذلك النداء الذي تبناه رئيس الوزراء البريطاني "بالمر ستون" في القرن التاسع عشر، بعد أن طالب السلطان العثماني أن يفتح فلسطين أمام عودة اليهود، ومن هنا جاءت مطالبة اللورد الصهيوني البريطاني "شاف ستري" عام 1860 بعودة اليهود إلى فلسطين تحت شعار: شعب بلا وطن، لوطن بلا شعب، وليأتي بعد ذلك دور ما يُسمّى صندوق استكشاف فلسطين، لمحاولة إثبات مقولات التوراة الخرافية على فلسطين، كمهمة قومية إنجليزية من قبل المستشرقين عام 1865، وبعد ذلك تبني الرئيس الأمريكي المسيحي الصهيوني الإنجليزي "جون آدمز" تلك المطالب، ولكن في سياق ديني خرافي، يجعل من المسيحي المتصهين {المسيحي الإنجليزي-الصهيوني} هو "الإنسان الذي سيساعد الله لتحقيق عودة المسيح".

⁷⁵ بروتوكولات حكماء صهيون أو قواعد حكماء صهيون هي وثيقة مزيفة، تتحدث عن خطة لغزو العالم أُنشئت من قِبل اليهود وهي تتضمن 24 بروتوكولاً.

قانون معاداة السامية

استغلت الحركة الصهيونية النفوذ اليهودي، وسيطرته شبه التامة على وسائل الإعلام والجامعات والبنوك في أوروبا، لبث مظلومية اليهود، ونشر احتكارهم للاضطهاد من قبل الشعوب التي جاورها، بدءا من استعباد فرعون والمصريين لهم، مروراً بالسبي البابلي واضطهاد الإغريق والرومان، وتشتتهم في أصقاع الأرض، وصولاً إلى صناعة الهولوكوست؛ لسن قانون يجرم من يتطرق إلى تكذيب السرديات اللاهوتية التوراتية، أو التطرق إلى أنساب اليهود، وتفنيدهم. وهو ما عرف بقانون معاداة السامية، الذي أقرته الدول الأوروبية في البداية، ثم تبنته دول أخرى.

تقوم فكرة قانون معاداة السامية على تمجيد النسب اليهودي المنتهي عند الجد الآرامي "إبرام"، المرفوع نسبه حسب التزوير التوراتي إلى سام بن نوح عليه السلام. والغريب أن الشعوب الأوروبية تقبلت ذلك القانون، رغم أن التوراة جعلتهم من عرق أدنى ينتهي عند **يافث بن نوح**، الذي حكمت التوراة عليه بالتبعية والخضوع لأخيه سام كما في سفر التكوين.

أما الوثائق البريطانية فتؤكد أن قانون معاداة السامية من بنات أفكار ساسة بريطانيا ليكون سلاحاً بأيديهم لتبرير دعمهم للحركة الصهيونية، كمقدمة لقيام الوطن القومي الصهيوني الذي سيجمع شتات اليهود.

اعتبر الكثير من المفكرين الأوروبيين وجلهم من اليهود؛ أن فرض قانون معاداة السامية هدفه طمس الحقيقة، وتمجيد زائف للعرق اليهودي، مما دفع الفيلسوف الفرنسي الجنسية، اليهودي الديانة **روجيه غرودي** إلى القول: "إن قانون العداة للسامية ما هو إلا إقرار بزيغ النسب اليهودي السامي، لأن الحقيقة لا تحتاج إلى قانون لإثباتها".

ويجد الباحث في تاريخ الأمة اليهودية، مئات الكتب، والمراجع، والدوريات، والحواليات التي ناقشت حقيقة النسب اليهودي، وكلها تؤكد حقيقة واحدة هي: بطلان وكذب ادعاء النسب السامي، وأن الغالية الساحقة من يهود أوروبا والعالم عشية بدء التآمر والتخطيط لقيام دولة "إسرائيل"، لا يربطهم بالنسب الإبراهيمي رابط، وبالتالي لا أحقية لهم بالمطالبة بميراثه القائم على وعد سماوي مزعوم، لانحدارهم من جد آخر تحتقره التوراة ذاتها. وما أبحاث ومؤلفات كبار المؤرخين وعلماء الأنساب أمثال: **ادعاء، ودو بنوف، ويتولاني، وميزي، وشابيرو، ودانوب، ومكارثي، وروجيه غرودي، وآرثر كوستنر**، إلا بعض ما كتب عن زيغ النسب اليهودي.

كتاب "القبيلة الثالثة عشر"

يعتبر العلامة البريطاني الجنسية، واليهودي الديانة "آرثر كوستنر"، أحد أقرب أصدقاء "ديفيد بنويون"، وناشر مذكراته، والمطلع على خبايا وكواليس الحركة الصهيونية، علاوة على سعة معرفته وثقافته. بالتالي فإن كتاباته تعتبر مرجعا للمهتمين والمتخصصين في الشأن اليهودي.

لذلك فإن كتابه "القبيلة الثالثة عشر" أحد أهم المراجع التي تحدثت عن أصول اليهود. فقد تطرق المؤلف إلى الأصل الآري الخزرج للقبائل الوثنية التي اندفعت من أقصى شرق القوقاز السوي نحو الغرب مجتازة مناطق شمال بحر قزوين، لتستقر في البلقان الأوروبي، وتنشأ إحدى أقوى الإمبراطوريات التي حكمت أوروبا، ووقفت سدا أمام السيل العربي الإسلامي الذي اجتاح العالم القديم. وتطرق المؤلف إلى كيفية اعتناق القبيلة الخزرجية للعقيدة اليهودية، بعد مكيدة أحد حاخامات اليهود، وكيف أصبح الخزر ركنا مهما من أركان المجتمع الأوروبي الشرقي، وعنصرا مهيمنا على مجمل القارة العجوز. وبالإضافة إلى كتاب "القبيلة الثالثة عشر" فإن مدونات دائرة المعارف البريطانية، ومراكز الأبحاث الشرقية في جامعات موسكو وكيف وبرلين وروما وجاسكو، تحفل بالمراجع والأبحاث التي تطرقت إلى أصول اليهود الخزرجية، نافية أي صلة بينهم وبين جد التوراة الأرامي.

الغريب في الأمر أن الكثير من علماء التاريخ والأنساب الغربيين، استشهدوا واقتبسوا من كتب التاريخ العربية، ومدونات الرحالة والنسابة العرب والمسلمين أمثال: ابن حوقل، وابن سعيد المغربي، والصخري، والمسعودي، والبكري صاحب كتاب الممالك والمسالك، وابن رثنه، والعلامة التركي زكي وليدي طوقان صاحب الأبحاث والدراسات التاريخية. وكلهم أو جلهم عاصر حقبة النهوض اليهودي في أوروبا نهاية القرن الثامن الميلادي وما بعده. وتظهر كتبنا التاريخية معرفة علماءنا بزيف النسب اليهودي السامي، ومع ذلك نجد السياسي العربي غارقا في غيابات جب الجهل وانعدام العلم والمعرفة، إذ لم يتطرق أحد من ساسة العرب إلى زيف الدعوة الصهيونية، وتفنيد النسب الإبراهيمي الذي يستند إليه اليهود للمطالبة بإرث جدهم المزعوم في فلسطين وما يحيط بها بين الفرات والنيل.

على الرغم من حجم الصراع العربي الإسرائيلي، والذي أصبح يعرف بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي بعد خروج مصر والأردن من المعادلة، وتهافت العدد من الدول العربية مرغمة على الاعتراف بالكيان الصهيوني، فإن المكتبة العربية تفتقد لمدونات وأبحاث تلقي الضوء على النسب اليهودي السامي المزعوم، وتفنيد حقه المخلتق بأرض فلسطين؛ فإن الجهد الجبار الذي قام به العلامة الدكتور عبد الوهاب المسيري صاحب موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" لاقى تجاهلا من قبل صانع القرار العربي في معركته: سواء في ميدان السلاح، أو حول طاولة المفاوضات. كذلك كان نصيب جهد العلامة جمال حمدان المتمثل في كتابه "اليهود أنثروبولوجيا". والأسوأ تجاهل النخب من المثقفين والحزبيين والمفكرين والأكاديميين لمجهودات العمالقة أمثال جواد علي، وكمال صليبي، وفاصل الربيعي وغيرهم، ممن فند سرديات التوراة وأحداثها المتعلقة بفلسطين، والدائرة المحيطة بها من الفرات إلى النيل.

السامية بين الرفض والقبول

ظهرت في بداية القرن (19) عدة مؤلفات حول الأعراق البشرية، واعتبر قسم منها أن الأعراق غير متساوية، وأن عرقا يتفوق على الآخر. وكان الأرسطراطي الفرنسي "جوزيف آرثر دو تورينو **Joseph Arthur De Gobineau**" أول من قسم البشرية حسب اللون في عام 1854، فجعلها:

العرق الأبيض الآري الجميل الذكي القوي.

العرق الأسود المنحط ثقافيا.

العرق الأصفر الأفضل من العرق الأسود، لكنه أخط من العرق الأبيض.

واعتبر أن اليهود كانوا عرقا طاهرا نقيًا في زمن التوراة، لكن اختلاطهم مع شعوب أدنى منهم، خاصة العرق الأسود، جعلهم عرقا أدنى من العرق الأبيض، لذلك لا ينبغي لهم الاختلاط مع العرق الأوروبي الأبيض.

لكن الفيلسوف والمؤرخ الفرنسي "أرنست رينان **Ernest Renan**" أصدر كتابا في العام التالي رفض فيه نظرية "وبينو"، لكنه اعتبر أنه توجد اختلافات بين اللغات السامية والأوروبية، وأن الأولى منحطة قياسا بالثانية، في إشارة إلى تفوق الإنسان الأبيض، وبذلك رسخ الاعتقاد في أوساط النخبة بوجود أعراق بشرية. ثم أصدر حكمه بأن العرق الآري⁷⁶ أرقى وأفضل من العرق السامي، بما فيهم اليهود، ومن هناك أخذ من أتى بعده بمقولة أفضلية العرق الآري، ووجوب فصله عن العرق اليهودي، حتى جاء الصحفي الألماني "فيلهلم مار" وأصدر كتابه "انتصار اليهودية على الألمانية" عام 1879، وأصبح أكثر الكتب مبيعا على المستوى الأوروبي، مما ساهم في انتشار مصطلح "معاداة السامية"، وأن هناك صراعا مريرا ومتواصلا يدور بين ألمانيا والعرق السامي، وأن هذا الصراع سينتهي بترحيل اليهود من ألمانيا إلى فلسطين التوراتية، وأنه لا يوجد حل آخر.

لم تعرف البشرية قبل عصر الطباعة وتوفر نسخ التوراة التقسيم العرقي للبشرية، فموروثات الأمم الصينية والهندية والفارسية واليونانية والرومانية وحضارتي وادي النيل وبلد الرافدين، تجهل ذلك التقسيم، ولا تعرف عن نوح وأولاده الثلاثة شيئا. أما الموروث العربي، فقد انتقلت إليه عدوى التقسيم من باب الروايات الإسرائيلية، فابن كثير مثلا ينسب العرب إلى سام بن نوح، نقلا عن رواية لسعيد بن المسيب، الذي أخذها من روايات كعب الأحبار اليهودي الأصل، لكنه ادعى أن العرب والفرس والروم من ذات السلالة السامية بدون دليل موثق.

⁷⁶ الأرية هي أيديولوجيا التفوق العرقي التي تنظر إلى العرق الآري المفترض باعتباره مجموعة إثنية متميزة ومتفوقة لها الحق في حكم بقية البشرية.

وذكر ابن خلدون في مقدمته: " ثم اتفق النصابون ونقله المفسرين على أن ولد نوح الذين تفرعت الأمم منهم ثلاثة: سام وحام ويافث وقد وقع ذكرهم في التوراة وأن يافث أكبرهم وحام الأصغر وسام الأوسط". وأخرج الطبري أحاديث مرفوعة بمثل ذلك، وأن سام أبو العرب ويافث أبو الروم وحام أبو الحبش والزنج وفي بعضها السودان وفي بعضها سام أبو العرب وفارس والروم ويافث أبو الترك والصقالبة ويأجوج وماجوج، وحام أبو القبط والسودان والبربر ومثله عن ابن المسيب ووهب بن منبه⁷⁷. لكنها روايات مرفوعة إلى كعب الأحبار ووهب بن منبه، وكلاهما من يهود الجزيرة العربية، وسندهم التوراة، لذلك فإن ما حواه الموروث العربي مجرد نسخ عن التوراة، ولا قيمة له من الناحية العلمية والبحثية.

التوراة هي المصدر الوحيد الذي قسم البشرية ونسبها إلى أبناء نوح كالتالي:

1- الساميون: وينسبون إلى سام بن نوح عليه السلام، وعادة ما يشار بهم إلى الشعوب الساكنة في شبه الجزيرة العربية، وبلاد النهرين⁷⁸، وسوريا التاريخية، وإن كانت التوراة قد أخرجت الكنعانيين من أسرة الساميين وضمتهم إلى الحاميين، كنوع من التزوير وتبريرا للانتقام منهم واغتصاب أرضهم.

2- الحاميين: وينسبون إلى حام بن نوح عليه السلام، ويقصد بهم الشعوب الساكنة في القارة الأفريقية بلونهم وملامحهم المعروفة.

3- اللياقيون: وينسبون إلى يافث بن نوح عليه السلام وهم أصل الشعوب الهند وأوروبية الساكنة في منطقتي الشرق الأقصى وأجزاء من الشرق الأدنى القديم⁷⁹ والشعوب الأوروبية.

وهو تقسيم عرقي يقوم على أساس من اللون. وهكذا قصد بالعداء للسامية عداء الشعوب اليافعية والحامية⁸⁰ للشعوب السامية. وقد تم اختزال "العداء للسامية" في اليهود وإخراج بقية الساميين من حظيرة السامية، واعتبارهم ساميين يعيشون في مجتمعات ليست سامية، وهي المجتمعات الهند وأوروبية.

لكن الحقيقة التي أجمع المؤرخون عليها، تتمثل في كون جزيرة العرب هي موطن السامية الأول، وأن العرب ساميون مثلهم مثل القبيلة الإسرائيلية. وقد ظهرت مؤلفات عربية اعتمدت

⁷⁷ تاريخ الطبري(2)(6).

⁷⁸ العراق القديم.

⁷⁹ بلاد فارس.

⁸⁰ الهند وأوروبية والأفريقية.

على أبحاث وكتب المستشرقين بما فيهم اليهود، تثبت سامية بلاد العرب. يقول هنري عيودي: "المنطقة السامية مؤلفة من شبه الجزيرة العربية وامتدادها، إلى سورية وبلاد ما بين النهرين وبلاد كنعان،⁸¹

أما الدكتور محمد خليفة حسن، مدير مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة، فقال نقلا عن كتاب "اليهود ومعاداة السامية. تاريخ وحقائق، تأليف معمر فوزي الخليل: "إن إطلاق تسمية "معاداة السامية" على كراهية اليهود، هو إطلاق خاطئ ومقصود، لأنه يعني أن الانتماء إلى الجنس السامي يراد احتكاره من قبل اليهود، بينما الشعوب السامية أي المنحدرة من سام بن نوح عليه السلام عديدة، منها الشعب العربي. واللغات السامية هي التي تنطق بها مجموعة من الشعوب التي استوطنت أساسا بلاد الرافدين، وبلاد الشام، وشبه الجزيرة العربية، والحيثة، وشمال إفريقيا. وهم السومريون، والأشوريون، والبابليون، والإجباريون، والكنعانيون (ومنهم الفلسطينيون)، والفينيقيون، والآراميون، والسورياليون، والعبيرانيون (ومنهم بني إسرائيل)، والأنباط، وجميع الشعوب العربية في مشرق العروبة ومغربها. واللغات السامية هي من أقدم لغات العالم- تعني ضمن محتوياتها العديدة اللغتين العبرية والعربية معا، وإذن فليس اليهود وحدهم هم الساميون. وقصُرُ نعت السامية على اليهود نعت مضلل، فالعرب مثلا هم أيضا ساميون.

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري صاحب موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية: "ويُعدُّ العرب أكثر الجماعات السامية قربا مما يمكن تسميته الخطاب الحضاري السامي الأصلي. كما أن اللغة العربية أقرب للغات الحية إلى السامية الأصلية. ومع هذا، ينصرف مصطلح (معاداة السامية) إلى اليهود دون سواهم".

بقية فكرت العداء للسامية تعني اضطهاد اليهود والدعوة لطردهم من أوروبا، حتى بدأت الدول الأوروبية تتطلع نحو الشرق للسيطرة على دولة، واستغلال مواردها وثرواتها وأسواقها، وبدأ البحث عن كلب حراسة لحماية المصالح المترتبة على تلك السيطرة، فاتجهت الأنظار نحو الجاليات اليهودية في أوروبا. وهنا استغل اليهود حاجة الدول الأوروبية لهم، فقبلوا بدهانهم هذا المصطلح لصالحهم، بعد أن تلاقت رغبات الشعوب الأوروبية في طردهم، وأطماع صناع القرار باستغلالهم، وأحلام الكنيسة بتجهيز مسرح عودة المسيح، وأصبحت رهن إشارتهم. ومن هنا أصبح مصطلح معاداة السامية، يعني معاداة اليهود، ثم تطور الأمر فأصبحت السامية تعني اليهود وحدهم، وهكذا أصبح اليهود في كفة، وباقي الأمم في الكفة الأخرى، بعد أن انتشرت مقولة أن اليهود في كل أصقاع الدنيا ينتسبون إلى العرق السامي، وللجد الأعلى إبراهيم الآرامي.

في المقابل، رفض العشرات من المختصين ذلك التحول، وبيّنوا زيف مقولة وحدة العرق اليهودي، وبطلان النسب السامي، وسقوط الوعد الخرافي.

⁸¹ كتاب معجم الحضارات السامية الصفحة (6).

■ ثار الأوروبيون الموبوتون بوهم التفوق العرقي، وبالعنصرية البيضاء البغيضة، وبشائر النهضة الصناعية والعلمية التي أخذت تطرح ثمارها؛ ضد أبناء جلدتهم من معتنقي الديانة اليهودية، ويهود الخزر المهاجرين من القوقاز السوري. وسبق ذلك عداوة دينية مستمرة أثمرت مجازر راح ضحيتها عشرات الآلاف من اليهود.

قام الأوروبيون من أجل أنفسهم ولطرد أبناء جلدتهم اليهود، وإبعادهم عن أنفاسهم بمطابقة أرض على أو هام التوراة، والإيحاء لهم بخرافات الاستشراق والتفسير اللاعية لها، وأنهم، أي يهود أوروبا وروسيا ليسوا أوربيين، ولا روس، ولا غربيين! وإنما هم قوميًا؛ من نسل أولئك القدماء الوارد ذكرهم بالتوراة، أي من طينة يهود التوراة ذاتها، وأن الزمن يتحضر لعرض مسرحية عودة المسيح اليهودي النسب. وأنتم -اليهود- حملة تراث "الأجداد" دينيًا، أولى الأمم بتجهيز المسرح لعودته، وتحضير الأرض والشعب لاستقباله.

أصبح الأوروبي وكأنه يقول بوضوح: يا يهود أوروبا أو مواطنيها من اليهود: أنتم لستم إخواننا ولستم منّا، أنتم عابرون طارئون على أوروبا! فلستم مواطنين ولستم من أي قومية أوروبية، وكل ذلك ضمن فكر العقيدة البروتستانتية الغربية المتأثرة باليهودية، وظهر حلف مقدس يسعى لتمهيد الطريق أمام اليهود لاحتلال فلسطين، تمهيدا لعودة المسيح الثانية وتأسيسه مملكة الألف عام.

عجل النزاع بين الدول الأوروبية المتعلق بتفكيك الدولة العثمانية، وفتح أسواق جديدة لتصريف الإنتاج الصناعي، وحماية الثروات الطبيعية التي تخفيها أرض المشرق، وظهور محمد علي باشا، وحلمه بإنشاء إمبراطورية تضم مصر وبلاد الشام والعراق وجزيرة العرب، إلى خلط الأوراق أمام صناع القرار الأوروبي، فحثوا السير لاستغلال كل السبل الكفيلة بحماية مصالح دول الناشئة.

سعى الأوروبي الغربي العنصري من إطلاق حملة معاداة اليهود إلى تحقيق عدة أهداف أهمها:

أولاً: عبّر عن رفضه وجود اليهود بين القوميات الأوروبية، والسعي لطردهم بطريقة حضارية تحت شعار العودة إلى الأرض التوراتية الخرافية.

ثانياً: تحقيق هدف لطالما حلم الغرب الاستعماري العنصري به، في إطار فكر حروب الفرنجة، التي سماها الغرب المتعصب الحروب الصليبية، ولا زال ينفخ فيها، وآخرها صرخة الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن بعد أحداث 11 سبتمبر⁸².

⁸² هي مجموعة من الهجمات الإرهابية التي استهدفت الولايات المتحدة في يوم الثلاثاء الموافق 11 سبتمبر 2001، وجرت بواسطة أربع طائرات نقل مدني تجارية، تقودها أربع فرق تابعة لتنظيم القاعدة.

ثالثاً: تحقيق منهج الاستعلاء، والاستعباد والاستعمار بوضع الإسفين في قلب الأمة العربية والإسلامية، كعامل تفتيت وفتنة وتدمير للثقافة العربية الإسلامية الشرقية الجامعة، واستغلال البشر والثروات.

الغرب يدرك الخطر الإسلامي على ثقافة الاستغلال والاستعباد التي يمارسها، ويدرك أن العربي كونه مادة الإسلام الأولى، فهو الأقدر على قيادة المسلمين للوقوف في وجه أحلامه. لذلك تغاضى عن المشروع النووي الباكستاني، وبنار لحماية الأحلام النووية الإيرانية، بينما مهد الطريق لدفن المشروع النووي العراقي وشجع عليه، لأنه الأخطر على مصالحه.

تعود أصول معاداة السامية في المسيحية إلى اتهام اليهود بصلب يسوع، واضطهاد تلاميذه في القرون المسيحية الأولى، مستندين بذلك على قول اليهود أثناء محاكمة يسوع: "دمه علينا وعلى أولادنا"⁸³، كما تم اتهام اليهود بعدة تهم منها:

- تسميم آبار المسيحيين، والتضحية بالأطفال كقرايين بشرية، وسرقة القربان وتدنيسه. وبسبب لائحة الاتهام تلك، تم طرد معظم اليهود ومن الجزر البريطانية ودول أوروبا الغربية إلى شرق ووسط أوروبا وبلاد المغرب العربي.

كعادتهم، استغل أغنياء اليهود بدهانهم أحلام الدول الأوروبية التوسعية نحو الشرق، للمساومة حول قانون معاداة السامية لمصلحتهم. فالمعروف عن التجمعات اليهودية أنها تتألف من طبقتين؛ الأغنياء والفقراء. وشكلت الطبقة الفقيرة عبأ على الطبقة الغنية، فأرادوا استغلال الأحلام الأوروبية لتحقيق أحلامهم المتمثلة في:

1- التحرر من عبأ نفقات فقراء اليهود بشحنهم إلى فلسطين، لتحقيق حلم إعادة بناء هيكل سليمان، انتظاراً لعودة المسيح الثانية.

2- الحرص على نيل حصة من ثروات الشرق، من باب المساهمة في تمويل الحملات التيشيرية، والاستشرافية، والعسكرية الأوروبية التي بدأ تجهيزها للانقضاض على الشرق.

3- المساهمة بتقويض الخلافة العثمانية التي توحد المسلمين ولو بشكل معنوي، من خلال استغلال اليهود المتغلغلين في مفاصل الدولة العثمانية، ومن يمكن تجنيدهم من أهل البلاد.

4- التحرر من قيود معاداة السامية التي كبلت النشاط المالي اليهودي نوعاً ما.

⁸³ إنجيل متى 27(25).

وهكذا تلاقت الأحلام الاستعمارية الأوروبية مع الأطماع اليهودية، لتستولد تفسير جديدا لقانون معاداة السامية، فبعد أن كان يجرم اليهود ويهدف إلى طردهم من أوروبا، أصبح مجرد التشكيك بأصولهم ومعتقدهم وأهدافهم، جريمة يعاقب عليها القانون بأقسى العقوبات في أوروبا وأمريكا.

يقول منصور عبد الحكيم في كتابه نهاية إسرائيل "هذه هي المسكنة التي ضربها الله عليهم، ولازمتهم على مر تاريخهم الطويل، في غناهم وفقدهم، وفي ذلهم وعلوهم. ولا أدل على ذلك التسويق المذل الخزي والمستمر، للمحرقة النازية المبالغ فيها، والتي جعلوا منها، ومن تهمة معاداة السامية مسمارا في حلق الشعوب الغربية، لابتزازها ونهب خيراتها وخاصة ألمانيا، فهم عالة على كل من أوامهم، وهذا ما يشهد به تاريخهم"⁸⁴.

تلاعب اليهود بمصطلح معاداة السامية، وجيروه لصالحهم، وابتزوا به العالم الذي تغاضى عن ملاحظتهم لكل من أساء إليهم، وقلبوا ظهر المجن للصدى قبل العدو، واستخدموا نفس سلاحهم لمحاكمة كل من يتعرض ليرامحهم ومخططاتهم. من يطالع كيفية استغلالهم لذلك المصطلح ير كيف حاصروا كل من انتقدهم، أو حتى احتج على ممارسة خاطئة اقترفوها، أو فساد نشره. وبهذا المصطلح حاسبوا، بل وحاكموا العلماء، والمفكرين، والدول، والمؤسسات، والجمعيات، والعامّة بحجة معاداة السامية. وبلغ بهم التمادي في استخدامه إلى طرحه في البلدان العربية التي تعد شعوبها أصل السامية، (وهذا إن سلمنا بصحة السامية)، وتعتبر الجهة الأولى في التصدي له. إذ أقام يهودي مغربي يدعى "نواعم نير" دعوى قضائية في مدينة الصويرة ضد ثلاثة من أعضاء الجمعية المغربية لحقوق الإنسان، وقال إنهم مناهضون للسامية، وذلك في سابقة هي الأولى من نوعها، باعتبارها المرة الأولى التي يصل فيه خلاف سياسي على هذا النحو إلى القضاء في المغرب. وتعود الواقعة إلى يوم 27/2/2011، حين قامت مجموعة من الشبان شاركوا في معسكر صيفي نظّمته الجمعية المغربية لحقوق الإنسان، في مدينة أسفي جنوب الدار البيضاء، بجولة سياحية جماعية في مدينة الصويرة، التي لا تبعد كثيرا عن أسفي. وقالت مصادر الجمعية أن الشبان، أثناء مرورهم في بعض الشوارع، كانوا ينشدون شعارات مساندة للشعب الفلسطيني، ومناهضة لإسرائيل.

لقد أصبح اتهام معاداة السامية مرعا حتى للكنيسة الكاثوليكية ذات الشبوع الواسع في العالم، والمكانة المعروفة، رغم أنها قدمت لليهود خدمة لم يحلموا بها على مر التاريخ، تمثلت بتبرنتهم من دم المسيح حسب اعتقادهم، وإصاق التهمة بالوالي الروماني، مكنبة بذلك القديسين مؤلفي الأناجيل، وناسفة ما جاء في 5525 مخطوطة، ومئات المراجع التي تدين اليهود.

الادعاء بأن جميع يهود العالم من الأصل السامي، تكذبه السجلات والوثائق الأوروبية، والعربية، والفارسية، وكتابات المؤرخين والباحثين ومن ضمنهم العشرات من اليهود أنفسهم. ولا شك أحد منهم أن يهود هذا القرن، لا ينتمون لا من قريب ولا من بعيد إلى يهود التوراة الذين كان مسترقهم في منطقة اليمن العربية. وذلك لأنه لا علاقة بين يهود الوقت الحاضر وبين يعقوب أو إبراهيم

⁸⁴ من كتاب نهاية إسرائيل، ص (115)، تأليف منصور عبد الحكيم.

أو سام ابن نوح عليه السلام وليس لهم كذلك أي علاقة بالأسباط الاثنتية عشر الذين تفرع منهم اليهود القدامى. وهنا نسال: إلى أي الأعراق ينتمي اليهود إذا؟

هناك الكثير من القبائل التي اعتنقت اليهودية كدين، كالعربية، والإغريقية والرومانية، والفارسية، والخزرية، والأفريقية. وبالتأكيد ليست كل تلك القبائل من ذرية سام، علاوة على اختلافهم بالأعراق والأنساب.

ورغم إصرار الصهيونية على ادعائها بنقاء العرق اليهودي، إلا أن كثيرا من مفكري الصهيونية يدركون واقعا عبث وخطأ مثل هذا الطرح. فالمفكر اليهودي "يوسف هاييم برنر" يقول، كل ما نعرفه عن حياتنا يشير إلى أن الجماهير اليهودية ليس لها السمة الاجتماعية بالمعنى السوسولوجي، ونحن لسنا شعبا مترابط الأجزاء⁸⁵.

ومن الثابت بأدلة قطعية؛ "أن اليهود الحاليين ينتسبون إلى ينفث ثالث أبناء نوح وأنهم من أصل أسوي قوقازي، وبالذات من قبائل الخزر التركية المنغولية، التي كانت تعيش في أواسط آسيا"⁸⁶.

الغريب أن نجد معرفة العرب المسلمون بالقبائل الخزرية، ومسار هجراتها وحتى استقر بهم المقام في بمنطقة البلقان الأوربية، وأشاروا إلى اعتناقهم اليهودية إبان حكم هارون الرشيد، ودونوا ذلك في كتبهم. ويُعرف ياقوت الحموي في معجمه إثم الخزر: "الخزر اسم إقليم من قسبة تسمى اتل، وأتل اسم لنهر، نهر الفولغا حاليا"⁸⁷.

فالخزر شعب انحدر من القوقاز ... ويصير نسبتهم إلى بدايات الجنس الآري وهم وراثيا من قبائل "الهنون والبوج". وتؤكد المراسلات التي تمت بين "حسداي بين شبوط" رئيس الوزراء اليهودي لدى خليفة قرطبة، وبين (يوسف) ملك الخزر، والتي تعرف تاريخيا بالمراسلات الخزرية، إذ تضمنت أسئلة حسداي عن السبط الذي ينتمي إليه الملك يوسف. وكانت الإجابة صادمة، إذ ذكر ملك الخزر نسبا لا يمت بصلة إلى نسب أسباط بني إسرائيل⁸⁸، وقد فصل ذلك المؤرخ والكاتب اليهودي " آرثر كوستنر في كتابه " القبيلة الثالثة عشرة، بدقة وإسهاب.

الدكتور عبد الوهاب المسيري في موسوعته القيمة "اليهود واليهودية والصهيونية"،³(151)، ذكر ما نصه: "وقد نشر كوستنر عام 1955 كتابا بعنوان قافلة الديناصور يضم دراسة بعنوان " يهود في مفترق الطرق"، والتي أشار فيها إلى عدم صحة القول بوجود تراث حضاري

⁸⁵ كتاب أو هام التاريخ اليهودي، ص (261).

⁸⁶ كتاب "شعوب إسرائيل وخزافة الانتماء للسامية"(7-8).

⁸⁷ نقله السيد جودت السعد في كتابه "أو هام التاريخ اليهودي"، ص (257).

⁸⁸ (نفس المصدر، ص (258)).

مشترك. وفي كتابه القبيلة الثالثة عشرة: إمبراطورية الخزر وميراثها الصادر عام 1976. يناقش كوستنر ظهور إمبراطورية الخزر اليهودية، وما يسمه الشتات اليهودي. وقد أثار الكتاب ضجة في الأوساط اليهودية والصهيونية عند صدوره. فالكاتب يذهب إلى القول إن يهود بولندا الذين يشكلون أهم وأكبر تجمع يهودي في العالم، هم من نسل الخزر، وبالتالي فهم مختلفون عرقيا وثقافيا عن بقية يهود العالم وعن العبرانيين القدامى. ومن ثم فإن كوستنر يهدم الاعتذارات العرفية والإثنية لنظرية الحقوق الصهيونية التي ترى أن فلسطين من حق اليهود بسبب أصولهم السامية، أو بسبب تماسكهم الثقافي عبر التاريخ، والتفافهم حول فلسطين كمركز للهوية الثقافية اليهودية".

"دلت جميع الدراسات التي أجريت على تاريخ وأصول العناصر اليهودية المختلفة والتي تتكون منها شعوب إسرائيل، على أنهم يختلفون أنثروبولوجيا- علم الإنسان- عن يهود التوراة، حيث أن هؤلاء قد انقرضوا نهائيا، ولم يتبقى منهم إلا قوقعة قزمية مغلقة هي بقايا السامريون في نابلس القديمة"⁸⁹.

جاء في كتاب شعوب إسرائيل⁹⁰ وخرافة الانتساب للسامية، تأليف د. عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ص (100): "والسامريون اليهود الفلسطينيون هم أصغر فرقة دينية في العالم، بل هم أصغر شعوب الأرض من عهد موسى إلى الآن، إذ لا يتجاوز عددهم 600 شخص، وهم بنو إسرائيل الأصليون ... ويقومون في فلسطين منذ أكثر من 3 آلاف عام".

وفي صفحة (8) يقول الدكتور الغنيمي: "لذلك فإنه من المغالطة التاريخية القول بقرابة يهود أوروبا والعالم الجديد بالعرب، لا سيما بعد أن اختلف يهود التوراة نهائيا. وأنه لا قرابة بين العرب الساميين، واليهود الخزر المنغوليين الآسيويين، فاليهود أورييون سلاف(خزر)، أو آليون أكثر منهم ساميون. وهذا يصدق على كل الطوائف اليهودية وعلى امتدادهم... إن اليهود الذين يكونون شعوب إسرائيل حاليا، والذين جاءوا من أكثر من اثنتين وسبعين دولة، لا يؤلفون جنسا واحدا، إنما مجموعة أجناس وأخلاق، وأنه من الخطأ القول بوجود جنس يهودي وإلا كيف يجمع بين يهود الفلاشات، ويهود التأميل في الهند، ويهود الصين، والتركستاني، وكردستان، واليمن، وبولندا أو غيرها من يهود العالم".

وبهذا تسقط أكذوبة أن العرب واليهود أبناء عم، كما يروج اليهود ومن والههم من بعض الأنظمة العربية، ويتبناها مدعو الثقافة من الإعلاميين والمهرجين العرب.

⁸⁹ شعوب إسرائيل ومعاداة السامية ص (9).

⁹⁰ كتاب شعوب إسرائيل وخرافة الانتماء للسامية، كتاب من طبقة مقارنة الأديان تأليف د. عبد الفتاح مقلد الغنيمي. يحفل بمعلومات غاية في الأهمية عن الأصول اليهودية.

إن هدم النظرية القائلة بانتساب اليهود الحاليين إلى يعقوب عليه السلام، ومن قبله إلى سام بن نوح عليه السلام، وكشفت انتمائهم الحقيقي، يعد من أهم المرتكزات التي يجب أن تبنى عليها محاربة دعوى معاداة السامية، التي يستخدمها اليهود لمعاينة خصومهم أو من يعترض طريقهم، وتسقط خرافة حقهم في الأرض العربية الفلسطينية، وأكذوبة: "أرضك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل".

أسطورة شعب الله المختار

"وقد بحثنا بين كل حبة رمل وأختها، ولم نعثر على شيء، وقد استنفذ علم الآثار طاقته في هذا الموضوع"⁹¹.

أرجع علماء النفس ظاهرة كراهية اليهود، تلك النعمة التي يتم العزف عليها لاستدرار العطف والشفقة، إلى اللاشعور وذلك لعدة أسباب:

1- غيرة الشعوب الأخرى من اليهود لأنهم أكبر أبناء الرب، حسب ما تم الإيحاء به استناداً إلى نصوص توراتي.

2- تمسك اليهود بطقس الختان الذي ينبه لدى الشعوب الأخرى شعور الدونية، ويقصد بذلك النصراري لأنهم لا يختنون. فشعر اليهود بالتميز على غيرهم.

3- كراهية الشعوب لليهود هي في الأصل كراهية للنصارى المسيحيين، وذلك عن طريق النقل، إذ أن الشعوب التي تُنزل الاضطهاد النازي باليهود إنما كانت شعوباً وثنية في الأصل، ثم تحولت إلى النصرانية بالقوة الدموية، فصارت هذه الشعوب بعد ذلك حاقدة على النصرانية، لكنها بعد أن توحدت معها نقلت الحقد إلى الأصل الذي تعتمد عليه النصرانية ألا وهو اليهودية. كما جاء في "الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة"، 2(235).

المؤرخون، وقفوا واجمين أمام الطبخة التوراتية المتعلقة بالأنساب، فلا سند لها في مساند ونقوش الأمم التي جاورت بني إسرائيل، ولم تنطق الأرض بأي أثر تاريخي يشير إلى صدق التوراة. ومع ذلك أخذ المؤرخون بتلك الأنساب واستندوا إليها عند تقسيم البشرية، ومن ضمنهم العرب سواء المؤرخون أو النسابة، الذين اعتمدوا على التوراة بالدرجة الأولى، واهملوا ما دونه أسلافهم. فمثلاً الكلبي صاحب كتاب "الأصنام" توفي قبل مولد الطبري المفسر والمؤرخ المعروف. وفي الكتاب مادة غنية عن الأصنام التي عبدها العرب الأوائل ونسبوا إليها. وأشهر الإلهة الوثنية التي عبدها العرب الصنم "أرم" بلهجة بعض قبائل اليمن، و"إرم" بلهجة قبائل منطقة حضرموت. وهو ذات الصنم الذي عبده عاد، وإليه نسبت مدينة إرم ذات العماد المذكورة في القرآن. وظلت ثقافة عبادة ذلك الصنم في ذاكرة بعض القبائل بعد هلاك عاد، وإليه نسبت قبيلة الأراميين قوم إبراهيم عليه السلام، سكان حضرموت اليمنية. كذلك الأمر مع قبائل منطقة أوسان التي عبثت الإله الصنم "كنعان" ونسبت إليه، وينطبق الأمر ذاته على قبائل منطقتي لحج وتعر عبدة الإله الصنم "عم" وإليه نسبت وعرفت بالعمونيين. ومع توفر كل تلك المعلومات لدى العرب، إلا أن الطبري أخذ بآنساب التوراة، وعنه نقل كل من جاء بعده من المؤرخين، إذ جعلوا الكنعانيين ينتسبون إلى الجد كنعان بن حام، وهم درجة أقل منزلة من الساميين، حسب التوراة، وأسكنوهم في بلاد الشام، خاصة الجزء الجنوبي "فلسطين"، وأطلقوا عليها اسم بلاد الكنعانيين.

⁹¹ إسرائيل فنكلشتاين.

وبذلك وضعوا بأيدي اليهود سندا مههورا بختهم عربي إسلامي يخولهم الاستيلاء على فلسطين، بحجة وجود وعد سماوي للجد الأعلى إبراهيم الأرامي. وبذلك أصبح الكنعانيون سكان فلسطين الحالية، النعمة الشاذة في معروفة الأنساب التوراتية، كمقدمة لإسقاط حقهم في بلادهم.

وكان أول تزوير جعل السامية كشعب ولغة فوق الجميع وأرجعوا إلى الآفة السنين، علما أن البشرية لم تعرف ذلك المصطلح حتى أطلقه العالم اللغوي النمساوي "أوغست لودوك شلو تزر August Ludwig Schloter" عام 1781، معتمدا على نسب سام التوراتي، ثم قام "أشهرن Eichhorn" بتبني المصطلح وبثه عن طريق النفوذ اليهودي في أوروبا، ليلبس بعد ذلك ثوب الحقيقة رغم زيفه.

أما التزوير التوراتي الاستشراقي فقد طال كل ما يتعلق بالقبيلة الإسرائيلية، بدءا من إصباح الأفضلية والقداسة على الابن الأوسط لنوح عليه السلام "سام" ولعن بقية إخوته، وتفضيل الجد الأعلى إبراهيم عليه السلام على القبيلة الأرامية، وتفضيل ابنه إسحاق عليه السلام على كل إخوته، وتفضيل يعقوب عليه السلام على أخيه، لينتهي الأمر إلى اصطفاء كل شعب بني إسرائيل بما فيهن الزنانيات وأبنائهن، وتفضيل كل اليهود من شتى أصولهم، وإلحاقهم بالنسب السامي التوراتي.

أما ما يخص فلسطين وأهلها، فقد اختلقت التوراة نسبا لهم، فألحقهم بالجد الخرافي كنعان بن حام بن نوح، الملعون بسبب خطيئة أبيه، ثم طال التزوير أسماء المدن والقرى لتتناسب مع مرويات التوراة، ليبدو الأمر حقيقة مسلم بها.

لكن التزوير الاستشراقي لاقى ضربات قاتلة، تمثلت في فشل كل البعثات الأوروبية والإسرائيلية التي نقيت في الأرض الفلسطينية شيراً شبيراً، في العثور على أي دليل أثري "اركيولوجي" مهما كان بسيطاً يشير إلى وجود القبيلة المقدسة -الإسرائيلية- في أي مرحلة تاريخية تعود إلى ما قبل القرن الميلادي الأول. فخلال المئة العام الماضية، انشغلت مئات البعثات الأثرية في عمليات بحث شملت كل الأرض الفلسطينية وصحراء سيناء، ولم تترك شبرا واحدا بدون تنقيب. وحدث ذلك تحت إشراف وتشجيع الحكومة "الإسرائيلية" ودعمها المالي، علاوة على دعم المنظمات اليهودية في أوروبا وتشجيعها. وقد بلغ عدد أفراد البعثات المنقبة في إحدى السنوات 3 آلاف شخص، ما بين خبير وعالم آثار وعامل. لكن باءت كل تلك الجهود بالفشل الذريع. الأمر الذي دفع "إسرائيل فنكلشتاين Israel Finkelstein" أحد أشهر علماء الآثار اليهود إلى القول: "لا يوجد دليل أثري Archaeology محسوس، أو بقايا ثقافية، أو دلائل لها طابع تاريخي على الإطلاق يشير مجرد إشارة إلى أن أحداث التوراة حدثت في فلسطين. وقد بحثنا بين كل حبة رمل وأختها، ولم نعرش على شيء، وقد استنفذ علم الآثار طاقته في هذا الموضوع، وانه؛ إما أننا كنا نبحث في المكان الخطأ، أو أننا نبحث عن خرافة".

لم يكن "إسرائيل فنكلشتاين" الوحيد خرج بذلك الاستنتاج الذي أثار عاصفة من الغضب بين الإسرائيليين، فهناك غيره العشرات، ومنهم "نيل سييرمان Neil Asher Silberman" المختص بعلم الآثار التوراتي Biblical Archaeology، وصاحب المؤلفات العديدة، وزميل إسرائيل فنكلشتاين في تأليف كتاب "التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها". وتضم دائرة

المعارف البريطانية، ومؤسسة الدراسات الفلسطينية، مئات المؤلفات من كتب وأبحاث تهدم السرد التوراتي مع أساسه. ولا ننسى الإشارة إلى البروفيسور في تاريخ "إسرائيل" بجامعة تل أبيب، وأحد المشرفين على البعثات الأثرية، ومؤلف ثلاثية:

- اختراع الشعب اليهودي، متى وكيف.

- اختراع أرض إسرائيل " « The Invention of The Land of Israël

- كيف لم أعد يهوديا.

وصاحب المقولة: "إن علم الآثار أجبر على الصمت، كي لا نتكشف حقيقة تاريخ بني إسرائيل اليميني"، التي هزت الكيان الصهيوني من أساسه.

وقال في مقابلة صحفية شارحا بعض ما حواه كتابه: " لقد حاولت أن أشرح في كتابي "اختراع الشعب اليهودي"؛ كيف فبركت الحركة الصهيونية تاريخًا مزيفًا لليهود مبنيا على فكرة الشعب اليهودي. وبيّنتُ أن هذه فكرة خاطئة وخرافة، تم استعمالها من أجل تبرير الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية ومن أجل شنّ الحروب على الدول العربية. أطروحتي في هذا الكتاب، أنه ليس ثمة شعبٌ يهودي بالمعنى المتفق عليه والرائج. ثمة أقوام يهودية مختلفة، وذات ثقافات مختلفة. والقاسم المشترك بينها، هو ممارستها للشعائر والطقوس الدينية نفسها. فالشعب بالمعنى الأنثروبولوجي والسوسولوجيا (الاجتماعي)، مصطلحٌ يُطلق على مجموعة بشرية تجمعها ثقافة مشتركة مثل؛ اللغة والأدب والموسيقى وما إلى ذلك من الشروط الثقافية الأخرى. وهذا ما لا ينطبق على الشعب اليهودي الذي اخترعته الحركة الصهيونية، إذ لا توجد ثقافة مشتركة بين يهود ألمانيا ويهود العراق أو المغرب، ما يعني أن الطوائف اليهودية كانت تعيش في كنف ثقافات وطنية مختلفة وفق البلد الذي تقيم فيه. من جهة أخرى، هناك شرط إضافي يحدّد مفهوم الشعب ويتمثل في الانحدار من أصل واحد. وفي هذا الباب أيضاً دأب مؤرخو الحركة الصهيونية على ترويح خرافة أخرى، تقول إن فلسطين هي أرض اليهود، وأنهم اقتلعوا منها من قبل الإمبراطور الروماني تيتوس في سنة 67 ميلادية. لا أعتقد بصحة هذه الحكاية، إذ لا يوجد دليل تاريخي أو علمي مقنع، يسندها. خلاصة الأمر، إن الديانة اليهودية كانت أول ديانة توحيدية وتبشيرية، وقد انتشر اليهود في بلاد الرافدين وفي الشرق الأوسط وفي حوض البحر الأبيض المتوسط، وهذا ما يفسر اعتناقها من قبل أعداد كبيرة. وبعد ظهور الديانتين المسيحية والإسلام، كفّ اليهود عن التبشير وانكفأوا على أنفسهم في كل المناطق التي كانوا يعيشون فيها. كذلك فإن الحركة الصهيونية أسست أسطورة "الشتات اليهودي" الذي يلتئم شمله في أرضه الأصلية فلسطين، وهذه أيضاً كذبة صارخة.

ويعد كتاب "المدينة المسحورة" الذي ألفه البروفيسور "ويليام داري ميل" من أهم المراجع التي تفند الأساطير التوراتية نتيجة الأبحاث الأثرية التي تمت في فلسطين، في حين أتفق أكبر كتاب التاريخ اليهودي الدكتور "تورمان كانتور" في دراسته بعنوان "السلاسل المقدسة" مع أستاذ الديانة اليهودية في جامعة بيركلي/كاليفورنيا، الذي توصل بعد دراسة وبحث إلى النتيجة التالية: "إن التوراة المتداولة الآن يجب قراءتها بعيون الأدب، وليس بعيون التاريخ والدين".

أما الدكتورة " شولا ميت جيفا " أستاذة الدراسات اليهودية في جامعة تل أبيب، فقالت بالنص: "إن علم الآثار اليهودي أريد له تعسفا أن يكون أداة للحركة الصهيونية، تخلق بواسطته صلة بين التاريخ اليهودي القديم والدولة اليهودية المعاصرة ". وهذا يتفق تماما مع دراسة للدكتور " كيث ويتلم " نشرها بعنوان: "اختراع التاريخ اليهودي القديم وخنق التاريخ الفلسطيني كله"، وهي دراسة تغني عن كل شيء.

نقول استنادا إلى الأف النقوش سواء اليمنية أو الآشورية النتائج التي توصل إليها عشرات من الباحثين اليهود، والمستشرقين المتحررين من قيود التوراة: إن كل السرد التوراتي الخاص بالتاريخ اليهودي وما يلحق به من جغرافيا تحتضنه، والمتعلق بالأرض العربية من الفرات إلى النيل، مجرد تزوير استشراقي لصنع خرافة شعب الله المختار، وأكذوبة الحق السماوي في الأرض العربية.

محاولة التوفيق بين الجغرافية الفلسطينية وأحداث التوراة

"علم الآثار اليهودي يعلن بكل وضوح، أن لا علاقة بين فلسطين وأحداث التوراة ومروياتها"⁹²

ذكر العلامة "ويليام داري مبل" في كتابه عن القدس بعنوان "المدينة المسحورة"، تفاصيل موثقة عن الجهد الذي بذلته الدولة (الإسرائيلية) من سنة 1948 إلى سنة 1995، في التنقيب عن آثار تدل على التاريخ اليهودي في فلسطين، يمكن الإشارة إليه وإشهاره في وجه المتشككين في القصة الأسطوري الوارد في التوراة. وكيف بنى القائمون على علم الآثار اليهودي أحلاما على نتائج تلك الأبحاث، انهارت بعضها تلو بعض.

حفریات القدس

تدعي التوراة أن الهيكل الذي بناه سليمان عليه السلام، موجود في القدس، وبالذات تحت المسجد الأقصى. ويؤمن علماء الآثار من التيار اللاهوتي التوراتي أن المسجد الأقصى المرواني، شيد بحجارة الهيكل الذي هدمه الرومان علم 70م، حسب الخرافة التاريخ.

كان أول عمل قامت به حكومة "إسرائيل" بعد احتلالها القدس الشرقية عام 1967، إرسال بعثة للتنقيب عن بقايا هيكل سليمان المزعوم، إذ بدأت أولى البعثات عملها في 21 حزيران 1967، أي بعد مرور 14 يوما على احتلال القدس، مما يدل على حرص دولة الكيان الصهيوني على إثبات حق اليهود في فلسطين. لكن ذهبت جهود كل بعثات التنقيب سدى، إذ لم يتم العثور على أي أثر مهما كان بسيطا، يؤيد الزعم التوراتي.

يقول "ويليام داري مبل" كان تقدير العلماء الإسرائيليين أن موقع الهيكل قريب من أسوار مسجد قبة الصخرة، وبدأت الحفريات واستمرت رغم اعتراضات اليونسكو (منظمة الثقافة والعلوم التابعة للأمم المتحدة). وعثرت البعثات الإسرائيلية على بقايا معالم، فأعلنت عنها وهللت بها، ثم اضطرت إلى تغطية الاكتشاف بستائر من الصمت، لأن البقايا التي عثر عليها لم تكن إلا آثار قصر لأحد ملوك الأمويين، وهو أمر يدحض الدعاوي الإسرائيلية من الأساس، ويكشف أنه ليس هناك ماض يبنى عليه حاضر ومستقبل".

أثبت الفحص الذي قامت به البعثة السويدية المشاركة في ذلك التنقيب؛ أن الحجارة المستخدمة في البناء، تختلف عن حجارة القدس، وأنها اقتطعت من صخور أخرى، ثم جرى إعدادها للبناء، وأنها تحمل كتابات عربية غير منقوطة يرجع تاريخها إلى ما بين (650-700) م، وكتابات منقوطة يرجع تاريخها إلى ما بين (740-800) م، مما يدل على أنه أعيد تجديد البناء فيما بعد. وكان ذلك بمثابة صفة على وجه علم الآثار اللاهوتي، والسرد التوراتي. فبعد أن روجت

⁹² شلومو ساند

الحكومة "الإسرائيلية" لذلك الاكتشاف، وتحدث عنه الإعلام واحتفل به، غطته سحب الصمت، واسدل الستار على نتائجه.

بالرغم من مرور ما يزيد على خمسين سنة على احتلال فلسطين، والحفريات التي طالت كل شبر من القدس، لم يتم العثور على أي دليل أركيولوجي مهما كان بسيطاً، يثبت السرد التوراتي. بل أثبتت الحفريات أن معظم الحجارة المستخدمة في بناء سور القدس، تعود الى ما قبل القرن 45 ق.م، مما يثبت نظرية بناء القبيلة اليبوسية التي حطت رحالها قادمة من اليمن لمدينة بيت السلام "أور سالم"، قبل مولد جد القبيلة الإسرائيلية الأعلى بعدة مئات من السنين.

اعتبرت الدولة "الإسرائيلية" لفائف وادي قمران بمثابة قارب النجاة، الذي سيرسو بها على بر وجود بني إسرائيل فوق الأرض العربية. فبعد أن أعلنت التوراة إفلاسها وعدم قدرتها على إثبات تواجد معتقديها في فلسطين في أي مرحلة تاريخية، جاء اكتشاف تلك اللفائف كطوق نجاة.

بدأت قصة اللفائف عام 1947 باكتشاف أحد الرعاة الفلسطينيين عددا من الأواني الفخارية داخل مغارة قرب خربة "قمران" شمال البحر الميت، وبداخلها سبعين مخطوطة، منها سبع مخطوطات كاملة، مكتوبة على قطع من الجلد وورق البردي، إضافة لبعض القصاصات التي كتب عليها جمل متفرقة. وانتهى المطاف بتلك المخططات إلى أحد المطارنة الذي هربها إلى أمريكا عام 1948.

وعندما تم الكشف عنها وزاد اهتمام المتعاملين بالآثار بها، بدأت عمليات بحث مكثفة قامت بها سلطات الآثار الأردنية والسكان المحليين أسفرت عن اكتشاف ما بين 800 و900 مخطوطة يعود تاريخها إلى الفترة بين عام 150 ق.م، و70 ميلادية كما أشيع بداية الأمر.

قامت دائرة الآثار الأردنية عام 1966 بتعيين لجنة دُولية ضمت ثمانية باحثين من بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، والولايات المتحدة وبولندا، برئاسة الأب الدومينيكي "رولاند ديفو"، وعهدت إليهم بمهمة قراءة وترجمة وتفسير المخطوطات، ثم حفظت في متحف الآثار الفلسطيني المعروف بمتحف "روكفلر" بالقدس. وبعد مرور أقل من عام قامت "إسرائيل" باحتلال القدس، واستولت على المخطوطات كلها.

تتضمن اللفائف مجموعة كبيرة من الوثائق اليهودية المكتوبة باللغة العبرية (80%) والآرامية/العربية القديمة (17%)، واليونانية (3%)، وتشمل العديد من الموضوعات والأساليب الأدبية، وهي تضم مخطوطات، أو قطعاً منها، لكل أسفار الكتاب المقدس اليهودي (العهد القديم) ما عدا سفر إستير، وكلها أقدم من أية مخطوطات كتابية معروفة بحوالي ألف عام. كما تحتوي المخطوطات على أقدم شرح كتابي موجود لسفر حيقوق، والعديد من الكتابات الأخرى، من بينها كتابات دينية متعلقة بالطوائف اليهودية في ذلك الزمن.

اعتقد المختصون أن اللفائف كتبت لطائفة يهودية تدعى "الأسينيين"، ظهرت بين القرنين الثاني ق.م، والأول الميلادي، وهي طائفة انشقت عن الطائفتين اليهوديتين الرئيسيتين: الصدوقيون وهم أصحاب الامتيازات والأكثر تعاوناً مع الحكم الروماني، والفريسيين. وقالوا إن تلك الطائفة لم تكن سوى جزء بسيط من مجتمع يهودي كبير كانت أورشليم القدس مركزاً رئيسياً لوجوده ومدينته المقدسة.

لا يهمنا في هذا المقام معرفة محتوى اللفائف الديني، بل عمرها الزمني، لأن القول بأنها تعود إلى القرن الثاني ق.م، يثبت دعوى وجود اليهود في فلسطين في تلك المرحلة الزمنية.

شكك العديد من الباحثين في المخططات، حيث يرى عدد من الباحثين، أن سفر أشعيا المكتشف في لفائف قمران لا يتطابق مع سفر أشعيا الحالي، وقالوا إن العلماء منعوا من مشاهدة نص اللفائف لمدة 40 سنة، ولم يسمح لهم بإجراء فحص لها حتى تم تغيير المكتشفات. كما أشاروا

إلى أن هناك 500 قطعة أخفاها الإسرائيليون مثلما فعل الفاتيكان ببعض المخطوطات التي حصل عليها.

وكان متحف الكتاب المقدس في الولايات المتحدة، ألغى عرض أجزاء من مخطوطات كان يُعتقد أنها من مخطوطات وادي قمران، بعد أن أثبتت الاختبارات أنها مزيفة. ثم بدأت مهمة التحقق من أصالة أجزاء المخطوطات مرة أخرى، بعد أن قام علماء في الكتاب المقدس، بفحص 13 جزءاً من الأجزاء التي لم تخضع للدراسة سابقاً في المتحف، ثم أرسلت إلى ألمانيا لفحصها، وخرجوا بنتيجة تقول: إن ثمة "احتمالاً كبيراً" بأن عدداً من هذه المخطوطات مزيف حديثاً.

في البداية منعت حكومة الكيان الصهيوني مجرد الاقتراب من المخطوطات، وكذلك فعل الفاتيكان بالمخطوطات التي بحوزته.

وذكر "مايكل بيجنت وريتشارد لي" في كتابها الصادر عام 1991 تحت عنوان "خداع مخطوطات البحر الميت": أن المخطوطات تخضع مباشرة لبابا الفاتيكان، الذي يتدخل في عملية الترجمة والنشر، ويمنع ما يخالف العقائد المسيحية، وأن هذا يهدد بضياح المخطوطات والمعلومات التي تتعارض الفاتيكان. وظهرت أقوال أخرى بأن الفاتيكان والحكومة "الإسرائيلية" اتفقا على ألا تخرج هذه المخطوطات بما يزعمه العالم المسيحي والدولة اليهودية. فما نشر منها لا يتعدى 1% من مجموعها، وكان ذلك بعد ضغوطات من العلماء والمختصين، إذ تم السماح لثمانية منهم جلهم من اليهود الاطلاع عليها، شريطة ألا ينشر شيء منها إلا بإذن منها.

أجرى العلماء عدة حوارات ومؤتمرات حول مخطوطات قمران، منها المؤتمر الشهير الذي عقد في جامعة نيويورك عام 1993 بين أستاذ الأديان في قسم الدراسات الشرقية في جامعة نيويورك الدكتور "روبيرت وايزمان Robert Wiseman" أستاذ اللغة الآرامية في جامعة شيكاغو الدكتور "ميكايل ويز Michael Wise" وقد بين الدكتور وبيرت أن الفحص الكربوني لمعرفة تاريخ المخطوطات غير دقيق، لذلك لا يعطي نتيجة يوثق بها. وبين احتمال الخطأ من خمسين إلى مئة سنة، وبذلك تكون المخطوطات قد كتبت كلها بعد الميلاد بسنوات وليس قبله.

وقد علقت صحيفة "هآرتس" الصهيونية على المؤتمر فقالت: إن الغالبية العظمى من الوثائق والمخطوطات التي كانت تعتبرها "إسرائيل" دليل تاريخي على أحقية اليهود بفلسطين، والتي تعرف بوثائق البحر الميت" هي وثائق مزيفة.

خلاصة القول: لا يوجد دليل على أن لفائف وادي قمران أو أي منها قد كتبت قبل الميلاد، وأن المعروض منها تم بإذن الحكومة "الإسرائيلية"، وثبت أنه مزور، وأن هناك اتفاق بين الفاتيكان والحكومة "الإسرائيلية" على إخفاء المخطوطات.

حائط المبكى واستفزاز المشاعر الدينية

لا يملك المتديّنون اليهود بكل طوائفهم، شرقية كانت أم غربية، أي سند ديني من التوراة، ولو كان واهيا أو عديم القيمة، يمكن العودة إليه لتبرير أو تفسير وجود ما يدعى "حائط المبكى" في القدس الحالية، أو قدش برنوع اليمنية. فمن أين جاءت أسطورة هذا الحائط؟ وما هي الجذور الدينية والتاريخية لطقس البكاء عند يهود اليوم؟

إن مشهد المصلّين اليهود المندفعين بلا توقف لممارسة شعيرة البكاء عند حائط البراق، مفعمين بالإيمان والقناعة بأنهم يبكون عند حائط المبكى اليهودي القديم، هو أمر مثير للحيرة حقا، إذ ليس في النص التوراتي بلغته الأصلية (العبرية) جملة أو كلمة أو إشارة، تلمح -مجرد تلميح- إلى وجوده. لكن ما يثير الحيرة؛ أن اليهود من أصول أوروبية لا يعرفون في ثقافتهم الدينية والاجتماعية كيهود غربيين، ممارسات أو شعائر أو طقوسا بكائية. فما الذي يدفع اليهودي الفرنسي أو الإنجليزي مثلا إلى البكاء؟

لا يوجد في المراجع التاريخية، ما يشير إلى أن المجتمعات الأوروبية القديمة والمعاصرة التي جاء منها غالبية اليهود، كانت تعرف ثقافة بكائية في تاريخها، يمكن أن تشكل أساسا دينيا لهذه الطقوس. ولو كان هذا اليهودي الباكي عند الحائط من أصول عراقية، أو مصرية، أو فارسية، لكان منطقيا افتراض أن أجداده القدماء عاشوا في بيئة تعرف ثقافة النواح الديني على آلهة الخصب والحب. ففي مجتمعات بلاد ما بين النهرين وادي النيل وفارس ترعرعت ثقافة بكائية قديمة مستمرة حتى اليوم.

لقد ناح العراقيون والفرس القدامى على الإله تموز، وساروا في مواكب حزن جماعي في شوارع بابل، كما شاهد هيرودوت، ودونته النقوش التي يرجع تاريخها الى نحو 500 ق.م. وهذا ما فعله المصريون أيضا منذ آلاف السنين، حين مارسوا طقوس البكاء على مصرع الإله إيزوريس. أما طقوس البكاء اليهودية عند الحائط المقدس كما يصفونه؛ فلا توجد لها جذور أو أصول سواء كانت دينية أو تاريخية، فهذا "اختراع" استشراقي متأخر.

يعود الظهور الأول لعبادة البكاء بين أوساط المتدينين من اليهود الغربيين إلى عام 1845م، عندما أدى الحاخام "إيزاك مانهايمر" صلاة الفصح اليهودية في المعبد اليهودي في مدينة فينا النمساوية، وختمها بالبكاء وإطلاق عبارة: تنساني يميني إن نسينك يا أورشليم. ومنذ عام 1870م، أصبحت شعيرة البكاء جزءًا من التقليد الديني اليهودي، أي أن عمرها 150 عاما فقط، متزامنة مع تصاعدت هستيريا عودة اليهود إلى الأرض المقدسة، لإعادة إحياء مملكة داوود، تمهيدا لعودة المسيح عليه السلام، حسب الاعتقاد اليهودي والمسيحي. لذلك عملت المسيحية الإنجيلية على إحياء الحنين لأورشليم القديمة، التي يجب البكاء عند أسوارها المهمة.

وهكذا راح كُتّاب التاريخ اللاهوتي يبحثون في فقرات التوراة عن سند يدعم حالة الحنين لأورشليم، من منطلق البكاء الذي يغذي عادة الشعور الديني. ووجدوا ضالتهم في فقرة توراتية

يتيمة في سفر حزقيال نصها: {فَجَاءَ بِي إِلَى مَدْخَلِ بَابِ بَيْتِ الرَّبِّ الَّذِي مِنْ جِهَةِ الشِّمَالِ، وَإِذَا هُنَاكَ نِسْوَةٌ جَالِسَاتٌ يَبْكِينَ عَلَى تَمُوزَ} 94.

النص واضح إذ يشير إلى أن النسوة اليهوديات كن يبكين على الإله تموز، كما كانت تفعل نساء بلاد الرافدين. لكن مفسرو التوراة ذكروا أن البكاء كان على أورشليم المهدمة، والحائط المقدس. وإذا ما تأملنا في باقي الفقرات التوراتية، يظهر لنا زيف ذلك الادعاء.

{فَقَالَ لِي: أَرَأَيْتَ هَذَا يَا ابْنَ آدَمَ؟ بَعْدَ تَعُودِ تَنْظُرِ رَجَاسَاتِ أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ. فَجَاءَ بِي إِلَى دَارِ بَيْتِ الرَّبِّ الدَّاخِلِيَّةِ، وَإِذَا عِنْدَ بَابِ هَيْكَلِ الرَّبِّ، بَيْنَ الرِّوَاقِ وَالْمَذْبَحِ، نَحْوُ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ رَجُلًا ظَهَرُوا نَحْوَ هَيْكَلِ الرَّبِّ وَوُجُوهُهُمْ نَحْوَ الشَّرْقِ، وَهُمْ سَاجِدُونَ لِلشَّمْسِ نَحْوَ الشَّرْقِ}. وَقَالَ لِي: {أَرَأَيْتَ يَا ابْنَ آدَمَ؟ أَقَلِيلٌ لِيَبَيْتِ يَهُودًا عَمَلُ الرَّجَاسَاتِ الَّتِي عَمَلُوهَا هُنَا؟ لِأَنَّهُمْ قَدْ مَلُوا الْأَرْضَ ظُلْمًا وَيَعُودُونَ لِإِعَاطِيَّتِي، وَهِيَ هُمْ يَقْرَبُونَ الْعُصْنَ إِلَى أَنْفِهِمْ} 95.

النص واضح جلي، يشير إلى أن الكاهن/النبى حزقيال شاهد بكاء اليهود على الإله تموز. وبكل تأكيد لا أحد من اليهود يدعي أن تموز كان من آلهتهم. كما أن النص يشير إلى أن البكاء في معبد تموز العراقي، تصاحبه رقصات دينية، ونواح، وسجود للشمس، ثم استنشاق لرائحة غصن شجرة يقرب من الأنف ساعة البكاء. وهذه كما دونتها النقوش الآشورية؛ عناصر عبادة إله الخصب العراقي القديم. لذلك ظل الكهنة اليهود يعتبرون طقس البكاء عند الحائط، رجساً وخطيئة بحق الرب. ونعلم من النقوش أيضا عن قيام الآشوريين بفرض عبادتهم (الوثنية) ومنها عقيدة عبادة إله الخصب تموز، على اليهود بعد سبيهم من مملكة أوسان اليمينية، إلى بلاد ما بين النهرين.

إن النقوش التي دونت حملات الملوك الآشوريين كشلمانصر، وسنحاريب، وسرجون، ونبوخذ نصر على اليمين، سجلت بوضوح أنهم احتلوا أورشليم اليمينية، واصطدموا بقبائل سبأ وحمير وخولان، تؤكد لنا بوضوح زيف الادعاء التوراتي. ففي نقش سنحاريب نجد: "وفرضت عليهم التنازل عن أرضهم، بالإضافة للمكوس والهدايا لجلالتي. وبالنسبة لحزقيا، فإن الجلال المرعب لجلالتي غلبه، والغربي وكتائب المرتزقة التي جلبها لتحصين أورشليم، مدينته الملكية، وفي مستهل معركتي المرعبة انتابه الخوف، وجمع الآلهة (الأصنام) في كامل الأرض من أضرحتها.

لقد تطلب اغتصاب فلسطين تليفق أسطورة أرض الميعاد، وأكذوبة الوعد السماوي. لكن الاستيلاء على القدس وضمها، تطلب تليفق طقس ديني وتحويله، من طقس وثني إلى شعائر في صلب العقيدة اليهودية.

94 سفر حزقيال8(14).

95 سفر حزقيال8(16-17).

فحوصات الحمض النووي والمازق التوراتي

كان العالم يوم الإثنين (2019/7/8)، على موعد مع رئيس وزراء الكيان الصهيوني "بنيامين نتنياهو" ليعيد أمجاد المدرسة التوراتية التي مارست مختلف أصناف القولية، والتزييف، والعبث بالأدلة، والكذب، والإرهاب الأكاديمي. فخرج علينا مغردا على صفحته في "تويتر" كاتباً: "تؤكد دراسة جديدة للحمض النووي تمت استعادتها من موقع فلسطيني قديم في مدينة عسقلان، ما نعرفه من الكتاب المقدس، أن أصل الفلسطينيين القدماء موجود في جنوب أوروبا. ويذكر الكتاب المقدس مكاناً يدعى كافتور، وهو على الأرجح جزيرة كريت الحديثة. لا توجد صلة بين الفلسطينيين القدامى والفلسطينيين الحاليين الذين جاء أسلافهم من شبه الجزيرة العربية إلى أرض إسرائيل بعد آلاف السنين. إن ارتباط الفلسطينيين بأرض إسرائيل ليس شيئاً، مقارنة مع 4000 عام من الارتباط بين الشعب اليهودي والأرض".

فما هي قصة فحص الحمض النووي، التي أسكرت نتنياهو وجعلته يرقص فرحاً من على منصة "تويتر"؟

البداية كانت عندما أعلن قبل أربع سنوات عن اكتشاف مقبرة قرب عسقلان، تعود إلى العصر البرونزي الأول (800-1200) ق.م، ضمت حوالي 108 جثث لخليط من الرجال والنساء والأطفال. وحسب ادعاء التوراة، فإن ذلك العصر شهد هجرة قبائل أوروبية انطلقت من جزر البحر المتوسط واستوطنت ساحله الشرقي، وعرفت باسم فاليستا، ومن إسمهم اشتق الاسم فلسطين.

شكل اكتشاف المقبرة الحدث الأثري الأبرز خلال القرن الواحد والعشرين، بحسب التغطية الصحافية والإعلامية المواكبة للحدث، وكانت الآمال كبيرة عند فريق العمل المكون من تحالف أكاديمي، يضم باحثين من جامعة هارفارد، وكلية بوسطن، وكلية ويتون في إيلينوي، وجامعة تروي في ولاية ألاباما، في إيجاد الملامح الحضارية والجينية الخاصة بهذا الشعب القادم من وراء البحار، بحسب اعتقادهم. وأرسلت جثث عدة إلى الباحثين في معهد "ماكس بلانك لعلموم التاريخ البشري Max Planck Society في ألمانيا للكشف عليها. وبعد أن أجريت الفحوص اللازمة، نشرت مجلة الرابطة الأمريكية للعلوم المتقدمة Science Advances، نتائج الدراسة.

جاء في مقدمة ما نشرته الرابطة الأمريكية: "يصعب تمييز جينات -أخذت من عينات هياكل عظمية لمقبرة قديمة لفلسطيني عسقلان يعود عمرها لأكثر من ثلاثة آلاف عام- عن جينات السكان المحليين لبلاد الشام".

وقد نجح باحثو الدراسة في استعادة البيانات الجينية من بقايا 10 أفراد عاشوا في عسقلان خلال العصر البرونزي والحديدي. وأتاحت هذه البيانات للفريق مقارنة الحمض النووي لأهل عسقلان في العصر البرونزي والعصر الحديدي لتحديد مدى ارتباطهم.

وجاء فيها أيضا: "ما جرى التوصلُ إليه في فحوصات الحمض النووي يتناسب مع دراسات أكاديمية سابقة بشأن الانتماء المتعدد لسكان المنطقة وعلاقته بعدد من الأصول الأخرى، وهو مدى احتضان مدينة عسقلان لعدد من الجينات من كلِّ من الأناضول وإيران وجنوب أوروبا". وتثبتت العينات أن بين سكان عسقلان، أناس من الأناضول وإيران وجنوب شرق أوروبا.

وأشارت أيضا: لكن دراسة جينات منطقة بلاد الشام تفيد بدرجة عالية من الاستمرارية الوراثية للعنصر المحلي، الذي اختلط في وقت لاحق بعناصر من الأناضول وإيران، ومن جنوب شرق أوروبا". أي أن شعوب بلاد الشام حافظت على عناصرها الوراثية بدرجة عالية من الاستمرارية، مع وجود تلك الجينات.

وبكل وضوح جاء في الدراسة: "سكان عسقلان الذين أخذت عينات من رفاتهم، يستمدون معظم صفاتهم من موروثات بلاد الشام المحلية، في المقابل كان التأثير الوراثي لأسلاف من جنوب شرق أوروبا، محدودا للغاية، وقصير الأمد". أي أن التأثير الوراثي للقادمين من جنوب شرق أوروبا، كان محدودا وقصير الأمد، انتهى تأثيره. ويعني ذلك، أن هجرة بعض الأوروبيين من مناطق بحر إيجه وسردينيا قد جرى استيعابها، وذابت في مجتمعات السكان المحليين، وأدى تزواجهم السريع مع جيرانهم الجدد إلى انصهارهم بين سكان بلاد الشام وشرق المتوسط.

ولتوضيح ذلك قالت الدكتورة "ميشال فيلدمان" عالمة الآثار بمعهد ماكس بلانك والمشاركة في الدراسة "لقد تمكنا من تتبع هذه الحركة للأشخاص القادمين إلى عسقلان من جنوب أوروبا، ووجدنا أنها تختفي بسرعة كبيرة في غضون منتهي عام. لكن المهم أن الدراسة لم تشمل على تأكيدات تثبت أن رفات جثامين المقبرة التي أجري عليها فحص الحمض النووي تعود لفلسطينيين قداماء، فربما كانت لمهاجرين أو تجار أو غزاة أتوا إلى مدينة عسقلان التاريخية ذات التواصل البحري مع العالم القديم، ولا تبدوا عينة من عشرة أفراد كافية على الإطلاق لتمثيل شعب كامل سكن مساحة جغرافية واسعة من بلاد الشام القديمة".

ما جاء في تلك الدراسة يتناقض، تماما، مع ما نشرته دراسة أعدتها "شيرلي بن-دور إيفيان" - أمين الآثار المصرية في متحف إسرائيل- في عام 2017، وتضمنت وثنائق عمرها أكثر من 3200 عام، وتعود إلى عهد الملك رمسيس الثالث، مبينة أن الفلسطينيين ليسوا من المحاربين الأجانب القدامى الذين هاجروا إلى الشرق الأوسط من تكريت وقبرص وغيرها من المناطق الأوروبية، بل هم من أبناء الشرق الأوسط الأصليين. وقد بحثت "إيفيان" في السجلات المصرية القديمة من القرن (12) ق.م، لتسليط الضوء على أصل الفلسطينيين وغيرهم من "شعوب البحر" التي ظهرت في بلاد الشام، بوجه عام، وفلسطين بوجه خاص، خلال العصر البرونزي، من خلال مناقشة الفترة التاريخية للملك رمسيس الثالث في مصر. وكشفت أن الفلسطينيين هم من السكان المحليين، أي أرض كنعان، وجاءوا من سوريا أو الأناضول، لمألوا الفراغ الناشئ عن سقوط الإمبراطورية الحثية، في تلك الفترة التاريخية من منطقة الشرق الأوسط.

فند العديد من المختصين ما جاء في تلك الدراسة، والخاص بوجود حمض نووي تسلل من هجرات قادمة من جنوب شرق أوروبا، أنقل ما رد به الباحث الفلسطيني احمد الدبش، المتخصص بعلم التاريخ: "إنه من الناحية الجينية، نجد أن الفلسطينيين من أصل كنعاني عربي،

وتداول معلومات ملفقة حول أصل الفلسطينيين القدامى، يأتي لتأكيد رواية أن أصل الفلسطينيين من كريت. يمكننا تنفيذ هذه الرواية؛ ففي منتصف تسعينيات القرن الماضي، تم تصنيف السلالات البشرية حول العالم وفق جينات DNA، وتموضع الأنماط الجينية في صورة حروف؛ إذ جرى ترميز العرب ب J1، وهذه السلالة نشأت في جنوب الهلال الخصيب وهو جنوب العراق، وقد حدثت هجرتان قويتان: الأولى قبل عشرة آلاف سنة، واتجهت شمال الهلال الخصيب، والثانية جنوباً إلى جنوب الجزيرة العربية، ثم أصبحت الجزيرة العربية بعد ذلك بآلاف السنين من المراكز المصدرة للعرقية ((J1، أي أن الفلسطينيين في هذه الأرض العربية منذ 10000 عام ق.م. من الضروري أن نعتمد على مصادر أخرى لكتابة تاريخ الشعب الفلسطيني القديم، كعلم الآثار واللغويات، حتى يمكننا سرد هذا التاريخ بمنهجية وموضوعية، ودعوى قدوم الفلسطينيين من كريت أو من أوروبا، في عام 1200 ق.م - كما يقرر ذلك أصحاب الخطاب التوراتي - ليس عليها دليل علمي. إن الدراسة الحديثة تؤكد أن الفلسطينيين القدماء من أبناء عسقلان هم من الكنعانيين، وليسوا من شعوب البحر، وهم والعرب الحاليون من سلف مشترك، أي من رجل واحد عاش قبل 10000 عام، اسمه العلمي ((J1- Z2331، وإذا كانت هناك هجرات جاءت بالفعل، فهذا لا يعني أنه لم يكن هناك وجود لأصحاب الأرض الحقيقيين (العرب الكنعانيين) قبل مجيء هذه الهجرات؛ وهو ما يتناقض مع ما تسعى الدراسة للترويج له، من أن أصحاب الأرض أنفسهم ليسوا منها وإنما كانوا مهاجرين من أوروبا.

يقول عبد الوهاب المسيري "ثمة هزيمة داخلية في الفكر العربي، تجعل من الغرب المرجعية الوحيدة، ومصدر المعرفة الأوحد".

تلقت الدوائر "الإسرائيلية والصهيونية" وما يدور في فلكها من وسائل إعلام، نتائج الدراسة التي أجريت للكشف عن الحمض النووي لعدد من الجثث التي وجدت في مقبرة عسقلان الفلسطينية. تلك الدراسة التي أشرف عليها ثلة من المختصين العاملين في معهد "ماكس بلانك الألماني لعلوم التاريخ، ونشرته مجلة الرابطة الأميركية للعلوم المتقدمة، Science Advances Vol 5, No. 7, 03 July 2019 بنوع من الصدمة بداية الأمر، ثم قامت بحملة إعلامية لتضليل الرأي العام العالمي، وتميرير بعض الفقرات منها ونشرها، وكانت البداية ما كتبه جريدة "هآرتس" وتغريدة لرئيس الوزراء الصهيوني "نتنياهو" التي أشرنا إليها في الجزء الأول.

حرصت صحيفة هآرتس الإسرائيلية، في تغطيتها المميزة لنتائج البحث، على اللعب على الكلمات، حين كتبت أن المكونات الأوروبية في الرفات، على قلتها، تدعم وجهة النظر القديمة المستمدة من أصول توراتية عن أصول الفلسطينيين القدماء العائدة إلى بحر إيجه. كذلك كان سلوك وكالات أنباء عالمية غير مهني، في تركيزه على الجزء الصغير من المكونات الآتية من جنوب أوروبا، ليتم وضع عناوين كاذبة من نوع أصل الفلسطينيين من جنوب أوروبا، مثلما كتبت وكالة رويترز يوم الخميس 4 يوليو من نفس السنة، وهي سقطة أخلاقية ومهنية كبرى، تسببت في تضليل مئات آلاف القراء غير المتخصصين، وأوهمتهم بصحة النظرية التوراتية، بالاعتماد على معلوماتٍ مجتزأةٍ من الدراسة، ومعزولة عن سياقها المنطقي الصحيح.

وسارت على منوال "هآرتس" و"نتنياهو" صحف ومواقع إلكترونية عالمية وعربية، منها مواقع قنوات سكاي نيوز العربية، والحررة، والعربية، وانضمت بعض الصحف العربية للزفة

الصهيونية، وتناولها الفريق المتصهين من الكتاب العرب، وفرسان التثررة على صفحات الفيس بوك، وغيرها من وسائل التواصل الاجتماعي، والكل يكرّر نفس القول، فبدأ للقارئ العربي أن الأبحاث العلمية أكدت أن أصول الشعب الفلسطيني غريبة عن المنطقة. وكان حرياً بمُحرري المواقع العربية الإلكترونية على الأقل، والكتاب، العودة إلى نتائج الدراسة نفسها، فهي متاحة على شبكة الإنترنت، وهذا رابطها:

<https://advances.sciencemag.org/content/5/7/eaax0061?fbclid=>

من يدرس نتائج الدراسة الجينية هذه بتمعن، يستشف أنها صاعقة ضربت المدرسة الأثرية التوراتية، ويكتشف لماذا تم تأجيل الإعلان عن النتائج أكثر من عامين ونصف بأعذار شتى، منها الاختلاق على التمويل ومصادره، وأعذار إدارية، وما إلى ذلك. وللتخفيف من هول الصدمة، تمت صياغة مقدمتها بطريقة ضخمت التأثيرات الأوروبية في البنية الجينية للفلسطينيين القدماء، في مقابل تجاهل العناصر المحلية الطاغية، وهي تخريجه مراوغة لحفظ ماء الوجه، بعد المقدمات القاطعة للبعثة الأثرية المشار إليها. بينما كانت خريطة البنية الجينية تشير، بما لا يدع مجالاً للشك، بتطابق عينات مقبرة عسقلان مع عينات تل أشدود، وصيدا، وعين غزال المغرقة في محليتها.

قامت الخرافة التوراتية التي نسبت الشعب الفلسطيني إلى قبائل جاءت من جنوب شرق أوروبا، على نص جاء في سفر حزقيال ونصه: **﴿فَإِنَّكَ هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَآنَذَا أَمْدٌ يَدِي عَلَى الْفَلِسْطِينِ وَأَسْتَاصِلُ الْكِرْيَتِيِّنَ، وَأَهْلِكَ بِقَيْةِ سَاحِلِ الْبَحْرِ. وَأَجْرِي عَلَيْهِمْ نَقْمَاتٍ عَظِيمَةً بِتَأْدِيبِ سَخَطٍ، فَيَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ، إِذْ أَجْعَلُ نَقْمَتِي عَلَيْهِمْ﴾**⁹⁶.

وقد رسّخ علماء الآثار التوراتيين في ذهن اليهود، بناءً على هذا النص، أن الفليستين هم قومٌ همجٌ من شعوب البحر، قديموا إلى أرض كنعان مع نهاية العصر البرونزي (1250) ق.م من جزيرة كريت اليونانية وبحر إيجه. وكل ذلك بهدف تدعيم نظرية الحق التاريخي الإلهي لليهود في أرض فلسطين، والذي استندت إليه الحركة الصهيونية في نسج أيديولوجيتها القائمة على فكرة أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض.

الآن ننقل ما استند إليه من رد على الدراسة وفندها،

العينات الجينية التي جُمعت من رفات المقبرة، بيّنت نتائجها معطياتٌ كميّةٌ تؤكد انتماء فلسطيني عسقلاني إلى التركيبة الجينية المحلية المنشورة في مجلة "Science Advances" فالبنية الجينية للرفات العشرة (من أصل 108) التي استطاعت المخابر استخلاص الحمض النووي من عظامها يغلب عليها المكون الجيني المحلي الذي يرمز له بالرمز (levant_chi)، بينما يبدو المكون الأوروبي الذي يُفترض أنه قادم من اليونان (WHG) الأقل تأثيراً في التركيبة

⁹⁶ سفر حزقيال 25(17-16).

الجينية للرفات، حتى أنه ينعقد في بعض العينات. وقد بينت الدراسة بشكلٍ لا لبس فيه أن سلسلة الانتقال الجينية من العصر البرونزي (4200-1250) ق.م، أظهرت أن معظم أسلاف رفات عسقلان ينتمون إلى مجموعة موروثات بلاد الشام المحلية. وقد لاحظت الدراسة أن المكون القادم من أوروبا في العصر الحديدي يوحي بأن تدفق الجين إلى عسقلان حدث إما في نهاية العصر البرونزي أو في بداية العصر الحديدي، ولكنه كان ذا تأثير محدود، لم يترك أثراً في البنية الجينية طويلة الأجل لرفات عسقلان، الأمر الذي يعني أنه لم يأت نتيجة غزو، بل نتيجة توسع وتبادل حضاري في حوض المتوسط. وللإطلاع على عينات الرفات الذكورية لرفات عسقلان على الرابط التالي:

https://docs.google.com/spreadsheets/d/1A1jn_jDGYYN7tUHGFBkj6x4ohzYr987spqa_SILPJo/htmlview?fbclid=IwAR3bpU8j0OXk3aFFT0PLHmkiCB9K6W5KbxKfPYQVOP_OI5MiNhPd8XI-Vo#gid=894106243

وتفيد نتائج العينتين الذكورتين "ASH008 وASH066" من عينات مقبرة عسقلان الأربع بأنهما من سلالة تحور جيني عمره 5600 عام، يرمز له بالرمز "Z2331"، وهذا الرجل أيضاً هو الجد لرفات أخرى أقدم من عينات عسقلان بحوالي ألف عام تخص أميراً فينيقياً عثر عليها في مقبرة صيدا الملكية تعود إلى العام 1800 ق.م، وتحمل الرقم "ERS1790733"، كما أنه الجد لرفات أخرى، عثر عليها في مقبرة عمورية في موقع عين غزال قرب عمان في الأردن، تعود إلى العام 2000 ق.م، وتحمل الرقم "AG98_1" وهو ما يؤكد على تواصل البنية الجينية للمنطقة من دون تغيرات دراماتيكية ناتجة عن عمليات غزو وإحلال. والأهم من ذلك أن التحور الجيني الذي تنتمي له عينتا عسقلان المذكورتان، هو أيضاً الجد الجامع للعرب المعاصرين من أبناء السلالة "J1" من المحيط إلى الخليج. وللإطلاع على التحور الجيني Z2331، الذي يجمع العرب المعاصرين من السلالة "J1" مع عينات عسقلان وصيدا وعين غزال، على الرابط التالي في موقع المشجرة الجينية العالمية.

<https://www.yfull.com/tree/J-Z2331/?fbclid=IwAR1IHYYWmKpXywiCHmLEJU0jpoQx0FwmAzAhiaCoOKAFISlqF16FVcj8SKJs>

ويجتمع أغلب العرب المعاصرين تحت التحور الجيني "Z2331"، وهو حفيد التحور الجيني "P58" الذي يرى فيه معظم علماء الجينولوجيا الجد الجامع للعرب والساميين من أبناء السلالة "J1" ومنذ أواسط القرن التاسع عشر، سعت المدرسة الأثرية التوراتية إلى المطابقة بين شعوب البحر الذين يرد ذكرهم في الوثائق المصرية، وحاربهم رمسيس الثاني ورمسيس الثالث ومرنبتاح، وغيرهم من ملوك مصر، وساهموا في تدمير حواضر البحر المتوسط القديمة، والفلسطينيين القدماء الذين كانوا يستوطنون مدن عسقلان وأشدود وجت وغزة، على الرغم من أن أسماءهم وآلهتهم كنعانية، لا تختلف عن أسماء الصيديونيين والصوريين والأرواديين والقرطاجيين القدماء ومعتقداتهم. وكان تحليل علماء الآثار الصهاينة لذلك أن الفليستيين اندمجوا

مع الكنعانيين، ونسوا أصولهم الإيجابية بسرعة، وأنهم شعب سريع التعلم. وللاطلاع على تحليلات الرفات القديمة لصيدا وعين غزال وغيرها على الرابط:

https://docs.google.com/spreadsheets/d/1j_gbbh1psWPgoR8fol-6phvBkDCUKtKeTOJAq4RH6_c/htmlview

وحتى النقوش المنسوبة للفلسطينيين القدماء التي عثر عليها في عقرون وجت وعسقلان، وهي قليلة جداً، ومكتوبة باللغة الكنعانية، كانت تفسر تفسيراتٍ توراتية، تحاول أن تثبت رواية العهد القديم عن أحداث فلسطين في العصر الحديدي، حتى أصبحت الأصول الإيجابية للفلسطينيين القدماء بمثابة المسألة غير القابلة للطعن. لقد أن الأوان لإهالة التراب على المدرسة التوراتية في علم الآثار، بعد الضربات المتوالية التي تعرّضت لها، بدءاً من الأبحاث المهمة لمدرسة كوبنهاغن الأثرية، التي وضعها توماس تومسون ورفاقه، مروراً بظاهرة المؤرخين الإسرائيليين الجدد الذين نفوا علمياً وأثرياً فكرة المملكة الإسرائيلية القديمة الموحدة، ونظرية الدخول التوراتية لأرض فلسطين، وصولاً إلى نتائج التحليلات الجديدة التي تكتب الآن خاتمة غير مشرفة لهذه المدرسة التي استغلت نظرياتها لتبرير حروب الإبادة والتهجير الإسرائيلية بحق الشعب الفلسطيني.

في المقابل، سبق أن أشارت دراسة إسرائيلية إلى أن "تحليل الحمض النووي لليهود الأشكناز - وهم مجموعة عرقية يهودية ترجع أصولهم إلى أوروبا الشرقية والوسطى والغربية، يحتوي على 3% فقط من الأجداد القدامى الذين تربطهم علاقة بالشرق الأوسط، وهي نسبة ضئيلة جداً تربطهم بمناطق مثل لبنان وأجزاء من سوريا والأردن، وهو ذلك الجزء من العالم الذي من المفترض أن اليهود جاؤوا منه أصلاً".

واعتمدت الدراسة على بيانات الحمض النووي الخاصة بـ 367 يهودياً تعود أصولهم إلى شمال أوروبا وشرقها، وأكثر من 600 شخص غير يهودي معظمهم من أوروبا وغرب آسيا. وأظهرت الدراسة أن لا رابط على الإطلاق بين الحمض النووي لـ (356) شخصاً ممن خضع للفحص مع الحمض النووي لليهود طائفة السامرة، الوحيدين من بقايا النسل الإسرائيلي اليعقوبي. فقط (11) شخصاً ثبت أن حمضهم النووي يحتوي على 3% من جينات يهود الشرق السامريين. وعند التحري والبحث عن أصولهم، تبين أنهم أحفاد اليهود هاجروا إلى أوروبا من للمشرق العربي في القرن التاسع الميلادي.

الخلاصة، لقد تلقت الصهيونية طعنة في الصميم، فقد أرادت من إخضاع بقايا جنث موتى مقبرة عسقلان للفحص، إثبات أن الشعب الفلسطيني بغالبيته، ترجع أصوله إلى منطقة جنوب شرق أوروبا، وأنهم غزاة استعمروا فلسطين، ثم غادر القسم الأكبر منهم عائدتين إلى موطنهم الأصلي، بينما ذاب البقية في نسيج السكان الأصليين، الذين يشكل اليهود الجزء الأكبر منهم. فجاءت النتيجة لتثبت أن أهل فلسطين هم امتداد لذات الشعب الذي انتشر بين الفرات والنيل منذ 10 آلاف سنة، أي قبل مولد الجد الأعلى للقبيلة الإسرائيلية بأكثر من 60 قرناً. كما أثبت الفحص أن كل يهود أوروبا وباقي الدول، وهم من أنشأ دولة الكيان الصهيوني، ويمسك بمفاصل حياتها، لا يربطهم بالنسب الإبراهيمي رابط، فلا هم من الساميين، ولا من نسل أسباط الحفيد "إسرائيل

أو يعقوب"، بل قبائل خزريه أشكنازية اعتنقت اليهودية. ومثلهم كالمسلمين الباكستانيين والماليزيين على سبيل المثال، دينهم الإسلام، وكتابهم القرآن، لكنهم لا ينحدرون من قبيلة قريش والقبائل العربية التي حملت الدعوة الإسلامية في أول الأمر. لذلك لا يحق لهم الادعاء والفخر بالنسب العربي. أي أن اليهود الحاليين، كتابهم التوراة، وعقيدتهم اليهودية، لكنهم ليسوا إسرائيليين، وبالتالي لا حق لهم في فلسطين، ولا يشملهم وعد السماء بامتلاكها، في حال ثبوت أن هناك وعد سماوي.

الجزء الثالث: الخرافات التوراتية

هدم الخرافات التوراتية

من أشق الأمور التي تواجه الباحث المحقق، نسف الخرافة، خاصة إذا أسقط عليها سند لاهوتي، مُدعماً بنص يدعي أتباعه أنه متصل بالسماء، ثم عشعش في ذاكرتهم، ولبس ثوب الحقيقة مسنوداً بهوس تاريخي. فمن يستطيع أن يسمح من ذاكرة الفلسطينيين أصلهم الكنعاني المزعوم، المستند إلى أوهام يثتها التوراة، تبناها المؤرخون وأشاعوها فأصبحت نغمة تستسيغها الأذان، وبطرب لها الوجدان، ويرقص حولها الجميع. وهل سينجح أي باحث في تنفيذ خرافة هجرت جد القبيلة الإسرائيلية من العراق إلى تركيا، ومنها إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، ليعود من هناك ليستقر في فلسطين، ثم يموت ويدفن، بعد أن ألبس المفسرون ذلك الحدث عباءة الدين؟ ومن يجرؤ على قول إن القدس ليست أورشليم، ونبلس ليست شكيم، والخليل ليست حبرون، وأن المدفونين في مغارتها ليسوا أنبياء، في ظل تفاخرنا بتلك الأسماء التوراتية، وكوكبة أنبياءها؟ وهل من سبيل إلى نفي وجود هيكل وضع داوود له الأساس، وأكمل سليمان البناء، وأصبح ساحة نزال بين المسيح وحاخامات اليهود؟ هل يملك أحد الجرأة على القول إن بني إسرائيل قبيلة عربية النسب واللسان؟ وهل يصدق المصريون أن بلادهم لا تعرف حاكماً اسمه أو لقبه فرعون، وأن بلادهم غير مذكورة في القرآن، ولم تعرف بالإسم مصر في زمن الأنبياء المذكورين في القرآن والتفاسير، بينما هو يفاخر الدنيا بجده مدعي الألوهية، وبلده التي من دخلها كان أمناً مطمئناً؟ ومن سيصغي إن قلنا إن صحراء سيناء لا تعرف موسى ولم تسمع به، ورمالها لم تشهد التيه، وتجهل عصاه وشقها البحر، ولا علم لها بتفجر الماء من الصخر، ولا تذوقت المن والسلوى؟ لن يصدقنا أحد، لأن كل ذلك يتمتع بقدسية التفاسير الإسلامية، التي استمدت من التوراة وخرافاتهما، كل ما دونته عن القبيلة، وسيرتها، وأخبار أنبياءها.

أعي جيداً صعوبة المهمة، واستحالة إقناع من سيطرت على عقله خرافات توراتية لبست ثوبا إسلامياً، بفعل عدم تحقق أهل التفاسير من صحة الأخذ منها، وقلة درايتهم بالمادة التاريخية. سنخوض المعمعة متسلحين بنصوص التوراة ذاتها، ومطابقة ما فيه مع النص القرآني إن وجد، وما نطقت به آلاف النقوش التي ضمتها المعابد، والمسلات، وأوراق البردي، ومدافن وادي النيل وبلاد الرافدين، وسرديات جزيرة العرب، خاصة اليمنية، وخمسة مجلدات يحتضنها المتحف البريطاني، وما رشح من كتب التأريخ العربي، ونتائج أبحاث كوكبة المبدعين العرب في هذا المجال، والمنصفين من علماء الغرب واليهود.

قبل ولوج باب تنفيذ الخرافات التوراتية، يجب توضيح الأمور التالية:

الدين والقومية: لا ينسب الاتباع إلى دينهم بل إلى قوميتهم، فليس كل مسلم عربياً، ولا كل عربي مسلماً. فالمسلم الباكستاني مثلاً، ينسب إلى قوميته، ولا يعني كونه مسلماً أن من حقه الادعاء أنه قريشي.

وهذا ينطبق على اليهود؛ فاليهودي الفرنسي، يهودي الديانة، لكنه فرنسي القومية. كذلك الروسي، والأوكراني، والمغربي، واليميني إلى آخر القائمة. وفي حال ثبتت الروايات التوراتية التي تتحدث عن وعد سماوي لإبراهيم وذريته من إسحاق، ومنحهم فلسطين كوطن، فعلاقة اليهود من خارج البيت الإبراهيمي بها، تعادل علاقة المسلمين من خارج البيت القريشي بمكة، أي حق الزيارة

الدينية فقط. فكما لا يحق للمسلم غير العربي الادعاء بملكية مكة، لا حق لليهود وحتى النصارى من خارج النسل الإسرائيلي الادعاء بملكية فلسطين.

تعارض النصوص بين الكتب السماوية: في هذا الكتاب، إذا واجهتنا نقطة خلافية بين القرآن والتوراة، سنحاز للنص القرآني لثبوته القطعي، الأمر الذي لا ينطبق على التوراة. هذا ليس من باب التعصب الديني، إنما يعود لحجم الشك الذي يدور حول النص التوراتي من حيث التواتر، وشخصيات مدونيه الأوائل المجهولين الحال والعين، باعتراف مئات من علماء النقد النصي، والنقد النصي الأعلى.

تعارض النصوص الدينية مع الثوابت التاريخية: إذا صادفتني حادثة تاريخية مثبتة، تتعارض مع نص ديني، سأقف بجانب الحادثة التاريخية، ليس من باب الطعن بالنص الديني، إنما من باب المعرفة العلمية التاريخية. فمثلا عندما نقرا في التوراة أن يوسف عليه السلام تم بيعه لكبير مستشاري فرعون مصر، يسنده نص قرآني يقول: {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ⁹⁷، علينا التوقف عند السؤال التالي: هل مصر المذكورة في النصين التوراتي والقرآني هي مصر الحالية، وهل عرف ملوك مصر لقب فرعون؟ فإن كان الجواب نعم، فهذا يخالف ما ثبت من التاريخ بوجه قطعي. فمصر الحالية لم تعرف بهذا الاسم إلا بعد القرن الثامن ق م تقريبا حسب بعض النظريات، والسرد الديني متعلق بحادثة حصلت في القرن الثامن عشر ق م على وجه التقريب. وهنا علينا البحث في مرويات التاريخ عن البقعة الجغرافية التي عرفت باسم مصر في زمن الحدث. وهذا ليس رفضا للسرد الديني، إنما محاولة إثباته بسند يتكئ على حقائق التاريخ.

تعارض النصوص مع الجغرافيا: القرآن لا يحفل بالبقعة الجغرافية إلا إذا ترتب على ذكرها تشريع ديني، أو حدث معروف. فذكر مكة على سبيل المثال كبقعة جغرافية، جاء كونها مهبط وحي السماء، ومحل شريعة الحج. كذلك ذكر منطقة الأحقاف، إذ لا خلاف بين العرب على موقعها منذ الحدث حتى ذكرها في القرآن. أما التوراة فهي كتاب تاريخ متداخل مع الجغرافيا، لذلك علينا التأكد بشكل قطعي من تطابق اسم جغرافية الحدث وقت حدوثه، مع الاسم الحالي. فالتوراة كتاب يعج بالأسماء الجغرافية التي لا وجود لها على أرض الواقع، كونها تتحدث عن أماكن أسقطت عليها أحداث تاريخية معينة، لا يسندها واقع. فمثلا تخبرنا التوراة أن بني إسرائيل حاصروا مدينة أريحا الفلسطينية، المحاطة بسور، يفصلها عن جبال شاهقة، وأن سورها أنهار بفعل صراخ المحيطين بها وضرب للدفوف. لكن مدينة أريحا تقع في بطن وادي الأردن الأكثر انخفاضا على وجه الأرض، ولا توجد جبال حولها، ولا بقايا مهما كان بسيطة لسور أحاط بها. وحتى لو أحيطت بسور، فمستحيل أن تهدمه هتافات ملايين البشر. لذلك علينا أن نبحث عن جغرافيا أخرى تتطابق مع النص التوراتي، وقد وجدناها..

⁹⁷ سورة يوسف (21).

بنو إسرائيل، العبرانيون، اليهود؟

يدعي اللاهوتيون من أنصار النص التوراتي أن الأسماء الثلاثة: بنو إسرائيل، العبرانيون، واليهود، تطلق على نفس المجموعة البشرية، والمعروفة كأمة باسم اليهود، وأن كل اسم أطلق في مرحلة تاريخية معينة.

بنو إسرائيل: لقب عرفت به القبيلة نسبة إلى جدها يعقوب عليه السلام، الذي أصبح اسمه "إسرائيل" بعد جولة مصارعة مع الرب فاز بها، وأجبره على مباركته، واستبدال الاسم يعقوب بإسرائيل تعبيراً عن سرور الرب به، وإعجابه بقوته واعترافه بفوزه. وقد سجلت التوراة تلك المباراة وتناجها في سفر التكوين 32 (22-32). وهو لقب يخص القبيلة وحدها، ولا ينطبق على بقية الأمة اليهودية المنحدرة من أصول مختلفة. لكن اليهود وأين ما كانوا، يدعون زيفاً أنهم من أبناء إبراهيم وحفيده يعقوب، إسرائيل.

العبرانيون: لقب أطلق على أبناء القبيلة الإسرائيلية، لكن اختلف اللاهوتيون فيه من حيث سبب إطلاقه، ومن أطلقه، ومتى أطلق، ولهم فيه عدة آراء.

الأول: ادعى اللاهوتيون أن سكان سوريا من أطلق اللقب على قافلة "إبراهيم"، بعد عبورها نهر الفرات قادمة من منطقة "حاران" متجهة إلى فلسطين. واستدلوا على ذلك بما جاء بعض نقوش بلاد الرافدين، إذ وجدوا كلمتي "عابورو" و"عابورو" ضمن نقوش تتحدث عن هجرة بعض القبائل. لكن علماء النقد النصي ردوا هذا القول ورفضوه، لأن المنطق لا يقبل مثل هذا الادعاء. فعبور قافلة مكونة من رجلين "إبراهيم ولوط" يسوقان عدد من الماشية، برفقة "ساره" زوج إبراهيم، ليس بالحدث العظيم الذي ينشغل به سكان سوريا، وتحفل به ممالكهم. وعلاوة على خلو سوريا من أي نقش أو أثر يوحي بمعرفة سكانها بإبراهيم وقافلته. كما أن الفحص الكربوني أثبت أن النقوش المدون عليها كلمتي "عابورو" يعود تأريخها إلى ما بين (3500-4000) ق م، أي قبل مولد الجد الأعلى للقبيلة بحوالي 2000 عام.

الثاني: أرجع اللاهوتيون اللقب إلى نسب إبراهيم نفسه، كما هو مدون في التوراة، التكوين 11(26-10): إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن وأرفكشاد بن سام بن نوح.

وهذا رأي رفضه علماء النقد النصي أيضاً، لأن عابر جد لعشرات القبائل العربية، ولا يخص إبراهيم ونسله فقط. وبما أن التوراة تقر أن بكر إبراهيم هو إسماعيل، فهو وذريته أولى بحمل لقب العبرانيين من ذرية الحفيد يعقوب.

الثالث: الادعاء أن اللقب أطلق على القبيلة الإسرائيلية التي خرجت من مصر خوفاً من بطش فرعون. وأن سبب التسمية راجع إلى عبورهم البحر أثناء رحلة الذهاب إلى فلسطين، حسب إرشادات رب الجنود. وهذا رأي مرفوض من قبل الباحثين وفيهم الكثير من اليهود أنفسهم. فقضية وجود بني إسرائيل في مصر، أمر لا دليل عليه في نقوش المصريين وتاريخهم المدون

والمعروف، وأن اللقب أطلق حديثاً في أوج الهيجان الديني الداعي إلى عودة اليهود إلى الأرض المقدسة، تمهيداً لعودة المسيح الذي سيحكم العالم، ويعيد مجد مملكة "داود".

يلاحظ دارسو التوراة تجاهلها التام لذكر تاريخ، وأخبار، وأنبياء الشعوب والقبائل التي سبق ظهورها مولد الجد الأعلى للقبيلة الإسرائيلية. فهي تجهل أنبياء مثل شِيث، وهود، وصالح عليه السلام ولا تعلم شيئاً عن قبائلهم، وكان التاريخ يبدأ بمولد جد القبيلة فقط. كذلك لم تأت على ذكر القبائل العربية التي تشترك مع جد بني إسرائيل بالنسب.

فمثلاً، "عابر" الذي يُنسب إليه العبرانيين كما تدعي التوراة، له إبنان هما: **قحطان وفالخ**، أما **قحطان** هو أبو العرب التي أطلق عليها العاربة، ولابنه يعرب تنسب. وفالخ أبو العرب العدنانية نسبة إلى عدنان حفيد إسماعيل بن إبراهيم. فالقبيلة الإسرائيلية تجمعها الأخوة مع منات القبائل العربية التي تعود في نسبها إلى "فالخ أو فالخ"، وهي بنت عم منات القبائل العربية الأخرى التي يعود نسبها إلى قحطان شقيق فالخ.

هذا أول التزوير الاستشراقي الذي طال التوراة، إذ تم إخراج منات القبائل العربية من الاشتراك بذات النسب مع القبيلة الإسرائيلية المقدسة، حتى لا يأت من يشاركها المطالبة بالإرث السماوي المتعلق بفلسطين.

اختلف المفسرون في نسب نبي الله هود عليه السلام، وذكر ابن كثير عدة أقوال هي:

هود بن شالخ بن أرفكشاد بن سام.

وقيل هو هود بن عابر بن شالخ بن أرفكشاد بن سام.

وقيل هو عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام.

الأرجح عند ابن كثير هو القول الثالث، هود بن عبد الله.

هناك من المؤرخين من ادعى أن هود هو نفسه عابر، وأنه اكتسب اللقب عند عبوره نهر الجارود، بعد أن اهلك الله قومه قبيلة عاد. لكن ابن الكلبي رد كل ذلك وقال: إن قول بعض الناس أن هوداً هو عابر باطل، لأن هود ابن عبد الله بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. لم يختلف أحد من المفسرين والمؤرخين في اسم قبيلة هود وجغرافية تواجدها، لأن القرآن حسم ذلك بقوله تعالى: {وَأَنْذَرْنَا أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ} 98، ومنطقة الأحقاف تشمل حضرموت وجزء من الدولة العمانية.

يجمع المفسرون أن "هود" ولد وبعث في حضرموت موطن قبيلة عاد وغيرها من القبائل العربية القحطانية. ويؤيد هذا ما توصل إليه الرحالة والجغرافي الألماني "هرمان فون فايسمان"، ورفيقه

98 سورة الأحقاف الآية 21.

الجغرافي والمستشرق الهولندي " دانييل فان مولن"، و سطراره في كتابهما "حضر موت، كشف النقاب عن أسرارها عام 1932.

يعود نسب القبائل العربية إلى قحطان بن عابر، وأخيه فالج بن عابر، وبعد هلاك قبيلة عاد، اتجه هود ومن بقي معه من المؤمنين إلى منطقة سبأ حيث تقطن بعض القبائل القحطانية، وهناك اكتسب لقب عابر بعد اجتيازه نهر الجارود اليمني.

وفي سبأ شكلت القبائل القحطانية أول مملكة عرفها العرب، وهي مملكة سبأ الأولى التي سادت عدة قرون، وكانت الزعامة فيها لأحفاد هود. وعندما دب الخلاف بين سادة المملكة، انقسمت إلى مملكتين: مملكة سبأ الثانية الشمالية، التي تشكلت من القبائل المنحدرة من بقية قوم هود، وممن مال إليهم من القبائل القحطانية، ومملكة حمير الجنوبية، وكان عمادها القبائل العربية من نسل فالج بن عابر، وجلهم على عقيدة الشرك.

نسبت قبائل مملكة سبأ نفسها إلى الجد الأعلى عابر، وعرفت بدولة العبرانيين، بينما نسبت قبائل مملكة حمير نفسها إلى هود، وعرفت بدولة يهود.

الاسم يهود جاء بإضافة الياء كأداة تعريف إلى اللفظ هود، وهذا حسب اللهجة اليمنية لقبائل الجنوب، التي تستعمل حرف الياء كأداة تعريف. ففي حين تنطق قبائل الشمال الاسم بدون حرف التعريف، فنقول: هود، عرب، كرب، تنطقها القبائل الجنوبية بإضافة حرف التعريف الياء، فنقول: يهود، يعرب، يكر، وهكذا.

بقيت قبائل مملكة سبأ الشمالية على عقيدة التوحيد، بينما طورت قبائل مملكة حمير عقيدة الشرك من عبادة الأصنام، لتشمل عبادة الكواكب، وبعض الحيوانات كعبادة العجل، وبلغ الأمر ببعضها عبادة فرج النساء، كما جاء في كتاب الأصنام للكلبي.

حافظت مملكة سبأ الثانية على حدودها، ولم تتمكن من التمدد بسبب اختلاف عقيدة شعبها عن عقائد القبائل المجاورة، في حين تمددت مملكة حمير لتشمل مناطق عديدة، من ضمنها حضر موت إلى الساحل العماني، إذ جمعت بين قبائلها عقائد الشرك. وفي ظل هذا الانحراف الديني والتخبط العقدي، ولد إبراهيم، الذي تمرد على كل ذلك، حتى اختاره الله لحمل راية التوحيد من جديد.

لا يوجد في السرديات اليمنية ما يشير إلى قصة إبراهيم عليه السلام، وهذا لا ينفي حدوثها، لأن الأمر لا يعدو كونه حدثاً يخص قبيلة صغيرة تعيش على أطراف حضر موت، ضمن تحالف قبائل أخرى. الغريب أن التوراة تجاهلت الحديث عن إبراهيم وقصته مع الأصنام، ومحاولة قومه إحراقه بنار أضمرت لذلك.

تتحدث النقوش اليمنية عن حروب طاحنة امتدت على مدار ثلاثة قرون، بين ملوك مملكة سبأ الثانية الموحديين، وملوك مملكة حمير الجنوبية أهل الشرك، وتذكر أسماء الملوك، والمعارك ونتائجها، وأماكن حدوثها بالتفصيل. ومن يقرأ التوراة يجد أسفار القضاء، والأيام الأولى والثانية، والملوك الأول والثاني، تتحدث عن نفس المعارك ونتائجها، وأسماء الملوك ومدة حكمها، وأماكن المعارك الجغرافية، ويكاد يكون التطابق بين السرديات اليمنية، ومرويات التوراة بنسبة 99%.

والسؤال هنا: إذا كانت تلك الأحداث قد حصلت في فلسطين كما تدعي التوراة، فكيف نفس حدوث نفس تلك المعارك بقيادة نفس الملوك، في أماكن جغرافية تحمل نفس الاسم في ذات الوقت؟

الجواب الوحيد الذي يملكه الأثاريون وعلماء النقد النصي، والمؤرخون من خارج سطوة التوراة، هو: أرض اليمن هي موطن القبائل العبرانية واليهودية، وكل المعارك والحروب التي حصلت بينها كانت فوق جغرافيتها، ثم جاء تيار الاستشراق المنحاز للسرد التوراتي وأسقطها على جغرافية فلسطين.

أما اليهودية، فتلك حكاية أخرى.

اليهودية، الاسم المسروق

اختلف المفسرون والمؤرخون في سبب تسمية أتباع التوراة باسم اليهود، وما اشتق منها من ألفاظ، إذ توسع استعمال الاسم، وأصبحت اليهودية كدين تطلق على بني إسرائيل، والعبرانيين، وكل من اتخذ عقيدتهم كدين له. وبلغ بهم الاختلاف مستوى من التخبط وصل حد الهذيان. وكما اختلفت آراء اللغويين والمفسرين في أصل الكلمة التي اشتقت منها كلمة يهود، وسبب تسمية اليهود بهذا الاسم عند اليهود أنفسهم، فإن الاختلاف عند العرب لا يقل عنه عند غيرهم.

لا يمكن الركون إلى القول بأن لفظة اليهود اشتقت من الفعل "هاد"، والأرجح أنه من الجذر (ي-ه) (ي-ه) الذي هو أقدم جذر للكلمة، ويعني حمد وشكر. أنا لست عالماً باللغة العبرية، لذلك استأنست بما ذكره المختصون بها، ومنهم؛ د. محمد بحر عبد المجيد، مؤلف كتاب "اليهودية"، ود. حسن ظاظا، مؤلف كتاب "الفكر الديني اليهودي"، وهذا بعض مما سطره:

اللفظة جاءت في التوراة على لسان "لينة" زوجة "يعقوب"، وأم ابنه الرابع "يهوذا" في سفر التكوين 29(35): "وتهرر لؤد وتلد بن وتامر הפעם אודה את-יהוה על-כן קראה שמו יהודה ותעמד מלדת"، ونصها بالأحرف العربية: "وتهر عود بن وتلد بن وتامر هفعم أوده ات - يهوه عل كن قرأه شمو يهودا وتعمود ملدت"، وترجمتها: "وحبلت أيضاً وولدت ابناً وقالت: «هذه المرة أحمد يهوه(الله). لذلك دعت اسمه "يهوذا". ثم توقفت عن الولادة.

ومن الشرح نجد الاسم يتكون من مقطعين:

الأول: هو المقطع (يهو-يهو) وهو مشتق من الاسم العبري للذات الإلهية (يهوه - يهوه)، وتلك الطريقة نجدها في الكثير من الأسماء مثل (يهوشوع = يهوشوع) (يهوفيم = يهويكم)

الثاني: المقطع (ده - ده) المشتق من المقطع (يده - يده) بمعنى شكر، حمد.

المهم أن المقطع (يده - يده) بمعنى شكر أو حمد، لفظة عربية سبئية، واستعملها العرب قبل الإسلام بأزمنة، كقول زهير بن أبي سلمى:

سوى ربيع لم يأت فيه مخافةً *** ولا رهقاً من عابد متهود

فالمتهود: المتقرب بالعمل الصالح، والتهود: العمل الصالح، كما جاء في لسان العرب 3(349).

المعروف لدى أهل الاختصاص أن اللغة العبرية لهجة عربية من لهجات اليمن السبئية، حتى أن التوراة الموجودة بتلك اللغة، تعرف بالتوراة السبئية، أو التوراة الصناعية.

التاريخ اليمني المستمد من السرديات والنقوش، يشير إلى أن مملكة سبأ الأولى انقسمت بعد عدة قرون إلى مملكتين:

- الأولى مملكة سبأ الثانية، والتي عرفت باسم مملكة العبرانيين، إذ أخذت الاسم من "عابر" جد نبي الله هود عليه السلام، وجد مئات القبائل العربية. والثانية مملكة حمير، والتي عرفت باسم

مملكة اليهود، إذ أخذت الاسم من نفس النبي هود عليه السلام، بإضافة حرف التعريف "الياء" كما في لهجة حمير، فأصبحت الكلمة يهود.

تمسكت مملكة العبرانيين بعقيدة التوحيد التي حمل رايتها هود عليه السلام، بينما انحرفت عنها مملكة اليهود، وأدخلت عليها عبادة الأصنام والكواكب وغيرها من العبادات الوثنية. وسجلت السرديات اليمينية معارك بين الدولتين دامت ثلاثة قرون. والعجيب أن تلك الأحداث تتطابق بشكل شبه تام مع الأحداث التي سجلتها التوراة بين مملكتي يهودا والسامرة، مما يؤكد النظرية التي تشير إلى أن أحداث التوراة حدثت في اليمن، ولا علاقة لفلسطين وما جاورها بها.

كما لا يملك الكيان اليهودي إلى الآن دستوراً متكاملاً مكتوباً، يعين حدود الكيان جغرافياً وبشرياً، بل حتى سياسياً؛ فإنه لا يملك أيضاً تعريفاً دقيقاً يحدد من اليهودي من غيره. وقد ظهرت ظاهرة حديثة جداً وهي "ادعاء اليهودية"، للاستفادة من التسهيلات المادية والعينية التي قدمتها لهم الحركة الصهيونية ومؤسساتها، لترغيبهم في الهجرة إلى فلسطين، وتفاقت الظاهرة بانضمام أعداد متزايدة ممن ادعى الهوية اليهودية المزعومة، إذ تشير الوثائق الروسية أن ما بين ثلث، أو ربما نصف المهاجرين اليهود السوفييت في التسعينات غير يهود، وكذلك يهود الفلاشا المشكوك في يهوديتهم، لذلك تعالت الأصوات في الكيان اليهودي والمؤسسات الصهيونية بإلغاء قانون عودة اليهود إلى فلسطين، والتثبت من حقيقة يهوديتهم. ولتجاوز الخلاف حول من هو اليهودي، قامت المحكمة الإسرائيلية العليا بتعريفه، فقالت: "اليهودي هو من يرى نفسه كذلك". وذلك يعنى أنه يهودي وإن لم يعتقد باعتقاداتهم، ولم يتعبد بطقوسهم، ولم يتقيد بشريعتهم. كما يوجد تعريف آخر لليهودي، وهو: "من ولد لأب يهودية".

رغم بساطة تلك الكلمة إلا أنها من أكثر الكلمات إشكالية لاختلاف مدلولها؛ لأنها تستخدم للإشارة إلى اليهود الحاخاميين، والقرائين، والسامريين، ويهود الصين، وأثيوبيا، وتمتد إلى السفارد والأشكناز والصابرا، لتصل للإشارة إلى يهود العالم، والمغتصبين الصهاينة في فلسطين المحتلة.

جاء في موسوعة اليهود واليهودية للدكتور عبد الوهاب المسيري: "يفضل الكثير من الصهاينة مسمى "اليهود" و"الشعب اليهودي" للإشارة بأن اليهود كتلة بشرية متماسكة في العالم أجمع، لتجاوز الواقع الذي فرضه تشتيتهم وعيشهم في "الجيتو" - الشارع أو الحي الذي يسكنه اليهود- وتعدد معتقداتهم وتفسيراتهم للنصوص، وكذلك انتماءاتهم العرقية والثقافية والحضارية واختلاف طموحاتهم وتصوراتهم".

ويرى المسيري: "الأصح أن يطلق عليهم الجماعات اليهودية لأن مسمى يهود أو الشعب اليهودي كلمات مطلقة تؤكد التماسك والتجانس والوحدة، حيث لا تجانس ولا وحدة ولا تماسك، وأرى الأذق والأفضل كذلك أن يطلق عليهم مصطلح "شعبات اليهود"؛ لأنهم جماعات مختلفة متفرقة غير متجانسة، ومن أعراق شتى كالعرق الفلاشي الأفريقي، والعرق القوقازي السوفياتي، والعرق الأشكنازي الأوروبي وكذلك الأمريكي، وعرق دول حوض البحر المتوسط، والعرق الشرقي العربي".

يرى بعض علماء النقد النصي أن لفظ اليهود هو اسم خاص بالمنحرفين من بني إسرائيل، وهو لفظ أعم من لفظة "عبرانيين" و"بني إسرائيل" وذلك لأن لفظة يهود تطلق على العبرانيين وعلى غيرهم ممن دخل في دين اليهود وهو ليس منهم.

وفي الحقيقة أنه لا يستطيع أحد أن يجزم بتحديد التاريخ الذي أطلقت فيه هذه التسمية على بني إسرائيل وسبب إطلاقها، لعدم وجود دليل قطعي على ذلك، وإنما بنيت الاجتهادات السابقة على تخمينات لغوية لا تقوم بها حجة.

غير أننا نستطيع أن نستنتج من الاستعمال القرآني لكلمة "يهود" أن هذه التسمية إنما أطلقت عليهم بعد انحرافهم عن عبادة الله، وعن الدين الصحيح، وذلك لأنه لم يرد في القرآن الكريم إطلاقها على سبيل المدح، بل لم تذكر عنهم إلا في معرض الذم والتحقير، وإظهار صفاتهم وأخلاقهم الذميمة، والتنديد بكفرهم.

ولهذا نفى الله تعالى مزاعم اليهود في انتسابهم إلى إبراهيم وذريته كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ إِنِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَعْتَمَّ أَعْلَمَ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدِهِ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾⁹⁹، كما نفى انتسابه لهم بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾¹⁰⁰.

وجاء التحذير منهم واضحاً جلياً في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾¹⁰¹. وآيات ذمهم وتكفيرهم لقتلهم الأنبياء، والادعاء أن يد الله مغولة، وانه- تعالى عما يقولون- فقير إليهم، وغيرها الكثير من الآيات، ولا نجد مدحا أو ثناء واحدا عليهم إطلاقاً.

وفي المقابل نجد القرآن يتعامل مع بني إسرائيل "العبرانيين" بطريقة تختلف، إذ يشير إليهم كجماعة عرقية معينة، لها مكانة مميزة، وقدسية من نوع خاص، فسلالة أنسابهم تنتهي عند كوكبة من أنبياء الله؛ إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليه السلام، مع تكرار من الله عليهم، واختصاصهم بالحكمة، والنبوة، والملك، مع عدم التغاضي عن ذم، وحتى تكفير من زاغ منهم عن شرع الله.

⁹⁹ سورة البقرة الآية 41.

¹⁰⁰ سورة آل عمران الآية 67.

¹⁰¹ سورة المائدة الآية 82.

الجزء الرابع: القرآن وهدم الخرافة

القرآن وهدم الخرافة، هل عاد بنو إسرائيل إلى مصر بعد خروجهم؟

{كذلك وأورثناها بني إسرائيل} 102

القرآن الكريم عندما يتحدث عن وقائع تاريخية، لا يحفل بزمن الحدث وجغرافيته، إنما ينصرف الهدف إلى تثبيت العقيدة بالعبرة، والموعظة المرتبطة بالوقائع. لكن التوراة تصور الأحداث مشفوعة بتعين جغرافيتها، وتحديد أزماتها بشكل مفصل وممل في بعض الأحيان. ولتركيز ذلك في الأذهان، تكرر ذلك في أسفار عدة.

لقد أدخلنا المفسرون في نفق مظلم، عندما تحدثوا عن مراحل وتاريخ تحركات القبيلة الإسرائيلية، إذ ضمنوا تفاسيرهم بكم هائل من المرويات الإسرائيلية عن طريق ابن منبه وكعب الأحبار، وغيرهما بدون تحقق منها.

جاء في سورة الشعراء الآيات التالية: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَاظُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ. فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّتِ وَعَيْونَ وَكَنْوزَ وَمَقَامَ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} 103

الآيات تتحدث عن خروج بني إسرائيل من مصر - كما تدعي التوراة-، وأن فرعون انطلق بجنده تاركا خلفه؛ الجنان، وعيون المياه، والكنوز، والمقام الكريم، ليمنعهم من الخروج. ثم تخبرنا أن كل تلك النعم؛ أصبحت ميراثا لبني إسرائيل بعد غرق عدوهم- فرعون وجنده- وهلاكه.

السؤال: هل عاد موسى عليه السلام ببني إسرائيل إلى مصر بعد خروجهم كي يرثوا كل ذلك؟

يقول الشيخ الدكتور صالح المغامسي في شرح هذه الآية: {كذلك وأورثناها بني إسرائيل}، هذه من الآيات القرآنية التي لم أفهمها، لأنه لا يوجد دليل تاريخي حتى في مرويات التوراة، أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم منها، وأن أقرب فهم له: كذلك، وأورثنا مثلها بني إسرائيل. وهذا أيضا رأي الشعراوي إذ قال: أي؛ أورثنا هذا النعيم من بعدهم لبني إسرائيل، وهنا قد يسأل سائل: كيف وقد ترك بنو إسرائيل مصر وخرجوا منها، ولم يأخذوا شيئا من هذا النعيم؟ قالوا: المعنى أورثهم الله أرضاً مثلها، قد وعدهم بها في الشام.

ما ذهب إليه الطبري، وابن كثير وغيرهما من المفسرين عن عودة بني إسرائيل إلى مصر، لا يستند إلى دليل من الكتاب والسنة، أو تاريخ موثق.

102 الشعراء الآية (59).

103 الشعراء الآيتين (52-59).

أورد القرطبي في تفسيره: قال الحسن وغيره: رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه. وقيل: أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حلي آل فرعون بأمر الله تعالى. قلت: وكلا الأمرين حصل لهم، وقد أخطأ القرطبي في كلاهما.

الأول: رجوع بني إسرائيل إلى مصر لا دليل عليه من كتاب وسنة، أو تاريخ موثق، بل لا تقول التوراة ذاتها به.

الثاني: قول إن بني إسرائيل استعاروا حلي المصريين، يتعارض مع القرآن، إذ جاء فيه: ﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾¹⁰⁴، مما يثبت سرقتها. وتؤكد التوراة أنها مسروقة.

أما الألويسي فذكر: "وأظهر منه في هذا ما روي عن الحسن قال: كما عبروا البحر رجعوا وورثوا ديارهم وأموالهم، ورأيت في بعض الكتب أنهم رجعوا مع موسى -عليه السلام- وبقوا معه في مصر عشر سنين، وقيل: إنه رجع بعضهم بعد إغراق فرعون وهم الذين أورثوا أموال القبط، وذهب الباقيون مع موسى -عليه السلام- إلى أرض الشام". وهذا كله تخبط يخالف حقيقة التاريخ، لأنه لا يوجد في تاريخ مصر الحالية المكتوب والمعروف ما يشير إلى تواجد القبيلة الإسرائيلية في مصر في كل أزمنة الأسر التي حكمتها.

تشير السرديات اليمنية إلى أن القبيلة الإسرائيلية عربية الأصول، وأن تواجدهم الأول كان في مملكة "اوسان" اليمنية، وأن هجرت يعقوب عليه السلام ومن معه كانت إلى "معين مصر"، للحوق بابنه يوسف عليه السلام الذي تبوأ فيها مركزاً مرموقاً. وهناك في "معين مصر"، ولد موسى عليه السلام، ومنها خرج يقود قومه هرباً من فرعون، الذي أغرقه الله وجنّده في مياه نهر "الخارد" اليمني الذي يشق "معين مصر". أي أن الحدث كله حصل في "مصرأ" اليمنية، حيث بقيت القبيلة الإسرائيلية، لتراث فرعون وقومه. ويثبت ذلك تطابق جغرافيا الحدث كما روتته التوراة، مع جغرافية اليمن كما وصفها الهمذاني في كتابه "وصف جزيرة العرب".

¹⁰⁴ سورة طه الآية 87.

القرآن وهدم الخرافة، جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا

{وَأَذَقَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِذْ يَقُومُ أَدْرُؤُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَعَاقَبَكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. يَوْمَ أَدْخَلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا حَتَّى يُخْرِجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ. قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا أَدْخَلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ إِذْ دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ عَالُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَقْتَلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ. قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} 105.

نفهم من سياق الآيات أن حديث موسى عليه السلام كان بعد غرق فرعون وقومه، وأنه يمن عليهم بأن الله جعل فيهم أنبياء، وجعلهم ملوكا، وأتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين في زمنهم. فمتى كان فيهم أنبياء قبل موسى عليه السلام، ومتى جعلهم ملوكا؟

ذهب جل أهل التفاسير إلى القول بأن تفسير جملة: {إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ} يعني الأنبياء إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف عليهم السلام، وهذا يخالف لغة القرآن العربية، لأن المخاطب وهم القبيلة الإسرائيلية، وأول أنبياءها موسى وهارون عليهما السلام. أما إبراهيم، فليس منهم، بل هم من نسله، وكذلك ابنه إسحاق وحفيده يعقوب. فالمقصود بالأنبياء هنا؛ موسى وهارون عليه السلام.

أما قوله: {وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا}، فقد فسروه بقولهم: كل رجل منهم كان له بيت وزوجة وخدام أو عبد، كان يقال له ملكا. وهذا لا يستسيغه عاقل، خاصة ما زاده بعضهم من الادعاء بأنهم أول من أتخذ العبيد. فيوسف عليه السلام باعه إخوته عبدا وهذا حدث قبل موسى بعدة مئات من السنين. كذلك فإن جملة: {وَعَاقَبَكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} ترد ذلك التفسير، لأن المعنى أن الله اختصهم بنعم لم تعط لأحد من معاصريهم. فهل كان رجال الأمم الأخرى المعاصرة لهم بدون بيوت وزوجات وخدم؟

إذا، ما المقصود بجملة {وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا}؟

حسب التاريخ المبني على نصوص التوراة، فإن أول ملوك القبيلة الإسرائيلية كان "شاؤول"، ثم خلفه داوود، فسلیمان، فرحبعام الذي رفضته قبائل الشمال، فانقسمت المملكة الى مملكتي يهوذا والسامرة. وحسب التاريخ التوراتي أيضا، فان مملكة شاؤول تأسست حوالي 1020 ق.م، في

حين حدث خروج بني إسرائيل من مصر حوالي 1250 ق.م، وبالتالي لا يمكن أن يكون المقصود بجملة **{وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا}** أولئك الملوك، لأن المن يكون بشيء حصل في الماضي.

- نحن العرب، الأمة الوحيدة التي لم تكتب تاريخها، واستأنست بما كتبه المؤرخون والمستشرقون الأجانب، ثم اعتمدت ما دونه، وأقرته كحقائق نتوارثها جيل بعد جيل. فالبدايات لم تكن تدوينا للتاريخ بقدر ما كانت روايات أشبه ما تكون بالحكايات الشعبية التي يكذب بعضها البعض. فتاريخ الطبري على سبيل المثال، ثلثي مروياته بدون سند صحيح، ولا دليل ينبع مما تنطق به النقوش، أو تؤيده الجغرافيا، وقس على ذلك عند الحديث عن بقية المراجع العربية الأخرى.

فمثلا تاريخ اليمن كما وضعه الآخرون غير العرب، يشير إلى أن مملكة سبأ الأولى نشأت في القرن الحادي عشر ق.م، وأن ظهورها الواضح على مسرح التاريخ كان في القرنين العاشر والتاسع ق.م. لكن هذا يتعارض مع نقوش يمنية أقدم من تلك التي اعتمد عليها الغربيون. كما أن القرآن يشير إلى زمن أبعد من ذلك. فإبراهيم عليه السلام عاش في ظل مملكة قوية، يحكمها ملك جبار ظالم، وقد أشار القرآن إلى ذلك عندما حاور ذلك الملك إبراهيم وحاجه في ربه، والشاهد قوله تعالى: **{لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}**¹⁰⁶ وجملة **{أَنَّ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ}** تشير بما لا يدع مجالاً للشك أنه ملك خاف على ملكه من دعوة التوحيد التي حمل رايته إبراهيم عليه السلام.

كذلك تؤكد الكثير من النقوش اليمنية إلى معرفة اليمنيين القدامى للنظام الحكم الملكي، قبل ظهور إبراهيم بزمن يمتد إلى عدة مئات من السنين، وأن الظهور الأول لمملكة سبأ سابق على ما أقر المستشرقون به. ونعرف من النقوش اليمنية أن الانقسام الأول أسفر عن مملكة شمالية انتسبت إلى الجد الأعلى عابر، وأخرى جنوبية انتسبت إلى الجد الأقرب نسبا وهو هود عليه السلام. وبإضافة حرف التعريف "الياء"، حسب لهجة اليمنيين القدماء، أصبح الاسم يهود.

لم يكن العبرانيون جزءا من مملكة سبأ الأولى فحسب، بل سادتها، وإليهم ينتسب إبراهيم نفسه، ومن أحفادهم انحدرت القبيلة الإسرائيلية، التي حكم بعض أبناءها مملكة سبأ الأولى، ومنهم ملك عمري¹⁰⁷ الإسرائيلي العبراني. فموسى عليه السلام ذكرهم بمن الله عليهم بجعل أفراد منهم ملوكا حكموا جزءا من اليمن.

¹⁰⁶ سورة البقرة الآية 258.

¹⁰⁷ شاؤول هو ذاته طالوت المذكور في القرآن. أشارت إليه التوراة باسم الملك عمري، وهذا من الدس الاستشراقي.

القرآن وهدم الخرافة، أهم خير أم قوم تبع

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ. أَنْ أَدَّوْا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُون. وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُون. فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ. فَأَسْرَبْعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ. وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرِفُونَ. كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونَ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاجِحِينَ. كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ. فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ. وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ. مَنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ. وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ. وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ. إِنَّ هُوَلَاءِ لَيَقُولُونَ. إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ. فَأَتَوْا أَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تَبِعُوا وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُّجْرِمِينَ﴾¹⁰⁸.

عند تأمل هذه الآيات من سورة الدخان المكية النزول، نلاحظ أنها بدأت بذكر فرعون وقومه، وانتهت بذكر تبع وقومه، فما دلالات الربط بينهما؟ ثم نلاحظ جمعها بين موقف مشركي العرب المكيين، بمشركي اليهود، بعد المرور على ذكر نجاة بني إسرائيل من فرعون، لتنتهي بضرب مثل قوم تبع، وما حاق بهم من هلاك بعد وسمهم بصفة الإجماع.

الله سبحانه وتعالى عندما يضرب الأمثال، يريد تقريب المعنى، وأخذ العبرة، لذلك يأت بكل ما هو محسوس ومعلوم ومدرك من قبل من ضرب له المثل. كذلك لا يحفل القرآن بالحدث المتعلق به المثل من حيث زمن حدوثه، ولا الجغرافيا التي احتضنته. ولو كان ضرب مثل قوم تبع وما حل بهم، أريد به مشركي مكة وحدهم، فما الداعي لذكر اليهود أو بني إسرائيل هنا؟ لكن الله جمع بينهم، ثم ضرب لهم المثل، كما في الآيات التي بين أيدينا.

قد نفهم ضرب المثل لمشركي العرب، كون تبع وقومه من قبائلهم المعروفة، وعلاقة مكة باليمن ثابتة ومؤكدة، من حيث وحدة النسب، ومتن العلاقات التجارية، إذ لم تنقطع القوافل بين الطرفين أبداً، علاوة على وحدة الأرض.

لكن ما علاقة أهل الشرك المكيين بفرعون وقومه كي يضرب لهم بهم المثل؟

قد نفهم علاقة بني إسرائيل واليهود بفرعون وقومه، إذ جمعت الجغرافيا بينهم بعد الرحلة التوراتية المعروفة، بينما تفصل تلك الجغرافيا بين مكة ومصر الحالية إذا أمنا بسرديات التوراة، ومعرفة المكيين بما حل بفرعون لا تتعدى كونها من حكايات الأساطير. الغريب أن أحداً من العرب لم يعترض أو يستفسر عن ضرب الأمثال المتعلقة بأنبياء الصحراء العربية بدءاً من نوح

¹⁰⁸ سورة الدخان الآيتين 17-37.

حتى عيسى عليه السلام، مما يستدعي الاعتقاد بمعرفتهم بهم، عن طريق تداول قصصهم جيلاً بعد جيل.

الآن لو آمننا بأن الوجود الإسرائيلي كان في مصر (مصر وادي النيل) كما يدعي أتباع التوراة، فما الداعي لضرب مثل تبع وقومه لبني إسرائيل واليهود؟ لأن الجمع بين فرعون وقومه، وتبع وقومه، ثم ذكر نجاته بني إسرائيل، يستدعي معرفة اليهود، سواء كانوا من نسل يعقوب "إسرائيل"، أو من تهود من خارج النسل الإسرائيلي، معرفة تامة بهم، وهذا يستحيل إن صدقنا أن فرعون كان في مصر الحالية، وتبع في اليمن. فلا بد من تواجد الرجلين وشعبيهما في بقعة واحدة، جمعت بينهم وبين القبيلة الإسرائيلية، إذ يستحيل تواجد قبيلتين إسرائيليتين بنفس الأسماء والمواصفات في مصر الحالية واليمن في ذات الوقت.

من الثوابت التاريخية التي لا يرقى إليها شك؛ نسب تبع العربي، ويمنيته انتماء ومواطنة، في حين لا يوجد أي دليل مهما صغر حجمه يشير إلى أن فرعون كان مصري -نسبة إلى مصر الحالية- الانتماء والمواطنة. علاوة على توفر آلاف الأدلة من نقوش وسرديات يمنية، تثبت يمنية بني إسرائيل وفرعهم اليهودي، فوق الأرض اليمنية، تسندها آلاف أخرى من سرديات بلاد الرافدين.

من أجل ذلك نقول بكل اطمئنان: أن اليمن عامة، ومخلاف مصرأ خاصة، الأرض التي استوطنها بنو إسرائيل، وأن سرديات التوراة ما هي إلا تزوير متعمد، تم بواسطته إسقاط تاريخ وجغرافيا اليمن، على فلسطين، لخلق أسطورة تربط بين اليهود وبينها.

القرآن وهدم الخرافة، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ - يَقَوْمِ ادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَعَاقَبَكُمْ مَا أَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا نَدْخُلُون. قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانكَبُوا عَلَى الْأَعقابِ وَغَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبِّكَ فَفَقْتَلْنَا إِنَّا ههنا قَعْدُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ. قَالَ فَإِنهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} 109.

لم يتعرض تاريخ أي شعب على مر العصور للتزوير والتحريف، كما تعرض له تاريخ فلسطين وشعبها، بل طال التزوير جغرافيتها أيضا. وقد نجح اللاهوتيون ومدونو التوراة نجاحا باهرا في محو ذاكرة الفلسطينيين، بعد أن دسوا فيها روايات تخالف ثوابت التاريخ، ولا تتسجم مع جغرافية بلادهم، لدرجة جعلت الفلسطيني يفاخر بنسبه الكنعاني المزعوم، ولقبه اليبوسي الخرافي، وأنه سليل شعب جبارين مستولد من رحم التزوير. ويؤمن بأن القدس هي أورشليم التوراتية، وأن داوود وضع أساس المسجد الأقصى، بينما أكمل البناء ابنه سليمان، وأن أرضه التاريخية كانت تدعى يهوذا والسامرة.

لا بد لنا من الاعتراف أن الموروث الإسلامي ساهم في بث كل ذلك، واقنع الفلسطيني بالروايات التوراتية، من خلال تبني مفسرو القرآن لها، وتضمنتها كتبهم عند تناول تفسير بعض الآيات القرآنية التي ذكرت بني إسرائيل. فكلهم أجمعوا على أن الأرض المقدسة المذكورة في هذه الآيات هي مدينة القدس، وأن القوم وصلوا إلى مشارفها بقيادة موسى عليه السلام قادمين من مصر، فاستند إليها الفلسطيني، وصدقها، فرسخت الخرافات التوراتية في ذاكرته.

لو تأملنا هذه الآيات القرآنية، سنجد أن المتكلم نبي الله موسى، يحث بني إسرائيل على دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم دخولها، لكنهم رفضوا بحجة أن أهلها قوم جبارين، واشتروا خروجهم منها كي يدخلوها. ثم أعاد عليهم الطلب، واعد إياهم بالنصر شريطة التوكل على الله. إلا أن القوم أصروا على عنادهم، وأنهم لن يدخلوها أبدا ما دام أهلها فيها. هنا أسقط بيد نبيهم، فرجع شكواه إلى الله، الذي حكم بتحريمها عليهم، وبعقابهم بالتيه لمدة أربعين سنة، بعد بوصفهم بالقوم الفاسقين.

نقف عند كلمة "كتب"، فهذه الكلمة لها عدة دلالات في القرآن:

1- بمعنى خط الكلمات، كما في قوله: **{ورسلنا لديهم يكتبون}**¹¹⁰.

2- بمعنى قضى وحكم حكما كونيا، كما في قوله: **{كتب الله لأغلبن أنا ورسلي}**¹¹¹، وقوله: "كتب ربكم على نفسه الرحمة"، الأنعام (54).

3- بمعنى فرض وأوجب حكما شرعيا، يكافأ من يعمل به، ويعاقب من يخالفه، كما في قوله تعالى: **{وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس}**¹¹²، وكقوله: **{كتب عليكم الصيام}**¹¹³.

4- بمعنى جزاء عمل كقوله: **{واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة}**¹¹⁴، وبالتمعن في كلمة كتب كما في الآية، نجدها تعني حكما شرعيا، إن استجاب المخاطب يكافأ، وإن رفض عوقب. ولعل تفسير مقاتل هو الأصح، إذ قال: التي أمركم أن تدخلوها. والذي يؤكد أنها بمعنى الحكم الشرعي، انهم عوقبوا بأن حرمت عليهم كما في الآية. لكن كم هي مدة التحريم؟

في كل المصاحف التي نسخت منذ جمع القرآن في خلافة ذي النورين عثمان بن عفان، حتى بعد إنشاء مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، كان الوقف إلزامي بعد جملة **{فَأَنهَا مُحَرَّمَةٌ}**، ثم فجأة بدأت المصاحف تطبع في ذلك المجمع، ويظهر الوقوف المتعاقب، فالقارئ له خيار الوقف عند **{فَأَنهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ}** ويصبح التحريم ممتد والنتيجة مدته أربعين سنة. أو يقف عند **{أَرْبَعِينَ سَنَةً}**، فيصبح التحريم أربعين سنة، **{وَيَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ}** بدون تحديد. ومن هذا الباب، دخل الصهاينة العرب ممن يجيزون احتلال اليهود لفلسطين مستندين إلى فهم أن التحريم محدد بأربعين سنة فقط.

لا بد لنا أيضا من الوقوف عند كلمة **{أبدا}** الواردة في جملة **{إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبْداً}**، لأن الزمن في لغة العرب أربعة أقسام: أبد، وأزل، وأمد، وسرمد. والزمن الأبدى هو المقدر من لحظته ولا نهاية له.

¹¹⁰ سورة الزخرف الآية 80.

¹¹¹ سورة المجادلة الآية 21.

¹¹² سورة المائدة الآية 54.

¹¹³ سورة البقرة الآية 183.

¹¹⁴ سورة الأعراف الآية 156.

بالعودة إلى الآية نجد قولهم: **{إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا}**، أي أنهم حرموها على أنفسهم من لحظة نطقهم، إلى زمن ممتد لا نهاية له، طالما أن أهلها فيها.

لذلك فإن من يدعي أن فلسطين- إن كانت هي المقصودة - حرمت عليهم أربعين سنة، ثم دخلوها بقيادة "يوشع بن نون"، وعادوا إليها مرة أخرى كمستوطنين، وأقاموا دولتهم، يجهل معنى الزمن الأبدي الذي حكموه على أنفسهم، وأقرهم الله على حكمهم. وفي كل مرة عاد اليهود إلى فلسطين، كان أهلها فيها، يعني أنها ليست الأرض التي تتحدث عنها الآيات، وإن هناك أرض أخرى هي المقصودة بها.

لا توجد أرض في الدنيا كلها محرمة على اليهود لكفرهم، وعلى كل مشرك بوحدانية الله، إلا مكة، والمقصود بمكة هنا مكة اليمن وليس مكة الحجاز فهل هي الأرض المقدسة المعنية بالآيات؟

كذلك، إذا كانت مكة هي المقصودة بالتحريم، علينا أن نسأل: هل كان خروج القبيلة المقدسة من مصر الحالية، والتبته في سيناء الحالية، ثم أمروا أن يجتازوا عدة مئات من الكيلومترات للذهاب إلى مكة، أم أن خروجهم بالأساس كان من أرض أخرى أقرب لمكة من مصر؟

تختلف الآراء في تحديد توقيت خروج القبيلة الإسرائيلية، وذلك بحسب الإشارات المختلفة الواردة في التوراة. لذلك انقسم الباحثون إلى ثلاث اتجاهات:

الأول يرى أنه وقع في القرن السادس عشر ق.م، بينما جعله الثاني في القرن الخامس عشر ق.م، في حين حدده الثالث بالقرن الثالث عشر ق.م.

ومهما كان الزمن التقريبي لذلك الخروج، فإن سكان فلسطين في تلك المدة بين القرون (13-16) ق.م لم يعرفوا باسم الجبارين أو العمالقة، بينما نجد أن مكة اليمن كانت تخضع لتحالف قبيلتي "جرهم وعليق" العربيتين القحطانيتين، وهو التحالف الذي عرف باسم الجبابرة أو العماليق، وهذا يتطابق مع وصفهم، كما في الآية: **{إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ}**.

اختلفت آراء أهل التدوين أيضا في زمن هجرة اليهود إلى يثرب، كما اختلفوا في تحديد نسبهم. ويجد الباحث نفسه في متاهة بين كتابات السمهوري، والسهيلي، والبستاني، وياقوت الحموي، وابن خلدون، وابن الوردي، والمقرزي، وجواد علي، وفيليب حتى، وولفنسون، وماكس مارغوليز، وألكسندر ماركس وغيرهم. وهذا الأمر سنبحثه في فصول أخرى عند الحديث عن هجرات اليهود من اليمن. ما يهمنا الآن ينحصر في معرفة لماذا استوطنت القبائل اليهودية في يثرب، وبنيت حصونها حولها، ولم تستوطن مكة، أو حتى تحاول ذلك. ادعاء "ماكس مارغوليز والكسندر ماركس" في كتابهما "تاريخ الشعب اليهودي"، ص(30-35)، أن سبب اختيار اليهود ليثرب كمقام لهم يعود إلى حسناتها، وكثرة نخيلها، وطيب تمرها وحلاوتها، وعذوبة ماءها؛ يتعارض مع طبيعة اليهود القائمة على عشق المال، ومحبة بريق الذهب، والسعي إلى المكسب بأية وسيلة، خاصة أن يثرب لم تكن في أي مرحلة قبل الإسلام قبلة تقصدها القبائل العربية، وأن ميزتها تنحصر في وقوعها على طريق قوافل الحج والتجارة، بينما مكة، ومنذ أعاد إبراهيم عليه السلام رفع قواعد بيتها العتيق وهي قبلة حجيج كل القبائل العربية أينما تواجدت، واهم مركز

تجاري لهم، وعلى أطرافها تحط رحالهم، وتنصب خيامهم، قادمين من كل أصقاع الجزيرة واليمن والشام وبلاد الرافدين وديار وادي النيل، وتشهد ميادينها مبارزات صناديهم، وجولات شعراءهم، وأسواقها منابع الدينار والذهب، ومع كل ذلك لم يسكنها يهودي واحد، أو حتى فكر في ذلك، وهذا ما رحج أنها الأرض المقدسة التي حرموها على أنفسهم، وأقرهم الله على ذلك.

ربما يظن البعض أن نفي قدسية فلسطين، ونفي النسب الكنعاني عن أهلها، فيه قدح بالأرض والشعب. وهذا تجني، ففلسطين أرض عربية إسلامية، وشعبها جزء أصيل من أمة عريقة طيبة الأصول، كريمة المنبت، ظهرت على مسرح التاريخ منذ هجرت الآباء الأوائل من نسل جرهم القحطانية الدم، والعربية اللسان في القرن 60 ق.م، وامتلكت الأرض من الفرات شرقاً، حتى وادي النيل غرباً، وشيدت الإمبراطورية السورية التي اجتهد أبناء الزيف التوراتي وأتباعهم على طمس حضارتها، وإحاقها بشعوب استلواها من رحم الكذب، فاخترعوا شعوب الكنعانيين، والآراميين، والكلدانيين، والآكاديين، والفينيقيين، والسريان، والآشوريين، ثم أقاموا من ركام الوهم ما عرف بالإمبراطورية الآشورية، التي هي في حقيقة الأمر إمبراطورية آشورية.

الفلسطينيون جزء من أمة عظيمة علمت الأمم بناء المدن، وفن الكتابة، وأساليب الزراعة، والنظر في النجوم والكواكب، وصناعة السفن وركوب البحر، وأول من أقام المستوطنات- المعارض- التجارية على امتداد سواحل البحر المتوسط، الذي كان بحيرة عربية قبل بناء روما وأثينا بالفي عام. ولا يحتاج الفلسطيني للتوراة لإثبات نسبه وصلته بأرضه، فتواجهه فوق مسرح التاريخ يسبق التوراة أنبياءها وأتباعها بعشرات القرون، وتخاريف مدونها لا تعدو عن كونها غربال صنع من خيوط العنكبوت، هيهات له أن يحجب شمس الحقيقة.

الجزء الخامس: فلسطين وجغرافيا التوراة

سرقة التاريخ والجغرافيا

تحتفظ كل أمة من الأمم في ذاكرتها صفحات من تاريخها، تلجأ إليه للتعريف عن نفسها، وللخبر بماضيها. فعلى سبيل المثال، نجد الذاكرة المصرية تختزن في ذاكرتها ما سطرته المسلات والنقوش المحفورة على جدران المعابد والقبور، مما يسر لنا معرفة حضارة وادي النيل، التي تعود إلى ما قبل حضارة سفارة الأولى منذ 4500 سنة ق.م. والأمر ذاته ينطبق على حضارة بلاد الرافدين، والممالك اليمينية الأولى، إذ يعود تاريخ أول نقش يمني إلى 2500 ق.م. وكغيرها، حاولت القبيلة الإسرائيلية تذكر تاريخها بعد عودتها من السبي البابلي، فلم تجد ما تدونه، فهي لا تملك ماضٍ يعتد به، فلم تكن أكثر من قبيلة صغيرة تعيش على هامش التاريخ اليمني، تشكل مخلافاً لا وزن له، ولا تتقن غير رعي الأغنام، وحراسة القوافل المارة بجانب مضاربها، علاوة على أن الجيل الذي تم سببه، مات كله أثناء سنوات السبي، والعائدون لا تختزن ذاكرتهم تاريخاً يعودون إليه عند الحاجة، وجل ما يعرفونه مجرد روايات تناقلوها، ورددوها كحكاوي وأساطير. لذلك عندما بدأ تدوين التوراة، لم يجدوا غير تاريخ اليمن، فدونوه وكأنه تاريخاً خاصاً بهم، كون الآباء كانوا جزءاً منه. لكن ادخلوا فيه خرافات وأكاذيب، مرة بسبب اختلاف اللغة، ومرة بتحريف الأسماء. سأعيد بعض الأمثلة كي ترسخ في الذاكرة:

نقرأ في سفر صموئيل الثاني (7-8): {وَضْرَبَ دَاوُدُ هَدَدَ عَزْرَ بْنِ رَحْبُو مَلِكِ صُوبَةَ حَيْنَ ذَهَبَ لِيُرِدَ سُلْطَتَهُ عِنْدَ نَهْرِ الْفِرَاتِ. فَأَخَذَ دَاوُدُ مِنْهُ أَلْفًا وَسَبْعَ مِئَةِ فَارِسٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ رَاجِلٍ. وَعَرَقَبَ دَاوُدُ جَمِيعَ خَيْلِ الْمَرْكَبَاتِ وَأَبْقَى مِنْهَا مِئَةَ مَرْكَبَةٍ. فَجَاءَ أَرَامُ دِمَشْقَ لِنَجْدَةِ هَدَدَ عَزْرَ مَلِكِ صُوبَةَ، فَضْرَبَ دَاوُدُ مِنْ أَرَامِ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ أَلْفَ رَجُلٍ. وَجَعَلَ دَاوُدُ مُحَافِظِينَ فِي أَرَامِ دِمَشْقَ، وَصَارَ الْأَرَامِيُّونَ لِدَاوُدَ عِبِيدًا يُقَدِّمُونَ هَدَايَا. وَكَانَ الرَّبُّ يُخَلِّصُ دَاوُدَ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ. وَأَخَذَ دَاوُدُ أَثْرَاسَ الذَّهَبِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى عَيْبِدِ هَدَدَ عَزْرَ وَأَتَى بِهَا إِلَى أُورُشَلِيمَ، وَمِنْ بَاطِحَ وَمِنْ بِيروُنِيَا، مَدِينَتَيْ هَدَدَ عَزْرَ، أَخَذَ الْمَلِكُ دَاوُدَ نَحَاسًا كَثِيرًا جِدًّا}.

الرواية الدينية تتحدث عن معركة يدعي مدون التوراة أن داوود خاضها ضد ملك يدعى "عزر" في مكان يدعى "هدد"، ويسميه "هدد عزر" يقع عند نهر الفرات، إلى آخر النص. النص كما هو مترجم من النسخة الإنجليزية للتوراة كالتالي: {وَضْرَبَ "هدد عزر بن رحوب" ملك صوبَةَ، حَيْنَ ذَهَبَ لِيُرِدَ سُلْطَتَهُ عِنْدَ نَهْرِ "الفروت"، وَأَخَذَ دَاوُدُ مِنْهُ (1700) فَارِسَ، وَ(20) أَلْفَ رَاجِلٍ، وَعَرَقَبَ دَاوُدُ جَمِيعَ خَيْوَلِ الرَّاكِبِينَ، وَأَبْقَى مِنْهَا (100) مَرْكُوبٍ. فَجَاءَ "أَرَامُ دِمَشْقَ" لِنَجْدَةِ هَدَدِ عَزْرَ مَلِكِ صُوبَةَ، فَضْرَبَ دَاوُدُ مِنْ أَرَامِ (22) أَلْفَ رَجُلٍ، وَنَصَبَ دَاوُدُ وِلَاةَ لَهُ فِي أَرَامِ دِمَشْقَ، وَصَارَ الْأَرَامِيِّينَ عِبِيدًا يُقَدِّمُونَ هَدَايَا، وَكَانَ الرَّبُّ يَخَلِّصُ دَاوُدَ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ، وَأَخَذَ دَاوُدُ تَرُوسَ الذَّهَبِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى عَيْبِدِ هَدَدِ عَزْرَ وَجَاءَ بِهَا إِلَى "أورُشليم"}.

المؤرخون من أنصار السرد التوراتي أدخلوا إسم "أورشليم" كي يظهر النص جزءاً من التاريخ اليهودي الفلسطيني، النسخة الإنجليزية ذكرت إسم النهر "الفروت"، بينما حرص المدون على جعل إسمه "الفرات".

تاريخياً، الرواية التوراتية حدثت بنفس التفاصيل، لكن، في جغرافية مختلفة، إذ تتطابق حرفياً مع نقوش "سنحاريب، وشلمانصر الخامس، وأدد نيراري الثاني"، الذين اصطدموا بملك يدعى "هدد عزر"، وقاموا بضرب وتأديب الأراميين المتمردين، وأعداد القتلى التي تسجلها النقوش، تتطابق مع النص التوراتي.

هذا جزء من نقش شلمانصر الخامس {حملة السنة 14 من حكم شلمانصر الخامس 845 ق.م. كما هو في المتحف البريطاني.

السطور (54-62): في السنة السادسة من حكمي اقتربت من مدن ضفاف "بلاخ" حين قاموا بذبح "غيمو" حاكم مدنهم. دخلت "تل مارع" و"أهبي". وعبرت الفרות في وقت فيضانه. وتلقيت الهدايا من جميع ملوك "حتى". في ذلك الوقت قام كل من "هدد عزر" ملك آرام و"عر خوليني" ملك أرض "حمث"، مع جميع ملوك "حتت" والساحل، واعتمدوا على قوة بعضهم البعض، ليخرجوا ضدي في معركة وحرب. تحت أوامر "أشور" السيد العظيم، يا سيدي، اقتتلت معهم، وأتممت هزيمتهم. أخذت مركوباتهم وفرسانهم وأسلحتهم الحربية. وذبحت (20500) من محاربيهم بالسيف.

السطور (87-89): في السنة الحادية عشرة من حكمي، عبرت الفרות للمرة التاسعة. استوليت على عدد لا يحصى من المدن. هبطت على مدن كأرض حمات. استوليت على 89 مدينة: هدد عزر، من آرام، واثنى عشر من ملوك الأرض تحالفوا مع بعض، تمكنت من دحرهم.

وفي نقش نيراري الثاني (895) ق.م. نقراً:

السطور (87-89): في السنة 11 من حكمي عبرت الفרות للمرة التاسعة، استوليت على مدن كثيرة. ونزلت مدن من أرض "حمث"، استوليت على 89 مدينة. ووقف "هدد عزر" ملك آرام مع اثني عشر ملكاً من أرض "حتى" مع بعضهم. لكنني نجحت في الإطاحة بهم.

السطر (735): أعطيت الأمر بالسير لمواجهة آرام و"أخرست" عماري في دمشق، [مدينته الملكية]، وأخذت 100 طالون من الذهب، و1000 طالون من الفضة.

السطر (740): مضيت لمواجهة آرام واسكت ملك آرام في دمشق عاصمته الملكية. سحقه بهاء آشور المخيف، سيده، وغدا تابعا لي وجعلته يكون في خدمتي. وأخذت 2300 طالون من الفضة و(20) طالون من الذهب و(3000) طالون من النحاس و(5000) طالون من الحديد. وملابس صوفية وكتانية ملونة، سريرا من العاج، وأريكة من العاج مرصعة ومبهرجة، وممتلكاته وبضائعه، بكميات لا عد لها من قصره في دمشق مدينته الملكية. أخرته بين يدي. ووضعت مشرفاً عليها. وجعلت "برع إيل" يخضع تحت قدمي. "أيا وخييان وبدن والعي وتيما وسبا وعمو على حدود الشمس من الغرب التي ما كان لأحد أن يعرفها. والتي يقع موطنها في البعيد هناك، كانوا قد سمعوا بمجد جلالتي. حلبوا جمالا، ونوقا، وكل أنواع الأعشاب وجزيتهم، وضعوها كلها بين يدي طوعاً [وقبلوا قدمي]. عينت إيل وأدبني مشرفين على تخوم مصر(ن). وفي جميع أراضي في أرك، وكمنو(كمنهو) وكوش وتي وسبا، وققطي، وسباطي، وبعل جبلة وإيل حمش، وبن عمو وسمعي إيل، وتل خور التي تتبع- قبيلة جرم، وإيلحاز اليهودي في اليهودية".

نلاحظ من النصوص أن "هدد عزر" الذي ذكرته التوراة، هو ذاته المذكور في النقوش. كذلك تطابق أعداد القتلى والغنائم. كما أن جميع المدن والقبائل وبنفس الترتيب، لا تزال منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة في منطقة الجوف اليمينية. الذي حصل أن مدون التوراة اخذ الرواية كما هي، وعوضاً عن نسب الحدث للإمبراطور الآسوري، نسبها إلى داوود. وعندما دعت الحاجة إلى خلق إسرائيل القديمة، توجب خلق فلسطين القديمة أيضاً كي تتماشى مع دعوة عودة اليهود إليها، لذلك قام النُّيَّار اللأهوتي الاستشراقي، وبطريقة مكشوفة، بإطلاق أسماء تلك المدن والبلدات

والقبائل اليمينية على جغرافية فلسطين. وهكذا حمت أصبحت حماه، وحمش أصبحت حمص، وقده أصبحت القدس، وأورسالم أصبحت أورشليم، ونهر فروت اليمني أصبح نهر الفرات العراقي، ودمشق اليمينية أصبحت دمشق الشامية، علما بأن التوراة بنسختها العبرية الصنعانية ذكرت كل تلك الأسماء بدون الادعاء أنها في فلسطين.

مثال آخر. حسب التاريخ التوراتي، نجد أن الملك عمري (850) ق.م. والملك يوشيا بن آمون (640-609) ق.م، والملك مناحيم بن جدي/جادي (740) ق.م.

هذه التواريخ وضعها اللاهوتيون، وقد جرى وضع هؤلاء الكهنة/الملوك، داخل إطار زمني يمتد أكثر من 200 عام. وقد واجه الكهنة واللاهوتيون في ترتيب سنوات حكم "ملوك إسرائيل" مشكلات حقيقية، جعلتهم ينسبون مدة حكم هذا (الملك) لذاك، ويخلطون بينهما حتى تصبح فترة حكمه خيالية.

في سفر الملوك الأول 16(16): {فَسَمِعَ الشَّعْبُ النَّازِلُونَ مَنْ يَقُولُ: قَدْ فَتَنَ زَمْرِي وَقَتَلَ أَيْضًا الْمَلِكَ. فَمَلَكَ كُلُّ إِسْرَائِيلَ عُمَرِيَّ رَئِيسَ الْجَيْشِ عَلَى إِسْرَائِيلَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي الْمَحَلَّةِ}.

حسب النص التوراتي، فإن عمري كان من الكهنة المحاربين، وأحد فرسان "بني إسرائيل"، وقد دبر مؤامرة لقتل الملك زمري-الذماري، من مدينة ذمار، ولأن اللغة العبرية لا تعرف حرف الذال، فقد كتب اسمه بالزاي فأصبح زمري. وعمري من أبناء مقاطعة منافسة لذمار، وهذا صراع تقليدي داخلي بين المدن والقبائل، وطبقا لنصوص التوراة يكون عمري عاش عام 850 ق.م، وقاد مؤامرة لقتل الملك -الزماري- من ذمار) الذي يزعم أنه كان ملك إسرائيل ثم استولى على عرشه.

أما الملك يوشيا فجاء اسمه في سفر الملوك الأول 13(2): {فَنَادَى نَحْوُ الْمَذْبُحِ بِكَلَامِ الرَّبِّ وَقَالَ "يَا مَذْبُحُ، يَا مَذْبُحُ، هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هُوَذَا سَيُولَدُ لِيَبِيتَ دَاوُدَ ابْنُ اسْمُهُ يَوْشِيَا، وَيَذْبَحُ عَلَيْكَ كَهَنَةُ الْمُرتَفَعَاتِ الَّذِينَ يُوقِدُونَ عَلَيْكَ، وَتُحْرَقُ عَلَيْكَ عِظَامُ النَّاسِ}.

"يبدو النص كصورة دينية نموذجية عن ولادة كاهن سوف يعرف باسم يوشيا. وطبقا لهذا النص وللقوائم التي وضعها اللاهوتيون أنفسهم، فقد عاش الكاهن اليهودي يوشيا عام 609 ق.م، أي أن ما يفصله عن عمري قد يقرب من 250.

ويظهر اسم الملك مناحم بن جادي كشخص متأمر ضمن الحقبة الممتدة من عام 740 ق.م، أي أن ما يفصله عن الملك عمري يقارب القرن الكامل، وفي الإصحاح 15 من سفر الملوك الثاني (22-27): {ثُمَّ اضْطَجَعَ مَنَحِيمٌ مَعَ آبَائِهِ، وَمَلَكَ فَفَحِيَا ابْنُهُ عَوْضًا عَنْهُ. فِي السَّنَةِ الْخَمْسِينَ لِعَزْرِيَا مَلِكِ يَهُودَا، مَلَكَ فَفَحِيَا بَنُ مَنَحِيمِ عَلَى إِسْرَائِيلَ فِي السَّامِرَةِ سَنَتَيْنِ. وَعَمِلَ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ}.

هذه باختصار الوقائع كما روتها التوراة، والآن لننظر في الرواية التاريخية.

لدينا نقش يخص تجلات بلاسر الثالث (727-745) ق.م، من موجودات المتحف البريطاني،
نقرأ فيه التالي:

السطر 815. مدينة هاتريكا (Hatarikka) في أعلى جبل سوا (Saua)، ومدن جبلة (Gubla) وشمير/شمير، وأركه/أرك، وزمار/ذمار (Arka, Zimarra, Simirra)، ومدن سيساع، والربة، وري عنسو/عنس، وسيانو/سيان، ورية (Unsu, Sianu, Ri'a-raba, Ri'a_sisa)، ومدن يام الأعلى كلها أخضعتها لحكمي، وعينت عليها ستة من القادة والحكام من عندي.

ومدينة راش بونة/ رأس البون (Rashpuna) الواقعة عند يام الأعلى ومدن نيبة/ نيطة (nite) ووزعلة (Gala'za) (?) وأبلاكا/ أبلكة (Abilakka) الواقعة على حدود بيت حمير (Bit Humria) وهو منزل عمري الإسرائيلي (Omri, Izrael) وبلاد نيه تل/ نفح تل (Naphtali) الواسعة بأكملها جعلتها ضمن حدود آشور (Assyria). وعينت قادة من عندي كحكام عليها، أما هونو/ حنانو (Hannu)/(Hanunu) فقد هرب من أسلحتي ونجا إلى أرض مصري (Musri)، واستوليت على مدينة غزة (Gaza) وحملت بضائعها وممتلكاتها وألهتها، أما نصبي وتمثالي الملكي فقد أعدته على أحسن صورة، ووضعته في وسط قصره، وحسبتهم آلهة لأرضه، وأسستهم، أما مناحم (Menahem)؟، فقد دب فيه الخوف فجاءني وحده كعصفور وخضع تحت حكمي فأعدته إلى قصره، والفضة والملابس الصوفية الملونة والملابس الكتانية أخذتها كجزية.

السطر 816: وأرض بيت حمير (Bit_Humria)، وحملتها مع كل شعبها وكل بضائعهم إلى آشور (Assyria) فخلعوا ملكهم بكاهابكاء (Pakaha) يوشيه (Hoshea) ووضعت الأوسي ('Aussi) ملكا عليهم، وأخذت منهم 10 طالونات من الذهب و(الرقم غير واضح) طالونا من الفضة كجزية منهم وحملتها إلى (Assyria).

والآن وجب ملاحظة التالي:

1- في النقش نقرأ أسماء الملوك الثلاثة، ونكتشف أنهم لم يعيشوا في عصور مختلفة، بل في عصر واحد (740) ق.م ولا تفصل بينهم مئتا عام، وأن سنوات حكمهم حسب التوراة لا تعدو كونها سنوات حكم خيالية.

2- إن الجغرافيا التي يرسمها النقش وبالأسماء التوراتية، تنسف كل أساس لتصور المعارك في فلسطين كما في السرد التوراتي. فما صلة فلسطين بأرض حمير؟ وكيف يمكن تخيل فلسطين مسرحا لصراع قبائل ذمار ضد قبائل عمري في منطقة اب اليمينية؟

3- استنادا لهذا النقش (وهناك عشرات النقوش الأخرى) فإن الملوك الثلاثة: عمري ويوشا ومناحم عاشوا في عصر واحد، وواجهوا حملة "تجلات بلاسر الثالث"، ولكن في مناطق متباعدة.

كما أن حملة "تجلات بلاسر الثالث" وقعت خلال سنوات (727-745) ق.م، وهذا يعني أن التاريخ الافتراضي الذي وضعه التوراتيون لسنوات حكمهم لا أساس علميا لها، وهي تحتاج لتعديل شامل. وأن الوقائع التي ترويها التوراة تتطابق كليا مع النقش الأشوري، إلا أنها تتناقض معه بسبب القوائم الاعتبارية التي وضعها اللاهوتيون.

4- ما حدث حسب النقش: لقد هزم الآشوريون ثلاثة من كبار كهنة بني إسرائيل مملكة الشمال، واليهود مملكة الجنوب الذين قادوا القبائل اليمينية لصد الغزو. والواضح أن المعارك دارت في أرض حمير -بلاد اليهودية-، أي أرض بيت حمير (Bit_Humria)، حيث استولى الإمبراطور الآشوري على كل شيء، وحمل الذهب وكل بضائعهم إلى آشور (Assyria)، لذا قامت القبائل الجنوبية اليهودية -الحميرية- المهزومة بخلع ملكها بكاها/بكاء (Pakaha) الذي يعرف باسم يوشيه (Hoshea).

تؤكد النقوش الآشورية ومن ضمنها هذا النقش، أن كل هذه المدن أصبحت هي حدود الإمبراطورية الآشورية، أي كامل منطقة البحر الأحمر وبحر العرب، وإن أسماء المدن التي يسجلها هذا الجزء من النقش الطويل، تقودنا إلى المسرح الحقيقي: ذمار(زمار)، راش البونة (رأس البون ضمن صنعاء)، جبلة وسيان (جبلة وسياني ضمن محافظة إب اليوم)، وعس (من مدن ذمار الكبرى) والسوا (من مدن تعز الكبرى)، منطقة عمري (في محافظة إب)

إن الجغرافيا التي يرسمها النقش وبالأسماء التوراتية، تنسف كل أساس لتصور المعارك في فلسطين، فما صلة فلسطين بأرض حمير؟ وكيف يمكن تخيل فلسطين مسرحاً لصراع قبائل ذمار ضد قبائل عمري في إب؟ الأمر لا يتعلق بكونه مجرد تشابه في أسماء الأماكن، بل هو تاريخ أدخلت الجغرافيا في قلب التاريخ اليمني بدعم من النقوش الآشورية. وحسب النقوش اليمينية، فإن تلك الممالك حسب التوراة، كانت مجرد مخاليف. والمخلاف حسب التقسيم الإداري اليمني القديم، مجرد جبل أو بضعة جبال، تعيش فيها جماعة بشرية تتمتع باكتفاء ذاتي، واستقلال تام عن الآخرين.

إذا كانت الروايات التوراتية صحيحة، فأين هي النقوش التي تدون التاريخ الإسرائيلي؟ فكيف يمكن بنو إسرائيل في مصر الحالية مدة تتراوح بين (400-255) سنة، ولا نجد لهم أي ذكر مهما كان بسيطاً؟

في عام (1900-1300) ق.م حسب التاريخ الرسمي الاستشراقي لظهور إبراهيم ثم موسى - وهو تاريخ مطعون به- كانت مملكة معين مصرن في الجوف اليمني تظهر بوصفها مملكة البحور والذهب في العالم القديم، وكانت أطماع دول المنطقة تردنو إلى إخضاعها أو خطب ودها، لتأمين تدفق مواردها من الطيوب للمعابد الدينية، وفي هذا العصر كان بنو إسرائيل قبيلة بدوية صغيرة خضعت، لعبودية مملكة "مصرم" (مصرن) من آل "فرعم" (فرعن) الميم والنون تتبادلان الوظيفة: مصرن/مصرم، فرعم/فرعن، حسب اختلاف اللهجات السبئية والحميرية.

قوائم ملوك الجوف، تؤكد لنا بشكل قاطع أن الاسم فرعم/فرعن؛ كان لقباً استخدمه ملوك الجوف، وطبقاً لتحليل موضوعي ونزيه لنصوص التوراة، يعكس الوعد الإلهي في هذا العصر أحلام كهنة يهود الجنوب اليمني - الحميريون- بأن يستولوا على أرض خصبة مجاورة لهم يعيش فيها -حسب نصوص التوراة ذاتها- يوسيون وفرزيون وحثيون وحتى عماليق، وهذه بكل يقين أسماء قبائل يمنية لا علاقة لفلسطين بها، وهذا جوهر الصراع الذي خاضه الإسرائيليون البدو ضد قبائل جنوبية شقيقة مستقرة في أراض خصبة، وهو صراع تقليدي بين الرعاة والمزارعين.

كان الكنعانيون -وهم المعينيون من قبائل معين الجوف جنوب اليمن- جزءاً من تحالف عريض استندت إليه مملكة مصرن، وكانوا يسيطرون على أراضي -مملكة- تدعى في التاريخ السبئي/الحميري مملكة أوسان، ولذا لم يتمكن الإسرائيليون من امتلاك هذا الأرض إلا بعد تحررهم من عبودية "مملكة مصرن/مصرم مع صعود الملك السبئي كرب إيل وتر بن زمر على عام 650 ق.م أي بعد مضي نحو 1250 سنة من ميثاق الرب مع إبراهيم، وهذا وقت طويل وأسطوري. وقد حدث ذلك فقط حين استولى كرب إيل وتر على أراضي أوسان، وقام بتوزيعها على الحميريين اليهود -سبط يهوذا الجنوبي- وليس حسب خرافة التوراة التي تدعي أن يوشع هو من قام بتوزيع تلك الأرض. وهكذا تمكنوا من دخول أرض القلف/غير المختونين الذين أطلق عليهم الاستشراق التعسفي المصطلح الإحتقاري "كنعاني"، وهو مصطلح يتضمن نوعاً من التشهير بماضيهم الأسطوري، يوم أصبح الابن كنعان متهما برؤية عورة أبيه، مع أن الحادث وقع مع والده وليس معه.

النقوش اليمنية تؤكد أن كل ملوك المملكة اليهودية الجنوبية، عرباً لا علاقة لهم بالقبيلة الإسرائيلية، وتاريخهم جزءاً من التاريخ اليمني. أما ملوك المملكة الإسرائيلية الشمالية، فقد جرى التلاعب في سيرتهم وسنوات حكمهم، حتى يتطابق ذلك مع سيرة وأزمة ملوك مملكة يهوذا. ولأن القبيلة الإسرائيلية تفتقر إلى تاريخ تفخر به، لجأ مدون التوراة إلى سرقة التاريخ

اليمني، وإصاقه بالقبيلة الإسرائيلية.

تزوير الجغرافيا الفلسطينية

أدى انتشار تعاليم السيد المسيح عليه السلام، إلى ظهور ما عرف بالحج إلى الأرض المقدسة، للتعرف على الجو الديني العام الذي رافق الدعوة الجديدة، والأرض التي احتضنتها. وفي وقت مبكر يعود إلى منتصف القرن الثاني الميلادي، بدأ الحجاج القادمون من مناطق شتى مختلف أجزاء الإمبراطورية الرومانية - بعد انتشار تلك الدعوة بين رعاياها - يصلون إلى فلسطين، لاقتفاء أثر خطوات المسيح وحوارييه. وفي أثناء طواف الحجاج في أرجاء البلاد كمجموعات، كانوا يتوقفون للصلاة والتأمل في الأماكن التي شهدت نشاط المسيح وتجواله وآلمه، وتلقي الشروح والإرشادات من بعض القساوسة أرباب الدعوة. ولأن الاعتقاد المسيحي يستند إلى أن المسيح هو وارث ملك داوود، الذي ورث بدوره عن الجد الأعلى ملكية الأرض حسب التوراة، فقد احتاج الحجاج إلى الرجوع إلى نص التوراة التي كان المسيح ذاته يستشهد ببعض عباراتها. وهنا لم يجدوا إلا ما توفر من التوراة الصنعانية، كمرجع للتعرف على جغرافية موطن الدعوة، وظهر لهم أن ما حوته التوراة من أسماء مواقع ومدن وأودية وأنهار، شديدة الاختلاف مع جغرافية فلسطين، الأمر الذي جعل الحج المسيحي يأخذ طابع التنقيب الأثري، ملازماً للهدف الروحي منه.

مع اعتناق الإمبراطور قسطنطين العظيم للدعوة المسيحية، التي بدأت تفرض نفسها كدين رسمي للإمبراطورية الرومانية والشعب، أصبح الاختلاف بين جغرافية فلسطين وجغرافية التوراة يشكل معضلة للكهنوت وكنيسته التي لم يجد رؤسائها أمامهم إلا التوفيق بين النص التوراتي والواقع الجغرافي. فعوضاً عن البحث عن جغرافية الحدث التوراتي الأصلية، قاموا بتزوير جغرافية فلسطين، فكانت النتيجة نوعاً جديداً من الحج، معادياً لأهل البلاد ومسوغاً لاستعمارها لاهوتياً، وتحويلها إلى أرض التوراة، وبذلك أعد مسرح الجغرافيا بأسلوب يعكس الهوس الديني بالتوراة، فأعيد تجسيد فلسطين عبر التزوير التقمصي، لا سيما أنها أصبحت مقدسة بنظر التراث الديني اليهودي - المسيحي. وبعبارة أخرى، كانت فلسطين تتعرض لعملية نقل وتحويل زمني وجغرافي يفضي إلى جعل الماضي التوراتي حقيقة، إلا أن التوجه المنظم والهادف والمرتبط بالدوائر الاستعمارية والتوجهات اليهودية راح يتشكل في القرون السابقة الأخيرة، خاصة بعد انتهاء الحروب الصليبية، والتقلبات التي حدثت في أوروبا.

لم تكن ثورة "مارتن لوثر" تهدف إلى تصحيح المسار الديني، وإعلان العصيان اللاهوتي على سلطة الكنيسة، بقدر ما تهدف إلى تصحيح الحالة الاجتماعية والمالية للشعوب الخاضعة لسلطة النبلاء المدعومين من قبل رجال الكنيسة. ومع تقدم المذهب البروتستانتي وانتشاره في أوروبا، وملازمة ذلك ليوأكر النهضة فيها، أصبحت الحاجة ملحة لرأس مال يدعم الاتجاهين، الديني والنهضوي. لكن صناديق المال يتحكم بها يهود أوروبا، وهم من يحدد سبل إنفاقه وطرق الاستفادة منه. وللتخلص من التسلط اليهودي المالي، ظهرت دعوة إعادة اليهود إلى أرض التوراة، تمهيداً لعودة المسيح للجلوس على عرش أبيه داوود. وهنا اصطدمت الدعوة مع جغرافية فلسطين التي تكذب الحدث التوراتي، بل تنفيه بشكل تام، لأن التزوير الأول ركز على أسماء الأماكن أعتقد أنها شهدت تحركات المسيح وتنقلاته، واحتضنت خطبه وتعاليمه.

مع حلول عام 1838 تقريباً، قام "إدوارد روبنسون **Edward Robinson**" أستاذ اللاهوت الأمريكي، وبالتعاون مع القس "إيلي سميث **Eli Smith**" الذي يتقن التحدث بالعربية، برحلة استكشافية إلى فلسطين. كان مخطط رحلتها بسيطاً، مستمداً من نص التوراة، فمثلها مثل بني إسرائيل، كانا سيغادران مصر القديمة للتوغل عبر البراري المقفرة لشبه جزيرة سيناء. وبعد زيارة موقع جبل سيناء، حيث تلقى موسى الوصايا العشر، كانا سيتوغلان في الأرض المقدسة، متوقفين لبعض الوقت في القدس، ومتقدمين شمالاً إلى السامرة والجليل، ليختما رحلتها، آخر الأمر، في مقر البعثة الأمريكية ببيروت. ثم قاما برحلة أخرى مشابهة عام 1852.

خلال الرحلتين؛ بحثاً -إدوارد روبنسون وإيلي سميث-، عن المواقع التي وردت في التوراة، عن قناعة بأن أسماءها العربية الحالية مستمدة من أسمائها العبرية الأصلية. ففي أثناء عمله كمبشر كان "إيلي سميث" قد وضع قائمة للأسماء العربية لقري فلسطين، وكان من شأن ذلك أن يساعد أستاذ العبرية روبنسون على مقارنة أوجه الشبه اللغوية مع مختلف المواقع المذكورة في الكتاب المقدس. ومن خلال المطابقة بين الأماكن والأسماء، استطاع روبنسون - كما يدعي- أن يتعرف على أشكال التناظر الدقيق بين أسماء الأماكن العبرية القديمة ونظيرتها العربية الحديثة، فيحدد عشرات المواقع القديمة: قفوية عناتا، جعلها "عنتوت" الكتابية، ومسقط رأس النبي إرميا، وجعل جباع هي "جبعة" إحدى مدن بنيامين، ومخماس بدت مناسبة له تماماً لتكون ساحة معركة شاول في مخماس، وبيتن أصبحت "بيت إيل" محطة توقف إبراهيم، وموقع حلم يعقوب الشهير، وهكذا أصبحت الجب هي "جبعون" الكتابية، حيث قام يوشع بتجميد الشمس في مكانها، وقفية السموع أصبحت "اشتموع"، والجش بدت مناسبة لحمل الاسم العبري "جوش هالاف".

يقول د. عصام سخيني، في كتابه "الجريمة المقدسة": "كثيراً ما اتسم هذا المنهج بالتعسف والخلو من أدنى قدر من المعقولية". نأخذ مثلاً على ذلك أسم قرية "يعاريم" أو قرية عاريم التي وردت في "الكتاب"، وقد كتبها روبنسون بالإنكليزية (Kirbath- Jearim) وقال إن معناها يعني "قرية الغابات"، وقد وجد في فلسطين في زمنه موقعاً باسم قرية "العنب" فقال إذ هذه القرية هي نفسها قرية يعاريم (أو الغابات) وقد حدث إحلال كلمة العنب محل الغابات. ومثل آخر على هذه السماجة العلمية كان عندما قرأ روبنسون اسم قرية «سوكوه» كما جاء في "الكتاب". (وهو يكتبها بالإنكليزية Socoh) فقال إن هذه هي قرية شويكة (قرب طولكرم) بعينها!

أطلق أحد المبشرين على روبنسون لقب "المعلم الأكبر للقياس في العالم"، وذلك بعد أن تمكن من استعادة ماضٍ أسطوري، ورسخه في واقع اليوم، واستولد من رحم الأساطير وعدا خرافيا يقوم على ملكية أرض فلسطين.

كانت هذه الجولة التجريبية، حسب كلام روبنسون فيما بعد: "قد قادتنا عبر مشاهد مرتبطة بالعديد من الأسماء والأحداث والأفعال التاريخية مثل إبراهيم ويعقوب، وسليمان، وشاول، ويونان، وداود، وصموئيل؛ فقد تمكننا من تحديد الأماكن التي عاشوا ونشطوا فيها، واستطعنا أن نتعقب ما يمكن اعتباره خطواتهم ذاتها".

بعد الدرس والبحث نشر روبنسون مؤلفه "البحث عن الآثار المقدسة في فلسطين والأقاليم المجاورة" (Biblical researches in Palestine and adjacent Regions) في إنكلترا وألمانيا وأمريكا في آن واحد في ثلاثة أجزاء في 1841، ثم لخصها في جزئين. ونشر الثالث 1856 فمنحته الجمعية الملكية الجغرافية البريطانية الوسام الذهبي تقديراً لبحوثه.

يقول مايكل بي. أورين، في كتابه "القوة والإيمان والخيال، أمريكا في الشرق الأوسط منذ 1776 حتى اليوم": كان إدوارد روبنسون قد قام برحلة استكشافية ثانية إلى فلسطين عام 1852، ونشر مجلدين ضخمين من أبحاثه، وأصبح بذلك أول أمريكي تمنحه جمعية لندن الجغرافية الملكية ميدالية ذهبية. وأسس أيضاً حقلاً معرفياً جديداً تماماً، هو علم الآثار الإنجليزي، وهو علم أمريكي خالص، ولم يكن هذا العلم متاحاً للعلماء وحدهم، بل لرجال الدين والعامة أيضاً، وجذب لفلسطين أمريكيين آخرين أيضاً، مزجوا بين عقيدتهم وإيمانهم من ناحية وبين رغبة قوية في الاستكشاف، تماماً مثل روبنسون.

يري نيل سليرمان، في دراسته "من الدمار إلى العمار أثر مفهوم توراني في علم الآثار الشرق أوسطي" أن كلمات روبنسون، شكلت دراسة الجغرافيا التاريخية لفلسطين "محاولة أولي لكشف النقاب عن كنوز الجغرافيا الكتابية.. التي طالما ظلت هاجعة دون استكشاف قروناً من الزمن، حتى باتت مغطاة بغياب تلك القرون وركامها، فأصبح وجودها بالذات من الأمور المنسية".

كانت اهتمامات روبنسون محدّدة بشدة، فقد كرّس نفسه للملاح الأرضية، وبخاصة تلك الموصوفة في التوراة انطلاقاً من افتراض مسبق، وهو أن هذه الأخيرة تصف التضاريس التي يتجول فيها.

ويستحضر محمد الأسعد، في كتابه "مستشرقون في علم الآثار"، شهادة عالم الآثار الإيرلندي "ماك آستر" الذي يقول: "عبر روبنسون سيناء إلى فلسطين، وبدأ جولته التي استغرقت شهرين من بير سبع حاملاً توراته بيد وخريطة بيضاء باليد الأخرى مؤشراً على الأماكن بأسماء توراتية. وقام عام 1852 بزيارة ثانية، وأدخل إضافات كثيرة على المادة التي جمعها خلال رحلته الأولى وألصقها بالأرض الفلسطينية".

ويضيف محمد الأسعد: "كانت اهتمامات روبنسون محدّدة بشدة، فقد كرس نفسه للملاح الأرضية، وبخاصة تلك الموصوفة في التوراة انطلاقاً من افتراض مسبق، وهو أن هذه الأخيرة تصف التضاريس التي يتجول فيها. كان علم الآثار بالنسبة له بلا أهمية تذكر، وكذلك الفولكلور والتاريخ الطبيعي والفروع البحثية الأخرى. كان غرضه الرئيس التعرف على المواقع التوراتية، معتمداً على ما حفظته اللغة المتداولة من أسماء الأماكن القديمة، وهذا نهج خطر، كما يقول "آستر"، لأن هذا التعرف يجب اختباره بوسائل أخرى، وهناك أدلة على أن أسماء الأماكن لم تظل ثابتة عبر العصور، وفي أحوال كثيرة حين يكتب الاسم القديم والحديث بالحروف اللاتينية يوحي بتمائل خادع يخفي انعدام التطابق بين الاسمين.

ولم يقتصر عمل روبنسون، كما سيقول "إدوارد فوكس" منذ وقت قريب، على انتهاك مبدأ أولي من مبادئ الجغرافية، وضعه في الأزمنة القديمة جغرافي وفلكي القرن الثاني الميلادي

"بطليموس"، وهو المبدأ القائل إن التضاريس الأرضية أكثر أهمية من الخريطة، حين رأي وعمل على أن الخريطة التوراتية أكثر أهمية من التضاريس الأرضية، بل ارتكب تشويهاً خطيراً، وهو عدم الاهتمام بأي شيء في فلسطين وتاريخها لا شأن له بتوراته".

آلهة وثنية أصبحت أقواما

دأبت التوراة على اختراع أسماء وإصافها بجماعات قبلية، وكأنها أصول أو آباء تنتسب إليها كل القبائل، أو استولاد أسماء من ذاكرة الخرافة، نسبت إليها شعوب وإمبراطوريات أخرى، ثم جاء الآثاريون من أنصار التيار التوراتي، وأكدوا ذلك، فأصبح تاريخا يدرس وكأنه فصل الخطاب الذي لا شك حوله. فمثلا ليس هناك جد إسمه "أكاد" كي ينسب إليه شعب الأكاديين الذي أقام الإمبراطورية الأكادية. ويثبت ذلك ما حوته نقوش أول ملوكها "سرجون" الذي استطاع هزيمة العيلاميين ثم السومريين.

لو عدنا إلى نقش "سرجون" الأول (2284-2350) ق.م؛ سنجد شرحا مفصلا لمولده ونسبه إلى أمه، إذ لم يذكر إسم أبيه، فاخترع المؤرخون من التيار اللاهوتي قصة شبيهة بقصة موسى عليه السلام. ولو وضعنا جميع ما نطق به نقوش بلاد الرافدين المتوفرة والمعروفة، سنجد أن هجرة القبيلة التي ينسب إليها "سرجون"

انطلقت من سوريا نحو الشرق، واستقرت في المنطقة المحيطة اليوم بمدينة بغداد. وحسب التأريخ التوراتي، فقد بنت تلك القبيلة مدينة "أكد" التي نسبت إليها القبيلة ثم الإمبراطورية التي أقامت. وبرغم ما قامت به عشرات البعثات الأثرية، لم يتم العثور على تلك المدينة الخرافية.

كذلك، لو جمعنا ما ذكرته المراجع التاريخية، وما نطق به النقوش المكتشفة في منطقة الجورة قرب مدينة طبرية الفلسطينية، ومقبرة عسقلان، والنقوش التي حققتها البعثات الأثرية الألمانية في الشمال السوري، ومناطق من هضبة الأناضول، وسرديات جزيرة العرب خاصة اليمنية، وبقايا كتابات وجدت في جزيرة "دلمون" وجنوب ساحل عمان، سنجد أنها تعود إلى أزمنة متقاربة، تؤكد أن الإمبراطورية التي أسسها سرجون ضمت كامل سوريا التاريخية، والعراق، والأناضول، وساحل الخليج العربي الغربي، وسواحل اليمن وصولا إلى مدينة الحديدة اليمنية المعروفة اليوم، وهذا بالضبط ما جاء في معجم "Webster Diction Ary" عند تعريف كلمة Akkad، مما يؤكد الطرح التاريخي الذي يجعل الإمبراطورية الآشورية هي التسمية الحقيقية وليست الإمبراطورية الآشورية التي دسها المؤرخون اللاهوتيون لطمس عروبة المنطقة، خاصة فلسطين لفصلها عن عمقها التاريخي الحقيقي، خدمة للمشروع التوراتي.

عند دراسة كتاب الهمذاني "وصف جزيرة العرب"، وكتاب الكلبي "الأصنام"؛ نجد أسماء الإله التي عيبتها القبائل العربية، سواء داخل اليمن والجزيرة العربية، أو تلك التي هاجرت نحو سوريا والعراق وبلاد وادي النيل، متقاربة، بل متطابقة في معظمها.

وسنجد أن بعض قبائل مملكة "أوسان" اليمنية عيبت صنما أطلقت عليه إسم "الإله كنعان"، وهناك قبائل في مملكة "قتبان" عيبت صنما أسمته "الإله عم"، وقبائل عيبت الصنم "الإله أمر"، وأخرى عيبت صنما أسمته "الإله فلس/فلش" باختلاف نطق القبائل، ونسبت كل قبيلة إلى الصنم الإله الذي عيبتة، فظهرت أسماء بنو كنعان أو الكنعانيون، وبنو عم أو العموريون، وبنو أمور أو الأمورين، وبنو فلس/فلش أو الفلسيتيم/الفلشتيم- الفلسطينيين. وبين "أوسان وقتبان"، وهي

أرض كنعان الحقيقية، كان النبي إبراهيم عليه السلام ينتقل بعد أن هاجر من "حاران الكسديم" من أرض حضرموت، ومنها انطلق إلى أرض مصريم اليمنية، وليس إلى مصر الحالية.

ما فعله المؤرخون من التيار اللاهوتي هو إسقاط إسم كنعان على فلسطين الحالية، بعد أن اخترعوا لها هذا الاسم مشتقا من الجد الخرافي "فلثتيم" كما في الفقرات (13-15) من الإصحاح 10 سفر التكوين، وذلك يعود إلى القرن التاسع عشر فقط.

يذكر الكلبي في كتاب الأصنام، صفحة (59-61): أن الصنم الإله "فلس"، اليمني، بقي معبودا لكثير من القبائل العربية، وآخر من عبده قبيلة طي، التي نحتته وشكلته من صخرة سوداء جاتمة فوق جبل "أجل"، وجعلت لون أنفه أحمرًا، وبقي على حاله حتى هدمه الإمام علي بأمر من الرسول محمد عليه السلام بعد إسلام قبيلة طي، ولا يزال موجودا مع ما لحقه من تشويه، وآخر سدنته بطن "حولان" وهم من فروع القبيلة الأم طي.

والفلس كما هو تعريفه في المعاجم: هو صنم جبلي طبيعي على هيئة إنسان عملاق، يقع شرقي جبل أجا على ملتقى القوافل، وهو أقدم صنم وجد وعبد على الأرض فهو يمثل مرحلة التوحيد الوثني، لأن مجموع القبائل العربية الثمودية أجمعت على اعتباره الإله الأعلى لهم.

ويعتبر كتاب "نخلة طيء؛ كشف لغز الفلسطينيين القدماء" للباحث والأديب الفلسطيني "زكريا محمد" مرجعا موثقا يحتوي على معلومات مهمة عن الصنم الإله "فلس"، وعن بدايات عبادته، وما تفرع من إسمه، مستندا إلى ما حواه نقش "عقرون" الفلسطيني المكتشف عام 1994، وتصحيح الأسماء والكلمات التي ربطها الأثاريون من التيار اللاهوتي بالنص التوراتي.

قلنا في فصول سابقة أن كل من إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليه السلام حذروا الأبناء والأحفاد من مصاهرة "الفلثتيم/الفلسطين" لأنهم أنجاس وأكلة سحب، وقد جاء وصفهم في التوراة العبرية الصناعية: "الفسلة أكلوا السحت"، لأنهم كانوا يغيرون على القبائل الأخرى ويسرقون ماشيتهم، ومنها يقدمون الذبائح للصنم الإله. كما الجزء السفلي من تمثال الصنم "فلس" كان على شكل فرج امرأة، وأن التقديس كان له- فرج المرأة- بشكل عام، لكل ذلك أعتبر عبده قوم نجاسة، ولا يعقل أن يقوم أبناء الأنبياء بمصاهرة عبدة الصنم الفرج.

أدى اعتناق قسطنطين العظيم للدعوة المسيحية، نسخة شاؤول الطرطوسي المعروف باسم بولس الرسول، إلى الحاجة إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الرومانية، ومن هنا بدأ إسقاط تاريخ وجغرافية اليمن على فلسطين، كي تبدو الأرض التي احتضنت بني إسرائيل من بداية الهجرة الإبراهيمية المزعومة، حتى ظهور آخر الأحفاد الرسل، عيسى النصراني. لكن اختلاف أسماء المدن والقرى الفلسطينية مع جغرافية التوراة، بقي معضلة بدون حل، حتى القرن التاسع عشر، عندما تم التزوير الاستشراقي، الذي حاول التوفيق بين جغرافية فلسطين، وجغرافية التوراة. وهذا صلب الموضوع الذي سنحاول تفنيد خرافاته وهدم أساطيره، من باطن الكتاب المقدس، وبشهادة أتباعه.

فلسطين، أم فلستيم؟

طال التزوير الاستشراقي كل ما يتعلق بفلسطين تاريخا وجغرافية، إذ تم إسقاط تاريخ وجغرافيا اليمن على تلك البقعة من بلاد الشام العربية. ولتكتمل حلقات ذلك الفعل، فقد امتدت أيادي اللاهوتيين والمشرقين من التيار التوراتي الى تاريخ وجغرافية وادي النيل وبلاد الرافدين. لكن الحقيقة لا يمكن طمسها طوال الوقت، فقد فضحت السرديات والنقوش اليمنية والعراقية والسورية والمصرية، وأزاحت سنائر الكذب التوراتي، لدرجة أن المؤرخ، وأستاذ التاريخ المعاصر في جامعة تل أبيب "شلومو زند" {ساند}؛ عبر عن مدى الخجل الذي يشعر به عند الحديث عن سرديات التوراة المختلفة المتعلقة بتاريخ فلسطين، وما جاورها.

ورد إسم فلسطين وما يلحقه من وصف كأرض الفلسطينيين، وملك الفلسطينيين، وبنات الفلسطينيين، وشعب الفلسطينيين 296 مرة، وأول ذكر جاء في سفر التكوين (10-15-13):
{وَمِصْرَائِيمُ وَدَدٌ: لُودِيمٌ وَعَنَامِيمٌ وَلَهَابِيمٌ وَفَتُوْحِيمٌ وَفَتْرُوسِيمٌ وَكَسْلُوْحِيمٌ. الَّذِينَ خَرَجَ مِنْهُمْ فِلِشْتِيْمٌ وَكَفْتُوْرِيْمٌ.}

يلاحظ من النص أن "الفلشتيم" من نسل "مصرايم" الذي هو جد المصريين ومن إسمه اشتق إسم مصر، حسب السرد التوراتي. كذلك نلاحظ أن مدون التوراة استخدم حرفي "الياء والميم" وهما أداتا تثنية وجمع، مع أنه يتحدث عن أفراد بشكل منفرد، وأنه استعمل حرف التاء في الإسم "فلشتيم" بدل حرف الطاء الذي هو من أحرف اللغة العبرية.

في النص نجد أن شعبي "فلشتيم وكفتوريم" انحدرنا من نفس الأب، لكن الغريب أننا لا نجد أحدا من مفسري التوراة يعرف عن "كفتوريم" شيئا، ويجمع علماء النقد النصي على جهلهم بهذا الشعب الخرافي، واستغرابهم عن مدى حاجة مدون التوراة لاختلاقه.

أما سفر إرميا فقد أعطانا نسبا آخر للفلشتيم، كما في (4)47: **{لَأَنَّ الرَّبَّ يَهْلِكُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، بَعِيَّةَ جَزِيرَةِ كَفْتُوْرٍ.}** وهنا حار اللاهوتيون في تفسير هذا النص، لأنه يستحيل أن يكون "الفلشتيم" من نسل "كسلوحييم"، ومن جزيرة "كفتور" في ذات الوقت. وللخروج من هذا المأزق قالوا إن الإسمين لنفس الجزيرة، وحجتهم النص الذي جاء في سفر عاموس (7)9: **{أَلَمْ أُصْعِدْ إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَالْفِلِسْطِينِيِّينَ مِنْ كَفْتُوْرَ، وَالْأَرَامِيِّينَ مِنْ قَيْرٍ.}** لكنهم واجهوا عدة مأزق:

1- كيف يكون "كسلوحييم" الذي يشار به إلى إسم شخص من نسله جاء "الفلشتيم"، يعني جزيرة " في ذات الوقت؟

2- إذا كان الرب أخرج بني إسرائيل من مصر لينجيهم من الاضطهاد الفرعوني، فلماذا أخرج الفلشتيم من كفتور، وأخرج الأراميين من قير؟

3- أين توجد منطقة قير التي أخرج منها الأراميين؟ بذل اللاهوتيون كل جهد للخروج من هذه المأزق، خاصة مأزق إسم "الفلشتيم"، فالفوا إحدى أكبر الأكاديم في التاريخ، وادعوا أن قبائل "الفلشتيم" خرجت من جزيرة كريت، واستوطنوا ساحل المتوسط عند غزة، وأقاموا دولتهم.

لكنهم خرجوا بعد أن هزمهم الشعب الإسرائيلي في عدة معارك طاحنة، ومن إسمهم أخذت فلسطين اسمها.

بالرجوع إلى كل السرديات المصرية، الآشورية {الآشورية} واليونانية، لم يجد الباحثون أية إشارة إلى هجرة قبائل من كريت إلى فلسطين. كذلك لا توجد أية إشارة تشير إلى أن جزيرة كريت عرفت باسم كفتور.

تقول عالمة الآثار والتاريخ الشهيرة شولاميت جيفا: "إن المعضلة التي لم نجد لها حلا تتمثل فيما جاء في سفر حازيقال 25(17-1): {وَكَانَ إِلَيَّ كَلَامُ الرَّبِّ قَائِلًا: يَا ابْنَ آدَمَ، اجْعَلْ وَجْهَكَ نَحْوَ بَنِي عَمُونَ وَتَتَّبِعْ عَلَيْهِمْ، وَقُلْ لِبَنِي عَمُونَ: اسْمَعُوا كَلَامَ السَّيِّدِ الرَّبِّ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنْكَ قُلْتَ: هَهُ! عَلَى مَقْدَسِي لِأَنَّهُ تَتَّحَسَّنْ، وَعَلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ لِأَنَّهَا خَرِبَتْ، وَعَلَى بَيْتِ يَهُودَا لِأَنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى السَّبْيِ، فَلِذَلِكَ هَانَذَا أَسَلَمْتُ لِبَنِي الْمَشْرِقِ مَلَكًا، فَيَقِيمُونَ صَيْرَهُمْ فِيكَ، وَيَجْعَلُونَ مَسَاكِنَهُمْ فِيكَ. هُمْ يَأْكُلُونَ عِلَّتِكَ وَهُمْ يَشْرَبُونَ لِبَيْتِكَ. وَأَجْعَلْ «رَبَّة» مَنَاحًا لِلإِبِلِ، وَبَنِي عَمُونَ مَرِيضًا لِلْعَنَمِ، فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ. لِأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنْكَ صَفَقْتَ بِيَدَيْكَ وَخَبَطْتَ بِرِجْلَيْكَ وَفَرَحْتَ بِكُلِّ إِهَانَتِكَ لِلْمَوْتِ عَلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. فَلِذَلِكَ هَانَذَا أَمُدُّ يَدِي عَلَيْكَ وَأَسَلَمُكَ غَنِيمَةً لِلْأَمَمِ، وَأَسْتَأْصِلُكَ مِنَ الشُّعُوبِ، وَأَبِيدُكَ مِنَ الْأَرْضِ. أَخْرَبُكَ، فَتَعْلَمُ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ. هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنْ مُوَابَ وَسَعِيرَ يَقُولُونَ: هُوَذَا بَيْتُ يَهُودَا مِثْلُ كُلِّ الْأَمَمِ. لِذَلِكَ هَانَذَا أَفْتَحُ جَانِبَ مُوَابَ مِنَ الْمُدُنِ، مِنْ مَدِينِهِ مِنْ أَقْصَاهَا، بِهِاءِ الْأَرْضِ، بَيْتَ بَشِيمُوتَ وَيَعْلُ مَعُونَ وَفَرِيَتَايِمَ، لِبَنِي الْمَشْرِقِ عَلَى بَنِي عَمُونَ، وَأَجْعَلُهُمْ مَلَكًا، لِكَيْلَا يُذَكَّرَ بَنُو عَمُونَ بَيْنَ الْأَمَمِ. وَبِمُوَابَ أُجْرِي أَحْكَامًا، فَيَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ. هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنْ أَدُومَ قَدْ عَمِلَ بِالْإِنْتِقَامِ عَلَى بَيْتِ يَهُودَا وَأَسَاءَ إِسَاءَةً وَانْتَقَمَ مِنْهُ، لِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: وَأَمُدُّ يَدِي عَلَى أَدُومَ، وَأَقْطَعُ مِنْهَا الْإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ، وَأَصِيرُهَا خَرَابًا. مِنَ التَّيْمَنِ وَإِلَى دَدَانَ يَسْفُطُونَ بِالسَّيْفِ. وَأَجْعَلُ نَفْمَتِي فِي أَدُومَ بِيَدِ شَعْبِي إِسْرَائِيلَ، فَيَفْعَلُونَ بِأَدُومَ كَعَضْبِي وَكَسَخْطِي، فَيَعْرِفُونَ نَفْمَتِي، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنْ الْفِلِسْطِينِيِّينَ قَدْ عَمِلُوا بِالْإِنْتِقَامِ، وَانْتَقَمُوا نَفْمَةً بِالْإِهَانَةِ إِلَى الْمَوْتِ لِلْخَرَابِ مِنْ عَدَاوَةِ أَبَدِيَّةٍ، فَلِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَانَذَا أَمُدُّ يَدِي عَلَى الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَأَسْتَأْصِلُ الْكُرَيْتِيِّينَ، وَأَهْلِكَ بَقِيَّةَ سَاحِلِ الْبَحْرِ. وَأُجْرِي عَلَيْهِمْ نَفْمَاتٍ عَظِيمَةً بِتَأْدِيبِ سَخْطِي، فَيَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ، إِذْ أَجْعَلُ نَفْمَتِي عَلَيْهِمْ}.

هذا نص غاية في الاضطراب والتناقض، وخطط للجغرافيا بشكل يربك أي باحث. فأين نجد بني عمون ضمن جغرافية فلسطين، وأين تقع "ربة" التي أصبحت مناخا للإبل؟ وأين نجد شعبي موآب وسعير؟ وهل كانت قرية سعير الصغيرة الواقعة جنوب فلسطين تشكل خطرا على الشعب الإسرائيلي؟ وأين نجد مدن "بشيموت ويعل معون وقريتايم" ضمن جغرافية فلسطين؟ ومن هم بني المشرق الذين سادوا على شعب موآب؟ كذلك ما علاقة أدوم التي تصورها التوراة ضمن جغرافية القدس بمنطقتي "التيمن وددان" اليمينيتين؟ وهل نفهم من النص "أمد يدي على الفلسطينيين واستأصل الكريتيين" أن هناك شعب فلسطيني، وآخر كريتني؟ هذا السيل المتدفق من الأسئلة- حسب وصف الدكتورة شولاميت جيفا- جعل علماء اللاهوت عاجزين عن الفهم، إذ يستحيل تواجد شعب أدوم حول القدس في فلسطين، وفي نفس الوقت تكون منطقة تواجدهم بين "التيمن وددان" اليمينيتين.

الحقيقة أن اللاهوتيين تلاعبوا بشكل تعسفي متعدد بالاسم "فلسطين" كي يتطابق مع جغرافية فلسطين. لأن اسم "فلسطين-فلستيم" في التوراة اسم ذال على جماعة وثنية صغيرة تدعى "الفلس" وليس على الفلسطينيين.

واسم الفلس- كما بين الدكتور فاضل الربيعي، الخبير باللهجات اليمينية، واحد علماء اللغة العبرية بلهجتها الصناعية -: "يكتب في العبرية بإضافة التاء اللاصقة: فلست/فلشت. أما الباء والميم في العبرية فهما أداة التنثية والجمع (فلشتيم). وهذه قاعدة لغوية صارمة. ولو كان محرر النصوص العبرية قصد الفلسطينيين، لرسم الاسم بحرف (الطاء) وهو حرف تعرفه العبرية، وترسم به أسماء عشرات الأماكن والأشخاص، فلماذا رسم الاسم بحرف التاء (فلست-فلشت)؟ هذا يعني أن التوراة قصدت جماعة دينية صغيرة (وثنية) تعبد إليها يدعى الفلس. حتى إن التوراة تذكر في سفر الملوك الأول أن أم الملك الإسرائيلي آسا/آسه -وفي حقبة عودة الوثنية في بني إسرائيل نحو 300 ق.م صنعت تمثالا يدعى الفلس وعبدته. (والاسم يرسم بالأسلوب اليميني أو ما يعرف بالعبرية السبئية: فلست- مفلست. والميم هنا هي الميم الحميرية، مثل عم رجل: الرجل، عم بغير: البعير. فكيف يكون الاسم ذالا على شعب فلسطيني، وهو في التوراة صنم كانت تتعبد له أم الملك اليهودي، وبحيث قام الملك بنفسه بحرقه مع بقية الأوثان؟

يقول سفر الملوك الأول: 15(9-13)، الترجمة العربية والترجمات الأخرى: {وَفِي السَّنَةِ الْعِشْرِينَ لِيَرْبَعَامَ مَلِكِ إِسْرَائِيلَ، مَلِكِ آسَا عَلَى يَهُوذَا. مَلِكِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ سَنَةً فِي أُورُشَلِيمَ، وَاسْمُ أُمِّهِ مَعَكَّةُ ابْنَةُ أُبْشَالُومَ وَعَمَلُ آسَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ فِي عَيْنِي الرَّبِّ كَدَاوُدَ أَبِيهِ، وَأَزَالَ الْمَأْبُوتِينَ مِنَ الْأَرْضِ، وَنَزَعَ جَمِيعَ الْأَصْنَامِ الَّتِي عَمَلَهَا آبَاؤُهُ، حَتَّى إِنْ مَعَكَّةُ أُمُّهُ خَلَعَهَا مِنْ أَنْ تَكُونَ مَلِكَةً، لِأَنَّهَا عَمَلَتْ تِمْنَالًا لِسَارِيَّةَ، وَقَطَعَ آسَا تِمْنَالَهَا وَأَحْرَقَهُ فِي وَادِي قَدْرُونَ}.

أما في التوراة الصناعية فقد جاء النص المتعلق باسم الصنم: {حَتَّى إِنْ مَعَكَّةُ أُمُّهُ خَلَعَهَا مِنْ أَنْ تَكُونَ مَلِكَةً، لِأَنَّهَا عَمَلَتْ تِمْنَالًا لِمَفْسَتَ، وَقَطَعَ آسَا تِمْنَالَهَا وَأَحْرَقَهُ فِي وَادِي قَدْرُونَ}.

وبالطبع، يستحيل علينا تصديق أن اسم فلسطين يدل على إله وثني وعلى الفلسطينيين في الوقت نفسه؛ بل وأن يكون هو ذاته اسم إله اليهود الذي تتعبد له أم الملك اليهودي. كما أن ترجمة جملة "تمثالا لمفلست" إلى جملة "تمثالا لسارية" وسع المأزق أمام اللاهوتيين إذ لم يهتدوا حتى الآن إلى وجود إله وثني يحمل اسم "سارية" في الدنيا كلها. أما اسم "وادي قدرون" الذي أحرقت الملك فيه الأصنام، فلم يكون له وجود في جغرافية فلسطين قبل مرحلة إسقاط الأسماء التوراتية على جغرافية فلسطين، إذ تم إسقاط الاسم على الطريق المنخفض قليلا، الذي يربط المسجد الأقصى بجبل الطور المقدسي، مع أن اسمه وادي جهم، وحوله الفلسطينيون إلى وادي جهنم، وعرف أيضًا باسم وادي الملوك.

الغريب أن مدون التوراة أطلق على أم الملك ليربعام اسم "معكة" الذي لا جذر له في اللغة العبرية، بينما نجده اسما معروفا عند اليمانيين.

ويتضح التلفيق الاستشراقي عندما نجد أن الإله الوثني فلش/ فلشت هو أحد آلهة سكان مملكة قتبان اليمينية، كما ذكر الكلبى في كتاب الأصنام. ونجد وادي قدرون يصل قمة الجبل الذي بنيت

فوقه مدينة أورشليم اليمينية بالأرض المنبسطة من ناحية الغرب، وهو الوادي الذي كانت تسلكه جموع المؤمنين من كافة القبائل اليمينية، بما فيها بني إسرائيل في موسم عباداتها، كما ذكر الهمداني في كتابه وصف جزيرة العرب. والسؤال الأهم: ما الذي جعل أم ملك إسرائيلي تعيش في فلسطين، وتعبد إله "الفلس" القتباني اليميني؟

كان لزاما أن نأت على كل تلك الاقتباسات التوراتية، التي توثق مدى ارتباط فلسطين الحالية، بالجد الإسرائيلي الأعلى، ومسار غربته، وتواجد الأبناء والأحفاد فوق جغرافيتها. لكن السؤال الذي يتهرب اللاهوتيون من الإجابة عليه: متى عرفت فلسطين باسمها الحالي؟

لم يجد علماء الآثار اليهود أنفسهم، وأهل الاختصاص بعلم النقد النصي الأعلى، ولا أهل الالتزام الحرفي بنص التوراة، أية إشارة في مخطوطات، ونقوش، وسرديات الإمبراطورية الآشورية {الآشورية}، والأسر التي حكمت وادي النيل، والإمبراطوريتين الرومانية واليونانية، ما يشير تصريحاً أو تلميحاً إلى أن فلسطين الحالية عرفت بهذا الاسم قبل عام 330م. إذ تشير الموسوعة البيزنطية إلى أن اسم فلسطين لم يظهر في السجلات التاريخية إلا نحو عام 330 م، مع التقسيم الإداري الروماني البيزنطي لسوريا، حيث أطلق البيزنطيون - بعد اعتناقهم للمسيحية في سوريا سنة 325م، ومع صعود قسطنطين العظيم للعرش، وترجمة الأنجيل من العبرية إلى اليونانية- اسم فلسطين على القطاع الجنوبي من سوريا، مستمدين الاسم منها. أما الادعاء بأن فلسطين أخذت إثمها الحالي زمن الإمبراطور "هارديان" عندما تم إلغاء اسم مقاطعة "يهودا" بسبب ثورة اليهود على الإمبراطورية الرومانية، واستبداله باسم فلسطين، فهو نوع من التضليل والتزييف، إذ لا يوجد ما يشير إلى ذلك في سيرة الإمبراطور، وأن ذلك الشرح أضيف في القرن التاسع عشر، كما تشير دائرة المعارف البريطانية في المجلد رقم 11 من سلسلة مجلداتها.

وهنا نسأل: إذا كانت فلسطين الحالية لم تعرف بهذا الاسم في أي مرحلة من مراحل التاريخ الذي يسبق عام 330 ميلادي، فكيف أطلق رب التوراة عليها اسماً مجهولاً بالنسبة لشعب إسرائيل؟ وكيف استخدمه مدون التوراة إذا صح الادعاء أنها- أي التوراة- دونت في القرن الثامن ق م؟

ويبقى السؤال الأهم: متى ولماذا تم تزوير جغرافية فلسطين، لتتطابق مع الروايات الإسرائيلية التوراتية.

كانت أول جملة توراتية تشير إلى علاقة الجد "إبراهيم" بفلسطين، توثيقه عقد مصالحة خرافي مع ملك "أورشليم" كما في التكوين 21(34-32): {فَقَطَعَ مِيثَاقًا فِي بئرِ سَبْعَ، ثُمَّ قَامَ أَبِيْمَالِكُ وَفِيكُولُ رَئِيسَ جَيْشِهِ وَرَجَعَا إِلَى أَرْضِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ. وَغَرَسَ إِبْرَاهِيمُ أَتْرَافَ بئرِ سَبْعَ، وَدَعَا هُنَاكَ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِ السَّرْمَدِيِّ. وَتَعَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ فِي أَرْضِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ أَيَّامًا كَثِيرَةً}.

لا يهمنا معرفة حقيقة التوراة ككتاب سماوي ديني يتمتع بعصمة، بل معرفة هل تصلح التوراة كمرجعية تاريخية يعتمد عليها؟

هذه الفقرات من التوراة الحالية، كافية للإطاحة بها من الناحية التاريخية، وتؤكد أنها كتاب بشري جاء برداء ديني لخداع الاتباع، وتضليل الخصوم، وأن زمن كتابتها ينفصل آلاف الأعوام عن زمن وقوع الأحداث. إذ كيف يمكن فهم جملة: **وَتَعَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ فِي أَرْضِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ أَيَّامًا كَثِيرَةً**، وفلسطين لم تعرف بهذا الإسم إلا بعد عام 330 م، أي بعد أكثر من ألفي عام على رحلة الأب الخرافية؟

فلسطين أم إسرائيل؟

يطفو إلى السطح من حين إلى آخر، التعبير الذي أطلقه الحاخام أهارون شويخا، أحد أشهر حاخامات يهود مصر في أربعينيات القرن المنصرم، عندما كان المسرح يعد لإزاحة الستارة عن قيام الكيان الصهيوني فوق الأرض العربية الفلسطينية، وتجييش الجاليات اليهودية للهجرة إليها تحت سمع وبصر وتأييد الحكومات العربية، ونص التعبير: إسرائيل ذكرت في القرآن (30) مرة، بينما لم يذكر القرآن اسم فلسطين، وهذه شهادة من محمد مؤلف القرآن.

بكل صدق فنحن لا نلوم أهارون شويخا، فهو من قوم اعتادوا على تحريف وتزوير كلام الله، وتشهد توراتهم على ذلك، وكما جاء في القرآن. إنما اللوم، بل العار والخزي على أبناء الأمة الذين يرددون تلك العبارة، خاصة مع بروز ظاهرة الردة عن ثوابت الأمة التاريخية، والدينية تحت مسمى التطبيع مع الكيان الصهيوني، بقيادة بعض الدول التي أنشأها الاستعمار لهدف وحيد ذو شقيق:

حماية الكيان الدخيل الذي أقامه الغرب تطبيقا لخرافات التوراة.

تشثبت الوطن العربي وتفقيته إلى دويلات، لمنع وحدته مرة أخرى، لأن في ذلك خطر يهدد الكيان الصهيوني، ويمنع الغرب الطامع في ثروات الأمة من استغلالها.

نحن هنا لا نحلل الأمور السياسية، ولا ننظر لحلول مستقبلية، لأن هدفنا دحض الخرافة الدينية التوراتية، والتزوير الاستشراقي الذي يسندها، دفاعا عن الأمة؛ وطننا، وتاريخنا، وأنسابنا، وعقيدة.

من العار على العربي الذي يقرأ القرآن بلغته التي أنزل بها، القول إن إسرائيل ذكرت في القرآن (30) مرة، سواء دعما للمحتل، أو شرحا للقرآن. ومن يردد تلك المقولة يدل على جهله وعدم فهمه للقرآن واللغة.

كلمة إسرائيل بمعنى أرض، مكان، وطن، لم تذكر في القرآن إطلاقا، لا تصريحيا ولا تلميحيا. بل جاءت بمعنى اسم علم يشير إلى شخص بعينه، هو يعقوب عليه السلام ولقبه إسرائيل، كما الآية: **{بَنِي إِسْرَائِيلَ}** التي تكررت عدة مرات، والآية: **{وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ}**، مريم (58).

والأمر الذي يجهله الحاخام أهارون شويخا، ومن على هديه من عرب متصهينة، أن غالبية الآيات التي ذكرت جملة بني إسرائيل، جاءت في مقام التقريع والذم، أو مقام التكفير كقوله تعالى: **{لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}** 115، أما الآيات التي ذكر فيها اليهود، فلا توجد فيها آية في مقام المدح والثناء.

115 سورة المائدة الآية 78.

هناك جملة حقائق يجهلها، أو لنقل يتجاهلها عرب زفة التطبيع:

أولاً: إذا كانت فلسطين لم تذكر باسمها الصريح في القرآن، فقد ذكرت بصفتها الأرض المباركة الحاضنة للمسجد الأقصى، كنقطة انتهاء رحلة الإسراء، وبداية رحلة المعراج. وقد بارك الله بكل بلاد الشام من باطن بركة المسجد الأقصى، كما في الآية: **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ عَائِنَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**، الإسراء (1).

ثانياً: جاء ذكر فلسطين الصريح كبلد، أو باسم أرض فلسطين، أو نسبة لشعبها أرض الفلسطينيين، أو إسم شعبها الفلسطينيين/ الفلسطينيين، (291) مرة، موزعة في أسفار التوراة على النحو التالي:

سفر التكوين: (7) مرات.

سفر الخروج: (3) مرات.

سفر يشوع: (1) مرة.

سفر القضاة: (34) مرة.

سفر صموئيل الأول: (152) مرة.

سفر صموئيل الثاني: (30) مرة.

سفر الملوك الأول: (3) مرات.

سفر الملوك الثاني: (3) مرات.

سفر أخبار الأيام الأول: (28) مرة.

سفر أخبار الأيام الثاني: (6) مرات.

سفر المزمير: (5) مرات.

سفر اشعيا: (5) مرات.

سفر أرميا: (4) مرات.

سفر حزقيال: (4) مرات.

سفر يوثيل: (1) مرة.

سفر عاموس: (3) مرات.

سفر صفنيا: (1) مرة.

سفر زكريا: (1) مرة.

وهذا العدد تقريبا، عشرة أضعاف ذكر اسم إسرائيل في القرآن، علما بأنه اسم علم لرجل وليس لأرض أو مكان.

ثالثا: إذا أخذنا التوراة كوثيقة تاريخية، وما جاء فيها من إقرار بأن أرض كنعان هي فلسطين، فقد ذكرت اسم كنعان، وأرض كنعان، والكنعانيين، (611) مرة.

رابعا: ذكرت أسماء المدن الفلسطينية، على أنها مساكن للفلسطينيين، (1054) مرة.

خامسا: إذا سلمنا بأن التوراة وثيقة تاريخية فإن اسم فلسطين سابق على ولادة إبراهيم عليه السلام، الذي تدعي التوراة أنه الجد الأعلى لبني إسرائيل، كما في الفقرة التوراتية: **﴿وَتَعَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ فِي أَرْضِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ أَيَّامًا كَثِيرَةً﴾**¹¹⁶.

إذا كان تزوير التاريخ أمراً سهلاً فيما مضى، فقد أصبح مستحيلاً بعدما تكشفت خفايا التزوير، ونطقت الجغرافيا التي احتضنت أحداث التوراة التي حاول مدونها التستر عليها، بمساعدة التيار الاستشراقي اللاهوتي المتأثر بها. فنحن من سيكتب تاريخ الأمة من جديد، واضعين اللبنة الأولى، عسى أن يأت من بعدنا من يرفع البيان، وعلى الجميع بما فيهم صهاينة العرب، معرفة أن رايتنا مسطر عليها:

قلنا إننا سنأخذ النص التوراتي على علاته في أول الأمر، ثم ننتقل لهدمه، وندون تاريخ الأمة من جديد. فأنا من التيار الذي لا يؤمن بكل أحداث التوراة التاريخية، ولا بالجغرافيا التي تستشهد بها، وأن الأرض العربية من نيلها إلى فراتها لا علاقة لها بالتوراة وروايتها التاريخية إطلاقاً.

¹¹⁶ سفر التكوين 21(34).

فلسطين أم أرض كنعان؟

يواجه الباحث في نصوص التوراة المترجمة إلى اللغة العربية، وبقية اللغات الأخرى، إشكالية غاية في التعقيد، تتعلق بما اعتبر في التأريخ اللاهوتي "وعدا إلهيا أو ميثاقا سماويا" أبرمه الرب مع جد القبيلة الإسرائيلية، يحصل بموجبه على ملكية "أرض كنعان"، لتصبح ميراثا له ولقبيلته من بعده.

ولأن تفسير مصطلح "كنعان"، أخذ بعداً لاهوتيا لا سبيل لكبح جموحه عندما عنى به "أرض إمبراطورية كبرى" تشمل جزءا من مصر وكل سوريا التاريخية، والعراق، نشأت إشكالية غير قابلة للحل، إذ ليس ثمة أي دليل تاريخي-وليس لاهوتيا- يؤكد أن قبيلة صغيرة حصلت بموجب وعد ديني على "أرض إمبراطورية".

وبمنطق التاريخ المحض؛ لا يمكن تخيل قبيلة مهما كان عدد أفرادها، يمكن أن تحظى بأرض ذات مساحات شاسعة تضم ممالك، وشعوب، وجماعات أخرى. وإذا كانت "أرض كنعان" تضم كل ذلك، فإن عدد أفراد قبيلة بني إسرائيل عام 1900 ق.م وما بعده، لا يسمح لها بالسيطرة على هذه المساحة الشاسعة.

إن التاريخ المحض، أي التاريخ التجريدي الصافي، والخالي من أي شوائب أسطورية؛ لا يعرف قبيلة امتلكت أو يمكن أن تمتلك مثل هذه المساحة من الأرض، كما أنه لا يعرف "كيانا عظيما" في ذلك العصر يدعى "أرض كنعان"، هذا اختراع استشراقي مشبع بالهوس الديني، لأن كنعان كما وصفها التوراة أرض صغيرة تمتد من "جرار حتى لسع"، مروراً بموضع يدعى "سدوم"، وهذه أماكن لا يمكن العثور عليها في الجغرافيا المزعومة لمصر وبلاد الشام، بينما يمكن بسهولة تصور أن الوعد الإلهي كان لقبيلة بدوية صغيرة، بأرض خصبة كي تستقر فيها. وبذلك يصبح تأويل الآية التوراتية منطقيا، فالرب وعد القبيلة الصغيرة بأرض استقرار، وهذا ما يؤكد منطوق النص في سفر التكوين 17(8): **{وَأَعْطِي لَكَ وَلِئْسَلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ عُرْبَتِكَ، كُلُّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًا. وَأَكُونَ إِلَهُهُمْ}.**

النص العبري:

{وְנָתַתִּי לְךָ וּלְזַרְעֶךָ אֶחְרִיךְ אֶת אֶרֶץ מִגְרִיךְ, אֶת כָּל-אֶרֶץ כְּנָעַן, לְאֶחְזַת, עוֹלָם; וְהָיִיתִי לָהֶם, לְאֱלֹהִים}.

هذا النص البسيط واضح لا لبس فيه، مجرد وعد إلهي لجماعة صغيرة – رجل وزوجه – ولنسلهما بأن تحصل على أرض استقرارها، وليصبح لهم إلهيا خاصة بهم.

في الأعوام (1900-1350) ق.م حسب التاريخ الرسمي الاستشراقي لظهور إبراهيم ثم موسى- وهو تاريخ مطعون به، كانت مملكة "معين مصرن" في الجوف اليمني، تظهر بوصفها مملكة البخور والذهب في العالم القديم، وكانت أطماع دول المنطقة ترنو إلى إخضاعها أو خطف ودها، لتأمين تدفق مواردها للمعابد الدينية. وفي ذلك العصر كان بنو إسرائيل قبيلة بدوية صغيرة

خضعت لعبودية مملكة "مصرين" (مصرن) من آل "فرعم" (فرعن) (الميم والنون تتبادلان الوظيفة: مصرن/مصرين، فرعم/فرعن، حسب اللهجة اليمنية الحميرية).

ولعل قوائم ملوك الجوف تؤكد لنا بشكل قاطع أن الاسم فرعم/فرعن كان لقباً استخدمه ملوك الجوف، وطبقاً لتحليل موضوعي ونزيه لنصوص التوراة، يعكس الوعد الإلهي في ذلك العصر، أحلام كهنة يهود الجنوب اليمني – الحميريون – بأن يستولوا على أرض خصبة مجاورة لهم يعيش فيها -حسب نصوص التوراة- يبوسيون وفرزويون وحثيون وحتى عماليق، وهذه بكل يقين أسماء قبائل يمنية لا علاقة لفلسطين بها، وهذا جوهر الصراع الذي خاضه الإسرائيليون البدو ضد قبائل جنوبية شقيقة مستقرة في أراض خصبة، وهو صراع تقليدي بين الرعاة والمزارعين.

كان الكنعانيون – هم المعينيون – من قبائل معين الجوف جنوب اليمن – جزءاً من تحالف عريض استندت إليه مملكة مصرن، وكانوا يسيطرون على أراض تدعى في التاريخ السبئي/الحميري مملكة "أوسان"، ولذا لم يتمكن الإسرائيليون من امتلاك هذا الأرض إلا بعد تحررهم من عبودية مملكة مصرن "مصرين" مع صعود الملك السبئي "كرب إيل وتر بن زمر علي" عام 650 ق.م، أي بعد مضي نحو 1250 سنة من ميثاق الرب مع إبراهيم، وهذا وقت طويل وأسطوري يتعارض مع حقائق التاريخ.

عندما استولى "كرب إيل وتر" على أراضي مملكة أوسان، قام بتوزيعها على الحميريين اليهود – سيط يهوذا الجنوبي-، وهكذا تمكنوا من دخول أرض القلف -غير المختونين- الذين أطلقوا عليهم اللقب-المصطلح- الاحقاري "كنعاني"، وهو مصطلح يتضمن نوعاً من التشهير بماضيهم الأسطوري يوم أصبح الابن كنعان متهماً برؤية عورة أبيه، مع أن الحادث وقع مع والده وليس معه.

إن مغزى هذا التشهير يمكن أن يرى في التفصيل الضروري التالي: رؤية عورة الأب تعني من المنظور الرمزي للدلالات أنه شاهد العار، متمثلاً في الامتناع عن ممارسة الختان، وليس دون معنى. والأدلة التي عثر عليها علماء الآثار، وتؤكد وجود كلمة "كنع" في كتابات منطقة الجوف مأخوذة من هذه المملكة التي حطمها تحالف السبئيين/الحميريين، والمثير للدهشة أن كتابة الأوسانيين لنصوصهم الدينية هي الكتابات الأقرب للعربية القديمة.

جاء في سفر التكوين 50(11): **﴿فَلَمَّا رَأَى أَهْلُ الْبِلَادِ الْكَنْعَانِيِّونَ الْمَنَاحَةَ فِي بَيْدَرِ أَطَادَ قَالُوا "هَذِهِ مَنَاحَةٌ ثَقِيلَةٌ لِلْمِصْرِيِّينَ". لِذَلِكَ دُعِيَ اسْمُهُ "إِبِلَ مِصْرَايِمَ".﴾**

النص العبري:

﴿וַיֵּרָא יוֹשֵׁב הָאָרֶץ הַכְּנַעֲנִי אֶת-הָאֵבֶל, בְּגֵרָן הָאֶטָד, וַיֹּאמְרוּ, אֵבֶל-כְּבֹד זֶה לְמִצְרַיִם; עַל-כֵּן קָרָא שְׁמֵהּ, אֵבֶל מִצְרַיִם﴾.

هذا وصف مناحة المصريين على جنازة يعقوب عليه السلام، كما جاء في التوراة، وهو يعكس التلفيق الذي قام به اللاهوتيون للتلاعب بحدود "مملكة أوسان" الكنعانية التي اصطدمت بالبدو الإسرائيليين. وهنا نسجل هذه الملاحظات:

أولاً: إن مترجم النص العبري من التوراة اضطر لرسم اسم "مصر" بالصورة ذاتها التي يسجلها النص الأصلي (مصريم מִצְרַיִם وليس مصر)، وهذا يؤكد بشكل قاطع أن ترجمة التوراة تلاعبت باسم مصر، وأن المقصود هو "مصرن"، والميم والنون في العبرية السبئية تتبادلان الوظيفة، لكن النص العبري لا يقول إن الاسم هو "بيدر أطاق" بل يقول "جرن الأطد גֵּרְן הָאֲטֻד"، وهذا مكان يستحيل العثور عليه في مصر الحالية أو فلسطين، لكننا نجد عشرات المواضع تحمل هذا الاسم في جغرافيا الجوف وتعز والبيضاء. ففي محافظة البيضاء نجد، مديرية ناطع، عزلة ريمة، قرية خليعة، محلة الجرن.

ثانياً: إن النص يتحدث عن مناحة كبرى يقيمها المصريون في مكان يدعى "جرن أطاق" ضمن أرض كنعان، وهذا يضع أصحاب نظرية: الفلسطيني هو الكنعاني أمام السؤال التالي: إذا كانت حدود كنعان تشمل بلاد الشام، حسب التعريف الرسمي المعتمد في الأوساط الأكاديمية، فكيف يمكن تخيل أن المصريين يقيمون مناحة كبرى على يعقوب في أرض كنعان؟ ما علاقة مصر البلد العربي بالحدث، وأين نجد "جرن اطاق" ضمن جغرافيته؟ وهل كانت مصر الحالية تحكم سوريا التاريخية في ذلك العصر؟ في هذه الحالة لا تبدو كنعان كيانا إمبراطوريا، بل هي أرض جماعة قبلية صغيرة مجاورة لمملكة معين مصرن.

ثالثاً: إذا كان المصريون ناحوا على يعقوب في أرض كنعان، أي في سوريا التاريخية، فهل من المنطقي تخيل أنهم سيطلقون اسم "إبل مصريم" على مكان المناحة؟ هذه الصيغة عبرية ولا وجود لها إطلاقاً في تاريخ مصر.

رابعاً: لماذا يطلق المصريون - وهم أصحاب حضارة كبرى في ذلك العصر - اسماً رعوياً على مكان مارسوا فيه المناحة "إبل مصريم"؟ وهل يوجد في الوثائق التاريخية المصرية التي قرأها علماء الآثار صيغة من اسم مصر في صورة "مصريم"؟ أليس هذا المكان كما يخبرنا التاريخ السبئي/الحميري هو طريق قوافل البخور؟ لقد سيرت معين مصرن (مصريم) قوافل الجمال المحملة بالطيوب عبر شبوة طوال قرون وقرون، وكان يقودها المعينيون من قبائل معين الجوف. ألم تكن شبوة كما يقول "سترابون" الجغرافي والمؤرخ والرحالة اليوناني هي "مخزن" تجميع البخور قبل نقله إلى الموانئ بواسطة الجمال؟

الآن، إذا ما وضعنا هذه الجغرافيا ضمن إطارها الحقيقي، فسوف يكون بوسعنا قراءة المروية التوراتية من منظور مختلف، وبالتالي:

لقد مات يعقوب عليه السلام في "مصرن" الجوف، ولأنه طلب في وصيته أن يدفن في أرض آبائه، فقد جرى نقله إلى مكان قريب مجاور هو "أرض كنعان"، وهذه هي أرض "مملكة أوسان" التي كانت تفرض سيطرتها على أبين والضالع ولحج.

وهنا سنجد "حران" وجبل الكسديم – مفرد كسد العربي والذي يدعى الكساد-، كما سنجد "شعب الإبل"، وهي اليوم ضمن جغرافيا تعز، وبكل يقين فهذه الجغرافيا لا صلة لها بأي صورة من الصور بجغرافيا "إمبراطورية كنعان المزعومة".

إن استيعاب دلالات مصطلح "كنعاني" الذي أطلقه اللاهوتيون على الفلسطينيين، يبدأ من فهم مغزى رفض إبراهيم، وأولاده، وأحفاده أي مصاهرة مع الكنعانيين، وقد يصعب علينا نحن المعاصرين- لأسباب وعوامل كثيرة فهم السبب الحقيقي لطلب إبراهيم من خادمه ألا يتزوج ابنه إسحق من بنات "الكنعانيين" ما داموا هم أصحاب الأرض التي قصدوا طلبا للأمان، والحصول على الطعام إلا إذا قبلنا ما تقوله التوراة إن هؤلاء كانوا من "القلف" غير المختونين، وهذا هو السبب الوحيد المنطقي الذي تبرر فيه التوراة مثل هذا الطلب.

في الواقع، ينسف هذا التوصيف التوراتي لأرض كنعان، كل مزاعم اللاهوتيين عن وجود "حضارة كنعانية" لأننا أمام جماعة دينية -وثنية- صغيرة تقيم في أرض محدودة المساحة، وقد اعتبرها إبراهيم "جماعة نجسة" لأنها لا تؤمن بالختان.

هذا هو التزوير القاتل في الهوية التي فرضها اللاهوتيون على الفلسطينيين: إن مصطلح "كنعاني" مصطلح تحقير أطلقه اللاهوتيون اليهود على الفلسطينيين، تماما كما فعل الأوروبيون حين سموا سكان أميركا الشمالية من أبناء حضارة المايا والأزتلك "الهنود الحمر".

الكنعانيون والحقيقة الآشورية

شاعت الرواية التوراتية التي تزعم أن الفلسطينيين هم الكنعانيون، ضمن إطار التأويل المضلل لمصطلح كنعان، وأصبحت تلك الشائعة من المسلمات التي اعتقدها الشعب الفلسطيني خاصة، والعربي عامة. وداخل هذا الإطار، بدا الفلسطيني وكأنه يعيش هو الآخر داخل "التيه اليهودي" الجديد الذي يعيشه الإسرائيلي. وهذا حقيقي تماماً، فالفلسطيني يبدو حائراً وهو يتساءل: إذا لم نكن "كنعانيين" فمن نكون؟ من نحن؟ وهكذا فقد انتقلت المعضلة من طرف من قام بغزو الأرض إلى الطرف الآخر، الضحية. ومع ذلك كله، لا يكاد الفلسطيني يتوقف عن ترديد ترهات اللاهوتيين؛ بأنه "كنعاني" عاش مثل الإسرائيلي في "أرض كنعان". لكن أين هي حدود كنعان؟ ومن هم الكنعانيون؟

المعضلة التي يجب أن يواجهها الفلسطينيون- بشجاعة تكمن هنا: أنهم ليسوا ضحية عمل عنيف تمثل في اغتصاب الأرض وتشريد وتحطيم الشعب فقط؛ بل ضحية "سردية لاهوتية" مضللة تزعم أنهم ينتسبون إلى شعب وهمي لا وجود له يدعى "كنعان". لقد استولى الآخر على عقولهم قبل أن يستولي على أرضهم. هذه هي الحقيقة في الصراع الراهن. وبهذا المعنى فقط، سوف يصبح الفلسطيني المعاصر -مثله مثل الإسرائيلي المعاصر- شخصاً تمسك بوهم كونه "الكنعاني القديم". وهذا هو جوهر المأزق الذي يعيشونه، فهم يعيشون "أزمة هوية" شبيهة بمشكلة "عدوهم

برزت هذه المشكلة فقط حين ردّدوا رواية الآخر (الإسرائيلي) عنهم، لذلك، ولأجل أن يتمكنوا من تحرير أنفسهم وأرضهم، عليهم قبل كل شيء أن يتحرروا من رواية الآخر، أي من هيمنة السردية اللاهوتية التي زيفت وغيبت عنهم، وأن يرفضوا بقوة وصفهم بـ "الكنعانيين" لأن هذا الوصف لا أصل له، وهو في جوهره مصطلح احتقاري، حرصت التوراة على إشاعته.

لقد رسخت الأكذوبة في عقول ملايين البشر، دون أن يجروا أحد على طرح أسئلة موضوعية ومنطقية؛ من هم الكنعانيون؟ هل هناك شعب حقيقي له حضارة عُرفت بهذا الاسم؟ وهل تعرّف إبراهيم إليهم وهاجر إلى أرضهم؟ وأين نجد آثارهم؟ وأين بقايا لغتهم؟ وما هي حدود أرضهم؟ لقد لفق اللاهوتيون -وبشكل أخصّ الذين اشتغلوا في ميدان علم الآثار- منظومة مصطلحات مأخوذة كلياً وبصورة حرفية من التوراة؛ ثم قاموا بتوظيفها في ميدان التاريخ. أكثرها شيوعاً مصطلح "كنعاني" الذي سرعان ما لقي رواجاً، وتمّ توظيفه لتسويق فكرة زائفة عن حضارة قديمة أسسها شعب مجهول يدعى الشعب الكنعاني. وفي هذا الإطار، تمّ الترويج بسخاء لمصطلحات مثل: حضارة كنعانية، شعب كنعان، أرض كنعان، لغة كنعانية... إلخ.

ما من باحث أو دارس أو هاوٍ أو حتى إنسان عادي، إلا ردد تلك الترهات، وقد يكون أمراً محزناً حقاً أن نرى غالبية عظمى من الفلسطينيين، وجماعات أخرى في الشرق الأوسط، تتباهى بفخر واعتزاز أنها من أصول كنعانية، دون أن يكون بوسعها تقديم تعريف لمعنى "كنعاني". وإذا ما سلمنا أو تقبلنا التعريف الشائع في المؤلفات التاريخية عن "أرض/شعب كنعان"، فسوف يكون علينا حل التناقضات التي يعجّ بها هذا التعريف.

عرفت كنعان حسب التلغيف الاستشراقي؛ بأنها منطقة تاريخية سامية اللغة في الشرق الأدنى القديم، تشمل اليوم فلسطين ولبنان والأردن وسوريا. وكانت المنطقة مهمة سياسيا في العصر البرونزي المتأخر، وخلال حقبة تل العمارنة في وادي النيل، وقد كانت محل نزاع بين الإمبراطوريتين المصرية والآشوريين.

ذكر الكنعانيون كجماعة عرقية كثيرا في التوراة. وتم استبدال الاسم "كنعان" بـ "سوريا" عقب سيطرة الإمبراطورية الرومانية على المنطقة. وفي القرن السابع قبل الميلاد إلى القرن الرابع قبل الميلاد، أسس الكنعانيون مستعمرات كنعانية جديدة، امتدّت من غرب البحر الأبيض المتوسط إلى حدود السواحل الأطلسية، كما بين ذلك الدكتور فيليب حتى في كتابه "تأريخ سوريا ولبنان وفلسطين"، مستندا إلى عشرات المراجع التاريخية التي جعلت التوراة مصدر الهامها.

هذا التعريف الذي لا يخلو من التلغيف المدروس والمُمنهج، لا يستند لأي أساس أثري؛ بل هو مبنيٌّ بالكامل على ما ورد في التوراة. فلا يوجد قط أي دليل تاريخي أن هناك أرضاً تدعى كنعان، تشمل فلسطين والأردن ولبنان وسوريا، كما لا يوجد أي دليل أن الرومان هم من أطلق اسم "سوريا" على سوريا المعاصرة، لأن الرومان لم يحتلوا سوريا إلا عام 63 قبل الميلاد، وهذا ما ينسف كلّ وأي أساس يزعم أن سوريا خضعت للرومان عام 700 ق.م. هذا تلغيف ما بعده تلغيف، وكذب ما بعده كذب. لكن، إذا ما صدّقنا هذا التعريف -فقط لغرض الجدل العلمي- فسوف يكون علينا حل التناقضات التالية التي يعجّ بها:

أولاً: إذا كانت بلاد الشام التاريخية هي "أرض كنعان"، فأين كانت الإمبراطورية الآشورية(الآشورية) عام 700 ق.م؟ وهي إمبراطورية كانت في ذروة عظمتها. وأين ذهب السومريون، والكلدانيون، والأكاديون والبابليون؟ هل اخفت أرضهم وتلاشت من الجغرافية والتاريخ، وحل محلها شعب آخر يدعى "كنعانيا"؟ وهل يمكن في هذه الحالة -إذا ما صدّقنا هذا التعريف المزيف- تخيّل وجود إمبراطورية آشورية، إذا ما كانت "حضارة كنعان" تسيطر على بلاد الشام؟

فإذا ما صدّقنا هذا التعريف الاستشراقي اللاهوتي الملقق؛ فهذا يعني أن ما يسمى بالإمبراطورية الآشورية هي في الواقع مجرد "دويلة صغيرة"، تمتدّ جغرافيتها من البصرة في الجنوب حتى حدود الأناضول في الشمال، وهي بكل يقين "دويلة" لا إمبراطورية. في هذه الحالة يتوجب علينا أن نقبل بوجود دولة عظمى أخرى بديلة من اختراع اللاهوتيين تدعى إمبراطورية "كنعان"، استولت على بلاد الشام، وأصبح لديها جارة صغيرة تدعى "أشور". إن التاريخ في الشرق الأوسط القديم، لا يعرف مثل هذا التصوّر الملقق.

ثانياً: بموازاة هذا التعريف المزيف، جرى الترويج لفكرة زائفة أخرى تقول: إن الإمبراطورية الآشورية القديمة، التي تأسست فيما يعرف اليوم باسم العراق، ثم تمددت لحتوي سوريا التاريخية. وفي هذه الحالة تكون سوريا التاريخية مجرد تابع صغير، ضمّ للعراق طوعاً أو كرهاً.

لا توجد أي أدلة تاريخية تشير ضم العراق لسوريا بالقوة العسكرية، وبالتالي فإن الوحدة الطوعية هي المنطقية. لكن كيف لنا تخيل ذلك؟ هل تم بطريقة الانتخابات مثلا، أو تحت ضغط شعبي؟ هذا غير منطقي.

ثالثا: المشكلة في هذا التزييف الفاضح للتاريخ، أن مصطلح "آشوري" هو مصطلح مُضلل كرسه علماء الآثار من التيار التوراتي اللاهوتي، بديلا من المصطلح الحقيقي الذي يرد في نقوش الآشوريين (الأسوريين) في الصورة التالية: آشوريا (Assyria)، وقد درج اللاهوتيون على نطق الاسم في صورة آشوريا. وبطبيعة الحال، فقد كان الفلسطينيون القدماء في الجنوب جزءا من سكان هذه الإمبراطورية. إن العودة إلى طريقة رسم الاسم ونطقه بشكل صحيح (أسوريا) سوف تعيد الأمور إلى نصابها، فهذه الإمبراطورية هي خلاصة اندماج وحدة العراق وسوريا التاريخية، لأن العراق بجغرافيته الصغيرة المحدودة، لا يمكن له أن يشكل إمبراطورية إلا إذا أصبحت كل سوريا التاريخية جزءا منه، أو أصبح هو جزءا منها. إن اسم الآشوريين هو ذاته اسم الأسوريين (أسوريا). وفي هذه الحال يصبح الفلسطينيون من مواطني هذه الإمبراطورية، والاعتزاز بأنهم آشوريين/أسوريين، ورفض اللقب (كنعان) الإحتقاري الذي أطلقه الآخر عليهم.

رابعا: إذا تقبلنا حقيقة أن الإمبراطورية الآشورية هي خلاصة اندماج سوريا القديمة مع العراق القديم، ففي هذه الحال أيضا لن تكون "كنعان" على حدودهم، بل إقليم منها. إن التاريخ، وجغرافية العالم القديم لا يعرفان كيانا جغرافيا يدعى "كنعان"، وتصديق هذا النوع من الخرافات التوراتية يستدعي تقديم أجوبة محدّدة، مثلا: إذا كانت كنعان على حدود آشور/أسور، وكانت جارتها، بما أنها تسيطر على لبنان وفلسطين وسوريا والأردن، فلماذا قام الآشوريون بحملاتهم الحربية ضدها دون توقف؟ أي كيف يمكن تخيل وجود "دويلة آشورية صغيرة" تهاجم دون توقف "إمبراطورية" مثل كنعان؟ وكيف نفسّر ما تركه لنا الآشوريون من أخبار تروي معاركهم وحملاتهم الحربية، ولا يوجد فيها أي ذكر لأرض تعرف باسم فلسطين أو كنعان؟ هل هذا يعني أنها سجلات كاذبة، أم أن الإمبراطورية الآشورية هي "دويلة صغيرة" قياسا لمساحة كنعان؟ هكذا سوف تُقلب حقائق التاريخ والجغرافية.

خامسا: على الضد من كل هذه الترهات، وإذا تقبلنا الحقيقة التاريخية والجغرافية القائلة إن الإمبراطورية الآشورية (الآشورية) تشكلت كخلاصة دمج وحدة جغرافية تضمّ سوريا القديمة والعراق القديم، ففي هذه الحالة لن تكون كنعان كيانا جغرافيا حقيقيا. إنها ببساطة كيان جغرافي من تلفيق التيار اللاهوتي لا وجود له في الواقع، ومن اختراع مخيَّلة استشرافية، تلاعبت بتاريخ الشرق الأوسط القديم بشكل مُمنهج

هذا النقش ومعه نص التوراة، يرويان قصة المعارك المبكرة ضد مملكة أوسان 850 ق.م، يوم لم يكن هناك قطاع إداري في بلاد الشام يدعى فلسطين.

كنعانيون أم شعب نجس؟

لا يعرف التاريخ إطلاقاً شعباً قديماً في فلسطين يُدعى "شعب كنعان"، كما لا توجد أي دلالة على أن كنعان اسم لأرض فلسطين القديمة. هذا اختراع لاهوتي استشراقي، ظهر في الدراسات والمؤلفات اللاهوتية المعاصرة، كان الهدف منه وبشكل مباشر، اختراع مصطلح "احتقاري" يصلح لأن يُطلق على الفلسطينيين ويعيد تعريفهم بدلاً عن هويتهم الأصلية. وهذا سلوك استعماري تقليدي مارسه سائر الجماعات الاستعمارية، لأن الاستيلاء على أرض الآخر لا يمكن أن يتحقق، أو يكتمل إلا عبر فرض هوية تاريخية مزيفة، تقطعه عن جذوره الحقيقية، وتعيد انتسابه إلى جماعة مجهولة لا وجود لها في التاريخ، بحيث يؤمن بها مع الوقت، وتصبح هي ذاكرته، فلا يعود يتذكر أو يرغب في استرداد أصوله، بل أكثر من ذلك سوف ينكر جذوره الحقيقية، ويتمسك أكثر فأكثر بالهوية الجديدة الزائفة.

المؤسف أن- الفلسطينيين- وقعوا في هذا الفخ، وصاروا يرددون دون أي مساءلة أو تشكيك أو نقد، أنهم كنعانيون، بينما هم ينتمون لحضارة عظيمة؛ هي الحضارة الآشورية/الآشورية

لكن واقع التوراة يؤكد أن مصطلح أو تعبير كنعاني، هو مصطلح احتقاري أطلقه بنو إسرائيل المهاجرون على جماعة وثنية صغيرة مستقرّة في أرضها، ثم أطلقه التوراتيون الاستشراقيين كوصف للفلسطينيين المعاصرين.

تلك هي الوظيفة الفعلية للهويّات الزائفة: استبدال ذاكرة بذاكرة أخرى، وخداع الشعوب التي يجري الاستيلاء على أراضيها، وإقناعها بأنها كانت تعرف ذات يوم بتلك الهوية.

في الواقع لا يوجد شعب قديم يدعى "شعب كنعاني". هذا اختراع لاهوتي توراني لا أساس له في التاريخ. والنص العبري في التوراة لا يقول قط بوجود هذا الشعب، وهو يطلق مصطلح شفة كنعان "الشن كنعن": أي لسان كنعان (לְשׁוֹן כְּנַעַן) على جماعة قبلية صغيرة كانت تقيم في أراضٍ خصبة، يوم كان بنو إسرائيل جماعة بدوية، حاملة بالاستقرار في ذات المكان الخصب. وهذا هو مغزى الصراع بين الطرفين كما صوّرته التوراة، بهذا المعنى؛ هو مصطلح أطلقته جماعة مهاجرة، مرتحلة، بدوية، على جماعة أخرى من السكان الأصليين، انتقاصاً من منزلتها، وبهدف تبرير الاستيلاء على أرضها. وكما أن التوراة جعلت الجماعة المهاجرة القديمة تطلق مصطلح كنعاني "أي نجس، قذر" على أصحاب الأرض الخصبة، فإن الجماعة الجديدة المهاجرة من أوروبا الى فلسطين، سوف تطلق المصطلح نفسه على أصحاب الأرض الأصليين.

وإذا ما قمنا بمقاربة استثنائية بين الجماعة الإسرائيلية القديمة المهاجرة، ويهود أوروبا المهاجرين الجدد الى فلسطين في مطلع القرن التاسع عشر، فسوف يتشكل أمامنا الإطار التوراتي اللاهوتي نفسه: ها (جماعة مهاجرة تتطلع للاستيلاء على أرض خصبة لجماعة أخرى، وأصبح لسان حالها يقول: نحن عبرانيون إسرائيليون وأنتم كنعانيون، أي نحن من يجلب الحضارة، وأنتم مجرد نجاسة وقذارة.

لكن مشكلة جديدة ظهرت أمام هذه الجماعة المهاجرة التي استولت على أرض الآخر. يمكن تلخيص جوهرها بلسان حالهم على النحو التالي: إذا كانت فلسطين هي أرض كنعان وبنو إسرائيل استولوا عليها بالقوة، وكان الفلسطينيون يعيشون معهم وفي وسطهم، فمن هم؟ هل هم "كنعانيون" أيضاً؟ هكذا، وببساطة أصبح المصطلح الاحتقاري الذي أطلقه المهاجر اليهودي الأوروبي على أصحاب الأرض، مصطلحاً ينطبق عليه هو نفسه، فهو نجاسة "قذارة" ما دام يعتبر أرض كنعان هي أرضه القديمة الموعودة بوعد إلهي.

التوراة تلتخص بأسلوب مذهل هذا الجانب من المشكلة، فقد فرض إبراهيم على ذريته أن يعاملوا الكنعانيين بوصفهم "نجاسة"، وأن لا يتصاهروا معهم، وقد طلب من خادمه أن يفتش عن زوجة لابنه إسحق، شرط ألا تكون من بنات الكنعانيين، كما في سفر التكوين 24(3-2): **{وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِعَبْدِهِ كَبِيرِ بَيْتِهِ الْمُسْتَوْلِي عَلَيَّ كُلِّ مَا كَانَ لَهُ: ضَعْ يَدَكَ تَحْتِ فَخْذِي. فَأَسْتَخْلِفْكَ بِالرَّبِّ إِلَهِي السَّمَاءِ وَإِلَهِي الْأَرْضِ أَنْ لَا تَأْخُذَ زَوْجَةً لِابْنِي مِنْ بَنَاتِ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ أَنَا سَاكِنٌ بَيْنَهُمْ}**. وعلى نفس النهج سار إسحاق كما في سفر التكوين 28(1): **{قَدَعَا إِسْحَاقُ يَعْقُوبَ وَبَارَكَّهُ، وَأَوْصَاهُ وَقَالَ لَهُ: لَا تَأْخُذَ زَوْجَةً مِنْ بَنَاتِ كَنْعَانَ}**.

النص العبري:

{וַיִּקְרָא יַצְחָק אֶל-יַעֲקֹב, וַיְבָרֶךְ אֹתוֹ; וַיִּצְוֵהוּ וַיֹּאמֶר לוֹ, לֹא-תִקַּח אִשָּׁה מִבְּנוֹת כְּנָעַן}.

ثم التزمت ذريته من بعده بذلك، فترى "عيسو" شقيق يعقوب يؤمن بأن بنات كنعان شريرات كما في سفر التكوين 28(8): **{وَرَأَى عَيْسُو أَنَّ بَنَاتِ كَنْعَانَ شَرِيرَاتٌ فِي عَيْنَيْ إِسْحَاقَ أَبِيهِ}**.

النص العبري:

{וַיִּבְרָא עֵשָׂו, כִּי רְעוּת בְּנוֹת כְּנָעַן, בְּעֵינָיו, יַצְחָק אָבִיו}.

لقد توارث أبناء وأحفاد إبراهيم هذا الموقف الديني من الكنعانيين، ورفضوا الزواج من بناتهم لأنهم "قلف"، لا يختنون، ولذا فهم "نجاسة، قذارة". وبهذا المعنى، تكون التوراة قد وصفت جماعة من غير المختونين بكنعاني، أي نجس فذر، ولم تتحدث عنهم كعرق أو شعب آخر. وهذا التوصيف ينطبق فقط على جماعتين متناقضتين دينياً، إحداهما تؤمن بالختان وبإله إبراهيم، وأخرى وثنية نجسة لا تمارس الختان ولا تؤمن بذلك الإله. وإذا ما ربطنا مروية التوراة عن اللعنة التي لحقت بكنعان، لأن والده رأى عورة أبيه، كما بينا من قبل، فسوف يكون مفهوماً لنا مغزى هذا السرد الديني. إنه نسل توارث النجاسة، القذارة منذ القدم، لأنه رفض الختان. هذه هي الدلالة الفعلية لقب كنعاني.

لكن الإسرائيلي المعاصر، سواء أكان علمانياً أم مُتديناً، لا يريد الاعتراف بأنه يعيش مشكلة هوية، وأنه حائر وضائع في دروب الرواية التاريخية التوراتية الزائفة. ولأن المصطلح "كنعانيون" الذي حوِّله اللاهوتيون إلى مصطلح ذال على عرق أو شعب آخر، تحوّل إلى مشكلة، فقد راح علماء الآثار من التيار التوراتي، يقدّمون بدون توقف أدلة كاذبة ولا أساس لها عن

حضارة كنعانية عظيمة، وأخذوا يصنفون كل ما يجدونه في أرض سوريا التاريخية على أنه كنعاني، لكنهم في المقابل لم يعثروا على أي شيء يدل على تواجد "بني إسرائيل" فيها، وهذه مفارقة ساخرة، فقد استولت جماعة مهاجرة على أرض جماعة مستقرة بذريعة أنها نجسة، قذرة وبدائية، بينما تقول اليوم إنهم كانوا أصحاب حضارة.

الإسرائيلي المعاصر، لا يعرف من يكون بالضبط؟ هل هو على سبيل المثال يهودي فرنسي، أم فرنسي يهودي؟ وهل هو يهودي هولندي، أم العكس.. إلخ. وبمعن آخر، لا يستطيع الإسرائيلي تقديم تعريف صحيح عن نفسه، يعيد ترتيب تصنيفه عرقياً ودينياً، وأيهما هو. فإذا ما تبنت فكرة كونه من عرق آخر، ففي هذه الحالة لن يعود له الحق في التثبت بمطالب الرواية الدينية التي تتحدث عن جماعة تدعى "بنو إسرائيل"، لأن هؤلاء ليسوا قبيلة فرنسية أو بلجيكية أو هولندية، بل جماعة قبلية يمنية عربية قديمة، ورد اسمها سوية مع قبائل سبأ وحضرموت والشلف ويافع والضالع. كما أن اعتناق الدين، أي دين، لا يعطي الفرد أي حق في ميراث ديني لجماعة أخرى اعتنق دينها. هذا الوضع يشبه تماماً مطالبة ماليزي مسلم بإرث قريش في مكة لمجرد أنه أصبح مسلماً.

يعيش الإسرائيلي المعاصر تحت رحمة اللاهوتيين في إسرائيل الذين حوّلوا الدين إلى تاريخ. فإذا ما استطاع اليهودي المعاصر -الإسرائيلي من عرق أوروبي- أن يقدم تعريفاً دقيقاً لنفسه، يفصل فيه بين كونه أوروبياً يهودياً لكنه ليس من بني إسرائيل -لأن هذه قبيلة عربية قديمة- أي أنه يهودي من عرق آخر لا صلة له ببني إسرائيل، فسوف يكون مثل المسلم الماليزي أو الصيني، ويتمكن من تعريف هويته ببساطة، فهو صيني مسلم، أو ماليزي مسلم، لكنه ليس من قريش. عدا ذلك، فالإسرائيلي المعاصر سيظل في قلب أزمة معرفية عميقة خلقها مصطلح احتقاري انقلب عليه.

نتج عن سيطرة اللاهوتيين الذين حوّلوا الدين إلى تاريخ، إلى ترسيخ توهم لدى اليهود أن أي سؤال محرج ومثير من جانبه عن صحة النص التوراتي، اشتباكاً مع الدين بوصفه هو التاريخ. ولذلك يتجنب طرح سؤال الهوية. وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار هذه الحقيقة المسكوت عنها في المجتمع الإسرائيلي، بوصفه مجتمعاً منتشر أقيماً، أي مجتمعاً لفقته الرواية الدينية من كل الأعراق والأجناس، فسوف يتكشف لنا وبجلاء جوهر المشكلة. إن الأفراد في هذا المجتمع هم أعضاء في مجتمع استشرافي تم اختراعه بفضل تحويل الدين إلى تاريخ، تماماً كما تم اختراع أرض كنعان. وهنا أصبح الإسرائيلي المعاصر يعيش نوعاً من "تيه يهودي جديد" في دروب التاريخ، باحثاً دون جدوى عن جواب لسؤاله غير المعلن بعد: من نكون؟ من نحن؟ أين عشنا؟

إن هيمنة السرد اللاهوتي على التاريخ، هي التي جعلت من اليهودي، علمانياً كان أم متديناً، عبداً لرواية أسطورية لا أصل لها. وهذا هو جوهر إشكالية الهوية عند الفرد الإسرائيلي. وبفضل هذه الهيمنة أيضاً، تحول الدين نهائياً إلى "تاريخ مقدس"، فمن يشكك في هذا التاريخ، يشكك تلقائياً في الدين، ومن يشكك مع نصوص التاريخ، سيبدو وقد اشتبك مع نصوص الدين. وهذا ينطبق حتى في الحالة الفلسطينية، فهناك من يقوم بتحويل الدين إلى تاريخ، وبحيث يصبح كل شخص مشكك في التاريخ شخصاً مشككاً في الدين.

ومع ذلك، لا يكفّ الإسرائيلي المعاصر عن التساؤل على الأقل مع نفسه كما يظهر من كتابات بعض المختصين: هل عاش أسلافنا هنا في هذه الأرض التي تُدعى فلسطين، حقاً، وقبل ألفي عام كما تقوله السردية اللاهوتية؟ وماذا كان اسم هذه الأرض؟ هل صحيح أنها كانت تعرف باسم أرض كنعان؟ لكن أين هي الحفريات التي تؤكد وجودها هنا؟

فلسطين والجغرافيا الخرافية

الواضح من سرديات التوراة، أن معرفة اللاهوتيين لوظائف علم الآثار، تختلف بصورة شديدة التباين مع فهم المتخصصين والمحترفين في ذلك العلم، بل تكاد أن تكون معدودة، ومع ذلك مضى أولئك في تليفق جغرافية فلسطين بدون كلل.

وقبل المضي في تفكيك الصور التوراتية التي استندوا إليها وهدمها، دعونا ندقق مرة أخرى في أصل الاسم "كنعان" من أين جاء الاسم؟

نقرأ في سفر التكوين 10(18-6): **{وَبَنُو حَامٍ: كُوشٌ وَمِصْرَائِيمُ وَفُوطٌ وَكَنْعَانُ}**، ويكمل النص: **"وَكَنْعَانُ وُلْدُ صِيدُونِ بَجْرَةَ، وَحِثَّاءُ."**

نفهم من النص أن كنعان الطفل كان مع والده حام في سفينة نوح، وأنه نجا من الطوفان، وهو شقيق كل من "كوش، ومصرم، وفوط"، ثم صار له ابنان هما "صيدون وحث". أي أن اسم كنعان ينصرف إلى جماعة أسطورية خرجت من الطوفان في عصر نوح، وهذا تصوّر مدهش لولادة جماعات قديمة من رحم الطوفان، أو الاضطراب الكوني، أي أنها جماعة ولدت من الفوضى.

ويؤكد هذا النسب الأسطوري لشعب كنعان، أنه أصبح قبيلة، تفرعت عنها قبائل وبطون مؤلفة من أبناء وأحفاد، تسميهم التوراة هكذا: **الْيَبُوسِيُّ وَالْأَمُورِيُّ وَالْجَرْجَاشِيُّ وَالْحَوِّيُّ وَالْعَزْقِيُّ وَالسِّيئِيُّ وَالْأَزْوَادِيُّ وَالصَّمَارِيُّ وَالْحَمَاتِيُّ**. وَبَعْدَ ذَلِكَ تَفَرَّقَتْ قَبَائِلُ الْكَنْعَانِيِّينَ. ثم حدد النص أماكن سكن تلك القبائل، فقال: **وَكَانَتْ تُحْوِمُ الْكَنْعَانِيِّينَ مِنْ صِيدُونِ، حِينَئِذٍ تَجِيءُ نَحْوَ جَرَارَ إِلَى غَزَّةَ، وَحِينَئِذٍ تَجِيءُ نَحْوَ سُدُومَ وَعَمُورَةَ وَأَذْمَةَ وَصَبُوبِيمَ إِلَى لَاشَعِ.**

وبكل يقين، فهذه أنساب أسطورية، وهي خلاصة تصورات الكهنة المتأخرين عن شعب قديم ورد اسمه في التوراة. وكما هو واضح من تسلسل الأنساب، فإنه لا صلة لكنعان بالفلسطينيين، أو بما سوف يعرف بشعب "فلستيم، فلستين" الذين سوف يظهرون في نصوص التوراة ذاتها كأعداء لكنعان. إذ لا يوجد في النصوص التوراتية إطلاقاً أي صلة بين اسم "فلستيم/ فلستيم"، باسم كنعان، وهي خالية تماماً من وصف أي صلة مهما كانت واهياً بما يزعم أنهم الفلسطينيون، ولو أننا أعدنا قراءة هذه النصوص بدقة أكثر، فسوف يتأكد لنا ذلك، فلماذا إذن يزعم علماء الآثار من التيار التوراتي أن الفلسطينيين هم الفلسطينيون وهم كنعانيون، مع أن نصوص التوراة لا تقول ذلك؟

لكن إذا ما وضعنا هذا التصوّر التوراتي ضمن التاريخ "السبني الحميري"، فسوف نلاحظ ما يلي: إن هذا الوصف الجغرافي هو تصوّر أسطوري لعلاقة قبائل كبرى في ثلاث مناطق باليمن، هي: قبائل مصرم "مصرن الجوف" التي كانت تقيم في منطقة الجوف اليمنية، وإلى جوارهم عاشت قبائل كوش وفوط. وهذه القبائل تعيش حتى اليوم في هذا الفضاء الجغرافي وبالأسماء نفسها:

محافظة صعدة، مديرية عمر، عزلة ذوي محمد، قرية تربة، محلة شعب كوش.

محافظة إب، مديرية حزم العدين، عزلة الشعاور، قرية بني محمد، محلة الفوط.

ونلاحظ أن كوش وفوط يعيشان في عزلتين -منطقتين- بمكانين مختلفين، لكنهما تحملان الاسم نفسه (ذوي، أي بني محمد). وهذه القبائل كانت ترتبط بقرابة دم مع قبائل مصرن/مصريم.

بهذا المعنى فقط، تكون نصوص التوراة قد وصفت علاقة القربى بين قبائل يمنية عاشت إلى جوار بعضها في الجوف وصعدة وإب. لكن ما هي حدود أرض كنعان Kən'á'an التوراتية؟

بلغة الميثولوجيا التوراتية كما جاء في سفر التكوين؛ نجد شعب كنعان هو الشقيق الأصغر لشعوب مصريم وكوش وفوط، لكنه بلغة الجغرافية اليمنية، شعب مجاور وشريك ساهم سوية وبالتعاون مع أشقائه في عمران وذمار والجوف، في تشكيل ما سوف يعرف باليمن الحالي. وهذا هو المغزى الحقيقي من الجغرافية التوراتية ذات الطابع الرمزي. لكن أين أقام شعب كنعان بنفس ذات المعنى الرمزي؟

الجواب كما في سفر التكوين: **{وَكَاثَتْ تُخُومُ الْكُنْعَانِيِّ مِنْ صَيْدُونَ، حَيْثَمَا تَجِيءُ نَحْوَ جَرَّارَ إِلَى غَزَّةَ، وَحَيْثَمَا تَجِيءُ نَحْوَ سُدُومَ وَعَمُورَةَ وَأَدَمَةَ وَصَبُؤِيمَ إِلَى لُشَعِ}**، والتوراة هي المصدر الوحيد لتلك الجغرافيا الخرافية.

إذا هذه هي حدود كنعان حسب التوراة، فهي تمتد من جرار حتى عزة/غزة، وسدوم وعمورة وأدمة وصبونيم حتى لسع. فإذا كانت هذه هي أرض كنعان، فما علاقة فلسطين؟ وهل كانت حدود القطاع الجنوبي من الشام، أي ما سوف يعرف باسم فلسطين، تمتد من صيدا- صيدون جنوب لبنان حتى غزة على الحدود مع مصر؟ هذه حدود إمبراطورية لا حدود أرض شعب صغير. وإذا ما صدقنا خرافة شعب كنعان هذه، فأين تقع جرار التي تبدأ منها حدوده؟ وأين نجد صبوييم؟ وأين نجد لسع- لشع؟ وإذا ما تقبلنا هذه الخريطة الميثولوجيا كحقيقة جغرافية، فسوف تكون فلسطين القديمة قطاعاً جغرافياً عجائبياً، فهو يمتد من مصر حتى جنوب لبنان، ليبليغ حدود سدوم وعمورة، وهما قريتان ترتبطان بأسطورة فناء مروع، ثم صبويم التي لا نعرف أين تقع، وصولاً إلى لسع- لشع، وأين نجد جرار إذا ما كانت أرض كنعان تشمل فلسطين والأردن وسوريا؟

فإذا كانت هذه هي حدود أرض كنعان كما وصفتها التوراة. فمن أين جاء اللاهوتيون الذين هيمنوا على علم الآثار طوال متي عام من الآن، بالخرافة القائلة إن حدود كنعان كانت مع مصر ولبنان والأردن وسوريا؟ إن هذه الفكرة الميثولوجيا شديدة المركزية، تتصل بشكل وثيق بوجود ثلاث ممالك يمنية في هذا العصر، هي: مملكة مصرن "مصريم" في الجوف، ومملكة جنوبية "كوش" وهي الاسم الديني لمملكة حضرموت التي هيمنت على أجزاء واسعة من الجنوب اليمني، ومملكة "قتبان" التي توسعت حتى محافظة إب. في هذا العصر ازدهرت عبادة الثالوث الكوكبي في اليمن القديم. وهذا ما يفسر لنا بشكل صحيح الآيات القرآنية التي تحدثت عن تحطيم إبراهيم

عليه السلام للأصنام ورفضه عبادة الكواكب. لقد ظهرت هذه العبادة في حضرموت والجوف وامتدت حتى مارب.

لكن الملاحظ أن التوراة تميّز بشكل دقيق بين أرض كنعان وأرض مصر. إنهما كيانان مستقلان، فمصر "معين مصرن" ظهرت في منطقة الجوف، وأقامت صلات إدارية مع جماعات أخرى في الشمال، وكانت تعيش بشكل مستقل عنها، بينما كانت حضرموت تعيش تنافسا محموماً مع قبائل الجنوب الحميري اليهودي حول خطوط تجارة البخور والدين. وعندما نمنع النظر في النصوص التوراتية التي ترسم جغرافية أرض كنعان في عصر إبراهيم كما في سفر التكوين 11(31):

{وَأَخَذَ تَارِحُ أَبْرَامَ ابْنَهُ، وَلُوطًا بَنَ هَارَانَ، ابْنَ ابْنِهِ، وَسَارَايَ كَنَّتَهُ امْرَأَةَ أَبْرَامَ ابْنِهِ، فَخَرَجُوا مَعًا مِنْ أَوْرُ كَسْدِيمَ لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتُوا إِلَى حَارَانَ وَأَقَامُوا هُنَاكَ}، وفي سفر 12(5): {فَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ امْرَأَتَهُ، وَلُوطًا ابْنَ أَخِيهِ، وَكُلَّ مَفْتَنِيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنِيَا وَالنَّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ. وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ}، فسوف نتضح لنا صورة هذه الأرض، لأن ما نفهمه من هذين النصين ما يلي: خرج إبراهيم عليه السلام من مكان يدعى حران واتجه صوب أرض كنعان. وبما أن رجال اللاهوت في علم الآثار افترضوا أن حران هذه هي حران ديار بكر ضمن الأراضي التركية اليوم، فسوف يكون من غير المنطقي جغرافيا الافتراض أنه خرج من أور "الكلدانيين" في العراق ليدخل في الأراضي التركية شمال سوريا، من أجل أن يصل إلى أرض كنعان على حدود مصر من مكان لا وجود له؟ هذه جغرافية خيالية.

ومع كل ذلك، يمكن عقلنة هذه الجغرافية التوراتية الجامعة فقط من خلال نزاع برائن ومخالف اللاهوتيين منها، فحاران هنا ليست حران ديار بكر، بل هي حران "حران" محافظة الضالع غير بعيدة عن جبل كسدِيم -زعموا أنه أور الكلدانيين - في لحج، ومن لحج يمكنه أن يدخل بسهولة إلى جرار، ومنها إلى أرض كنعان في مديرية الشمايتين حيث تقع لسع. وطبقاً لهذا التصور سوف تمتد حدود أرض كنعان حتى تعز وتخوم لحج في مديرية القبيطة. وبالطبع يستحيل تخيل أن مصر الحالية كانت على تخوم حران في ديار بكر التركية شمال سوريا. ويؤكد ذلك نص سفر التكوين 12(10-6): **{وَأَجْتَاَزَ أَبْرَامُ فِي الْأَرْضِ إِلَى مَكَانٍ شَكِيمَ إِلَى بَلُوطَةَ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينئِذٍ فِي الْأَرْضِ..... وَحَدَّثَ جُوعٌ فِي الْأَرْضِ، فَأَنحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ}.** فإذا صدقنا هذا النص، فإن حدود مصر الحالية تبدأ عند شكيم التي قيل لنا أنها مدينة نابلس الحالية، وهذه جغرافيا خيالية أيضاً. ولكي تتم حبكة التوراة الخرافية، أضاف اللاهوتيون شعبا آخرا وأسكنوه مع الكنعانيين، كما جاء في النص: **{فَحَدَّثَتْ مُخَاصِمَةَ بَيْنَ رِعَاةِ مَوَاشِيِ أَبْرَامَ وَرِعَاةِ مَوَاشِيِ لُوطِ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ وَالْفَرَزِيُّونَ حِينئِذٍ سَاكِنِينَ فِي الْأَرْضِ}، 117** ثم جعلوا لوطا يختار السكن في كل دائرة الأردن لأنها أرض خصبة مثل أرض مصر، كما في 13(10-12): **{فَرَفَعَ لُوطٌ عَيْنَيْهِ وَرَأَى كُلَّ دَائِرَةِ الْأُرْدُنِ أَنَّ جَمِيعَهَا سَفْيٌ، قَبْلَمَا أُخْرِبَ الرَّبُّ**

117 سفر التكوين 13(7).

سَدُومَ وَعَمُورَةَ، كَجَنَّةِ الرَّبِّ، كَأَرْضِ مِصْرَ. حِينَمَا تَجِيءُ إِلَى صُوعَرَ. فَأَخْتَارَ لُوطٌ لِنَفْسِهِ كُلَّ دَائِرَةِ الْأُرْدُنِّ، وَارْتَحَلَ لُوطٌ شَرْقًا. وهنا نسأل: أين نجد صوعر التي تبدأ من عندها حدود الأردن، إذا كان الأردن الحالي والمعروف هو المقصود من النص؟ وهل عرفت منطقة البحر الميت الأردنية باسم "سدوم وعمورة" في أي حقبة زمنية لا تستمد معلوماتها من خارج التوراة؟

الخلاصة، إذا كان إبراهيم عليه السلام خرج من "أور الكلدانيين"، أي العراق حسب الترجمة المضللة، فمن غير المنطقي أن يدخل أرض كنعان على حدود مصر من مكان يدعى "شكيم" التي وجود لها على حدود تجمع سوريا وتركيا والعراق، أو على حدود مصر، فكيف يدخل إبراهيم النبي أرض كنعان، إذا ما كانت على حدود مصر، لأن نابلس حسب التوراة هي السامرة، فهل دخل النبي مصر من السامرة؟

لكن الحقيقة تتلخص في: هناك جغرافية أخرى جرى التلاعب بها، وهذا ما سنهدمه من نفس نصوص التوراة، والتاريخ الذي نقشه سكان المنطقة في أزمانهم الماضية.

خرافة تلد أخرى

" التوراة المتداولة يجب قراءتها بعيون الأدب، وليس بعيون التأريخ والدين" 118

بينما أن التيار اللاهوتي التقليدي في علم الآثار، استند ومنذ مطلع القرن التاسع عشر إلى نصوص متفرقة من التوراة لرسم حدود ما يزعم أنها أرض كنعان، بدون الاستناد إلى واقع ملموس من منطوق علم الآثار، الذي اكتشفته وحققته مئات البعثات الأثرية التي جالت المنطقة بحثًا عن سند تحتضنه جغرافيتها. لقد عجزت كل البعثات الأثرية في العثور على أي دليل أركيولوجي مهما كان بسيطًا يمكن استخدامه لدعم سرديات التوراة الخاصة بأرض كنعان وحدودها الخيالية وشعبها، رغم أنها بحثت بين كل حبة رمل وأختها، كما عبر أشهر علماء الآثار اليهود الدكتور "إسرائيل فينلكتشتاين". وكل ما استند إليه ذلك التيار اللاهوتي؛ نصوص متفرقة ورد فيها تعابير؛ أرض كنعان، شفة كنعان، لسان كنعان.

كما أن النقوش الآشورية {الآشورية} خاصة ما أطلق عليها بالنقوش البابلية، ومنذ 950 ق.م لا تسجل قط أرض كنعان، بل تجهل ذلك تمامًا.

كان اختراع شعب كنعان كحاجة ملحة، أشد تعقيدًا مما يمكن تخيله لصناعة هويات تاريخية جديدة لسكان الشرق الأوسط، إلا أن اللاهوتيين كانوا أثناء عملهم المضني لصنع هويات بديلة، أخذوا يخترعون من مواد توراتية مادة جذابة يمكن نسبتها لعلم الآثار، بحيث يصبح الحديث عن شعب كنعان لا مجرد توصيف توراتي لجماعة قبيلة قديمة، بل حقيقة أركيولوجية أثرية.

وعلى الجانب الآخر لحدود فلسطين، لا وجود لاسم كنعان أو الكنعانيين في نقوش كل الأسر التي حكمت وادي النيل. ويعتقد المؤرخون، أو بعضهم أن الاسم " كنجي أو كناخي" الواردة في رسائل " تل العمارنة" 119؛ هو أصل كلمة كنعان، مع أن النقوش البابلية تشير إلى أن كلمة "كنجاي" تعني اللون الأرجواني، الذي أطلق على سكان مملكة "أوسان" اليمينية، عبدة الإله كنعان.

في الواقع، إن ترجمة التوراة إلى اللغة الإغريقية كان المفتاح لتزوير الأسماء والأماكن، فعلى سبيل المثال فقد ترجم الاسم "فنجو" الذي استعمله ملوك الأسر التي حكمت وادي النيل، للدلالة على سكان سوريا القدماء إلى "فويكس Phoibikes"، وهكذا ظهر إسم الفينيقيين الذي أطلق على قسم من سكان سوريا. وبما أن أقدم مخطوطة توراتية تعود إلى القرن الرابع الميلادي، فإنها لا تصلح مرجعًا تاريخيًا، أو سندًا جغرافيًا لما حوته من أحداث، وأماكن، وأسماء تعود إلى

118 د. روبرت ألتر، أستاذ الديانة اليهودية في جامعة بيركلي / كاليفورنيا.

أكثر من ألفي عام قبل كتابتها، وهذا أمر لا يختلف عليه علماء النقد النصي، والنقد النصي الأعلى.

نعود إلى التوراة وجغرافية فلسطين الخرافية، لنجدها تذكر في أسفار: يشوع، وقضاة، صموئيل الأول والثاني، والملوك الأول والثاني، أسماء أكثر من ألفي مدينة، وحاضرة، ووادي، وسهول، وأنهار، ومخاضات مائية، وممالك زادت على مئة، مع ذكر أسماء ملوكها وسنوات حكمهم ومعاركهم، وكل ذلك جعلته التوراة ضمن جغرافية فلسطين التي حددها رب الجنود التوراتي يشوع كما السفر 1(4-2): {مُوسَى عَيْدِي قَدْ مَاتَ. فَالآنَ فَمَ اعْبُرْ هَذَا الأَرْدُنَّ أَنْتَ وَكُلُّ هَذَا الشَّعْبِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَنَا مُعْطِيهَا لَهُمْ أَيَّ لِبْنِي إِسْرَائِيلَ. كُلُّ مَوْضِعٍ تَدْوُسُهُ بَطُونٌ أَقْدَامِكُمْ لَكُمْ أُعْطِيئُهُ، كَمَا كَلَّمْتُ مُوسَى. مِنَ البَرِّيَّةِ وَلِبْنَانَ هَذَا إِلَى النَّهْرِ الكَبِيرِ نَهْرِ الفُرَاتِ، جَمِيعِ أَرْضِ الحِثِّيِّينَ، وَإِلَى الأَبْحَرِ الكَبِيرِ نَحْوَ مَغْرِبِ الشَّمْسِ يَكُونُ تُخْمُكُمْ}. وحسب النص فإن حدود الأرض الممنوحة لبني إسرائيل تحدها البرية (لم يحدد أي برية) ولبنان وصولاً إلى نهر الفرات، وجميع أرض الحثيين حتى البحر الكبير. هناك من ادعى أن أرض الحثيين تشمل بلاد الأناضول، وهناك من ذكر أنهم شعب كان يعيش في فلسطين. أما النهر الكبير، فمنهم من قال إنه نهر النيل، في حين من المعاصرين من قال هو البحر المتوسط.

الخلل في النص المفترض أنه نزل من السماء بعد موت موسى عليه السلام، أي بين أعوام (1250-1300) ق.م، هو ذكر شعب الحثيين. والتاريخ لا يعرف شعباً دعي بالحثيين في تلك الحقبة الزمنية، وسنفصل ذلك عند الحديث عن مدينة "حبرون" المدفون فيها جد القبيلة الإسرائيلية الأعلى إبراهيم، وكوكبة من نسله عليه السلام كما تدعي التوراة. وبالتالي تصبح حدود معظم الأرض الممنوحة لبني إسرائيل حسب النص خارج نطاق جغرافية فلسطين.

نمضي مع سفر يشوع لنقرأ في 9(10): {وَكُلُّ مَا عَمَلَ بِمَلَكِي الأُمُورِيِّينَ اللَّذِينَ فِي عِبْرِ الأَرْدُنِّ: سِيحُونُ مَلِكِ حَشْبُونٍ وَعُوجُ مَلِكِ بَاشَانَ الَّذِي فِي عَشْتَارُوتَ}، وهذا نص خرافي، لأن المقصود هنا نهر الأردن الحالي الذي يفصل فلسطين عن الأردن. فالأردن سواء عنت النهر أو الوطن، لم يعرفها التاريخ في ذلك الوقت، ولا يعرف مملكة حشبون وملكها سيجون، ولا مملكة باشان وملكها عوج، سواء في الأردن الحالي، أو أي مكان داخل سوريا التاريخية. في حين أن تلكا المملكتين وملكيها ونهر الأردم بلهجة سبأ، أو الأردن بلهجة حمير جزء من تاريخ وجغرافية اليمن، كما سنبين عند الحديث عن عبور يشوع لذلك النهر.

هناك نص غاية في العجب، يعدد أسماء الممالك التي ضربها "يشوع" وقتل ملوكها، كما في سفر يشوع 12(24-7): {وَهُوَلاءِ هُمُ مُلُوكُ الأَرْضِ الَّذِينَ ضَرَبَهُمْ يَشُوعُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ فِي عِبْرِ الأَرْدُنِّ غَرْباً، مِنْ بَعْلِ جَادَ فِي بُقْعَةِ لِبْنَانَ إِلَى الجَبَلِ الأَفْرَعِ الصَّاعِدِ إِلَى سَعِيرِ. وَأَعْطَاهَا يَشُوعُ لِأَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ مِيراثاً حَسَبَ فِرْقِهِمْ، فِي الجَبَلِ وَالسَّهْلِ وَالعَرَبِ وَالسَّوْحِ وَالبَرِّيَّةِ وَالجَنُوبِ الحِثِّيِّينَ وَالأُمُورِيِّينَ وَالكَنْعَانِيِّينَ وَالْفَرَزِيِّينَ وَالْحَوِيثِيِّينَ وَالنَّبُوْسِيِّينَ. مَلِكُ أَرِيحَا وَاحِدٌ. مَلِكُ عَايِ الَّتِي بِجَانِبِ بَيْتِ إِبِلَ وَاحِدٌ. مَلِكُ أُورُشَلِيمَ وَاحِدٌ. مَلِكُ حَبْرُونَ وَاحِدٌ. مَلِكُ يَزْمُوتَ وَاحِدٌ. مَلِكُ لَحْيَشَ وَاحِدٌ. مَلِكُ عَجْلُونَ وَاحِدٌ. مَلِكُ جَازَرَ وَاحِدٌ. مَلِكُ دَبِيرَ وَاحِدٌ. مَلِكُ جَادَرَ وَاحِدٌ. مَلِكُ حُرْمَةَ وَاحِدٌ. مَلِكُ عِرَادَ وَاحِدٌ. مَلِكُ لِبْنَةَ وَاحِدٌ. مَلِكُ عَدْلَامَ وَاحِدٌ. مَلِكُ مَقِيدَةَ وَاحِدٌ. مَلِكُ بَيْتِ إِبِلَ وَاحِدٌ. مَلِكُ تَفُوحَ وَاحِدٌ. مَلِكُ حَافَرَ وَاحِدٌ. مَلِكُ أَفِيْقَ وَاحِدٌ. مَلِكُ لَشَارُونَ وَاحِدٌ. مَلِكُ مَادُونَ

وَإِحْدَ مَلِكِ حَاصُورَ وَإِحْدَ مَلِكِ شِمْرُونَ مَرَّأُونَ وَإِحْدَ مَلِكِ أَكْشَافَ وَإِحْدَ مَلِكِ تَعْنَكَ وَإِحْدَ مَلِكِ
مَجْدُوَ وَإِحْدَ مَلِكِ قَادَشَ وَإِحْدَ مَلِكِ يَفْتَنَامَ فِي كَرْمَلٍ وَإِحْدَ مَلِكِ دُورَ فِي مَرْتَفَعَاتِ دُورٍ وَإِحْدَ
مَلِكِ جُويِيمَ فِي الْجُلْجَالِ وَإِحْدَ مَلِكِ تِرْصَةَ وَإِحْدَ جَمِيعِ الْمُلُوكِ وَإِحْدَ وَتَلَاتُونَ}.

المفروض أن تلك الأحداث حصلت حوالي 1200 ق.م، لكن تاريخ المنطقة مجهل أسماء أولئك الملوك، ولم تحتضن جغرافيا ممالكهم.

الغريب أن التوراة تدعي أن الرب أمر يشوع بتقسيم الأرض: {مِنَ الشَّيْحُورِ الَّذِي هُوَ أَمَامَ مِصْرَ
إِلَى تَحْمَ عَقْرُونَ شِمَالاً..... مِنْ بَعْلِ جَادَ تَحْتَ جَبَلِ حَرْمُونَ إِلَى مَدْخَلِ حَمَاةَ}، يشوع
13(5-3).

وهنا وقف علماء النقد النصي الأعلى واجمين، إذ لا وجود لمملكة "الشَّيْحُورِ" التي على حدود
مصر، ولا يذكر التاريخ أن أحدا من أسباط القبيلة حكم حماة السورية. ثم تسألوا: إذا كان هذا
النص يتحدث عن تاريخ وجغرافية فلسطين، فلماذا يذكر "مخلاف الشيحور" الذي شكل مع
عشرات المخاليف مملكة مصر ايبم اليمنية؟؟

هناك في اليمن من يملك رواية أخرى تتطابق مع النص التوراتي

تتوالى سلسلة تزوير الأرض الفلسطينية بنصوص توراتية استشراقية، فنجد في سفر القضاة (8): {وَحَارَبَ بَنُو يَهُوذَا أُورُشَلِيمَ وَأَخَذُوهَا وَضَرَبُوهَا بِحَدِّ السِّيفِ، وَأَشْعَلُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ}. ومن النص نفهم أن بني يهوذا بعد أن استولوا على مدينة أورشليم، وقتل سكانها بحد السيف، أحرقها بالنار. والمفروض حسب تقسيم يشوع أن أورشليم من نصيب سبط يهوذا. لكن المزور مهما كان بارعا، خاصة إذا كان يتحدث عن أحداث مضى عليها قرون، لا بد له من الوقوع في دائرة الخطأ، لذلك نجده يقول بعد عدة فقرات النص التالي: {وَيَبْنُو بَنِيَامِينَ لَمْ يَطْرُدُوا الْيَبُوسِيِّينَ سَكَّانَ أُورُشَلِيمَ، فَسَكَنَ الْيَبُوسِيُّونَ مَعَ بَنِي بَنِيَامِينَ فِي أُورُشَلِيمَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ}.

تري هل كانت أورشليم من نصيب سبط يهوذا أم سبط بنيامين؟ وهل أحرقت المدينة أم لا؟ وهل عرفت فلسطين مدينة تدعى أورشليم في تلك الحقبة الزمنية؟ وماذا تعني جملة "إلى هذا اليوم"؟ هل تعني زمن تدوين المخطوطة في القرن الرابع الميلادي، أم زمن إعادة كتابة التوراة بعد العودة من السبي البابلي؟ كل تلك الأسئلة طرحها علماء النقد النصي، وبقيت بدون إجابات حتى تمت عملية ترجمة النقوش المسندية اليمنية، والنقوش الآشورية/ الآشورية.

سفر القضاة 4(10-13): {وَدَعَا بَارَاقُ زَبُولُونَ وَيَفْتَالِي إِلَى قَادَشَ، وَصَعِدَ مَعَهُ عَشْرَةُ آلَافٍ رَجُلًا. وَصَعِدَتْ دَبُورَةُ مَعَهُ. وَحَابِرُ الْقَيْنِيِّ انْفَرَدَ مِنْ قَاينَ، مِنْ بَنِي خُوبَابِ حَمِي مُوسَى، وَخَيَّمَ حَتَّى إِلَى بَلُوطَةَ فِي صَعْنَايِمَ الَّتِي عِنْدَ قَادَشَ. وَأَخْبَرُوا سَيْسَرَ بِأَنَّهُ قَدْ صَعِدَ بَارَاقُ بْنُ أَبِيئُوْعَمَ إِلَى جَبَلِ تَابُورَ. فَدَعَا سَيْسَرَ جَمِيعَ مَرْكَبَاتِهِ، تَسْعَ مِئَةَ مَرْكَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَجَمِيعَ الشَّعْبِ الَّتِي مَعَهُ مِنْ حَرُوشَةَ الْأُمَمِ إِلَى نَهْرِ قَيْشُونَ}.

يتحدث النص حسب التوراة عن أحداث دارت في فلسطين، ذكر فيه؛ منطقة بلوطة الواقعة في صعنايم القريبة من قادش، وجبل تابور، وحروشة الأمم، ونهر قيشون. وكل تلك الأماكن تجهلها جغرافية فلسطين، في حين أن النقوش المسندية اليمنية التي تعود إلى (950) ق.م تذكر تلك الأماكن بأسمائها كما دونتها التوراة بدقة تامة.

الآن نتأمل نص القضاة 7(1-2): {فَبَكَرَ يَرْبَعْلُ، أَيْ جَدْعُونُ، وَكُلُّ الشَّعْبِ الَّتِي مَعَهُ وَنَزَلُوا عَلَى عَيْنِ حَرُودَ. وَكَانَ جَيْشُ الْمَدْيَانِيِّينَ شَمَالِيَهُمْ عِنْدَ تَلِّ مَوْرَةَ فِي الْوَادِي. وَقَالَ الرَّبُّ لَجَدْعُونُ: إِنَّ الشَّعْبَ الَّتِي مَعَكَ كَثِيرٌ عَلَيَّ لِأَدْفَعُ الْمَدْيَانِيِّينَ بِيَدِهِمْ، لِئَلَّا يَقْتَحِرَ عَلَيَّ إِسْرَائِيلُ قَانِيلاً: يَدِي خَلَصْتَنِي}.

هنا عندنا أحد قضاة بني إسرائيل، وهم بمثابة أنبياء يوحى إليهم، واسمه جدعون ولقبه "يَرْبَعْلُ"، يعسكر بجيشه عند عين حرود لمقابلة جيش المديانيين.

حسب النقوش اليمنية، فإن ملك مخلاف عين حرود، من مخاليف مملكة أوسان، قابل جيش المديانيين عند تل مورة، وانتصر عليه. وحسب اللهجة اليمنية الحميرية، فإن "يَرْبَعْلُ" تعني عبد بعل، الذي هو أحد آلهة اليمنيين سكان مملكة أوسان. فكيف يكون أحد قضاة/ أنبياء بني إسرائيل

عبدا لإله وتثني يماني؟ الحدث يماني، والأماكن اليمنية، فعين حرود تقع في منطقة بيحان، والأسماء والألقاب اليمنية، أخذها مدون التوراة، وأسقطها على جغرافية فلسطين وتاريخها.

أما النص الذي يعد بمثابة الصاعقة فقد جاء في نفس السفر، 8(24): **لَئِمَّ قَالٍ لَهُمْ جَدْعُونَ: أَطْلُبُ مِنْكُمْ طَلْبَةً: أَنْ تُعْطُونِي كُلَّ وَاحِدٍ أَفْرَاطٍ عَنِيمَتِهِ. لِأَنَّهُ كَانَ لَهُمْ أَفْرَاطٌ ذَهَبٌ لِأَنَّهُمْ إِسْمَاعِيلِيُّونَ.**

أينما جاء اسم الإسماعيليين في التوراة، فإنه ينصرف إلى أبناء، وأحفاد، وقبائل إسماعيل عليه السلام. وحسب التوراة أيضا، فإن مساكن قبائل الإسماعيليين تمتد من شمال عسير إلى جنوب تبوك، وتضم برية فاران التي تحتضن مدينة مكة. وجدعون كما في التوراة أحد قضاة بني إسرائيل. فهل كان الإسماعيليون في فلسطين حتى يقاتلهم جدعون، أم أن المعركة أساسا دارت ضمن أراضي جزيرة العرب، خاصة جنوبها؟

في سفر صموئيل الأول (25) نجد داوود عليه السلام قد فر إلى برية "فاران" بعد أن دب الخلاف بينه وبين الملك شاول، ملك مملكة يهوذا، ومع ذلك يرسل رجاله صباح كل يوم إلى الكرمل لمساعدة رجل اسمه "نابال" في جز صوف أغنامه. فهل كان رجال داوود يرتحلون من برية فاران في قلب الجزيرة العربية، إلى مدينة حيفا شمال فلسطين كل يوم، أم أن "نابال" كان يقيم في منطقة قريبة من فاران؟

وقبل ذلك وفي نفس السفر، إصحاح (23)، نجد داوود يحارب المعتدين الفلسطينيين سكان منطقة "قعيلة"، ثم يذهب للاختباء في حصون برية زيف. لكن جغرافية فلسطين لا تعرف منطقة قعيلة أو حصون برية زيف، بينما تعرف محافظة الضالع اليمنية برية زيف، ومنطقة "قعيلة" حق المعرفة. لكن المهم أن مدون التوراة، نسي ما سطرته يده عن حروب داوود ضد الفلسطينيين، فأخبرنا في الإصحاح (27) أن الرجل لم يجد مكانا يلجأ إليه إلا حصون الفلسطينيين عندما هزم أمامهم. فكيف هزمه ثم يلجأ إليهم؟

لو أردنا أن نذكر جميع المدن والأماكن اليمنية، وأسماء ملوكها ومعاركهم، التي أسقطتها التوراة على جغرافية فلسطين، لاحتجنا إلى مئات الصفحات، لذلك نكتفي بما ذكرنا، على أن نتطرق في المستقبل لذكر بعضها كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

لقد عبر المستشرق وعالم الآثار "جوزيف هاليفي Joseph Halevy" بعد أن أمضى سنوات يجوب الأرض اليمنية والفلسطينية، عن حجم التقارب بين السرديات اليمنية ومدونات التوراة، فقال "لقد استوفى علم الآثار عمله، ولا وجود في جغرافية فلسطين للأماكن المذكورة في التوراة، وهناك في اليمن من يملك رواية أخرى تتطابق مع النص التوراتي".

قادش برنيع

تحتل مدينة "قادش" منزلة مهمة في السرد اللاهوتي، كونها إحدى المحطات الرئيسية التي نصبت القبيلة الإسرائيلية خيامها على مقربة منها، أثناء رحلة الخروج من مصر، كما في سفر التثنية¹⁽⁴⁶⁾، وقد ذكرتها التوراة عدة مرات باسم قادش، وأخرى باسم "قادش برنيع"، كما في سفر يشوع¹⁰⁽⁴¹⁾: {فَضْرَبَهُمْ يَشُوعُ مِنْ قَادَشَ بَرْنِيعَ إِلَى غَزَةَ وَجَمِيعَ أَرْضِ جُوشَنَ إِلَى جَبْعُونَ}.

وعندما قسم يوشع أرض كنعان بين الأسباط، كانت حدود سبط يهوذا كما في سفر يشوع¹⁵⁽⁵⁻¹⁾: {وَكَانَتْ الْقَرْعَةُ لِسِبْطِ بَنِي يَهُودَا حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ: إِلَى تَخْمِ أَدُومَ بَرِّيَّةِ صِينَ نَحْوَ الْجَنُوبِ، أَقْصَى التَّيْمَنِ. وَكَانَ تَحْمُهُمُ الْجَنُوبِيُّ أَقْصَى بَحْرِ الْمِلْحِ مِنَ اللِّسَانِ الْمُتَوَجِّهِ نَحْوَ الْجَنُوبِ. وَخَرَجَ إِلَى جَنُوبِ عَقْبَةَ عَقْرَبِيمَ وَعَبَّرَ إِلَى صِينَ، وَصَعِدَ مِنْ جَنُوبِ قَادَشَ بَرْنِيعَ وَعَبَّرَ إِلَى حَصْرُونَ، وَصَعِدَ إِلَى أَدَارَ إِلَى الْقَرْعِ، وَعَبَّرَ إِلَى عَصْمُونَ وَخَرَجَ إِلَى وَايِ مِصْرَ. وَكَانَتْ مَخَارِجُ التَّخْمِ عِنْدَ الْبَحْرِ. هَذَا يَكُونُ تَحْمُكُمْ الْجَنُوبِيُّ. وَتَحْمُ الشَّرْقِيِّ بَحْرُ الْمِلْحِ إِلَى طَرْفِ الْأُرْدُنِّ. وَتَحْمُ جَانِبِ الشِّمَالِ مِنَ لِسَانِ الْبَحْرِ أَقْصَى الْأُرْدُنِّ}.

وحسب التوراة فإن خروج القبيلة الإسرائيلية كان من مصر، والتيه في سيناء الحاليين، ومن النصوص التي بين أيدينا، فإن موقع "قادش برنيع" يكون جنوب غزة باتجاه مدينة بير السبع الفلسطينية، وأن "بَرِّيَّةَ صِينَ" هي سيناء الحالية.

تعاقب على المنطقة عشرات البعثات الأثرية الأوروبية والإسرائيلية، على مدى عشرات السنين، وجاب الآثاريين كل الأرض الممتدة بين غزة وبير السبع، ولم يعثروا على أي دليل أركيولوجي يثبت وجود مدينة "قادش"، أو قادش برنيع". فأين نجدها إذا؟ كذلك لا يعرف أحد من اللاهوتيين أو الآثاريين أين تقع باقي المدن المذكورة في النصوص وهي "التَّيْمَنِ وَعَقْبَةَ عَقْرَبِيمَ وَحَصْرُونَ، وَأَدَارَ، وَالْقَرْعِ، وَأَدَارَ، وَوَادِي مِصْرَ". وللخروج من هذا المأزق، إدعى اللاهوتيون ومفسرو الكتاب المقدس: "أن تلك المدن أو معظمها لم يعد لها وجود، أو صار لها أسماء مختلفة، ولا نستطيع تحديد شيء على وجه الدقة، وكل ما يقال هو احتمالات"، وهذا تلخيص القمص "انطونيوس فكرى" المنشور على موقع "الأنا تكلا هيمانوت « St Takla.org وهذا نوع من الهروب خوفا من مواجهة الحقيقة المتمثلة في أن قصة الخروج من مصر الحالية كما تدعي التوراة، حدثت حوالي 1350 ق.م، وأقدم مخطوطة متكاملة للكتاب المقدس تعود إلى أواخر القرن الرابع الميلادي، فمن أين جاءت تلك الأسماء، خاصة أن مصر وسيناء لم تعرفا بتلك الأسماء قبل القرن الثالث قبل الميلاد؟

نكمل النص لنتعرف على المتاهة التوراتية (8-6): {وَصَعِدَ التَّخْمُ إِلَى دَبِيرَ مِنْ وَايِ عَخُورَ وَتَوَجَّهَ نَحْوَ الشِّمَالِ إِلَى الْجَلْجَالِ الَّتِي مُقَابِلَ عَقْبَةَ أَدْمِيمَ الَّتِي مِنْ جَنُوبِيِّ الْوَادِي. وَعَبَّرَ التَّخْمُ إِلَى مِيَاهِ عَيْنِ شَمْسٍ، وَكَانَتْ مَخَارِجُهُ إِلَى عَيْنِ رُوجَلٍ. وَصَعِدَ التَّخْمُ فِي وَايِ ابْنِ هَنُومَ إِلَى جَانِبِ الْبَيْبُوسِيِّ مِنَ الْجَنُوبِ، هِيَ أَوْرَشَلِيمَ. وَصَعِدَ التَّخْمُ إِلَى رَأْسِ الْجَبَلِ الَّتِي قِبَالَةَ وَايِ هَنُومَ غَرْبًا، الَّتِي هِيَ فِي طَرْفِ الْوَادِي الرَّفَائِيِيِّنَ}.

الأماكن التالية: "دَبِيرَ، وَادِي عُخُورَ، الْجُلْجَالِ، عَيْنِ شَمْسِ، عَيْنِ رُوجَلِ، وَادِي ابْنِ هُنُومَ" لا مكان لها في ذاكرة الجغرافيا الفلسطينية في ذلك العصر إطلاقاً، والتعريفات الملحقة بها الآن سندها التوراة فقط. والغريب أن "وادي ابن هُنُومَ" جاء بأسماء مختلفة منها "وادي هُنُومَ" كما الفقرة 8 من نفس النص، وسفر نحemia(30)11، وباسم "وادي بني هنوم"، كما في سفر الملوك الثاني(10)23. والأسماء الثلاثة تتحدث عن نفس المكان.

الهمذاني في كتابه "وصف جزيرة العرب" تحدث عن وادي هنوم في الصفحات (128، 134، 223، 238، 239، 303، 310، 311، 321) بشكل مسهب وبدقة لا مجال للتشكيك فيها، كما تحدث بنفس الدقة عن وادي مور، وكل الأسماء الواردة في النص التوراتي الذي بين أيدينا.

كما تحدث الهمذاني عن البتراء بنفس الوصف الدقيق الذي جاء في التوراة، لكن في جغرافية اليمن، حيث ذكر في صفحات (227-228): "بلد نهد: أراك، واد فيه أراك، وأراكة أسفل زبيد. وموارد بني الحارث بن كعب: الملحاح ولوزة، والربيعية بأسفل نجران، والهرار والبتراء. هذه أعداد شمالي بني الحارث".

لو عدنا الى التوراة سنجد أنها تعرف "بيت عيل"، بيت إيل الحالية على أنها لوزة، وأن الوصول إليها يكون من وادي كشاف. مدون التوراة حول قرية "لوزة" اليمنية إلى بيت إيل (بيت عيل)، لكنه نسي أن يحرف اسم وادي كشاف. ففي الجغرافيا اليمنية لا يمكن الوصول إلى قرية لوزة إلا عن طريق وادي كشاف، بينما بيت إيل الفلسطينية يمكن الوصول إليها من أربع جهات.

أما عين شمس المذكورة في النص أعلاه، فلا تعرفها جغرافية فلسطين، بينما يعرفها سكان وجغرافية اليمن، وهي المقصودة في قصيدة كثير عزة، بقوله:

أتاتي ودوني بطن غول ودونه----- عماد الشبا من عين شمس فعابد

وفي لسان العرب لابن منظور، مادة الشمس: عين شمس هضبة في اليمن. وفي صفحة (283) يصف الهمذاني عين رجلي التي جاء ذكرها في سفر يشوع، على أنها من منازل بني الحارث في الجوف اليمني.

خلاصة القول: إن كل الأماكن المذكورة في التوراة، إذا ما أسقطناها على جغرافية اليمن، سنجد التطابق يصل إلى 100%، وهذا ما دفع المستشرق وعالم الآثار الفرنسي جوزيف {Joseph Halevy} إلى القول: "هناك في اليمن من يملك رواية أخرى تتطابق مع النص التوراتي".

الجزء السادس: النقوش الآشورية والحقيقة التاريخية

اللاهوتيون وترجمة النقوش الآشورية/الآشورية

حاول الأثاريين من التيار اللاهوتي الاستشراقي، ترجمة النقوش الآشورية/الآشورية التي تتحدث عن معارك أباطرة آشور/آسور في فلسطين-حسب التوراة- خاصة المتعلقة بالسامرة وأورشليم، لإثبات التواجد الإسرائيلي في فلسطين. لكن ترجمتهم صنعت جغرافيا خيالية.

النقش الآشوري/ الآسوري كما ترجمه البروفيسور كمال صليبي، ثم أعاد ترجمته الدكتور فاضل الربيعي، نصه الأصلي كالتالي:

"الأمير المعظم، الذي قاتل(خمبان جاش Humbani gash) ملك (Elam عيلم) وجها لوجه في ضواحي(دير Der) وهزمه، والذي أخضع أرض (laudو العود) أي (Judah اليهودية الواقعة بعيدا هناك، الذي حمل (أهالي) (حمث Hamath)، والذي أسرت يداه ملكهم (أوبو إنديل -la'u bidi) الذي تصدى لشعب(Kamke كمخي) الأعداء الأشرار، الذي (أعاد القبائل) المعينية (Mannean) إلى النظام بعد ما عم فيها من الفوضى، والذي أسعد قلب أرضه، الذي وسع حدود آشور (Assyria)، القائد المثابر، صائد الكفرة، الذي أسر بيده (بسيرس Pisiris) (ملك حتي Hatti) ووضع مأمورا له على عاصمته (كركميش Carchemish)، والذي حمل (شعب) (سنحوتو Shinuhtu) الخاضع لـ(كياكي Kiakki) ملك (الطبال Tabal) وأحضرهم إلى عاصمته آشور، الذي وضع نيره على أرض (موشكي Muski) الذي غزا المعينيين و(قر اللوى Kar allu) (والبيديري Paddiri)، والذي انتقم لأرضه؛ وأطاح بـ(الميداس Medes) (البعيدة هناك عند حدود الشمس من مشرقها)".

"ثم عبرت الرية (Rappa) وأرات- (العراط (Aratta))، وهما نبعان يتدفقان من قرب قواعد تلك الجبال، عبرتها والمياه مرتفعة فيها كما (لو كانتا) قنوات للسقاية. ونزلت بعدها على (Suri kash سوري وخاش ولاية من ولايات المعينيين) التي تقع على حدود (Kar alla قر- العلة) والعبرة (Allabria). وكان أولو سونو (Ullu sunu) -المعيني- مدركا أنني لم أنس مخططاتي بالانتقام منه طوال كل تلك السنوات، كان قد سمع باقتراب حملتي. فما كان منه إلا أن هرع إليها من أرضه هو والنبلاء والشيوخ والمستشارون ويذور بيت أبيه (أي عائلته) والولاة والأشراف الذين كانوا يحكمون أرضه، هرعوا دونما رهائن، (مرتحلين) من (Izirtu العزرة)، مدينته الملكية إلى (Sinihinu سنحانو)، حصن مجاور لأرضه ووقف بين يدي. ثم وضع جزيته بين يدي من الخيول المثقلة بالأحمال مع سانسيتها وقطعانا وماشية، وقبل قدمي".

ترجمة اللاهوتيون كانت كالتالي:

"- تتع إيل" الواردة في النقش أصبحت (إثيوبياً)، مع أن كل النقوش تتحدث عنه كملك من ملوك سبأ، وهذا يعرفه كل المنشغلين بعلم الآثار.

- أرض المعينيين ترجموها أرض المانويين، وهي أرض مملكة معين الجوف التي يعرفها علماء الآثار جيداً.

- سكان الأرمنيين ترجموها سكان أرمينيا، وقبائل الأرمنا، هي قبائل اليمن، وتعرف حتى اليوم باسمهم هذا.

- موشكو- موشكي Muski ترجموها موسكو. وموشكي عزلة جبلية في محافظة المحويت، تحمل نفس الاسم حتى الآن.

وبكل تأكيد لا يمكن لأي عاقل أن يصدق أن قبائل سبأ وحمير ومأرب، كانت تتصارع مع الآشوريين حول أورشليم والسامرة في فلسطين، بمساعدة من إثيوبيا، وأرمينيا، ومصر، وملك مقاطعة موسكو. مثل هذا الهراء تعجّ به كتب التاريخ القديم.

عندما اكتشفت البعثة الدانماركية التي قامت بأعمال التنقيب الأثري في نينوى شمال العراق عام (1761-1768) م، نقوش سرجون الثاني ضمن النصوص الآشورية (Ancient Assyrian records 2 (P26)، ضمن النقوش الآشورية، ثار نقاش طويل بين علماء الآشوريات حول اسم الفاتح الحقيقي للسامرة. الوقائع كما هي في النقوش: "في العام 724 ق.م زحف شلمناصر الخامس، شقيق سرجون على إسرائيل في الشمال، مأرب وصنعاء، فاحتل كل البلاد باستثناء أورشليم. وكانت "السامرة" في هذا الوقت حصينة وتحت سيطرة القتبانيين الجنوبيين في عدن ولحج وشبوة وسواحل تعز، واستطاعت أن تقاوم الحصار لثلاث سنوات، ولكنها سلّمت أخيراً في (721-722) ق.م.

سجل النص أن سرجون الثاني أنه استولى على السامرة، ولكن كان هناك إشكال محدد، يتعلق بوجود أكثر من اسم لإمبراطور آشوري ارتبطت به قصة الاستيلاء عليها.

دار النقاش بين الأثريين واللاهوتيين حول هذا الجانب، لكنهم تجنبوا طرح السؤال التالي: إذا كانت التوراة تتحدث عن السامرة باعتبارها عاصمة إسرائيل، فهل يعني هذا أن الآشوريين استولوا عليها، بصرف النظر عن اسم الإمبراطور؟ لأن التوراة تتحدث عن الاستيلاء على السامرة بشكل تفصيلي، وكيف أصبحت عاصمة لإسرائيل. ما لم يظن إليه علماء الآثار، أو أنهم تجاهلوه قسداً، أن سياق السجلات الآشورية يعجّ بأسماء قبائل وأماكن يمنية، وبالتالي؛ فإن النقوش الآشورية تتحدث عن "سامرة" أخرى في مكان آخر لا علاقة لها بفلسطين، وعن ملك إسرائيلي استولى عليها، ويحمل اسماً عربياً صريحاً هو "أخاب بن عمري".

ولا يزال هذا النقاش مستمراً حتى اليوم، لأن التيار اللاهوتي -وهو الذي روّج لسردية زانفة تزعم أن أحداث النقوش الآشورية تدور في فلسطين- كان يشعر بالارتباك والقلق من أن ينسف هذا النقاش القصة الزانفة التي روّج لها، والقائلة إن القدس كانت عاصمة إسرائيل القديمة.

وهكذا، أصبح الجدل حول اسم عاصمة إسرائيل القديمة مُحرجاً، وبات أي اقتراب منه نسفاً لرواية أن القدس هي التي أصبحت عاصمة إسرائيل القديمة. وفي وضع من هذا النوع أصبح اسم السامرة موضع خلاف بين علماء الآثار واللاهوتيين.

لكنهم صُدّموا بالوقائع التي تسجلها نقوش سرجون، ففي بداية حكمه، حاصر السامرة وفتحها وسبى نحو ألف رجل من سكانها. ولكن علماء آخرين لاحظوا أن ما جاء في ملوك الثاني 17(3)-6) يؤيد على نحو ما فكرة استيلائه على السامرة، ذلك أن سلمانو الخامس الذي جعلوا اسمه شلمناصر (744-727) ق.م، دمر المدينة الحصينة دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها.

وفي ملوك الثاني 18(10) يستخدم سارد النص جملة "أخذوا السامرة"، وهذا ما اعتبره علماء الآثار دليلاً على أن المقصود (ملوك آشور)، وأن سرجون الثاني قد يكون هو من تمكن بالفعل من الاستيلاء عليها. في هذا الإطار يزعم علماء الآثار من التيار التوراتي اللاهوتي المهووس بالاستيلاء على أرض فلسطين بأي ثمن، أن حكم سرجون (720) ق.م شهد ثورات مضادة في حماة وغزة ودمشق ومصر وموسكو؟ وهذا أمر عجيب، لأن الجغرافيا في هذه الحالة تصبح خيالية.

ثم تضاعف الخيال حين تصوّروا أن الملك (مته) ملك مقاطعة (مته) عام (717) ق.م هو -ملك موسكو- المتحالف مع الحاكم الحثي، أثناء التصدي لسرجون الثاني في كركميش بسوريا. ولو أننا صدّقنا هذا الخيال اللاهوتي الذي فُرنت فيه نقوش الأشوريين، فسوف تصبح فلسطين جزءاً من مشكلة كان مسرحها بلاد الأناضول وأرمينيا وموسكو وهذا خيال لا يقبله عقل.

وبالطبع يستحيل علينا الجمع بين فلسطين وأرمينيا وموسكو في جغرافية واحدة. نقرأ في نقوش سرجون الثاني (722-705) ق.م الذي ثار الجدل حول هويته بين علماء الآثار (ما يعرف باسم نقوش النمرود) أنه وقيل أن يستولي على السامرة أخضع أرض المعينيين، ومنطقة لود *laudū* التابعة لأرض اليهودية *Judah* واستولى على عدد كبير من المدن منها موشكي، ومقاطعة البديري *Paddiri*، وأسر أحد ملوكهم ويدعى أوبيدي إيلو/عبيد إيل، كما استولى على مقاطعة «الطبال *Tabal*»

كل هذا يعني أن النقاش حول "السامرة" التي استولى عليها سرجون لا معنى له، فها هنا جغرافية يمنية لا جدال حولها، فأرض المعينيين هي مملكة الجوف "معين الجوف"، و"موشكي" هي اليوم كما كانت وقت كتابة النقوش في محافظة المحويت، مديرية الرجم، عزلة البشاري، قرية بيت الموشكي.

وهذا يعني أيضاً أن القدس لم تكن قط، ولا في أي وقت عاصمة إسرائيل القديمة. وهل لعاقل أن يصدق أن القدس كانت عاصمة إسرائيل في "موشكي بالمحويت" ضمن "أرض اليهودية" قرب أرض المعينيين؟

يبقى أن نوضح الأمر التالي: عندما انقسمت المملكة السبئية/الحميرية الموحدّة (727-605) ق.م، وتحولت إلى شمالية(سبأ) وجنوبية (حمير/أي يهوذا) فقد اتفقت المملكتان حسب التوراة على حماية "أورشليم" كمدينة دينية مشتركة.

بكل وضوح نقول: أصبحت "السامرة" اليمنية عاصمة مملكة إسرائيل، لكنها مع ذلك، وبسبب الصراع بين الإسرائيليين الشماليين، واليهود الجنوبيين "الحميريين"، سقطت مراراً في قبضة اليهود. ومع كل هذا بقيت أورشليم هي "المدينة/المعبد"، أي المدينة المقدسة التي يحج إليها الإسرائيليون الشماليون، واليهود الجنوبيون

هذا النقش وعشرات مثله، جعل العشرات، بل المئات من العلماء المختصين بعلم الآثار والتاريخ، على قناعة بأن تاريخ وجغرافية التوراة، لا علاقة لهما بتاريخ وجغرافية فلسطين، وأن التطابق الوحيد كان ولا يزال مع جغرافية وتاريخ اليمن فقط.

ترجمة النقوش الآشورية، خطوة لتنقيح التاريخ الفلسطيني

نقوش "سنحاريب، وشلمانصر الخامس، وأدد نيراري الثاني".

تعتبر مسألة التوفيق بين الرواية الدينية والتاريخ الرسمي الموثق، أهم مشكلة تواجه المؤرخين، ويمكن القول إنها معضلة مزدوجة في كثير من الأحيان، خاصة عندما يصبح التناقض صارخا بين الروايات الدينية ذاتها. لكن، غالباً ما تظهر معضلة أخرى، وذلك عندما تتطابق الرواية الدينية مع التاريخ، لكن في وجود تناقض صارخ بين جغرافية النص الديني وجغرافية السرد التاريخي، وهذه المعضلة أظهر ما تتجلى في الرواية التوراتية، فهي تتطابق جزئياً مع السرد التاريخي، وتتضارب كلياً مع جغرافيته.

على العكس من المزاعم التي يروج لها البعض؛ بأن التوراة كتاب قصص أسطورية لا قيمة لها، وأنها محرقة، فإن التحري عن تلك المزاعم سوف يبرهن أن التوراة سجلت في كثير من الأسفار ما يمكن تسميته "الجزء المنسي من التاريخ"، إذ لعب المتأخرون من الكهنة اليهود، دوراً محورياً في تدوين الكثير من الوقائع التاريخية، ثم جاءت القراءة الاستشرافية وتلاعبت في جغرافية الحدث وربطتها بجغرافية فلسطين. وهكذا يتضح لنا أن أحد أهم مصادر التناقض بين الروايتين التوراتية والتاريخية، يكمن في إصرار التيار اللاهوتي على وضع الرواية الدينية، خارج نطاق مسرحها الجغرافي الصحيح.

نقرأ في سفر صموئيل الثاني (7-3): {وَضْرَبَ دَاوُدُ هَدَدَ عَزْرَ بْنِ رَحُوبَ مَلِكِ صُوبَةَ حِينِ ذَهَبَ لِيُرِدَ سُلْطَنَهُ عِنْدَ نَهْرِ الْفَرَاتِ. فَأَخَذَ دَاوُدُ مِنْهُ أَلْفًا وَسَبْعَ مِئَةِ فَارِسٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ رَاجِلٍ. وَعَرَقَبَ دَاوُدُ جَمِيعَ خَيْلِ الْمَرْكَبَاتِ وَأَبْقَى مِنْهَا مِئَةَ مَرْكَبَةٍ. فَجَاءَ أَرَامُ دِمَشْقَ لِنَجْدَةِ هَدَدَ عَزْرَ مَلِكِ صُوبَةَ، فَضْرَبَ دَاوُدُ مِنْ أَرَامَ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ أَلْفَ رَجُلٍ. وَجَعَلَ دَاوُدُ مُحَافِظِينَ فِي أَرَامَ دِمَشْقَ، وَصَارَ الْأَرَامِيُّونَ لِدَاوُدَ عِبِيدًا يَقْدِمُونَ هَدَايَا. وَكَانَ الرَّبُّ يُخْلِصُ دَاوُدَ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ. وَأَخَذَ دَاوُدُ أَتْرَاسَ الذَّهَبِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى عِبِيدِ هَدَدَ عَزْرَ وَأَتَى بِهَا إِلَى أُورُشَلِيمَ، وَمِنْ بَاطِحِ وَمِنْ بِيروثاي، مَدِينَتَيْ هَدَدَ عَزْرَ، أَخَذَ الْمَلِكُ دَاوُدَ نَحَاسًا كَثِيرًا جَدًّا.}

يعتبر هذا النص من معضلات التضارب بين الرواية الدينية والتاريخ الرسمي الموثق، لأنه واقعة تاريخية مثبتة على النقوش.

الرواية الدينية تتحدث عن معركة يدعي مدون التوراة أن داوود خاضها ضد ملك يدعى "عزر" في مكان يدعى "هدد"، ويسميه "هدد عزر" يقع عند نهر الفرات، إلى آخر النص.

النص كما هو مترجم من النسخة الإنجليزية كالتالي: {وَضْرَبَ "هدد عزر بن رحوب" ملك صوبَةَ، حين ذهب ليرد سلطته عند نهر "الفروت"، واخذ داوود منه (1700) فارس، و(20) ألف راجل، وعرقب داوود جميع خيول الراكبين، وأبقي منها (100) مركوب. فجاء "أرام

دمشق "120 لنجدة هدد عزز ملك صوبية، فضرب داوود من آرام (22) ألف رجل، ونصب داوود ولاية له في آرام دمشق، وصار الآراميين عبيدا يقدمون هدايا، وكان الرب يخلص داوود حيثما توجه، وأخذ داوود تروس الذهب التي كانت على عبيد هدد عزز وجاء بها إلى "أورشليم"}.
المؤرخون من أنصار السرد التوراتي أدخلوا اسم "أورشليم" كي يظهر النص جزءا من التاريخ اليهودي الفلسطيني، النسخة الإنجليزية ذكرت اسم النهر "الفروت"، بينما حرص المدون على جعل اسمه "الفرات".

تاريخيا، الرواية التوراتية حدثت بنفس التفاصيل، لكن، في جغرافية مختلفة، إذ تتطابق حرفيا مع نقوش "سنحاريب، وشلمناصر الخامس، وأدد نيراري الثاني"، الذين اصطدموا بملك يدعى "هدد عزز"، وقاموا بضرب وتأديب الآراميين المتمردين، وأعداد القتلى التي تسجلها النقوش، تتطابق مع النص التوراتي.

هذا جزء من نقش شلمناصر الخامس {حملة السنة 14 من حكم شلمناصر الخامس 845 ق.م.} كما هو في المتحف البريطاني.

السطور (54-62): في السنة السادسة من حكمي اقتربت من مدن ضفاف "بلاح" حين قاموا بذبح "غيمو" حاكم مدنهم. دخلت "تل مارع"، و"أهبي". وعبرت الفروت في وقت فيضاته. وتلقيت الهدايا من جميع ملوك "حتى". في ذلك الوقت قام كل من "هدد عزز" ملك آرام و"عر خوليني" ملك أرض "حمث"، مع جميع ملوك "حتت" والساحل، واعتمدوا على قوة بعضهم البعض، ليخرجوا ضدي في معركة وحرب. تحت أوامر "أشور" السيد العظيم، يا سيدي، اقتتلت معهم، وأتممت هزيمتهم. أخذت مركوباتهم وفرسانهم وأسلحتهم الحربية. وذبحت (20500) من محاربيهم بالسيف.

السطور (87-89): في السنة الحادية عشرة من حكمي، عبرت الفروت للمرة التاسعة. استوليت على عدد لا يحصى من المدن. هبطت على مدن كارض حمات. استوليت على 89 مدينة: هدد عزز، من آرام، واثني عشر من ملوك الأرض تحالفوا مع بعض، تمكنت من دحرهم.

ومن نقش نيراري الثاني (895) ق.م.:

السطور (87-89): في السنة 11 من حكمي عبرت الفروت للمرة التاسعة، استوليت على مدن كثيرة. ونزلت مدن من أرض "حمث"، استوليت على 89 مدينة. ووقف "هدد عزز" ملك آرام مع اثني عشر ملكا من أرض "حتى" مع بعضهم. لكنني نجحت في الإطاحة بهم.

السطر (735): أعطيت الأمر بالسير لمواجهة آرام و[أخرست] عماري في دمشق، [مدينته الملكية]، وأخذت 100 طالون من الذهب، و1000 طالون من الفضة.

السطر (740): مضيت لمواجهة آرام واسكت ملك آرام في دمشق عاصمته الملكية. سحقه بهاء آشور المخيف، سيده، وغدا تابعا لي وجعلته يكون في خدمتي. وأخذت 2300 طالون من الفضة و(20) طالون من الذهب و(3000) طالون من النحاس و(5000) طالون من الحديد. وملابس صوفية وكتانية ملونة سريرا من العاج، وأريكة من العاج مرصعة ومبهرجة، وممتلكاته وبضائعه، بكميات لا عد لها من قصره في دمشق مدينته الملكية. أخضرت بين يدي. ووضعت مشرفا عليها. وجعلت "برع إيل" يخضع تحت قدمي. " أيا وخيبان وبدن والعي وتيما وسبأ وعمو على حدود الشمس من الغرب التي ما كان لأحد أن يعرفها. والتي يقع موطنها في البعيد هناك، كانوا قد سمعوا بمجد جلالتي. حلبوا جمالا، ونوقا، وكل أنواع الأعشاب وجزيتهم، وضعوها كلها بين يدي طوعا [وقبلوا قدمي]. عينت إيل وأدبنييل مشرفين على تخوم مصر(ن). وفي جميع أراضي في أرك، وكمنو(كمنهو) وكوش وتي وسبأ، وقفطي، وسباطي، وبعل جبلة وإيل حمش، وبن عمو وسمعي إيل، وتل خور التي تتبع- قبيلة جرم، وإلحاز اليهودي في اليهودية.

نلاحظ من النصوص أن "هدد عزر" الذي ذكرته التوراة، هو ذاته المذكور في النقوش. كذلك تطابق أعداد القتلى والغنائم. كما أن جميع المدن والقبائل وبنفس الترتيب، لا تزال منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة في منطقة الجوف اليمنية. بينما تجهلها جغرافية فلسطين، ولا وجود لها في ذاكرة تاريخها.

الذي حصل أن التيار اللاهوتي الاستشراقي، وبطريقة مكشوفة، أطلق أسماء الكثير من تلك المدن والبلدات والقبائل اليمنية على جغرافية فلسطين، يمهّد لخلق مسرح تاريخي جديد، يقنع يهود أوروبا، بقصة الوطن الموعود.

وهكذا حمت أصبحت حماه، وحمش أصبحت حمص، وقدش أصبحت القدس، وأورسالم أصبحت أورشليم، نهر فروت اليمني أصبح نهر الفرات العراقي.

نلاحظ التعبير التوراتي: ذهب داوود ليسترد سلطته عند الفرات (الفروت بالنص الإنجليزي)، وبمقارنته مع مثيله في نقوش سنحاريب وشلمناصر وغيرهما: وعبرت الفروت. ثم متى كان لداوود، زعيم قبيلة صغيرة متواضعة سلطة على حماة وحمص ودمشق، ومناطق عند الفرات؟ حتى التوراة لم تفسر لنا ذلك، بينما يتحاشى مفسروها شرح ذلك بطريقة واضحة، وكل ما فعلوه، ذكر نص التوراة بدون شرح يوضح متى كانت تلك السلطة المزعومة.

كيف لنا فهم أن "هدد عزر" كان في فلسطين حسب التوراة، وفي ذات التاريخ نجده في اليمن حسب نقوش ملوك بلاد الرافدين، التي لم تذكر فلسطين إطلاقا.

ويبقى السؤال التالي: متى دون هذا السفر؟ لأن إسم الفرات الحالي لم يعرف به زمن داوود وبطولاته الخرافية.

نقش تجلات بلاسر الثالث

يحتوي التاريخ الإسرائيلي القديم، والرسمي، الذي يُدرس في المعاهد الدينية اليهودية، ويحفظ عن ظهر قلب، ويتردد صداه في أروقة الجامعات في العالم كله، على قوائم بسنوات حكم ملوك إسرائيل ويهوذا، وضعها اللاهوتيون بوصفها قوائم لا جدال حول صحتها، كونها جزءاً من "تاريخ" مملكة إسرائيل التي أقامها اليهود في فلسطين قبل أكثر من ألفي عام، حسب ما تقول الأسطورة التوراتية. لكن التحقيقات التي قام بها المختصون من آثريين ومؤرخين، ومنهم الدكتور فاضل الربيعي، طوال سنوات لتلك القوائم، تثبت أنه تاريخ زائف وملفّق ولا أساس له، وأن من يزعم أنهم "ملوك إسرائيل" هم في الواقع كهنة (قضاة) كانوا يقودون معارك الأسباط الإسرائيلية ضد القبائل الوثنية، أو كانوا جزءاً من تحالف قبلي في مواجهة الغز الأشوري، والبابلي من قبل.

في حقيقة الأمر، فإن المملكة الإسرائيلية المزعومة كانت "مخلفاً" أو مشيخة صغيرة لقبيلة مغمورة من ضمن 83 مخلفاً، وهذا ما تثبته النقوش اليمينية والآشورية/الآشورية.

ولأن هذا التاريخ قابل بطبيعته للسجال، فعلياً أن نبين نوع وطبيعة التلفيق الاستشراقي الذي جعل من فلسطين، دون أي دليل علمي أرض المملكة "اليهودية" القديمة.

سنتوقف عند ثلاثة فقط من هؤلاء الملوك، هم:

الملك عمري الذي قتل نحو (850) ق.م.

يوشيا بن آمون الذي صار ملكاً عام (609-640) ق.م.

مناحيم بن جدي (جادي) الذي حكم نحو (740) ق.م.

وهذه التواريخ وضعها اللاهوتيون، وقد جرى وضع هؤلاء الكهنة/الملوك، داخل إطار زمني يمتد أكثر من 200 عام. وقد واجه الكهنة واللاهوتيون في ترتيب سنوات حكم "ملوك إسرائيل" مشكلات حقيقية، جعلتهم ينسبون مدة حكم هذا (الملك) لذلك، ويخلطون بينهما حتى تصبح فترة حكمه خيالية.

فمثلاً، غالباً ما تضاف مدة حكم الملك عمري الذي حكم هو وأولاده مملكة "يهوذا"، فتصبح مدة حكمه أطول مما تقبله الوقائع، وبحيث تصبح فترة ما يسمى انقسام المملكة الإسرائيلية إلى شمالية وجنوبية زمنياً خيالياً، وهذا ما تؤكد الآيات التوراتية من سفر الملوك 2، 16(2-1)، و19(22-1).

في سفر الملوك الأول 16(16): {فَسَمِعَ الشَّعْبُ النَّازِلُونَ مَنْ يَقُولُ: "قَدْ فَنَنَ زَمْرِي وَقَتَلَ أَيضاً الْمَلِكُ". فَمَلَكَ كُلُّ إِسْرَائِيلَ عُمَرِي رَئِيسَ الْجَيْشِ عَلَى إِسْرَائِيلَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي الْمَحَلَّةِ}.

فحسب النص التوراتي، فإن عمري كان من الكهنة المحاربين، وأحد فرسان "بني إسرائيل"، وقد دبر مؤامرة لقتل الملك ذمري-الذماري من مدينة دمار-، ولأن اللغة العبرية لا تعرف حرف الذال، فقد كتب إسمه الزاي فأصبح زمري.

وعمري من أبناء مقاطعة منافسة لدمار، وهذا صراع تقليدي داخلي بين المدن والقبائل، وطبقا لنصوص التوراة يكون عمري عاش في عام 850 ق.م، وقاد مؤامرة لقتل الملك-الزمري- من دمار-الذي يزعم أنه كان ملك إسرائيل ثم استولى على عرشه.

أما الملك يوشيا فجاء اسمه في سفر الملوك الأول 13(2): {فَتَادَى نَحْوَ الْمَذْبُحِ بِكَلَامِ الرَّبِّ وَقَالَ "يَا مَذْبُحٌ، يَا مَذْبُحٌ، هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هُوَذَا سَيُؤَلِّدُ لِي بَيْتَ دَاوُدَ ابْنُ اسْمِهِ يَوْشِيَا، وَيَذْبُحُ عَلَيْكَ كَهَنَةُ الْمُرْتَفَعَاتِ الَّذِينَ يَوْقِدُونَ عَلَيْكَ، وَتَحْرَقُ عَلَيْكَ عِظَامُ النَّاسِ}.

"يبدو النص كصورة دينية نموذجية عن ولادة كاهن سوف يعرف باسم يوشيا. وطبقا لهذا النص وللقوائم التي وضعها اللاهوتيون أنفسهم، فقد عاش الكاهن اليهودي يوشيا عام 609 ق.م، أي أن ما يفصله عن عمري قد يقرب من 250.

وحسب التاريخ الرسمي، فقد كان الصراع في هذا العصر يشند بين "المملكة اليهودية" و"المملكة الإسرائيلية"، وكانت المؤامرات تحاك علنا وفي وضح النهار.

ويظهر اسم الملك مناحم بن جادي، كشخص متأمر ضمن الحقبة الممتدة من عام 740 ق.م، أي أن ما يفصله عن الملك عمري يقارب القرن الكامل، وفي سفر الملوك الثاني 15(27-22): {ثُمَّ اضْطَجَعَ مَنَحِيمٌ مَعَ آبَائِهِ، وَمَلِكٌ فَفَحِيَا ابْنُهُ عَوْضًا عَنْهُ. فِي السَّنَةِ الْخَمْسِينَ لِعَزْرِيَا مَلِكِ يَهُودَا، مَلِكٌ فَفَحِيَا بْنُ مَنَحِيمَ عَلَى إِسْرَائِيلَ فِي السَّامِرَةِ سَنَتَيْنِ. وَعَمِلَ الشَّرُّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ. لَمْ يَحْذَ عَنَ خَطَايَا يَرْبُعَامَ بْنِ نَبَاطَ الَّذِي جَعَلَ إِسْرَائِيلَ يَخْطِئُ. فَفَتَنَ عَلَيْهِ فَفَحُ بْنُ رَمَلِيَا ثَالِثًا، وَضْرِبَهُ فِي السَّامِرَةِ فِي قَصْرِ بَيْتِ الْمَلِكِ مَعَ أَرْجُوبَ وَمَعَ أَرِيَةَ وَمَعَ خَمْسُونَ رَجُلًا مِنْ بَنِي الْجَلْعَادِيِّينَ. قَتَلَهُ وَمَلِكٌ عَوْضًا عَنْهُ. وَبَقِيَّةُ أُمُورِ فَفَحِيَا وَكُلِّ مَا عَمِلَ هَا هِيَ مَكْتُوبَةٌ فِي سَفَرِ أَخْبَارِ الْأَيَّامِ لِمُلُوكِ إِسْرَائِيلَ. فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ وَالْخَمْسِينَ لِعَزْرِيَا مَلِكِ يَهُودَا، مَلِكٌ فَفَحُ بْنُ رَمَلِيَا عَلَى إِسْرَائِيلَ فِي السَّامِرَةِ عَشْرِينَ سَنَةً}.

أي أنه نفذ مؤامرة لقتل الملك الإسرائيلي شلوم بن يابيس "يبيش" واستولى على عرشه.

هذا باختصار، الوقائع كما روتها التوراة، والآن لننظر في الرواية التاريخية،

إذ لدينا دليل تاريخيا أثريا موثقا، يؤكد وجود الملوك الثلاثة، لكنه دليل يناقض فرضيات التاريخ الإسرائيلي، عن سنوات حكمهم، ويبدو أن الكهنة المتأخرين الذين أعادوا تنقيح الأسفار التوراتية خلال حقبة ومراحل مختلفة، هم الذين وضعوا الرواية الأصلية عن وجود هؤلاء الثلاثة باعتبارهم ملوكا إسرائيليين أو يهودا، وفي إطار زمني يمتد أكثر من قرنين، ثم قام اللاهوتيون تاليا منذ مطلع القرن الماضي فقط بتحويل الرواية التوراتية إلى تاريخ رسمي، وأصبح علينا أن ننقل فكرة وجود هؤلاء الملوك في أرض فلسطين خلال متني عام متواصلة، وهذا ما لا أساس له في التاريخ الحقيقي.

لدينا نقش يخص تجلات بلاسر الثالث (727-745) ق.م، من موجودات المتحف البريطاني،
نقرأ فيه التالي:

815. مدينة هاتريكا (Hatarikka) في أعلى جبل سوا (Sauga) ، ومدن جبلة (Gubla) وشميرا/شمير، واركه/ارك، وزمار/ذمار (Simirra)، (Arka, Zimarra) ، ومدن سيساع، والريه، وري عنسو /عنس، وسيانو /سيان، وريه (Unsua, Sianu, Ri'a-raba)، (Ri'a_sisa) ومدن يام الأعلى كلها أخضعتها لحكمي، وعينت عليها ستة من القادة والحكام من عندي.

ومدينة راش بونه/ رأس البون (Rashpuna) الواقعة عند يام الأعلى ومدن نيته/ نيطة (nite) ووزعقله (?) Gala'za وأبلاكا/ أبلقه (Abilakka) الواقعة على حدود بيت حمير (Bit Humria) وهو منزل عمري الإسرائيلي (Omri, Izrael) وبلاد نيه تل/ نفع تل (Naphtali) الواسعة بأكملها جعلتها ضمن حدود آشور (Assyria).

وعينت قادة من عندي كحكام عليها، أما هونو/حنانو (Hanno)/(Hanunu) فقد هرب من أسلحتي ونجا إلى أرض مصري ((Musri)، واستوليت على مدينة غزة (Gaza) وحملت بضائعها وممتلكاتها وألتهتها، أما نصبي وتمثالي الملكي فقد أعدته على أحسن صورة، ووضعته في وسط قصره، وحسبتهم آلهة لأرضه، وأسستهم، أما مناحم (Menahem)، فقد دب فيه الخوف فجاءني وحده كعصفور وخضع تحت حكمي فأعدته إلى قصره، والفضة والملابس الصوفية الملونة والملابس الكتانية أخذتها كجزية.

816: وأرض بيت حمير (Bit_Humria)، وحملتها مع كل شعبها وكل بضائعهم إلى آشور (Assyria) فخلعوا ملكهم بكاها/بكا (Pakaha) يوشيه (Hoshea) ووضعت الأوسي (Aussi) ملكا عليهم، وأخذت منهم 10 طالونات من الذهب و(الرقم غير واضح) طالونا من الفضة كجزية منهم وحملتها إلى (Assyria)

والآن وجب ملاحظة التالي:

1- في النقش نقرأ أسماء الملوك الثلاثة، ونكتشف أنهم لم يعيشوا في عصور مختلفة، بل في عصر واحد (740 ق. م) ولا تفصل بينهم متنا عام، وأن سنوات حكمهم حسب التوراة لا تعدو كونها سنوات حكم خيالية.

2- إن الجغرافيا التي يرسمها النقش وبالأسماء التوراتية، تنسف كل أساس لتصور المعارك في فلسطين كما في السرد التوراتي. فما صلة فلسطين بأرض حمير؟ وكيف يمكن تخيل فلسطين مسرحا لصراع قبائل ذمار ضد قبائل عمري في منطقة إب اليمنية؟

3- استنادا لهذا النقش (وهناك عشرات النقوش الأخرى) فإن الملوك الثلاثة: عمري ويوشا ومناحم عاشوا في عصر واحد، وواجهوا حملة "تجلات بلاسر الثالث"، ولكن في مناطق متباعدة.

كما أن حملة "تجلات بلاسر الثالث" وقعت خلال سنوات (727-745) ق.م، وهذا يعني أن التاريخ الافتراضي الذي وضعه التوراتيون لسنوات حكمهم لا يسنده أساس علمي، وتحتاج

لتعديل شامل، وإن الوقائع التي ترونها التوراة، تتطابق كلياً مع النقش الآشوري، إلا أنها تتناقض معه في زمن الحدث بسبب القوائم الاعتباطية التي وضعها اللاهوتيون.

4- ما حدث حسب النقش: لقد هزم الآشوريون ثلاثة من كبار كهنة بني إسرائيل، مملكة الشمال، واليهود، مملكة الجنوب الذين قادوا القبائل اليمنية لصد الغزو. والواضح أن المعارك دارت في أرض حمير -بلاد اليهودية-، أي أرض بيت حمير (Bit_Humria)، حيث استولى الإمبراطور الآشوري على كل شيء، وحمل الذهب وكل بضائعهم إلى آشور (Assyria)، لذا قامت القبائل الجنوبية اليهودية -الحميرية- المهزومة بخلع ملكها بكاها/بكا (Pakaha) الذي يعرف باسم يوشيه (Hoshea). تؤكد النقوش الآشورية ومن ضمنها هذا النقش، أن كل هذه المدن أصبحت هي حدود الإمبراطورية الآشورية، أي كامل منطقة البحر الأحمر وبحر العرب، وإن أسماء المدن التي يسجلها هذا الجزء من النقش الطويل، تقودنا إلى المسرح الحقيقي: ذمار (ذمار)، راش البونة (رأس البون ضمن صنعاء)، جبلة وسيان (ضمن محافظة إب اليوم)، وعنس (من مدن ذمار الكبرى) والسوا (من مدن تعز الكبرى)، منطقة عمري (في محافظة إب)

إن الجغرافيا التي يرسمها النقش وبالأسماء التوراتية، تنسف كل أساس لتصور المعارك في فلسطين، فما صلة فلسطين بأرض حمير؟ وكيف يمكن تخيل فلسطين مسرحاً لصراع قبائل ذمار ضد قبائل عمري في إب؟ الأمر لا يتعلق بكونه مجرد تشابه في أسماء الأماكن، بل هو تاريخ أدخلت الجغرافيا في قلب التاريخ اليمني بدعم من النقوش الآشورية. وحسب المسنديات والنقوش اليمنية، فإن تلك الممالك حسب التوراة، كانت مجرد مخاليف. والمخلاف حسب التقسيم الإداري اليمني القديم، مجرد جبل أو بضعة جبال، تعيش فيها جماعة بشرية تتمتع باكتفاء ذاتي، واستقلال تام عن الآخرين. وهذه خطوة أخرى وحسب باتجاه تفكيك الأساطير اللاهوتية وتطهير التاريخ الفلسطيني من الأكاذيب.

نقش B-L Nashq Demirjian ونقش شلمانصر الثالث

يمكن القول دون تردد: إن ثمة تاريخًا مسكوتًا عنه، وثمة أيضا صمت علمي يحول دون كشف الحقيقة عن كل ما يتعلق بتاريخ فلسطين القديم.

قد يبدو عنوان هذا الجزء، {وهو مقتطف من عمل ضخيم، أعده الدكتور فاضل الربيعي، وكان جزءا من الوثائق التي قدمتها فلسطين لليونسكو لإثبات أن فلسطين والقدس القديمة عربية ولا أثر لليهود فيها} مثيِّرًا للاستغراب والحيرة، فما علاقة "مدن يهوذا" بمملكة سبأ اليمنية؟ لقد جرى تمرير خدعة كبرى، هيمنت على عقول ملايين البشر طوال القرن الماضي، ولا تزال رجاتها الأولى، تشيع الذعر من أي محاولة لكسر الصمت وكشف التضليل.

لا أحد تقريبًا تساءل: وأين نعثر على "دن يهوذا" التي تتحدث عنها التوراة، ويزعم علماء الآثار دون أي دليل علمي أنها في فلسطين؟

في الواقع لا تحدّد التوراة، ولا بأيّ صورة من الصور، المكان الذي ظهرت فيه "مدن يهوذا". وهي لا تقول قط، إنها كانت في فلسطين، كما لا تقول إن هذه المدن، هي ذاتها "أرض اليهودية" أو أنها هي ذاتها أيضا "مملكة يهوذا" كما في اصطلاحات أخرى كثيرة وشائعة نجدها في أسفار التوراة: سفر الملوك الثاني 23(5)، و 23(8)، سفر أخبار الأيام الأول 6(65)، سفر أخبار الأيام الثاني 10(17) و 11(5) و 11(10)، و 11(23)، و 12(4)، ونحميا 11(3)، و 11(20)، و 12(44)، والمزامير 69(35) وإشعيا 36(1)، و 40(9)، وإرميا 1(15). ومع ذلك كله، جرى وضع "مدن يهوذا" في جنوب فلسطين. ولم يكفّ علماء الآثار من التيار التوراتي، لحظة واحدة عن الزعم المتهافت وغير العلمي، أن "مملكة يهوذا" كانت تضمّ نابلس (مدينة شمال الضفة الغربية اليوم). ومن المؤكد، أن اللاهوتيين الذين قادوا أعمال التنقيب الأثري في فلسطين، وحتى مع فشلهم طوال 70 عامًا في الحصول على دليل واحد مهما كان عديم الأهمية، إلا أنهم كانوا يتشبثون بهذه الصورة التوراتية بالرغم من افتقارهم لأي دعم علمي.

المعضلة التي واجهت التيار التوراتي في علم الآثار، وهو يلفق صورة "مدن يهوذا" في فلسطين، أن التاريخ الفلسطيني ليست لديه أي رواية عن هذه المدن، وهو لا يعرفها، ولا توجد أي دلالة أركيولوجية: أسوار، بقايا قصور، بقايا منازل، نقود... إلخ تؤكد وجودها.

ولكن هناك تاريخ آخر لديه خزان من الروايات عن "أرض يهوذا" و "مدن يهوذا" هو التاريخ السبئي/الحميري في اليمن. ويكفي أن نعلم أن حمير كانت "مملكة يهودية" يعرفها التراث العربي/الإسلامي جيدًا.

سنتناول هنا نقشًا واحدًا من عشرات النقوش، يكشف بجلاء عن مكان أو جغرافية هذه المدن. وهو المعروف باسم B-L Nashq Demirjian 1 الذي يعود إلى القرن السادس ق.م، وعثر عليه في منطقة "نشق" أهم مدن الجوف "مملكة معين مصرن".

كتب النقش في عصر المكرب السبئي "يدع امر بين"، وهو ابن "اسمه علي ينف" (ينوف)، وحكم عام 640 ق.م، وورد اسمه في النقوش التي تحمل الأرقام: 864، و732، و622 CIH، وEPIG، وIII، وAF62، وPhilby77، و4177، و3653. أي أن تاريخه يسبق قصص التوراة بما يزيد عن قرن كامل، ويتحدث عن معارك خاضها السبئيون في "مدن يهوذا" ضد "مملكة معين مصرن" وحضرموت وكيف أن هذه المعارك انتهت بانتصار السبئيين وتحرير "مدن يهوذا" من قبضة مملكة "معين مصرن". بل إنهم تمكنوا من انتزاع أجزاء من حضرموت وإحاقها بمملكة سبأ.

والنقش يروي على لسان كاتبه (صبحم/ الصبح بن عم شفق، Sbḥhmw son of 'ms²fq، of the family Rs²wn (الاسم السبئي بالحرف اللاتيني) وهو من أسرة (رشأن) المعروفة جيداً لعلماء التاريخ، بوصفها أسرة ملكية عاشت في مملكة صغيرة في الجوف، وذلك ما يؤكد نص النقش، فالرجل أحد سكان نشق، وقد أهدى تمثالاً من البرونز تقريباً للإله المقه. وهذا أمر هام للغاية، لأنه يمنع أي تلاعب محتمل، يمكن أن ينسب الحدث لتاريخ آخر. ولأن النقش من النقوش النذورية المألوفة في التاريخ اليمني، فقد بدأه كاتبه بإهداء آلهته تماثيل من البرونز تقريباً وشكرًا، لعودته سلمًا من القتال مع "سبأ" وبعد أن تغلبوا على "معين مصرن"، وليس مصر البلد العربي بكل تأكيد، وحرروا "مدن يهوذا".

سوف نستعرض أهم ما جاء في النقش:

السطر 6: حين تغلبوا على معين مصرن في (السفل). — N rglm w-ḏb' wmsḥrM' nm b-' s¹ (والسفل من مدن اليمن المعروف)

السطر 7: وفي "عتمة" يوم قاتل مع قبيلته، "عتمة مديريةية في ذمار".

السطر 8: ركب-ن الركب سوية مع قوات سبأ في أرض

السطر 9: حضرموت ويوم قاد ثلاث قوافل

وهنا المقطف بالحرف اللاتيني:

السطر 5: —yr-h ywmḏḏb' b-' m S¹b' w-Rkb

السطر 6: —n rglm w-ḏb' wmsḥrM' nm b-' s¹

السطر 7: —fl' tmyḏw-ywmḏb' b-' m s²' b

السطر 8: —hwRkbn b-ḏ' mmsḥr S¹b' ' d' r

السطر 9: ḏ Ḥḏrmt w-yḏbrw s²ḏ [t

من الواضح طبقاً لنص النقش، أن المكرب السبئي (يدع بين) قاتل عام 640 ق.م مملكة (مصرن- مصرم في التوراة) وانتزع منها أراضي تمتد من ذمار حتى ميفعة في حضرموت، وتمكن من تحرير "مدن يهوذا":

السطر 14: ومدن يهوذا؛ وعندما كان آمنا

السطر 15: وصله خبر أن الحرب وقعت من Ġzt إلى كتي

السطر 16: وعندما كان وسط كلدة وعوين، أرسل له اليدع بين IByn «Yd

السطر 17: بن يثع أمر ملك سبأ رسولاً وطلب منه

السطر 18: أن يذهب كمبعوث منه إلى أرض كرم.

السطر 19: لحيان وبعشه وحنك وHnk وتلك كانت هي المرة الرابعة عشرة

السطر 20: التي يرسله في بعثة (?) وقد أنجز كل ذلك

السطر 21: فكان رسول الملك وعينه

وهنا النص الإنجليزي:

السطر 14: and the towns of Judah ; and when he was safe

السطر 15: and sound, he who was sent from Ġzt to Kty, during the war

السطر 16: between Chaldea and Ionia ; and when Yd' IByn

السطر 17: son of Yt' mr king of Saba' appointed him and sent

السطر 18: him as a messenger to the land of Dkrm and

السطر 19: Lhyn and 'b's' and Hnk in those fourteen

السطر 20: expeditions (?) and he accomplished all that

السطر 21: Yd' I had charged him as a messenger and for which he had appointed him

مقتطفان من نقش لنبوخذ نصر يظهران تلاعب التوراتيين بتاريخي فلسطين واليمن

تكمُن أهمية هذا النقش، أنه يكشف عن التاريخ المسكوت عنه، أو لنقل عن الجزء الذي سعى اللاهوتيون لإخفائه عن أنظارنا. فمدن يهوذا ليست سوى مدن حمير أي المناطق الجنوبية التي خضعت لهيمنة مملكة معين مصرن (معين الجوف)، وهي ليست جنوب فلسطين، وليست نابلس. كانت الحرب التحررية التي خاضها هذا المكرب، قد تتوجت بانتزاع مساحة هائلة من الأراضي، سوف يتمكن خليفته "كرب إيل وتر بن زمر علي" 650-600 ق.م حسب التاريخ الرسمي، من تأسيس المملكة الموحدة: مملكة سبأ وذو ريدان، حمير.

لقد تلاعب التوراتيون بتاريخ فلسطين وتاريخ اليمن، سواء بسواء. هنا مقتطفان صغيران من نقشين لنبوخذ نصر (M.21946.B المتحف البريطاني) من العصر نفسه: 605 ق.م وهو يستخدم الاصطلاح نفسه:

السطر 12: وحاصر مدن اليهودية (Judah)، وفي اليوم الثاني من شهر (Addaru) [شباط/آذار 597] استولى على المدينة وأسر الملك يهوفين [Jehoiachin]. وهذا بالضبط كما في سفري إرميا، ملوك الثاني، ونصهما:

نص سفر إرميا: {وَفِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ وَالثَّلَاثِينَ لِسَنِي يَهُوْيَاكِينِ، فِي الشَّهْرِ الثَّانِي عَشَرَ، فِي الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ، رَفَعَ أُوَيْلُ مَرْوَدُخَ مَلِكِ بَابِلَ، فِي سَنَةِ تَمْلِكِهِ، رَأْسَ يَهُوْيَاكِينِ مَلِكِ يَهُودَا، وَأَخْرَجَهُ مِنَ السِّجْنِ} 121.

نص سفر الملوك: {كَانَ يَهُوْيَاكِينُ ابْنُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ، وَمَلَكَ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ فِي أُورُشَلِيمَ، وَاسْمُ أُمِّهِ نَحُوشْتَا بِنْتُ النَّاثَانَ مِنْ أُورُشَلِيمَ. وَعَمِلَ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ حَسَبَ كُلِّ مَا عَمِلَ أَبُوهُ. فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ صَعِدَ عَبِيدُ نَبُوخَذْنَصَّرَ مَلِكِ بَابِلَ إِلَى أُورُشَلِيمَ، فَدَخَلَتِ الْمَدِينَةَ تَحْتَ الْحِصَارِ. وَجَاءَ نَبُوخَذْنَصَّرُ مَلِكِ بَابِلَ عَلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَ عَبِيدُهُ يُحَاصِرُونَهَا. فَخَرَجَ يَهُوْيَاكِينُ مَلِكُ يَهُودَا إِلَى مَلِكِ بَابِلَ، هُوَ وَأُمُّهُ وَعَبِيدُهُ وَرُؤَسَاؤُهُ وَخَصِيَانَتُهُ، وَأَخَذَهُ مَلِكُ بَابِلَ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ مَلِكِهِ. وَأَخْرَجَ مِنْ هُنَاكَ جَمِيعَ خَزَائِنِ بَيْتِ الرَّبِّ، وَخَزَائِنِ بَيْتِ الْمَلِكِ، وَكَسَرَ كُلَّ آيَةِ الذَّهَبِ الَّتِي عَمَلَهَا سُلَيْمَانُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ فِي هَيْكَلِ الرَّبِّ، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ. وَسَبَى كُلَّ أُورُشَلِيمَ وَكُلَّ الرُّؤَسَاءِ وَجَمِيعَ جَبَابِرَةِ النَّبَاسِ، عَشْرَةَ آلَافٍ مَسْبِيٍّ، وَجَمِيعَ الصَّنَاعِ وَالْأَقْيَانِ. لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا مَسَاكِينُ شَعْبِ الْأَرْضِ. وَسَبَى يَهُوْيَاكِينُ إِلَى بَابِلَ. وَأَمَّ الْمَلِكُ وَنِسَاءُ الْمَلِكِ وَخَصِيَانَتُهُ وَأَقْوِيَاءَ الْأَرْضِ، سَبَاهُمْ مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى بَابِلَ. وَجَمِيعُ أَصْحَابِ النَّبَاسِ، سَبَعَةُ آلَافٍ، وَالصَّنَاعُ وَالْأَقْيَانُ أَلْفٌ، وَجَمِيعُ الْأَبْطَالِ أَهْلِ الْحَرْبِ، سَبَاهُمْ مَلِكُ بَابِلَ إِلَى بَابِلَ. وَمَلَكَ مَلِكُ بَابِلَ مَتْنِيًّا عَمَهُ عَوَضًا عَنْهُ، وَغَيَّرَ اسْمَهُ إِلَى صِدْقِيَا} 122.

121 سفر إرميا 52(32-31).

122 سفر الملوك الثاني 24(17-8).

نلاحظ في النقش السبئي أن المكرب "يدع بين" أرسل مبعوثاً منه إلى آل بعشه بعد أن دحر المصريين (المعنيين ملوك الجوف). وهذا ما يقول حرفياً نقش شلمانصر الثالث عن آل بعشه Ba'sa، بن Monolith Inscription of Shalmaneser III. وبنود بعشا- بعشه Ba'sa، بن Ruhubi، بن رحوب ومن العمونيين Ammon. وكل هؤلاء الملوك الـ 12 احتشدوا ضدي، وبقوة آشور قهرتهم. إلهي الذي أعطاني القوة أحرقت بهم الهزيمة.

هذه الحروب التي دارت في "مدن يهوذا" لم يكن مسرحها فلسطين بكل تأكيد، فما علاقة فلسطين بـ (آل بعشه) الذين تودد لهم مكرب سبأ، وقاتلهم شلمانصر الثالث؟

ما فعله التيار الاستشراقي اللاهوتي، هو إسقاط تعسفي لتاريخ مملكة يهوذا اليمينية على جزء من أرض فلسطين، أطلقوا عليها اسم يهوذا أو اليهودية، كما أطلقوا على الجزء الآخر اسم السامرة، كما سنبين ذلك لاحقاً.

نلاحظ أن هناك تطابقاً تاماً بين النقوش الآشورية البابلية وبين السرد التوراتي فيما يتعلق بحروب التوراة المزعومة في فلسطين الحالية، وحروب آشور وبابل ضد ممالك اليمن بما فيها مملكة يهوذا اليمينية. فكل أسماء الملوك، والمعارك، ومناطق حدوثها، وتواريخها، نتائجها متطابقة. فهل يعقل أن ملوك آشور وبابل حاربوا في فلسطين واليمن في نفس الزمان والمكان ضد نفس الملوك؟

نقش سرجون الثاني

أثارت مسألة وجود إسم مصر في التوراة، جدلا استمر لوقت طويل خلال القرن الثامن عشر، ليس في أوساط اللاهوتيين فقط، بل امتد أيضا إلى أوساط علماء الآثار من التيار التوراتي، وأستقر أمرهم على اعتبار وجود إسم مصر، دليلا قاطعا على أن "أحداث التوراة" جرت في فلسطين.

ومع أن الأحداث المروية في التوراة تعطي جغرافيا متناقضة ومختلفة عن جغرافية مصر، فقد انتهى هذا الجدل الصائب، الى اعتبار الإسم دالا على أنها مصر الحالية. وهكذا بدأت سلسلة لا تنقطع من الأعمال الممنهجة والمنظمة التي قادها اللاهوتيون، واستكملها علماء الآثار من التيار التوراتي لإنشاء سردية تاريخية تصبح فيها فلسطين هي مسرح الحدث، ثم سرعان ما دخلت هذه السردية الزائفة في صلب مناهج التعليم المدرسي والجامعي في العالم كله، ويات من شبه المستحيل اقتلاع الأكاذيب والتزوير الاستشراقي من ميدان البحث التاريخي الأكاديمي، خاصة وأن الموروث الإسلامي لا يحوي ما يفندها، بل ساندها وأيدها بأدلة أخرى خرافية، خاصة فيما يتعلق بتفسير بعض الآيات التي تناولت قصة بني إسرائيل.

لكن تلك الأكاذيب أصبحت محل نقاش علمي في القرن العشرين، وتحديدًا عام 1953. وعند اكتشاف نقوش بخط المسند اليميني، تسجل اسم مصر في صورة "مصرن"، وداخل منطقة الجوف ومأرب وصروح وعلى أسوار مدن الجوف القديمة، مثل مدن كمهنو (كمنو) و(يثل)، فقد استعر النقاش مجدداً حول مسألة مصر، وبلغ ذروته عندما تبين أن هذه النقوش، تتحدث عن مصر أخرى، يمنية قديمة تدعى "معين مصرن"، كانت من أعظم الممالك اليمنية التي سيطرت على طرق التجارة البرية والبحرية في جنوب الجزيرة العربية وعلى امتداد سواحلها نحو 900 ق م، ثم كشفت النقوش الأثورية أن سرجون الثاني اصطدم بملك يسميه ملك جبل مصري (Mount Musri)

أصبح ذلك النقاش بتفاصيله معروفا لأهل الاختصاص، فقد خاضه علماء آثار من التيار التوراتي مثل ويليام فوكسويل أولبرايت (William F. Albright)، وجوزيف هاليفي (Joseph Halevy)، وجون فيلبي (John Philly)¹²³ وغيرهم، وبعد الاطلاع على نتائج وأبحاث من سبقهم من المستشرقين خاصة النمساوي ادورد كلاسر. ولخص الدكتور جواد علي كل ذلك النقاش بشكل ممتاز في كتابه الشهير "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام".

كان السؤال المحير الذي فجر النقاش حول التاريخ الفلسطيني، يدور في نطاق الفكرة التالية: إن اسم مصر الحالية -وبحسب السجلات التاريخية المصرية المعروفة- لم يكن معروفا في العصر الذي ظهرت فيه مملكة مصرن اليمنية، إذ كانت مصر الحالية تعرف باسم "بلاد الجبت-القطب".

¹²³ جون فيلبي، هو ذاته عميل المخابرات البريطانية الذي ساهم في إنشاء الدولة السعودية.

وفي الواقع لم يظهر اسم مصر في صورته هذه إلا عام 700 ق.م، حسب بعض النظريات، وفي عام 285 ق.م حسب نظرية "مانيتون". وسواء كان الاسم قد ظهر في عام 700 ق.م، أو عام 285 ق.م، فقبل هذا الوقت لا وجود لاسم مصر على وجه الإطلاق، خاصة الأحداث التوراتية التي جاءت في سفر صموئيل، وسفري الملوك، والتي حصلت بين (700-900) ق.م.

لا بد من الإشارة إلى النقاش الصاحب الذي ثار بين علماء اللغة العربية ومفسري القرآن في القرن الرابع الهجري حول آية "اهبطوا مصرًا" في سورة البقرة.

وقد احتج المفسرون بسور أخرى، لتأكيد أن النص القرآني لم يقصد مصر الحالية. وبكل تأكيد فإن من يريد دخول مصر "لا يهبط" إليها، فهي بلاد سهلية، بينما يتعين على من يريد دخول "مصرن" اليمينية الجبلية أن "يهبط" إليها بالفعل.

وعلى الرغم من الخلافات الشكلية بين اللاهوتيين والنيو-التوراتيين في علم الآثار، فقد جرى اعتبار الاسم دالاً على مصر الحالية، وتم تفسير قصص التوراة عن صراع مصري-آشوري في فلسطين على أساس أنه واقعة تاريخية حقيقية سجلتها التوراة.

وهكذا، بدأت حقبة جديدة مروعة، جرى خلالها تزوير تاريخ فلسطين القديم بشكل ممنهج ومنظم، وكانت المادة المركزية فيه تتعلق بذكر التوراة لاسم ملك تسميه ملك مصر "نيخو/نخو"، أطلق عليه اللاهوتيون "نيخو الثاني".

ولكي نبين طبيعة التزوير الذي لحق بتاريخ فلسطين، نقدم عرضاً سريعاً عن هذا الفرعون. كان النقاش يدور حول المسألة التالية: أن المصريين والآشوريين تقاتلوا فوق أرض فلسطين، وأن نبوخذ نصر هزم ملكاً مصرياً يدعى "نيخو/نخو الثاني"، بيد أن نقوش نبوخذ نصر لا تذكر ذلك، وتكتفي بالقول إنه هزم ملكاً مصرياً وليس ملك مصر أو فرعونها، فمن يكون هذا الفرعون الذي تحدثت عنه التوراة؟ هل هو شخصية تاريخية حقيقية؟ وهل صحيح أنه هزم أمام نبوخذ نصر في معركة كركميش؟

مصر لا تعرف في كل تاريخها القديم أي ملك بهذا الاسم، ولا ذكر له في أي وثيقة، أو سجل تاريخي، أو نقش مصري أو آشوري، كما لا يوجد أي اسم يماثله.

كل ما لدى علماء الآثار وكتاب التاريخ من اللاهوتيين لتكريس هذا التزوير، وجعله حقيقة علمية، هو إشارة وردت في قصيدة لإرميا النبي، يسجل فيها اسم "نيخو"، وقد افترض اللاهوتيون أنه "نيخو/نخو الثاني" دون أي دليل، فهل تكفي إشارة ملتبسة لخلق شخصية تاريخية، مع ذكر أدق التفاصيل عن معاركها وهزيمتها؟

النص كما هو في التوراة العبرية: {عَنْ مِصْرَ، عَنْ جَيْشِ فِرْعَوْنَ نَحُوَ مَلِكِ مِصْرَ الَّذِي كَانَ عَلَى نَهْرِ الْفَرَاتِ فِي كَرْكَمِيشَ، الَّذِي ضَرَبَهُ نُبُوخَذْرَاصَّرَ مَلِكُ بَابِلَ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ لِيَهُوَيَاقِيمَ بْنِ يَوْشِيَا مَلِكِ يَهُوذَا} 124.

وهذا النص التوراتي غاية في الغرابة، ومثير للحيرة، فإذا كان الصراع بين الآشوريين والمصريين جرى في فلسطين، فما علاقة نهر الفرات؟ وكيف يكون ملك مصر على الفرات العراقي وفي فلسطين في الوقت نفسه؟ وهل كركميش هذه التي هزم فيها الفرعون أمام نبوخذ نصر، هي من مدن العراق أم من مدن فلسطين؟ لقد أطلق اللاهوتيون على هذا الملك "نيخو/نخو الثاني" لأن ملكا آخر يحمل الإسم نفسه يظهر في نصوص التوراة، ويقوم بمهاجمة أورشليم ويعتقل كاهن المدينة المقدسة، الشاب الصغير "يهوحاز/يهو أحاز" لمنعه من أن يصبح ملكا في أورشليم. كان الكاهن الشاب ابن 23 عاما، ولم يمض على توليه الكهانة سوى ثلاثة أشهر، والتوراة تقول إن ملك مصر الذي يدعى "نيخو/نخو" هو الذي أسره في منطقة تدعى ربله من أرض حماة، لكن مترجمو ومحققو التوراة رسموا الاسم هكذا: أرض ربله في حماة، واعتبرت "حماة" أنها حماة السورية، وهكذا أصبحت لدينا جغرافيا خيالية: نبوخذ نصر يقاتل فرعون مصر على الفرات العراقي شرق سوريا، وفي جنوبها، فلسطين في الوقت نفسه. وهذا غير منطقي، بل خيالي، لأننا نعلم من نص سفر ملوك الثاني أن هذا الفرعون كان قد أسر كاهن أورشليم في حماة السورية وهي في الشمال السوري.

النص العربي من سفر الملوك الثاني: {كَانَ يَهُوَأَحَازُ ابْنُ ثَلَاثِ وَعَشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ، وَمَلَكَ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ فِي أُورُشَلِيمَ، وَاسْمُ أُمِّهِ حَمُوطُ بْنُثُ إِرْمِيَا مِنْ لَيْئَنَةَ، فَعَمَلُ الشَّرِّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ حَسَبَ كُلِّ مَا عَمِلَهُ آبَاؤُهُ، وَأَسْرَهُ فِرْعَوْنُ نَحُوَ فِي رِبْلَةَ فِي أَرْضِ حَمَاةَ لِنَلَأَ يَمْلِكُ فِي أُورُشَلِيمَ، وَغَرَمَ الْأَرْضَ بِمَنَّةٍ وَزَنْةٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَوَزَنْةٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَمَلَكَ فِرْعَوْنُ نَحُوَ أَلْيَاقِيمَ بْنِ يَوْشِيَا عَوَضًا عَنْ يَوْشِيَا أَبِيهِ، وَغَيَّرَ اسْمَهُ إِلَى يَهُوَيَاقِيمَ، وَأَخَذَ يَهُوَأَحَازَ وَجَاءَ إِلَى مِصْرَ فَمَاتَ هُنَاكَ، وَدَفَعَ يَهُوَيَاقِيمُ الْفِضَّةَ وَالذَّهَبَ لِفِرْعَوْنَ، لِأَنَّهُ قَوْمَ الْأَرْضِ لِدَفْعِ الْفِضَّةِ بِأَمْرِ فِرْعَوْنَ، كُلِّ وَاحِدٍ حَسَبَ تَقْوِيمِهِ، فَطَالَِبَ شَعْبُ الْأَرْضِ بِالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ لِيُدْفَعَ لِفِرْعَوْنَ نَحُوَ} 125.

وبما أن التيار اللاهوتي اعتبر "حماة" التوراتية هي حماة السورية، ففي هذه الحالة تكون المعركة قد جرت شمال سوريا لا في جنوبها فلسطين، وبالتالي تصبح أورشليم القديمة ضمن جغرافيا شمال سوريا أيضا، بينما يكون نبوخذ نصر قد قاتل نيخو هذا شرق سوريا، وهذه جغرافيا خيالية لا أساس لها، فأين الخطأ في كل هذا؟

إن الوقائع التي ترونها النقوش الآشورية تفند القراءة الاستشراقية الخيالية، هذا جزء من نقوش سرجون الثاني كما ترجم من سجلات المتحف البريطاني: "وأخضع أمراء المناطق الأربعة من

124 سفر إرميا (2).2).

125 سفر الملوك الثاني 23(35-31).

العالم تحت قدميه؛ والذي غزا من جبل سيلنو/ سالونو (Siluna) من الشرق، وأراضي سبأ (Saban)، ومعين، وبارسو، وجزين. وندو وأليبا/ عليه، وحرر، وأرزش، ومسو، ومدي، وعر- العبرة، وعبدانو، Ellipi, Harhar, Araziash, Mesu, Madai, Munna, Parsua, Allabria, Abdadana, Na'ir، Gizilbunda إلى أبعد حدودها وندو (Andiu) والتي تقع بعيدا وسفح الجبل، حتى أبعد حدوده وصولا إلى البحر العظيم في مشرق الشمس، ومن أعلى "حتى، وعمورو، وتيري، وصيدون، والحميريين، وبلاد عمري- إسرائيل، والفروت، وأيدوم".

ونجد هنا بكل وضوح ذكر إسرائيل، ومملكة معين، وسبأ، وقبائل مدي (في حجة) والحميريون، وهذا تأكيد قاطع على أن هذه المعارك دارت في اليمن، وإلا ما علاقة فلسطين بمملكة معين وسبأ وقبائل مدي اليمنية؟

نقش سرجون الثاني رقم 18

اعتبر اللاهوتيون وعلماء الآثار من التيار التوراتي؛ الاسم "فرعة" في صيغته العبرية الصنعانية يعني فرعون، وأن "فرت- ءفرة" هو الفرات، وأن "حمة" هي مدينة حماة السورية. وإذا ما سلمنا جدلاً بفجوى النص التوراتي الذي يتحدث عن معركة كبرى جرت بين نبوخذ نصر وملك مصري في هذه المنطقة، فسوف تكون لدينا جغرافية غريبة تفوق أيّ خيال جغرافي جامع، إذ نجد حسب التوراة أن فرعون مصر على رأس جيشه، يعبرُ الفرات العراقي من مرج كامس "كركميش" الفلسطينية، ليقاثل نبوخذ نصر في حماة السورية، وهذا خيال خرافي. فمتى كانت فلسطين على حدود العراق؟ كذلك نجد أنّ المعركة ستصبح في بلاد الرافدين لا في فلسطين، لقد ترجمت كلمة "فرتءفرة" التوراتية إلى فرات، للإيحاء بأنّ المعارك دارت بالفعل بين الأشوريين والمصريين، بدون التحقق من الخلط بين حدود العراق وفلسطين.

وهنا نسأل: كيف عبر فرعون مصر الفرات عن طريق كامس "كركميش" الفلسطينية، ليقاثل نبوخذنصر في حماة السورية؟

في الواقع، لا تعرف السجلات المصرية الرسمية، ولا النقوش والجداريات والمعابد، ولا وثائق التاريخ المصري القديم ملكاً بهذا اللقب، أي فرعون. أما أن يُطلق محققو النص العبري وعلماء الآثار لقب فرعون على ملك برعو، فهذا أمر مثير للتعجب، لأنّ مصر لم تعرف لقب الفراعنة في تاريخها أبداً، كما لا تعرف تعبير "برعو" أو "فرعو"، وشيوع استعمال لقب فرعون في وصف حكام مصر، ناجم عن هيمنة ثقافة دينية توراتية، وجدت لها سنداً في الموروث الإسلامي، الذي تفنن في التفريق بين لقب ملك ولقب فرعون عند تفسير أحداث النبيين "يوسف وموسى عليهم السلام.

بكل تأكيد، لا توجد كلمة فرعون في السجلات التاريخية المصرية؛ بل هناك تعبير: أسر الملوك فقط، وإذا ما سلمنا باعتبار "فرعة" تعني فرعون، فكيف نقبل بأن "برعو" و "فرعو" تعنيان أيضاً فرعون؟

نجد في نقش سرجون الثاني رقم 18 الذي يسجل اسم برعو النص: "من برعو أحد ملوك مصرن، وشمسي ملكة وادي العرب، وعمر السبئي، وملوك الساحل والصحراء تلقيت الذهب، وخراج الجبال، والأحجار الكريمة، والعاج وبذور الكتان، وكل أنواع الأعشاب، والخيول، والجمال، كجزية منهم. وهزمت متع ملك موسكي على أرضه في مدن حوره وفي حصون أرض "فو" التي كان يحكمها بالقوة منذ أمد".

في هذا النقش يتأكد لنا بشكل قاطع أن "برعو" أحد ملوك مملكة "معين مصرن" وكان متحالفاً مع السبئيين. وكل أسماء الممالك وملوكها جزء من التاريخ اليمني.

لقد دخل إسم (الفرعون/فرعون) في وعي العامة من الناس والدارسين -على حدّ سواء- من المصريين والعرب فقط مع الإسلام، وبفعل الثقافة الشعبية، وارتباطاً بالقصة القرآنية عن هروب بني إسرائيل من فرعون مصر. أما في أوروبا، ومع تنامي وتعاظم الاهتمام بمصر منذ نهاية

القرون الوسطى، وانخراط علماء آثار وكتاب تاريخ في الترويج لما يمكن اعتباره تاريخاً لمصر مُستمداً بالكامل من قصص التوراة، فقد شاع استخدام تعبير فرعون بفضل هيمنة القراءة الاستشراقية للتوراة، حيث فسّر اسم مصر في النصوص التوراتية على أن المقصود به مصر الحالية.

وبحسب نصوص التوراة وتاريخ مملكة إسرائيل الرسمي الذي أنشأته وأسسته دراسات وأبحاث المؤرخين وعلماء الآثار من التيار التقليدي، فقد كانت هناك معركة كبرى بين الأشوريين والمصريين تدعى "كركميش" في فلسطين، ولذا يُقال لنا في المؤلفات التاريخية إن معركة "كركميش" هذه خاضها الفرعون نيخو الثاني 610-595 ق.م، وهزم فيها أمام نبوخذ نصر، وأن المعركة كانت واحدة من أكبر معارك التاريخ القديم، ومثلت من المنظور الإستراتيجي واحدة من أكبر المواجهات الحربية بين القوتين العظميين في العالم القديم، وقد مُني فيها المصريون بنكسة مأسوية، ولم يتمكنوا من السيطرة على قدس أو بلوغ الساحل، وهو الإخفاق ذاته الذي واجه رمسيس الثاني من قبل.

لكن، إذا كانت "كركميش" هذه في فلسطين، فلماذا لا نجد لها أي أثر، حتى وإن كان لغوياً، يدلنا على هذا الحدث التاريخي الضخم؟ وهل من المنطقي جغرافياً تصور أن على المصريين لكي يقاتلوا في فلسطين أن يعبروا نهر الفرات العراقي؟ هذه جغرافية خيالية. وكيف يمكننا أن نؤمن بتاريخ رسمي يتحدث عن ملك مصري لا وجود له في السجلات التاريخية المصرية؟

جاء في سفر الملوك: {وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ لِلْمَلِكِ حَزَقِيَا، صَعِدَ سَنَحَارِيبُ مَلِكَ أَشُورَ عَلَى جَمِيعِ مَدُنِ يَهُودَا الْحَصِينَةِ وَأَخَذَهَا. وَأَرْسَلَ حَزَقِيَا مَلِكَ يَهُودَا إِلَى مَلِكِ أَشُورَ إِلَى لُخِيشَ يَقُولُ: «قَدْ أَخْطَأْتُ. ارْجِعْ عَنِّي، وَمَهْمَا جَعَلْتَ عَلَيَّ حَمَلْتُهُ». فَوَضَعَ مَلِكُ أَشُورَ عَلَى حَزَقِيَا مَلِكَ يَهُودَا ثَلَاثَ مِئَةِ وَرَنْةٍ مِنَ الْفِصَّةِ وَثَلَاثِينَ وَرَنْةً مِنَ الذَّهَبِ. فَدَفَعَ حَزَقِيَا جَمِيعَ الْفِصَّةِ الْمَوْجُودَةِ فِي بَيْتِ الرَّبِّ وَفِي خَزَائِنِ بَيْتِ الْمَلِكِ. فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ قَشَّرَ حَزَقِيَا الذَّهَبَ عَنِ أَبْوَابِ هَيْكَلِ الرَّبِّ وَالذَّعَائِمِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ عَشَاهَا حَزَقِيَا مَلِكَ يَهُودَا، وَدَفَعَهُ لِمَلِكِ أَشُورَ}

الرواية بشكل مختصر عن معركة حصلت نحو عام 701 ق.م، عندما جهز "نبوخذنصر" حملة حربية بقيادة "سنحاريب" استهدفت محاصرة مخلاف "مملكة يهوذا" بعد تمرد قبلي. وفي إطار تلك الحملة، كتب الملك حزقيا إلى سنحاريب الذي كان يعسكر في الساحل الذي يُعرف قديماً باسم "لكيز-لكيس" رسالة يطلب منه تجنيب أورشليم مخاطر التدمير، مع تعهده بدفع أي جزية يطلبها. وكانت الجزية باهظة، بحيث اضطرَّ معها حزقيا إلى أن ينزع الذهب عن أبواب وأعمدة الهيكل، ليسدِّد الثمن المطلوب لبقائه في العرش. ومع ذلك أرسل سنحاريب قائده من معسكره في "لكيز-لكيس" على الساحل إلى أورشليم لتسَلِّم الجزية، دون أن يقدم أي ضمانات بأنه لن يدمِّر المدينة. ويبدو أن سنحاريب لم يكتفِ بفرض الجزية الثقيلة على حزقيا، بل رغب في إزالته أيضاً، ولذلك كلف رُسل حزقيا أن ينقلوا إلى ملكهم الرسالة الجوابية التالية كما هي مدونة على النقش: قولوا لحزقيا لا نريد مجرد كلام. على ما راهنت؟ أعلى مصريم؟ أليست من القصب المرضوض، متى اتكا عليها المراهن تُقْبَت كفه، كذلك هو ملك برعو، وملك مصريم، وذلك حال مَنْ راهنوا عليه. ولنن قلتم: كلا، على الرب إلهنا نتوكل، أليس حزقيا هو الذي دَمَّر مذابحه في موة؟

تكشف رسالة نبوخذ نصر هنا زيف الترجمة إلى اللغات الأخرى ومنها العربية، فهو يميز بين ملك برعو، ولا يقول عنه فرعون كما في الترجمة، وبين ملك مصريم (مصرن) ومن دون أن يقول إن اسمه "نيخو/نخو الثاني". وكما هو واضح من سياق النص، فإن المسرح القتالي يتسم بكونه ميدان قتال جبلياً وعرأ، تقطن فيه قبائل عربية، بدلالة أسماء الوديان والجبال.

وكما يتضح من سياق الرسالة أيضاً، فإنَّ العاهل الآشوري يتحدث عن قبائل يمنية لا عن مصر البلد، وإنَّ اسم مصر في هذه الرسائل ينصرف إلى تحالف عشائري كبير، وليس المقصود به مصر الحالية. والرسالة بعد هذا تعيد تذكير حزقيا بمصير ملكين من مملكة معين مصرن، أحدهما ملك "برع/برعو"، والآخر ملك مصريم. لكن ترجمة التوراة، حوّلت اسم "برعو/برع" إلى فرعون مصر.

وبسبب هذه الترجمة المتعمدة، فقد شاع في مؤلفات علماء الآثار والتاريخ ما يمكن اعتباره نوعاً من التحقير لمكانة مصر، ورد في رسالة الإمبراطور الآشوري، وهو أمر لا وجود له في الواقع. ولو أننا تقبلنا هذه الترجمة، لوجب علينا أن نقبل على مضض فكرة أنَّ الآشوريين كانوا يُعاملون مصر كقبيلة أو تحالف قبلي! وهذا مخالف للحقيقة التاريخية.

وتضمنت رسالة سنحاريب كما جاء في النقش؛ تلميحاً لا تعوزه الصراحة ولا التهديد المُبتن، بأنَّ الآشوريين يشعرون بالضيق والغضب من الإصلاحات الدينية الواسعة التي قام بها حزقيا من خلال تدمير الأوثان. كما عكست بدقة غضب الإمبراطورية من الهجمات المدبّرة التي نظمت ضد المعابد الوثنية؛ بل وانزعاجهم من الطريقة التي كان حزقيا يدير فيها العلاقة مع القبائل المقيمة في الجوف، وهي من أقوى قبائل اليمن، إذ بدلاً من معاداتها لأنها معادية للإمبراطورية، راح يمدّ الجسور معها، مراهناً على إمكانية خلق جبهة قوية من تحالفات قبلية واسعة.

ثم ختم العاهل الآشوري رسالته الغاضبة، مخاطباً القبائل العربية بالقول: لا تسمعوا كلام حزقيا واعقدوا صلحاً معنا. لا تسمعوا له وهو يقول إنَّ الرب سوف يُنقذه من يدي. الأمم التي دمرها آبائي لم تنقذها آلهتها. أين آلهة "حمة" و"عرفد" و"صفرنيم" و"اليناع" و"عوي"؟ هل أنقذت "السمرا" من يدي؟

وكل هذه الأسماء، هي أسماء معابد دينية قديمة في اليمن وليست في فلسطين؟ وعندما يقول نبوخذ نصر أن آبائه دمروا هذه المعابد، فهو يعني ما يقول.

هذا جزء من نقش يحمل الرقم P103 لتجلات بلاسر الثالث (727-745) ق.م يذكر فيه أنه احتل "أرفد". وهذا هو معنى قول سنحاريب إنَّ آباه احتلوا أرفد.

وفي الفقرات "328.1" (رقم 64) - غزوئ- أرض أمورو (عمورو) كلها واستوليت على جيلة وصيدا وأرفد، وبسطت هيمنتها عليها وفرضت الجزية.

وإذا ما طبقنا هذه الجغرافية على بلاد الشام، فسوف تصبح الجغرافية خيالية أكثر مما يحتمله الخيال، ذلك أن الملك الآشوري قضى على الوثنيين في جيلة على ساحل اللاذقية، ثم صيدا في الساحل اللبناني، ثم حماة في شمال سوريا حتى وصل أرفد في فلسطين جنوب سوريا، علماً بأنَّ

أرشد ورفض وسواهما من هذه الأماكن لا وجود لها هناك، وكل ذلك فقط لكي يقهر كهنة أورشليم؟ لقد زور علماء الآثار من التيار التوراتي تاريخ فلسطين القديم، حين لفقوا ملوكاً لمصر، وحولوا معارك الجوف اليمني إلى معارك داخل فلسطين.

في الواقع، اجتاح الملك الآشوري مدن الجوف اليمني، حيث معابد رصف، وارفد، وها يناع، حتى بلغ جبل العوي. وهذه هي المدن والجبال والمعابد التي يعرفها علماء الآثار جيداً في اليمن وليس في فلسطين. ما تتحدث عنه النقوش الآشورية بوضوح هو معابد وثنية تم تدميرها. ولا تزال أطلالها هناك في "مملكة معين مصرن" وليس في مصر.

الحقيقة؛ أن التاريخ لا يعرف ملكاً مصرياً مهزوما يدعى نيخو الثاني، ولا ملكاً يدعى برعو. وهذا فرعون آخر من تلفيق اللاهوتيين.

نقش سنحاريب (681-705) ق.م، الذي يسمى (COL III)

وَوَحَدَتْ فِي أَيَّامِ أَمْرَافَلِ مَلِكِ شَنْعَارَ، وَأَرْيُوكَ مَلِكِ الْأَسَارِ، وَكَدْرَلْعُومَرَ مَلِكِ عِيلَامَ، وَتَدْعَالَ مَلِكِ جُويِيمِ، أَنْ هَوْلَاءَ صَنَعُوا حَرْبًا مَعَ بَارِعَ مَلِكِ سَدُومَ، وَبِرْشَاعَ مَلِكِ عَمُورَةَ، وَشِنَابَ مَلِكِ أَدْمَةَ، وَشَمْنِيْبِرَ مَلِكِ صَبُويِيمِ، وَمَلِكِ بَالِعِ الَّتِي هِيَ صُوعْرُ. جَمِيعُ هَوْلَاءِ اجْتَمَعُوا مُتَعَاهِدِينَ إِلَى عَمْقِ السَّدِيمِ الَّتِي هِيَ بَحْرُ الْمَلْحِ. ائْتَتِي عَشْرَةَ سَنَةٍ اسْتَعْبَدُوا لِكَدْرَلْعُومَرَ، وَالسَّنَةَ الثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ عَصَوْا عَلَيْهِ. وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ أَتَى كَدْرَلْعُومَرَ وَالْمُلُوكَ الَّتِيْنَ مَعَهُ وَضَرَبُوا الرَّفَائِيْنَ فِي عَشْتَارُوثَ قَرْنَائِمَ، وَالزُّوزِيِّينَ فِي هَامَ، وَالْإِيْمِيِّينَ فِي شَوَى قَرِيَاتِيمَ، وَالْحُورِيِّينَ فِي جَبَلِهِمْ سَعِيرَ إِلَى بَطْمَةَ فَارَانَ الَّتِي عِنْدَ الْبَرِّيَّةِ. ثُمَّ رَجَعُوا وَجَاءُوا إِلَى عَيْنِ مِسْفَاطِ الَّتِي هِيَ قَادِشُ. وَضَرَبُوا كُلَّ بِلَادِ الْعَمَالِقَةِ، وَأَيْضًا الْأُمُورِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي حَصُونِ تَامَارَ. فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ، وَمَلِكُ عَمُورَةَ، وَمَلِكُ أَدْمَةَ، وَمَلِكُ صَبُويِيمِ، وَمَلِكُ بَالِعِ، الَّتِي هِيَ صُوعْرُ، وَنَظَمُوا حَرْبًا مَعَهُمْ فِي عَمْقِ السَّدِيمِ. مَعَ كَدْرَلْعُومَرَ مَلِكِ عِيلَامَ، وَتَدْعَالَ مَلِكِ جُويِيمِ، وَأَمْرَافَلِ مَلِكِ شَنْعَارَ، وَأَرْيُوكَ مَلِكِ الْأَسَارِ. أَرْبَعَةَ مَلُوكَ مَعَ خَمْسَةِ. وَعَمْقُ السَّدِيمِ كَانَ فِيهِ أَبَارُ حَمْرٌ كَثِيرَةٌ. فَهَرَبَ مَلِكُ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَسَقَطَا هُنَاكَ، وَالْبَاقُونَ هَرَبُوا إِلَى الْجَبَلِ. فَأَخَذُوا جَمِيعَ أَمْلَاكِ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَجَمِيعَ أَطْعِمَتِهِمْ وَمَضَوْا. وَأَخَذُوا لُوطَا ابْنَ أَخِي أَبِرَامَ وَأَمْلَاكَهُ وَمَضَوْا، إِذْ كَانَ سَاكِنًا فِي سَدُومَ. فَآتَى مَنْ نَجَا وَأَخْبَرَ أَبِرَامَ الْعِبْرَانِيَّ. وَكَانَ سَاكِنًا عِنْدَ بَلُوطَاتٍ مَمْرًا الْأُمُورِيِّ، أَخِي أَشْكُولَ وَأَخِي عَائِزَ. وَكَانُوا أَصْحَابَ عَهْدٍ مَعَ أَبِرَامَ. فَلَمَّا سَمِعَ أَبِرَامُ، أَنَّ أَخَاهُ سُبِّيَ جَزَّ غِلْمَانَهُ الْمُنْمَرِينَ، وَلَدَانَ بَيْتِهِ، ثَلَاثَ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَتَبِعَهُمْ إِلَى دَانَ. وَانْقَسَمَ عَلَيْهِمْ لَيْلًا هُوَ وَعَبِيدُهُ فَكَسَرَهُمْ وَتَبِعَهُمْ إِلَى حُوبَةَ الَّتِي عَنْ شِمَالِ دِمَشْقَ. وَاسْتَرْجَعَ كُلَّ الْأَمْلَاكِ، وَاسْتَرْجَعَ لُوطَا أَخَاهُ أَيْضًا وَأَمْلَاكَهُ، وَالنِّسَاءَ أَيْضًا وَالشَّعْبَ. فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ لاسْتِقْبَالِهِ، بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنْ كَسْرَةِ كَدْرَلْعُومَرَ وَالْمُلُوكِ الَّتِيْنَ مَعَهُ إِلَى عَمْقِ شَوَى، الَّتِي هِيَ عَمْقُ الْمَلِكِ. وَمَلِكِي صَادِقُ، مَلِكُ شَالِيمَ، أَخْرَجَ حُبْرًا وَحَمْرًا. وَكَانَ كَاهِنًا لِلَّهِ الْعَلِيِّ¹²⁶.

تحدثنا تلك الفقرات التوراتية أعلاه عن جلفين عسكريين شهدتهما الساحة الفلسطينية حسب السرد التوراتي الخرافي:

الأول: ضم الملك "أمرافل" ملك مملكة شنعار، الملك "أريوك" ملك مملكة الأسار، الملك "كدرلعومر" ملك مملكة عيلام، الملك "تدعال" ملك مملكة جوييم.

الثاني: الملك "بارع" ملك مملكة سدوم، الملك "برشاع" ملك مملكة عمورة، الملك "شِنَاب" ملك مملكة أدمة، الملك "شمنبير" ملك مملكة صبوييم، ملك بالع التي هي صوغر.

وتحدثنا عن أرض المعركة التي حدثت بين الجلفين، إذ انتصر الحلف الأول وضرىوا "الرفائيين" في عشتروت، و"الزوزيين" في هام، و"الايميمين" في شوى قرياتييم، و"الحوريين" في سعير

¹²⁶ سفر التكوين الإصحاح 14

حتى بطمة فاران، وضربوا "العماليق" في عين مشفاط التي هي قادش، والأمورين في حصون تامار.

لو تخيلنا تاريخ وجغرافيا تلك الممالك، ومسار الحرب التي تتحدث عنه الفقرات التوراتية، سنجد أنفسنا أمام تاريخ خيالي وجغرافيا خرافية. فحسب السرد التوراتي؛ نجد الجد الأعلى إبراهيم موجود في فلسطين (الحالية)، وأورشليم (شاليم) هي القدس، وملكها كاهن الرب، ملكي صادق. أما جغرافية الممالك حسب التاريخ المعروف، فنجدها كالتالي: مملكة شنعار التي بدأ ظهورها حوالي 3000 ق.م في سهل شنعار شمال مدينة الحلة، وأشهر مدنها بابل، بينما قامت مملكة عيلام في إيران، وتحديدا في منطقتي خوزستان على الشاطئ الشرقي للخليج العربي، وضمت أجزاء واسعة من غرب ووسط إيران. أما مملكتي الآسار والجوبيم، فلا وجود لهما إلا في مخيلة مدون التوراة، وينطبق ذات الأمر على مملكة صبوبيم، و"الزوزيين"، و"الايبيين"، و"شوى قرياتيم"، إذ تخلو مدونات وسرديات المنطقة ما بين النيل والفرات من تلك الأسماء.

أما أقطاب الحلف المضاد؛ فمملكة سدوم حسب السرديات اليمينية السبئية الحميرية، مجرد "مخلاف" يقع في منطقة الضالع اليمينية. ويجاوره "مخلاف" أدمه، و"مخلاف" عموره، و"مخلاف" صبوه، وإلى الشمال يقع "مخلاف" سوغر.

وعند تأمل مناطق الحرب بين الحلفين، نجدها تمتد من معبد عشتروت عند صيدون الى منطقة قادش اليمينية (قدش) حيث العماليق، ومنطقة سعير جنوب حضرموت، وصولا الى مملكة أوسان اليمينية حيث الأمورين، ومنطقة الحجاز حيث برية فاران. وحسب النقوش والسرديات اليمينية والآشورية، فإن الحلف الفارسي- إن جاز التعبير- تقابل مع الحلف المكون من عدة مخاليف يمنية، ومملكة دادان الموجودة في شمال اليمن إلى قلب الحجاز، وهذا مدوّن وثابت وجزء من التاريخ اليمني القديم.

ما قام به اللاهوتيون هو إسقاط الجغرافيا اليمينية وممالكها على جغرافيا وتاريخ فلسطين، إذ جعلوا مدن سدوم وعمورة وصوغر حول ضفتي البحر الميت، ومملكة أدوم جنوبي الأردن وفلسطين، ومملكة آرام حول دمشق، وعشتروت في صيدا اللبنانية، وجعلوها ميدان تلك المعركة الخيالية. فلا يعقل أن يتقاتل الحلف الفارسي مع الممالك "المخاليف" اليمينية الصغيرة فوق الأرض العربية في سوريا، وهذا خيال خرافي يرفضه التاريخ، وتعارضه الجغرافيا.

ولكي يرسخ مدوّن التوراة تلك الخرافة، رسم لنا مسار معركة أخرى، إذ سرد علينا قصة أسر الحلف الفارسي "لوط"، مما جعل الجد الأعلى يجرّد حملة عسكرية مكونة من 318 رجلا من ولدان بيته وعبيدة، ويهاجم الحلف الفارسي عند منطقة "دان" جنوب البحر الأحمر قرب الحديدة اليوم، ويحرر لوط من الأسر، ويعود إلى "شاليم" ليلتقي بملكها كاهن الرب "ملكلي صادق".

حسب النص التوراتي، فإن إبراهيم كان عقيماً لا نسل له، وأسرته تضم زوجه سارة، وخادمه. فهل يعقل أن يهزم إمبراطورية عيلام العملاقة المتحالفة مع مملكة شنعار، بذلك العدد من العبيد؟ والغريب أن الحلف الفارسي الذي أسر "لوط" من فلسطين، حاربه إبراهيم وهزّمه في منطقة دان اليمينية. لكن مدون التوراة أراد أن يظهره بمظهر القوة، ليبين لنا حقه في امتلاك فلسطين

لكن لب الموضوع ينحصر في إسم مملكة "شاليم" وملكها الكاهن "ملكي صادق".

نقول بكل ثقة: أن مدينة القدس الحالية، لم تعرف باسم شاليم، أو اورسالم، أو أورشليم في أية حقبة تاريخية منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد حتى بداية الإسقاط الاستشراقي وتزوير التاريخ الفلسطيني. والمدون على البرديات والمسلات والنقوش وجدران المعابد في منطقة وادي النيل، يشير إلى صلة عميقة بين الأسر التي حكمتها وأرض فلسطين الحالية، إذ سيطرت عدة أسر عليها لعشرات السنين، ولا يوجد أي إشارة إلى تلك الأسماء التوراتية للمدينة إطلاقاً، بينما نجد أسماء مثل "منورتا" و"يبوس" تشير إلى تلك المدينة حتى عهد الأسر المتأخرة التي حكمت وادي النيل. كذلك تخلو نقوش الإمبراطورية الآشورية {الآشورية} من تلك الأسماء التوراتية.

إن نقوش سنحاريب وشلمانصر ومن جاء بعدهما، تعتبر معولا جبارا يهدم أسوار هذا الخداع التوراتي، ويظهر حقيقة التزوير الاستشراقي للتاريخ الفلسطيني.

عندما نحتمك للنقوش؛ نجد أن أقدم ذكر لأورشليم جاء في نقوش "شلمانصر الثالث وسنحاريب" لا يشير بأي صورة من الصور إلى أنها القدس. فنقش سنحاريب (681-705) الذي يحمل الاسم (COL III) يتحدث عن الملك الكاهن حزقيا (Hezekiah)، وأورشليم (Jerusalem)، واليهود كما هو مدون في المتحف البريطاني:

14.(I spoke their pardon. Padi, their king)

تحدثت بالعفو عنهم، عبي ملكهم

15.(I brought out of Jerusalem)

أخرجته من أورشليم

16. (Set him on the royal throne over them and

أجلسته على العرش الملكي عليهم

17.(imposed upon him my kingly tribute)

وفرضت عليه جزيتي الملكية

18.(As for Hezekiah, the Jew)

مثلما فعلت مع حزقيا.

النقوش الآشوريين تتحدث عن أورشليم بالتلازم مع أسماء القبائل التي اصطدموا بها، ومنها حمير، وقبائل مأرب، وخولان، ولا تقول بأي صورة من الصور أن "أورشليم" هي القدس. هذا أمر مثير بالفعل، لأن الخداع التاريخي الذي بلغ ذروته مع "تلفيق" شخصية ملك صادق في فلسطين كان مصمما لأغراض لا صلة لها بعلم الآثار أو الدراسات التاريخية.

في المسيحية الرسولية جرى تصوير خروج ملكي صادق لاستقبال إبراهيم تعبيراً عن سمو ورفعة الكهنوت الأعظم، الذي يتواضع وهو الكبير، لاستقبال الابن الأصغر "إبراهيم". وساهمت المسيحية الرسولية في تثبيت هذه الصورة القابلة للنقد لشخصية ملكي صادق: الصغير يبارك من الكبير، كما في سفر العبرانيين 7(7)، وأن إبراهيم دفع له العشور، وبالتالي يكون كهنوت ملكي صادق أعظم من كهنوت هرون. ورسخت المسيحية هذا الجانب من القصة على النحو التالي: إنه كهنوت يقدم خبزا وخمرا وليس ذبائح حيوانية، فالذبائح الحيوانية أو الدموية كانت طقس الكهنوت الهاروني، وكانت ترمز إلى ذبيحة المسيح، وقد أبطلها حين قدم جسده ودمه من خبز وخمر حسب ما يقدمه ملكي صادق، وأنه كهنوت لم يجر تربيته عن طريق الوراثة، لأن المسيح من سبط يهوذا، وليس من سبط لاوي الذي ظهر فيه الكهنوت. وكما هو الحال في المسيحية؛ فإن وظيفة الكاهن في المخاليف والممالك البيمنية لم تكن بالوراثة، بل حسب التسلسل الديني. ولا توجد أي إشارات أخرى في النصين؛ التوراتي والأناجيلي يمكن أن تساهم في تطوير أي تصور واقعي عن شخصية تاريخية حقيقية تدعى ملكي صادق.

عند العودة إلى النص العبري، نلاحظ:

1: الاسم كما في النص العبري جاء في صورة ملك- يصدق، (מלך-יִצְחָק) وليس ملكي صادق، وهذا الرسم له ما يماثله في النقوش البيمنية، مثلا: ملك-يكرب أو معد-يكرب، وهي صيغة معروفة في التقاليد البيمنية في نطق ورسم الأسماء. أي أن الياء في اسم "ملكي" تعود للصفة صدق: ملك- يصدق، وهذه الياء هي أداة التعريف البيمنية القديمة التي نجدها في الكثير من الأسماء: يعرم- العرم، يكرب-الكرب، يصدق-الصادق، الصديق وهكذا، وفي النطق العبري- السبني: يهصدق.

2: في هذه الحالة ليس ملكي صادق اسما لشخص، بل هو لقبه الديني: الملك الصديق (بما أن الياء في يصدق هي أداة تعريف)، وفي التراث الإسلامي يوصف النبي يوسف بـ "يوسف الصديق"، لأنه كان يجبي الضرائب الدينية ويشرف على خزائن مصر.

ولقب الصديق ينصرف إلى وظيفة الكاهن الذي يجبي الضرائب، ويفرض العشور، التي هي في التوراة الضريبة الدينية 10% من كل شيء، ولنلاحظ أن إبراهيم أعطى العشور لملك يصدق أي للملك الصديق، لأنه الكاهن الذي يتولى جمع وتنظيم الضرائب الدينية في مكان يدعى "سليم- سليم".

3: إن النقوش البيمنية تسجل لقب الصديق-صدق هذا كلقب ديني منذ 850 ق.م، وآخر الكهنة الذين حملوا هذا اللقب هو "يصدق إيل" الذي يضعه علماء الآثار بعد "معد إيل" نحو 190 ق.م.

4: كذلك ورد اللقب في نقش (Av. Aqmar 1 Ir 77) الذي يشير إلى الاسم بوصفه "القب الكاهن"، وفي نقوش جامه (جام 649) ورد اسم صدق ككاهن في نقش معروف يقول حرفياً: بمدد عونه، سبوا وناصروا أميرهم "شمر يهرعش" ملك سبأ وذي ريدان، فساروا نحو "السهرة وخيوان وضدحان وتناغم ونبعة" فقتلوا في هذه الغزوة خمسة من شجعانهم بالسيف، وأخذوا أسيراً واحداً وقتلوا صدق.

وفي النص السبئي بالحرف العربي: (س/ب/أ-ة- (ن- خ/م/س/ة/أ/س/د-م- ب/ض/ع/م- وأح/دا/أخ/ذا-م-م/اه/ار/ج/ة/ص/داق).

ويفهم من هذا النص أن حملة "شمر يهرعش" انتهت بمصرع كاهن منطقة عرف بلقبه الديني صدق-يصدق، أي أنه يحمل رتبة الصديق جامع الضرائب الدينية، وهذه التسمية، واستناداً إلى تاريخ النقش تؤكد حقيقة أن قبائل بكيل الشمالية قد خضعت في عصر الملك يهصدق لحكم الجنوبيين.

وفي وقت تال من تاريخ اليمن القديم، تظهر النقوش التي تسجل صيغة أخرى لاسم مملكة سبأ في عصر الملك -الكاهن يهصدق بعد إخضاع حضرموت وبدو الساحل والأعراب ويصبح اسمها "مملكة حمير وريدان وحضرموت ويمنت".

وكانت أسرة "يهصدق الأول"، أول أسرة حميرية جديدة واجهت حروب القبائل بشراسة، وتمكنت من الحفاظ على هيمنة الجنوب. وفي هذا الإطار، استخدم الشماليون والجنوبيون صيغاً متنوعة من الاسم يصدق-صدق-يهصدق لقباً دينياً، بما أن الملك هو الكاهن.

لذلك فإن النقوش الآشورية {الآشورية} تثبت أن في عصر إبراهيم لم تكن هناك أورشليم في الأصل ليكون لها ملك-كاهن. ولم تكن تدعى باسم "القدس" أو العكس، وفي ذلك العصر (1900) ق.م حسب التاريخ الرسمي: كانت الأرض الموعودة مجرد عهد إلهي، ولم تكن لإبراهيم ذرية، فمن أين جاءت أورشليم؟ وإذا ما وضعنا هذا اللقب الديني بوصفه رتبة كهنوتية تتصل بتنظيم الضرائب الدينية في اليمن القديم فإن نقوش سنحاريب وشلمانصر وغيرهما، تفضح التلغيف الاستشراقي، وتنسف الخرافات التوراتية.

المخلاف حسب النقوش اليمنية، عبارة عن تجمع قبلي يتمتع بنوع من الاستقلال، ويكون مرتبطاً بالدولة المركزية، ووظيفة أبناء القبيلة حراسة قوافل التجارة.

نقش شلمانصر الثالث

هناك سؤال بسيط لم يطرحه أحد من علماء الآثار، ممن اشتغلوا بأعمال التنقيب في العراق، أو ترجموا النقوش الآشورية {الآشورية}، أو قدّموا دراسات وتحليلات بشأنها طوال المئة عام الماضية، وهو: إذا كانت الحملات الحربية البابلية والآشورية -كما يقال- دارت في فلسطين واستهدفت ملوك اليهود، فلماذا تسجل تلك النقوش أسماء القبائل والممالك اليمنية؟ بمعنى آخر، لماذا تسجل تلك النقوش وقائع الحملات الحربية ضد مملكة أوسان اليمنية، وقبائل سبأ وحمير وخولان، وتسجل أسماء الملوك الذين تمت هزيمتهم، إذا كانت هذه الحملات دارت في فلسطين؟

ثم هل من المنطقي تخيل معارك ضد ممالك وقبائل في اليمن، وفي الآن ذاته معارك أخرى متشابهة تماما في فلسطين؟ هذه حروب خيالية في جغرافيا خيالية. هل يمكن تخيل وجود الملك الإسرائيلي "أخاب" في فلسطين، وهو يقاتل ضمن تحالف يضم قبائل مملكة أوسان وخولان؟ إن التأريخ لا يتقبل مثل هذه الجغرافيا، ولا يعرف أي شيء عن وقائع من هذا الطراز الخرافي العجيب.

ومع ذلك، قام علماء الآثار من التيار التوراتي بتزوير وتلفيق تاريخ بلاد الشام وصنع تاريخ فلسطيني لا أساس له، فقط لتبرير أكذوبة أن البابليين والآشوريين اضطهدوا اليهود، بينما تقول النقوش أن هؤلاء اضطهدوا قبائل اليمن وأخضعوها وفرضوا عليها الجزية، وأرغموها على تأمين وصول إمدادات البخور والذهب إلى بابل ثم آشور، ومن ضمن هذه القبائل، القبيلة الإسرائيلية.

إن الثروة الهائلة التي كانت في حوزة شعوب وقبائل اليمن القديمة تضاهي وتمائل ثروة النفط في عصرنا، ولذا كان هدف الغزو البابلي-الآشوري المستمر؛ ضمان الحصول على حصة الأوقياء في المنطقة من هذه الثروة.

في ذلك العصر، لم يكن القطاع الجنوبي من بلاد الشام -وهو ما سيعرف بعد ذلك بفلسطين- يملك أي شيء من الثروات التي تطمع فيها الإمبراطوريات.. لا البخور ولا الذهب ولا الأحجار الكريمة.

لقد جرى تلاعب مفضوح وشامل في قراءة وفهم المضامين الحقيقية لكل النقوش (ما يزيد عن 3 آلاف نقش، دوّنت في خمس مجلدات ضخمة محفوظة في المتحف البريطاني). وأكثر من ذلك، تمّ من خلال هذه القراءة التلاعب بتاريخ المنطقة وتلفيق تاريخ فلسطيني ليدعم أسطورة وجود مملكة إسرائيلية في فلسطين قبل ألفي عام، ولتبرير ما يزعم أنه حق تاريخي لليهود فيها.

في النقش المعروف باسم "نقش شلمانصر الثالث" ضمن مقتنيات المتحف البريطاني، يسجل الملك الآشوري (823-858) ق.م، وهو ابن الملك آشور ناصريال الثاني، ما يلي: "خرجت من أرجانة-عرجان واقتربت من قرقر. أنا دمرت، وهدمت، وأحرقت كركه (كوركه عند نهر وادي تجرس.. مدينته الملكية). أحضر اثني عشر من الملوك لدعاه.. احتشدوا في مواجهتي يطلبون قتالي: 1200 من المركوبات، 1200 من أسلحة الفرسان، و2000 جندي ينتمون إلى هدد عزر دمشق. 700 من

المركوبات، و700 من أسلحة الفرسان، و10000 جندي ينتمون إلى عر-خولان وحمة، و2000 من المركوبات، و10000 جندي ينتمون إلى أخاب الإسرائيلي، و10000 جندي من عر-جنت، و200 جندي من متاني بعلو، ومن أرفد 200 جندي و30 من الأوسانيين مركوبات، (٢٠)، 000 (هكذا وردت في أصل النقش) جنود بعل عدينو من شيان-سيان، وجندبو ملك العربية جنود بعشا-بعشه، من رحوب، ومن العمونيين. كل هؤلاء الملوك الـ 12 احتشدوا ضدي، وبقوة إلهي آشور قهرتهم".

في هذا النقش لدينا أسماء ملكين، أحدهما إسرائيلي هو "أخاب" وآخر يهودي هو "بعشه-بعشا". وهذان الاسمان وردا في نصوص التوراة بنفس الصيغة الواردة في النقش تماما. ويجب أن نُمَيِّز -كما يفعل القرآن- بين بني إسرائيل واليهود، فبنو إسرائيل قبيلة، واليهود أتباع ديانة تُعرف باسم اليهودية، وهذا أمر مماثل للتمييز بين قريش القبيلة وبين الإسلام. ولدينا -فضلا عن ذلك- بعل عدينو (بعل العدين وهي من ممالك ما يعرف اليوم بمحافظة إب). والأهم من كل هذه الأسماء، لدينا اسم الأوسانيين مؤسسي مملكة أوسان الجنوبية.

ورد اسم بعشه-بعشا في سفر الملوك الأول: ﴿فِي السَّنَةِ الثَّلَاثَةِ لَأَسَا مَلِكِ يَهُودَا، مَلِكِ بَعْشَا بَنُ أَخِيَا عَلَى جَمِيعِ إِسْرَائِيلِ فِي تَرْصَةَ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً﴾¹²⁷.

وورد اسم أخاب في سفر الملوك الأول: ﴿وَأَخَابُ بْنُ عُمَرِي مَلِكِ عَلَى إِسْرَائِيلَ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ وَالثَّلَاثِينَ لَأَسَا مَلِكِ يَهُودَا، وَمَلِكِ أَخَابُ بْنُ عُمَرِي عَلَى إِسْرَائِيلَ فِي السَّامِرَةِ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً﴾¹²⁸.

هذا يعني أن أخاب أصبح ملكاً بعد 35 عاما من وفاة بعشا، والنقش الآشوري يؤكد أن شلمانصر اصطدم بملكين يهوديين، يدعى أحدهما أخاب، وآخر يدعى بعشا-بعشه. هذا التطابق بين الرواية التاريخية الآشورية، والرواية الدينية في التوراة، يجب أن يلفت انتباهنا إلى المسرح الحقيقي للأحداث وأين وقعت.

لقد قام اللاهوتيون في علم الآثار بحرف الأنظار عن المكان الذي جرت فيه المعارك، واستبدلوه بمسرح خيالي.

هذه بعض الملاحظات للكشف عن نوع، وطبيعة التلفيق الذي تعرض له التاريخ الفلسطيني، وتاريخ المنطقة كله:

1- إن الحملة التي قادها شلمانصر الثالث بنفسه نحو 850 ق.م، جرت في اليمن القديم ضد مملكة أوسان وليس في فلسطين. وفي هذا العصر، وطبقاً للنقوش المسندية اليمنية، كانت هذه المملكة العظيمة تفرض سيطرتها من باب المنذب و عدن وصولاً إلى تعز وساحل الحديدة. وكانت

¹²⁷ سفر الملوك الأول 15(33).

¹²⁸ سفر الملوك الأول 16(31-29).

من أهم حلفاء سبأ وخولان بطبيعة الحال، وقد وضع السبئيون والأوسانيون الأسس الأولى للتحالف الشمالي-الجنوبي، -السبئي-الحميري،

لمواجهة مملكة مصرن في الجوف (مصرم التي يزعم أنها مصر الحالية). ولذلك يقول النقش الآشوري أن شلمانصر الثالث هزم الأوسانيين ودحر خولان والملك الإسرائيلي أخاب. وقد انتهت مملكة أوسان بعد 200 عام من هذه الحملة، حين انهار تحالف الشمال السبئي مع الجنوب الحميري، وجرى تفكيك المملكة على يد الملك السبئي كرب إيل وتر عام 650 ق.م.

2- أن الملك الآشوري واجه حلفاء قبلياً عريضاً ضم بني إسرائيل (ملك أخاب)، والكاهن اليهودي بعشا-بعشه، وأوسان وخولان وملك دمشق. وبالطبع لا يمكن تخيل وجود مثل هذا التحالف في أرض فلسطين. فما علاقة مملكة أوسان في أقصى الجنوب الغربي من الجزيرة العربية بفلسطين أو دمشق؟ بينما يرسم لنا النقش الآشوري وبوضوح، جغرافياً جنوب اليمن حيث دارت المعارك اللاهوتيون أضافوا إسم مملكة دمشق لإيحاء بأن مسرح الأحداث كان في فلسطين.

ويمكننا اليوم أن نجد هذه الأسماء في جنوب اليمن كما هي على مرّ التاريخ، بحيث تتطابق الجغرافياً مع التاريخ تطابقاً تاماً.. وسنجد اسم المدينة التي وصلها شلمانصر (أرجانة-عرجانة) في محافظة لحج، مديرية طور الباحة، عزلة طور الباحة، قرية عرجان. كما نجد اسم قرقر في محافظة أبين، مديرية سرار، عزلة سرار، قرية قرقر. وهناك سنجد اسم إسرائيل: محافظة أبين، مديرية لودر، عزلة زاره، قرية قرن آل إسرائيل. كما نجد اسم إسرائيل في مديرية أخرى من نفس المحافظة: مديرية مودية، عزلة مودية، قرية قرنة آل إسرائيل. وعلى مقربة منها سنجد اسم الملك الإسرائيلي أخاب في محافظة الضالع، مديرية دمت، عزلة الظاهرة، قرية خاب. الأسماء نفسها مسطرة في النقوش المسندية، وكل ما قام به اللاهوتيون إسقاطها على المسرح الجغرافي الفلسطيني، وإضافة إسم مملكة دمشق ليبدو الأمر منطقياً.

1- شرح علماء الآثار من التيار التوراتي مضمون النقش (شروحات المتحف البريطاني) على النحو الآتي، وهذا نموذج واحد عن التزوير: "ومع ذلك، نالت الحرب ضد سوريا الكثير من اهتمام أخاب في الشمال، كما جاء في سفر الملوك الأول، الإصحاح (20). وعندما قويت شوكة إسرائيل وأصبحت يدها هي اليد العليا، وقعت معاهدة سلام بين البلدين استمرت ثلاث سنوات، كما في سفر ملوك الأول: 20(31-34)، والإصحاح 22، ولدت فترة السلام هذه من الضرورة، لأن سوريا وإسرائيل كانتا تواجهان الآن عدواً مشتركاً آشورياً.

إن هذا الشرح الخيالي المفرغ من أي تحليل علمي نزيه موضوعي، الذي دخل مناهج التعليم العربية منذ نحو قرن كامل، وأعاد إنتاجه الباحثون والدارسون العرب دون توقف، هو الطبقة الرقيقة من التاريخ الزائف الذي اختلقه اللاهوتيون. ومن المؤسف أن من يقرؤون ويدرسون النقوش الآشورية لا يكلفون أنفسهم عناء النقد والتدقيق في الهراء الاستشراقي الذي انتهى إلى صناعة تاريخ فلسطيني يخدم أسطورة المملكة الإسرائيلية القديمة في أرض فلسطين.

الجزء السابع: هدم الأساطير التوراتية

الوعد الخرافي

تعد فكرة الحق الديني في فلسطين، من اهم الذرائع التي تقوم عليها الحركة الصهيونية، والتي حشنت بها أدمغة يهود العالم، والكثير من أدمغة مسيحيي أوروبا وأمريكا، وصدقها من المسلمين أتباع الفكر العلماني، وآمنوا بها متفوقين على بعض الطوائف اليهودية.

ويزعم اليهود انهم أصحاب الأرض "فلسطين" بموجب وعد إلهي أعطي لإبراهيم عليه السلام ولنسله من بعده. وقد وردت في التوراة عدة نصوص تؤكد ذلك حسب زعمهم. وقد درج اليهود على وصفها بأرض الميعاد، ولها عدة تعريفات في التوراة، فهي الأرض التي برعاها الرب بعينيه كما في سفر التثنية 11(12)، والأرض البهية الإلهية كما في دانيال 11(16)، وأرض صهيون المقدسة التي يسكنها الرب وسط شعبه، كما ذكرها 2(12).

الدارس للتوراة يلاحظ أن الوعد المتعلق بمنح إبراهيم تلك الأرض، طرأت عليه عدة تعديلات من حيث مساحتها، وأسماء وشخصيات الورثة، تدخل القارئ في متاهة، ربما أرادها مدون التوراة كي يشتت الانتباه، فلا يظن لحقيقة التزوير.

تبدأ حكاية ذلك الوعد الخرافي من لحظة وصول قافلة إبراهيم إلى "شكيم"، إذ ظهر له الرب وأخبره: **{لِنَسَلِكَ أُعْطِيَ هَذِهِ الْأَرْضُ}**¹²⁹، وكما أخبرتنا التوراة فقد كان إبراهيم ساعته بدون ذرية، لذلك فإن شخصية الوارث تبقى بدون تحديد.

استمع إبراهيم لتلك البشري، ثم تابع مسيره إلى أرض مصر، فمكث فيها زمناً، ليغادرها عائداً الى أرض كنعان. وفي الطريق هبط ملاك الرب ليسري عنه بعد اعتزال ابن أخيه لوط له، وليبلغه بأن البشري تم تعديلها، وأن الأرض الموعودة تنحصر في مدى ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، والنص واضح وهو: **{وَقَالَ الرَّبُّ لِإِبْرَاهِيمَ، بَعْدَ اعْتِزَالِ لُوطٍ عَنْهُ: اِرْفَعْ عَيْنَيْكَ وَانظُرْ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ شِمَالًا وَجَنُوبًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا. لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ تَرَى لَكَ أُعْطِيهَا وَلِنَسَلِكَ إِلَى الْأَبَدِ}**¹³⁰، وكما نعلم فإن طبيعة أرض فلسطين الجبلية لا تسمح لإبراهيم رؤية أكثر من عدة كيلومترات مربعة، مما يعني أن الوعد أصبح محصوراً بقطعة أرض يقيم خيمته فوقها، كي يستقر ويتخلص من حياة البداوة والترحال.

¹²⁹ سفر التكوين 12(7).

¹³⁰ سفر التكوين 13(14-15).

لكننا وجدنا إبراهيم واصل ترحاله، وأثناء تنقلاته تلد له جاريتته المصرية هاجر بكره "إسماعيل"، والوريث الأول لأرض البشرى كونه من نسله باعتراف التوراة: **{وَأَبْنُ الْجَارِيَةِ أَيْضًا سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً لِأَنَّهُ نَسَلُكَ}** 131.

بمولد إسماعيل، بدأت غيرة "سارة" من جاريتها كما نصت التوراة، فعزمت على نفيها وابنها من مضارب الزوج، الذي لم يجد بدءًا من الانصياع، لأن الرب تفاعل مع غيرة "سارة"، بل باركها، وظهر لإبراهيم طالبا منه تنفيذ أمرها، ونفي الجارية وطفلها الرضيع. وفي طريق عودته، شعر إبراهيم الذي جاوز الثمانين من عمره، بالحسرة والأسى لفراق الابن الذي رزق به على الكبر، وهنا يظهر له الرب مواسيا، ومعلنا تعديل البشرى لتصبح ميثاقا، والأهم، توسعة أرض الوعد من عدة كيلومترات، لتشمل مملكة وادي النيل والإمبراطورية الآشورية/الآشورية، كما في النص: **{فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ إِبْرَاهِيمَ مِيثَاقًا قَائِلًا: لِنَسَلِكَ أُعْطِيَ هَذِهِ الْأَرْضَ، مِنْ نَهْرٍ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرَ الْفُرَاتِ}**. ولتأكيد ذلك ذكر له أسماء الشعوب العشرة سكانها، التي ستخضع لذريته: **{الْفِينِييِّينَ وَالْقَنْزِييِّينَ وَالْقَدْمُونِييِّينَ وَالْحِثِّييِّينَ وَالْفَرَزِييِّينَ وَالرَّفَائِييِّينَ وَالْأَمُورِيِّينَ وَالْكَنَعَانِيِّينَ وَالْحَرْجَاشِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ}** 132، وعندما أصبح عمر إسماعيل 13 عاما، ظهر الرب مرة أخرى لإبراهيم، كي يبرم معه الميثاق الخاص بالأرض الموعدة، وعلامة توثيقه أن يختن إبراهيم نفسه، وابنه، وكل خدمه وعبيده، فامتثل لأمر الرب وتم الختان: **{وَأُعْطِيَ لَكَ وَلِنَسَلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غَرْبِيَّتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونُ إِلَهُكُمْ. وَقَالَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ: وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظْ عَهْدِي، أَنْتَ وَنَسَلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ. هَذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَبَيْنَ نَسَلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ، فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرَّتِكُمْ، فَيَكُونُ عَلَامَةً عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}** 133.

فقرة "وَأَكُونُ إِلَهُكُمْ" تستدعي الوقوف عندها. فإذا كان الرب سيكون الإله لنسل إبراهيم، فمن سيكون إله الأمم الأخرى؟ بمعنى، لماذا يريد مدون التوراة ترك بقية الأمم بدون إله؟

مرت أيام إبراهيم عادية حتى أصبح عمر ابنه إسماعيل 16 عاما، وهنا ظهر الرب حسب التوراة، ليفجر قنبلة أطاحت بكل وعوده السابقة، وليبرم وعدا جديد مع إبراهيم، ونسله من ابنه الذي لم يولد بعد، ومعلنا حرمان إسماعيل من أي مبررات يتعلق بالأرض الموعدة: **{فَقَالَ اللَّهُ: بَلْ سَارَةُ أَمْرَاتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأَقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسَلِهِ مِنْ بَعْدِهِ. وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أَبَارِكُهُ وَأَتَمِرُهُ وَأَكْثِرُهُ كَثِيرًا جَدًّا. إِنَّنِي عَشْرَ رَنِيْسًا**

131 سفر التكوين 21(13).

132 سفر التكوين 15(20-15).

133 سفر التكوين 17(11-8).

يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً. وَلَكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تَلِدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هَذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ¹³⁴.

الرب هنا يبارك إسماعيل ويتعهد بأن يرزقه أنثى عشر ولداً، ويجعل ذريته كثيرة جداً، وفي نفس الوقت يخرج من دائرة وريثة الأرض الموعودة، لصالح أخيه الذي لم يولد بعد. وهذا يتعارض مع الفقرات السابقة التي جعلت علامة ميثاق وريثة الأرض الختان، فإذا كان سحرمه، فلماذا طلب ختنه إذا؟

وعندما وضعت ساراى طفلها "إسحاق"، سارع الرب لمقابلة إبراهيم معلنا أن إسحاق هو الابن الوحيد والحبیب لإبراهيم، ضاربا عرض الحائط وجود الابن البكر إسماعيل: **{ابنك وحيدك، الذي تُحبُّه، إسحاق}**¹³⁵.

المنتبع لتلك البشري التي عدلت عدت مرات، سيجد أن تعديل البشرى الى ميثاق، اقترن بعملية الختام الذي تم قبول مولد "إسحاق" بثلاثة سنوات، وبذلك يكون طرفا الميثاق؛ الرب كطرف أول، وإبراهيم وإسماعيل طرف ثان. ومع ذلك، فإن التوراة تعلن على لسان الرب، نقض العهد. ولم تكتف بذلك، بل جردت الابن البكر من البكورية، وجبرتها إلى إسحاق، جاعلة منه الابن البكر، والحبیب الوحيد. بمعنى، أنه الوارث الوحيد للأرض الموعودة.

بمولد إسحاق حرص مدون التوراة على تجاهل ذكر إسماعيل، فلا نجد له أي ذكر إلا عندما مات الأب إبراهيم، حيث ظهر فجأة ليحضر مراسم دفن والده بصحبة أخيه الأصغر إسحاق. ورغم أن التوراة تقر بأن إبراهيم كان له عدة أبناء هم: زمران ويقشان ومدان وميدان وبشاق وشوما، من زوجه الكنعانية "قطورة" إلا أنها أخرجتهم من ذاكرتها، لدرجة انهم لم يحضروا دفن أبيهم.

وبإقصاء إسماعيل، أصبح إسحاق بطل الروايات التوراتية الأوحى، وحفاظا إلى طهارة نسله، تم تزويجه من ابنة خاله "بلهة" التي ولدت له توأمين، البكر سماه "عيسو" والثاني "يعقوب". ولأن مدون التوراة يريد حصر البكورية وما يترتب عليها من وريثة الأرض الموعودة، فقط واجه مأزقا، لأنه لا يستطيع تكرار طريقة سلخ البكورية من إسماعيل، بحجة أنه ابن جارية، إذ أن "عيسو ويعقوب" يشتركان في نفس الأم. لم يقف مدون التوراة عاجزا أمام هذه المعضلة، فقد هداه تفكير إلى دس رواية عجيبة جعلت البكر "عيسو"، يبيع بكوريته لأخيه الأصغر "يعقوب" بزق خمر كما في بعض الترجمات التوراتية، وبصحن من طبيخ العدس الأحمر حسب ترجمات أخرى.

¹³⁴ سفر التكوين 17(21-19).

¹³⁵ سفر التكوين 22(2).

بتنازل "عيسو" عن البكورية، أصبح "يعقوب" هو الوريث الوحيد للأرض الموعودة، وأحد طرفي الميثاق الموقع مع الرب التوراتي.

رزق يعقوب بـ (12) ابنا عرفوا بالأسباط، وهم مجتمعين، أصبحوا ورثة إبراهيم، واختفى موضوع الابن البكر هنا، فلا الرب التوراتي اهتم به، ولا المدون البشري تطرق إليه.

كذلك، إذا كان أحد أسباب حرمان إسماعيل من حقه كابن بكر في الميراث، كونه ابن جارية، فلماذا لم يحرم من أبناء يعقوب كل من: "دان وَنَفْتَالِي" وهما أبناء جارية اسمها "بِلْهَة"، و "جَاد وَأَشِير"، وهما أبناء جارية اسمها "زَلْفَة"؟ بمعنى، لماذا لم يطبق قانون حرمان ابن الجارية على أبناء يعقوب من الجواري؟

ما يهمننا بالدرجة الأولى هو موضوع حرمان إسماعيل بكر إبراهيم، ونحن هنا أمام خيارين:

الأول: أن يكون إسماعيل قد ارتكب معصية توجب حرمانه، وهذا ما لا تقره التوراة إطلاقاً.

الثاني: أن يدا بشرية خفية تلاعبت بنصوص التوراة، حرمته عن قصد من إرث أبيه.

وبما أن الخيار الأول أصبح مستحيلاً كون التوراة لم تقره، فإن الخيار الثاني يصبح حقيقة لا جدال فيها، لأن محور التلفيق الاستشراقي التوراتي قائم على حرمان إسماعيل من ميراث أبيه، وحصره في إسحاق ومن بعده يعقوب، ليشمل باقي أبناء الأخير مجتمعين. لأن بقاء إسماعيل ضمن قائمة الورثة، يترتب عليه أن يرث عشرات بل مئات الملايين من نسله حصصهم من أرض الميراث الموعودة، وبالتالي؛ سيكون نصيب نسل يعقوب وهم أقلية متواضعة، جزء بسيطاً منها، أو كما يقال في المثل الشعبي: من الجمل أذنه.

أخيراً لي وقات مع هذا الجزء:

الأولى: إذا كان الرب قرر ضم بلاد الرافدين إلى الأرض التي سيعد إبراهيم ونسله بها، فلماذا أمره بتركها والخروج منها؟

الثانية: يتفق اليهود والمسيحيين على موضوع وراثة أرض إبراهيم، حسب ما أقرتها التوراة. إلا أن أتباع الأنجيل يصرون على أن الوريث الأخير، هو السيد المسيح عليه السلام، كونه الابن البكر والوحيد للرب ذاته الذي منح الميراث.

الثالثة: إذا كان الختان هو علامة الميثاق، فكيف يدعي المسيحيون بأن لهم حقا فيه، وهم من ألغى الختان حسب التعديل الذي أجراه شاول الطرطوسي على الشريعة الموسوية التي تعد المسيح بالمحافظة عليها؟

الرابعة: إذا كانت دعوى النسل الإسرائيلي بأحقيتهم في الميراث قائمة على أساس أنهم أحفاد إبراهيم، فبأي أحقية يطالب اليهود المنحدرين من النسب الخزري وباقي الأمم بميراث إبراهيم الذي لا يجتمع معهم بأي نسب، اللهم إلا في نوح عليه السلام؟

أسطورة الرحلة الإبراهيمية

﴿وَأَخَذَ تَارِحَ أَبْرَامَ ابْنَهُ، وَلُوطًا بَنَ هَارَانَ، ابْنَ ابْنِهِ، وَسَارَايَ كَنْتَهُ امْرَأَةَ أَبْرَامَ ابْنِهِ، فَخَرَجُوا مَعًا مِنْ أَوْرِ الْكَلْدَانِيِّينَ، لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَاتُّوا إِلَى حَارَانَ وَأَقَامُوا هُنَا﴾¹³⁶.

تعتبر الرحلة الإبراهيمية التوراتية، قاعدة التزوير الأولى التي شيد فوقها الوعد الخرافي المتمثل بحق بني إسرائيل واليهود من بعدهم امتلاك فلسطين. وحسب السرد التوراتي، فإن رب الجنود طلب من أبرام ترك مسقط رأسه والتوجه نحو أرض كنعان، واعداد إياه بامتلاكها، ولنسله من بعده. لكن النص الذي بين أيدينا يشير إلى أن صاحب قرار الرحلة هو "تارح" الأب، وليس رب الجنود.

وفهمنا من النص، أن الراكب خرج من "أور الكلدانيين" متوجها إلى أرض "كنعان"، ومع ذلك نراه يحط رحاله في "حاران". بالرجوع إلى الشرح اللاهوتي للنص، نجد التفسيرات التالية: "أور" تعني جبل، أو أرض تقع عند سفح جبل، وهو نفس المعنى في اللهجات العربية السبئية والحميرية.

"أور الكلدانيين" تقع في جنوب العراق، وبالتحديد قرب مدينة الناصرية العراقية.

أرض "كنعان" هي فلسطين، قبل أن يغير مدون التوراة رأيه، ويدخل كامل سوريا التاريخية ضمن الاصطلاح.

حاران تقع جنوب تركيا، وبالتحديد هي ديار بكر.

عندما أخذ النص كما هو، برز السؤال التالي: إذا كانت الوجهة أرض كنعان، فلماذا الذهاب شمالا نحو ديار بكر؟ سؤال لم يجد له علماء النقد النصي إجابة له.

يجمع علماء اللاهوت على أن زمن تلك الرحلة الإبراهيمية ينحصر بين الأعوام (1850-2000) ق.م، وبيّنا أن زمن تدوين التوراة مجهول، وبالتأكيد كان بعد عشرات القرون من تسلّم موسى عليه السلام لها. كذلك لا يوجد خلاف بين المؤرخين على أن ظهور للشعب الكلدان الذي أقام دولة في جنوب بلاد ما بين النهرين، كان في مطلع القرن (11) ق.م، أي أن الرحلة سبقت ظهورهم بألف عام، فكيف انطلقت الرحلة من أرض سميت باسمهم قبل ظهورهم؟

كذلك، فإن فلسطين لم تعرف بأرض كنعان في أي حقبة زمنية خارج النص التوراتي، إذ تخلو السرديات الآشورية/ الآشورية، ونقوش وادي النيل كلها من ذلك الاسم. فعلى أي أساس تاريخي أو أركيولوجي استند مدون التوراة عندما أطلق عليها أرض كنعان؟

¹³⁶ سفر التكوين 11(31).

أما منطقة جنوب تركيا (ديار بكر) فلم تعرف بأرض حاران لا في زمن الرحلة، ولا في أي أزمنة أخرى. فأي خيال جامع أوحى لمدون التوراة إطلاق ذلك الاسم؟

الغريب أن الرحلة الإبراهيمية وحسب التوراة، حدثت بدون أية مقدمات تستدعي خروج "تارح" ورهطه إلى أرض أخرى، بينما نجد لها في الرواية الإسلامية مقدمات بدأت مع إبراهيم عليه السلام الباحث عن الخالق، بين القمر والنجم والشمس، ورفضه الاعتقاد بها كآلهة، منتهياً إلى إعلان أنه توجه للذي فطر السموات والأرض، القادر وحده على هدايته، كما جاء في الآيات (74-79) من سورة الأنعام، ثم إتخاذه قراراً: **{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِينِ}**¹³⁷، وكل ذلك حدث بعد تحطيمه أصنام قومه، وما نتج عنها من حادثة محاولة حرقه بالنار التي نجاه الله منها، كما صورت لنا الآيات (51-71) من سورة الأنبياء المشهد بدقة.

قرار إبراهيم عليه السلام الرحيل حسب الرواية الإسلامية، جاء بعد أن استنفذ كل وسائل الدعوة التوحيدية التي رفضها قومه، ونهاية السجال بينه وبين كبيرهم الذي أتاه الله الملك، كما جاء في الآية (258) من سورة البقرة، وما تبع ذلك من تحطيمه لأصنام قومه، وقرارهم حرقه بالنار. كل ذلك تجاهلته التوراة، لأن ذكر تلك القصة المتكاملة يهدم التلفيق الاستشراقي الهادف إلى اغتصاب فلسطين.

نعود لرواية التوراتية الخرافية لنجد استحالة انطباقها وتناغمها مع الجغرافيا، لأن دخول فلسطين أو أرض كنعان يستحيل أن يكون من بوابة حاران التي هي ديار بكر التركية. فرواية التوراة بنيت على أساس واه، إذ يستحيل أن تكون البداية من "أور الكلدانيين" الذين ظهروا بعد الرحلة بآلف عام، لتنتهي في فلسطين التي لم تعرف بهذا الاسم إلا بعد مضي ألفي عام على زمن الرحلة الخرافية. لذلك فإن الإيمان أن جغرافية الحدث كانت في العراق وتركيا وفلسطين يعد ضرباً جنونياً.

الغريب أن التوراة باللغة العبرية، التي هي لهجة من لهجات لغة العرب السبئية باتفاق كل المؤرخين بدون استثناء، لا تحوي تعبير "أور الكلدانيين"، بل نجد تعبير "أور الكسديم". وهنا تبدو الأمور أكثر وضوحاً، إذ استبدل مدون التوراة تعبير "أور الكسديم" بتعبير "أور الكلدانيين"، لكنه غفل عن أمر مهم، فمنطقة الناصرية العراقية صحراوية لا وجود للجبال في تضاريسها، وهذا وحده يسقط الرواية التوراتية.

نحن الآن أمام عدة حقائق تنسف الرواية التوراتية:

أولاً: بنو إسرائيل في كل تاريخهم القديم، خاصة الذين سباهم العراقيون القدماء وعاشوا في العراق منذ القرن (6) ق.م، لم يذكروا أن منطقة أبيهم إبراهيم "أور الكلدان" توجد في العراق، ولم يبق أي منهم فيها، بل فضل قسم منهم استيطان منطقة خوراسان وطبرستان الإيرانيتين، على

¹³⁷ سورة الصافات الآية 99.

بعد مئات الأميال منها. والرأي القائل إنها في العراق يعود الى سنة (150) ق.م. تقريباً، حيث زج مؤرخو الإغريق بالاسم ضمن فقرات التوراة، لعجزهم عن معرفة معنى "أور الكسديم"، لأن كلمة "كسديم" لا يوجد لها جذر في لغة بني إسرائيل المحكية عند ترجمة التوراة. وهكذا أصبحت "أور الكلدانيين" الواردة ذكرها في التوراة، من ضمن الرواية المتداولة بكثرة بين الكتاب والمؤرخين، خاصة شراح الكتاب المقدس، الذين لم يُرْكزوا على الأمر لأن همهم كان دينياً فقط. وعنهم أخذ المؤرخون.

ثانياً: منذ بداية المسيحية، اختلف شراحها ومؤرخوها في تحديد مكان ولادة إبراهيم ونقطة انطلاقه نحو أرض كنعان، شأنهم في ذلك شأن مفسرو التوراة.

فالمؤرخ اليهودي الشهير "يوسيفوس"، صاحب كتاب الأمة اليهودية في القرن الأول الميلادي، وفي فصل: كيف خرج إبراهيم من أرض الكلدانيين، وذهب للعيش في أرض كنعان، يؤكد أنه ولد في مدينة "اورفا" بالتركية، والرها بالعربية، وأنها جزء من أرض الكلدانيين، وتقع أعلى بلاد بابل. في حين ذكر أسابيوس القيصري (339-265) أبو التاريخ الكنسي، في كتابه عوائل اللغات، صفحة (282) أنها مدينة نصيبين التركية. الكتاب نقله وحققه الدكتور الأب يوسف حبي، ص282. أما مار أفرام السرياني (373-306) فله عدة أقوال ذكرها في شرحه لسفر التكوين، فهي حاران مرة، والرها مرة أخرى، ونصيبين في قول ثالث، والمثير أنه عاد ليؤكد أنها في أرمينيا

ثالثاً: نحن نعلم أن غالبية نصوص العهد القديم، فُقدت خلال سنوات التيه في زمن موسى عليه السلام في القرن (14) ق.م، لكنها بقيت متداولة شفهيًا إلى القرن (6) ق.م. وعندما بدأ أول تدوين لها، نسخ المدونون أسماء البلدان، والمدن، والشعوب كما كانت موجودة في عصرهم، مع بعض الإضافات والتعديلات. فذكروا على سبيل المثال أن بلاد آشور عرفت بهذا منذ الخليقة، وقبل أن ينزل آدم من فردوس عدن إلى الأرض، كما في تكوين 2(14)، وذكروا مدينة بابل موجودة منذ الطوفان، مع أنها عرفت بذلك الاسم في عهد حمورابي. وذكروا اسم مدينة "دان" زمن إبراهيم، كما في تكوين 14(14)، لكن المدون نسي ما كتب، فعاد ليخبرنا أنها لم تكن تدعى دان، بل "لاشم"، وأنها عرفت بهذا الاسم في زمن يشوع بن نون أو بعده، كما في يشوع 19(47)، والقضاة 18(27). أما مدينة رعمسيس، فقد أخبرتنا التوراة أنها موجودة في زمن يوسف، مع أن الذي شيدها رمسيس الثاني (1213) ق.م، أي بعد يوسف بحوالي 400 سنة.

رابعاً: هناك اختلافات بين النسخ التوراتية حول مصطلح "أور الكلدانيين". ففي حين تقول الترجمة السبعينية (280) ق.م "كورة الكنعانيين"، فإن التوراة السامرية تقول "أور الكسديم"، وأن معنى أور: الضوء، النور، البياض. الترجمة العربية للتوراة السامرية التي قام بها اليهود أنفسهم، حددوا المنطقة بالدقة والاسم الواضح، فتقول: كان مولد إبراهيم في محيط أو أطراف بياض خراسان (هورسان، حاراسان، أي حاران)، وهي منطقة تقع في أرمينيا، وحول أو قريبة من الرها وحاران الحالية في تركيا، وكلمة بياض حسب تفسرهم تعني أطراف حقول.

أما التوراة السبئية فقد ذكرت اسم "أور الكسديم"، بدون تحديد الجغرافية.

خامساً: كلمة كلدان في كل قواميس اللغة معناها: مُنجم، عرّاف، الكهنة المشتغلين بالكواكب، قارئ الغيب، فتاح فال، ساحر، مشعوذ، وهو ما ينطبق على حاران الحقيقية المشهورة بذلك، ولم تُعرف أور العراق بهذه المهن إطلاقاً في زمن الرحلة الإبراهيمية الخرافية.

أما أقدم ذكر لكلمة كلداني في التاريخ، فقد ورد في مدونات الملك الآشوري/ آشوري "أشور ناصر بال الثاني" (859-883) ق.م وكان الاسم يطلق على قبيلة تقيم أقصى جنوب العراق وعلى امتداد الخليج العربي، وأنها أسست دويلات عديدة؛ بيت ياكين، بيت عموكاني، بيت دكوري، كما في صفحة (80) من كتاب "الأمم السامية"، تأليف حامد عبد القادر، وكتاب المحيط الجامع في الكتاب المقدس، تأليف الأب "بولس الفغالي"، صفحة (1031). أمّا أقدم ذكر لكلمة كلدان في الكتاب المقدس، فقد جاء في سفر أيوب 1(17)، مع ملاحظة أنه لا علاقة لمفهوم كلمة كلداني هنا، بدولة الكلدان التي أسسها "نابوا بلاصر" أبو "نبوخذ نصر" والتي أطلق عليها اليهود وبالذات النبي دانيال اسم الكلدان كصفة بمعنى ساحر، مشعوذ، هرطوقي، عرّاف ... إلخ، كما ترد في جميع قواميس السريان الشرقيين الذين سمّتهم روما كلداناً، كما جاء في قاموس المطران أوجين منا الكلداني، ص (338). وأنت كلمة كلدان في سفر أيوب، لا لتدل على قوم، بل صفة أيضاً بمعنى قطاع طرق ولصوص، وجاءت مقترنة بالسبئيين العرب.

الرواية التوراتية بنيت على أسس واهية، إذ لا يوجد أي دليل أركيولوجي مهما كان بسيطاً، أو نقشاً، أو أثر لغوي، أو دليل تاريخي مدون، يثبتها أو حتى يشير إليها، وفي المقابل توجد هناك آلاف الإشارات الدامغة على مسار الرحلة الحقيقية.

الرحلة الإبراهيمية الحقيقية

قبل البدء في توضيح مسار رحلة نبي الله إبراهيم عليه السلام، علينا أن نجدد الاعتراف بأن القرآن الكريم لم يتطرق إلى جغرافية الأحداث، وإن ذكر لنا أسماء بعض الأماكن، والمدن، والجبال، والوديان التي احتضنت بعضها. لذلك علينا البحث عن الجغرافية الحقيقية للحدث مستعينين بما تم تدوينه في زمن حدوثه أو بعده، لا أن نأخذ الرواية التي كتبت بعده بعدة قرون بدون تمحيص وبحث. فعندما نقرأ على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾¹³⁸، علينا أن نسأل: عن أي مصر نتحدث الآية؟ أهى مصر الحالية، أم مصر أخرى؟ لا أن نأخذ رواية التوراة وكأنها عين الحقيقة. فمصر الحالية لم تعرف بهذا الاسم في زمن الحدث إطلاقاً، ولم يحكمها ملك حمل لقب فرعون، ولم تعرف منصب العزيز، ولا علم لها ببيوسف وسنوات القحط، وهذا ثابت من التاريخ المصري الرسمي المدون، والمستمد من نقوش المسلات، وجدران المعابد، والمقابر وورق البردي.

كذلك علينا الإقرار بأن ما ذكره المفسرون المسلمون عن الروايات التاريخية، والمواقع الجغرافية ذات العلاقة بالآيات المتعلقة بأي حدث؛ قابل للطعن وحتى الرفض، طالما لم يستند إلى قرينة من القرآن، أو حديث النبي عليه السلام، ويتعارض مع حقائق التاريخ المكتشفة. ما فعله المفسرون -نقوله بكل أسى- من أخذ الرواية التوراتية بدون تحقق، أمر مرفوض، خاصة إذا علمنا أنهم على جلالة قدرهم، وسعة علمهم، وعلو كعبهم في مجال التفسير، إلا أن مقدرتهم على البحث والتدقيق والتحقق في مجال صناعة التاريخ، كانت محدودة جداً، ولا تكفي لركوب بحره. وقد عبر عن ذلك الطبري الذي يطلق عليه لقب شيخ المؤرخين في مقدمة كتابه "تاريخ الطبري" فقال: "فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشعنه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهها في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا". فالطبري يعترف أنه نقل لنا ما هب ودب من روايات، وعنه نقل من جاء بعده من المؤرخين، وكل أضاف إلى الروايات التاريخية ما تيسر له من أساطير وخرافات متداولة، مما أدى إلى تراكم كم هائل من الروايات المتناقضة، والمكذوبة التي لا تتطابق مع الواقع.

نعود إلى الرحلة الإبراهيمية كما دونتها التوراة، لنجد أنها بدأت من "أور الكلدانيين"، وكانت حاران في بلاد الأناضول محطة النزول الأولى. وبدون مقدمات نرى القافلة تحط رحالها عند "شكيم" التي هي مدينة نابلس الفلسطينية. الغريب أن مدون التوراة لم يذكر لنا أي طريق سلكت القافلة من حاران الأناضول إلى نابلس، واكتفى بالقول: ﴿وَأَجْتَازَ بَرَامُ فِي الْأَرْضِ إِلَى مَكَانٍ سَكِيمٍ﴾¹³⁹، ثم شددت القافلة رحالها لتنتقل إلى: ﴿ثُمَّ نَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيلِ

¹³⁸ سورة يوسف الآية 21.

¹³⁹ سفر التكوين 12(6).

وَنَصَبَ حَيْمَتَهُ. وَلَهُ بَيْتٌ إِيلَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَعَايَ مِنَ الْمَشْرِقِ. فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ، وَبَيْتَ إِيلَ هِيَ هَضْبَةٌ مَتَوَاضِعَةٌ شَمَالَ مَدِينَةِ رَامَ اللَّهِ الْفَلَسْطِينِيَّةِ. وَبَعْدَ أَنْ اسْقَرَ بَعْضُ الْوَقْتِ وَبَنَى مَذْبَحًا لِلرَّبِّ، بَدَأَ تَرْحَالًا وَمَتَوَاصِلًا نَحْوَ الْجَنُوبِ (9)، ثُمَّ ارْتَحَلَ أَبْرَامُ ارْتِحَالًا مُتَوَالِيًا نَحْوَ الْجَنُوبِ.}

وحسب التوراة فقد حدثت مجاعة، استدعت رحيله إلى مصر. لكن مدون التوراة لم يفته الطعن في شرف إبراهيم عليه السلام الذي استغل جمال زوجه لكسب المال والمواشي والعبيد، {وَحَدَّثَ جُوعٌ فِي الْأَرْضِ، فَانْحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَعَرَّبَ هُنَاكَ، لِأَنَّ الْجُوعَ فِي الْأَرْضِ كَانَ شَدِيدًا. وَحَدَّثَ لَمَّا قَرَّبَ أَنْ يَدْخُلَ مِصْرَ أَنَّهُ قَالَ لِسَارَى امْرَأَتِهِ: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ امْرَأَةٌ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ. فَيَكُونُ إِذَا رَأَىكَ الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هَذِهِ امْرَأَتِي. فَيَقْتُلُونِي وَيَسْتَبْقُونَكَ. قُولِي إِنَّكَ أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبَبِكَ وَتَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكَ. فَحَدَّثَتْ لَمَّا دَخَلَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ رَأَوْا الْمَرْأَةَ أَنَّهَا حَسَنَةٌ جِدًّا. وَرَأَاهَا رُؤَسَاءُ فِرْعَوْنَ وَمَدَحُوهَا لَدَى فِرْعَوْنَ، فَأَخَذَتِ الْمَرْأَةَ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ. فَصَنَعَ إِلَى أَبْرَامَ خَيْرًا بِسَبَبِهَا، وَصَارَ لَهُ غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَحَمِيرٌ وَعَبِيدٌ وَإِمَاءٌ وَأَتْنٌ وَجَمَالٌ»، (10-16). ولم يفت التوراة إعلامنا بتواجد الكنعانيين: {وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينئذٍ فِي الْأَرْضِ}.

لم تخبرنا التوراة عن مدة مكوث الأسرة المقدسة في مصر، لذلك نراها بدون مقدمات تغادر مصر لتحط رحالها عند بئر السبع الفلسطينية. لم يطل أبرام مقامه في بئر السبع، فارتحل إلى بيت إيل مرة أخرى، لينطلق منها {إِلَى أَرْضِ الْجَنُوبِ، وَسَكَنَ بَيْنَ قَادِشَ وَشُورَ، وَتَعَرَّبَ فِي جِرَانَ}، (1)20. ثم نراه مرة أخرى مقيما في بئر السبع، ومنها يخرج مصطحبا زوجه "هاجر" وابنها "إسماعيل" متجها نحو بركة "فاران"، حيث تركهما وعاد إلى بئر السبع، ليأخذ زوجه الأخرى "سارة" ويتجه نحو "حبرون"، هي مدينة الخليل الفلسطينية الحالية، حيث أمضى ما تبقى من عمره، ولما مات دفنه ابنه "إسماعيل وإسحاق" في مغارة المكفلية بجانب زوجه "سارة" التي توفيت قبله.

تلك تحركات أبرام، أو رحلته المباركة كما يصفها اللاهوتيون، منتقلا بين العراق، وفلسطين "أرض كنعان"، ومصر، وبركة فاران، كما دونتها التوراة. لكن إذا أسقطنا جغرافية الرحلة التوراتية على جغرافية البلدان والمدن التي تردد بينها، سنجد استحالة تطابقهما.

بينما أن مصر لم تعرف بهذا الاسم زمن الرحلة، وكذلك فلسطين لم تعرف البتة بأرض كنعان، وبيت إيل لم تكن قد تشكلت بعد. وللحقيقة، فإن زج إسم "بيت إيل" ضمن الرحلة الأسطورية، يعتبر بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، إذ لم يعرف ذلك الموقع باسم "بيت إيل" قبل عام 1838م، عندما أطلق الباحث الأمريكي المتخصص بعلم الآثار التوراتي "إدوارد روبنسون Edward Robinson" ذلك الاسم، وكرره "هنري بيكر تريسترام / Henry Baker Tristram" لكن ج ج بيمسون" و"ديفيد ليفينجستون" رفضا ذلك، وادعيا أن البيرة هي محطة الأب التوراتي. كما أن جميع الحفريات التي أشرفت عليها حكومة الكيان الصهيوني، لم تسفر عن أي دليل أثري يشير إلى وجود بشري في بيت إيل، وأن أقدم دليل يعود إلى حوالي 900 ق.م. وبكل تأكيد نقول إن متحف الآثار الصهيوني يخلو من أي دليل يشير إلى وجود منطقة بيت إيل في زمن الرحلة الإبراهيمية التي يعود زمنها إلى الحقبة بين (1850-2000)

ق.م. ثم إن جغرافية فلسطين تجهل مكانا إسمه "علي" يقع شرق "بيت إيل" كما جاء في النص التوراتي، وينطبق ذات الشيء على "قَادِشَ وَشُورَ وَجَرَازَ".

بالنسبة إلى "شكيم"، أو نابلس الحالية، فنحن نعرف أن تاريخ المدينة يعود إلى (4700) ق.م، وقد ورد ذكرها في نصوص "ابلا/ Ebla Tablets التي يعود تاريخها إلى (2500-2250) ق.م، وتم اكتشاف نصوص ابلا- على يد عالم الآثار الإيطالي "پاولو ماتيهي/ Paolo Matthiae عام 1974. وجاء أقدم ذكر لها في النقوش المصرية التي تعود إلى عام 1800 ق.م، وذكرت ضمن رسائل "تل العمارنة" التي دونت حوالي عام 1400 ق.م، مقرونة باسم حاكمها "لابايو"، وكذلك ضمن نقوش حكم الملك تحتس الثالث. وتعد نابلس خامس أقدم مدن سورية التاريخية، بعد مدن: دمشق، وحلب، وبيوس، صفد. وبنها الناجون من قوم ثمود، واسمها "شخيم" وتعني الكتف. لذلك فإن زوجها ضمن تنقلات إبراهيم، كان القصد منه إعطاء نوع من المصادقية للرواية التوراتية.

قلنا إن انطباق جغرافية التوراة على جغرافية فلسطين أمر مستحيل، لذلك يبرز السؤال التالي: أين هي الجغرافيا التي احتضنت الرحلة الإبراهيمية؟

لا توجد على كوكب الأرض أمكنة تتطابق مئة بالمئة مع جغرافية التوراة إلا في جنوب الجزيرة العربية، خاصة اليمن الحالية. إذ نجد جبلا يدعى "كسد"، يقع في منطقة الضالع اليمنية، ويسمى الآن جبل كساد، كما وضح الهمداني في كتابه "وصف جزيرة العرب"، ولا يوجد جبل يحمل نفس الاسم في الدنيا كلها سواه. وكما يعرف اللغويون، فإن حرفي "الياء والميم" هما أداتا تثنية وجمع في لهجتي سبأ وحمير، عندها يصبح معنى مصطلح "أور الكسديم" الوارد في التوراة المكتوبة بالعبرية الصناعية: سكان المنطقة أو المدينة الواقعة على سفح جبل كسد. وحسب السرديات اليمنية الموجودة في المتحف البريطاني، والتي جمعت في خمس مجلدات ضخمة، تضم آلاف النقوش، فإن القبائل العربية المنتشرة في منطقة الجوف اليمنية، أسست في القرن (20) ق.م مملكة عرفت باسم مملكة "مصرم"، ازدهرت وهيمنت على أجزاء أخرى من المناطق المحيطة بها، ومن ملوكها من لقب ب "فرعو" حسب اللهجة السبئية، أو "برعو" حسب لهجة حمير، وهو لقب ديني يشير إلى الكاهن الذي يشرف على طقوس العبادة. وتشير السرديات إلى انه مع بدايات القرن (15) ق.م، أصيبت مملكة "مصرم" بعدة كوارث، أدت إلى ضعفها، مما سهل على القبائل الفحطانية الانقضااض عليها وإنهاء حكم الكهانة، وقيام مملكة سبأ الأولى، التي سادت عدة قرون قبل أن تنقسم إلى مملكتي "سبأ وحمير". كذلك تشير تلك السرديات إلى ظهور عدة ممالك صغيرة في زمن ازدهار مملكة مصرم، وأشهرها مملكة "قتبان"، التي عرف أهلها باسم الأراميين نسبة إلى الإله الوثني أرم الذي عبده، ومملكة "أوسان". وعرف سكانها بالكنعانيين نسبة للإله الوثني كنعان. وتكونت مملكة "أوسان" من عدة مخاليف، أشهرها مخاليف حاران الذي ما زال يحمل ذات الاسم حتى الآن. وما زالت بعض الأماكن تحمل أسماء: جرار، وجبل علي، وبيت إيل، سعير، وقادش. وفي منطقة حاران التي هي جزء من مملكة "أوسان"، وتقع بين "لحج ويافع" انتهت رحلة إبراهيم، وهي أرض الوعد السماوي له ولنسله من بعده، إن كان هناك أي وعد كما تدعي التوراة.

وهكذا تصبح الرحلة الحقيقية كالتالي: انطلق إبراهيم عليه السلام من أرض حضرموت متجهاً إلى منطقة الكسديم الواقعة عند سفح جبل كسد، ثم اتجه نحو مملكة "أوسان" أرض الكنعانيين، ماراً بمملكة "قتبان" أرض الأراميين، ليذهب إلى مملكة "مصريم" في الجوف، ثم يعود منها إلى مخلاف "حاران" التابع لمملكة "أوسان" حيث استقر هناك، ولم يغادرها إلا عدة مرات متتداً بينها وبين أرض "بكة" الواقعة في برية فاران.

بين حضرموت، والضالع، وبافع، ولحج، وتعز، دارت أحداث التوراة من ولادة إبراهيم إلى مولد المسيح عليهما السلام، ولا علاقة للعراق وبلاد الشام ومصر بالتوراة وخرافاتها.

أسطورة البكورية

حرص مدون التوراة كل تركيزه في موضوع الميراث الإبراهيمي في مسألة البكورة، إذ جعلت من الابن فاتح الحرم، الابن البكر، الوريث الوحيد لتركه أبيه. فهل عرفت البشرية في زمن الحدث مثل ذلك القانون الوراثة، أم هو من خيال المدون، استولد من رحم خرافة لدعم أسطورة تم نسجها من خيوط عنكبوتية واهية، لتحقيق وعد نسب للرب التوراتي كما جاء في تكوينين 15(21-18): **﴿ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلًا: لِنَسْلِكَ أُعْطِيَ هَذِهِ الْأَرْضُ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرَ الْفُرَاتِ. الْفِينِيِّينَ، وَالْقَنْزِيِّينَ، وَالْقَدْمُونِيِّينَ، وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفَرِزِيِّينَ، وَالرَّفَائِيِّينَ، وَالْأَمُورِيِّينَ، وَالْكَنَعَانِيِّينَ، وَالْجَرِجَاشِيِّينَ، وَالْيَبُوسِيِّينَ. ﴾**

استنتق المؤرخون الآثاريون كل المدونات التي حوت أسماء الشعوب التي استوطنت المنطقة ما بين النيل والفرات، فلم يجدوا أية إشارة لوجود شعوب القينيين، والقنزيين، والقدميين، والفرزيين، والرفائيين منذ زمن الرحلة التوراتية الإبراهيمية، حتى قيام دولة إسرائيل التوراتية، لا في فلسطين أو أي مكان في المنطقة. وقد وقفوا طويلاً أمام هذا اللغز التوراتي، علمهم وجدوا حلاً لهذه المعضلة. وعندما فشلوا، قام التيار اللاهوتي الاستشراقي باختراع تلك الشعوب، وصنعوا لها جغرافية لتسكنها، ثم فرضوها كحقيقة، وادرجوها في المراجع التاريخية. وكل ذلك قائم على افتراضات وآراء متضاربة، فصلها لنا المؤرخ الفذ أحمد سوسة في كتابه "العرب واليهود في التاريخ".

بالنسبة للحثيين، فالأمر شبه محسوم عند المؤرخين، فهم شعب قوقازي ارتحل إلى منطقة الأناضول في حدود القرن التاسع ق.م، وأسسوا مملكة صغيرة فيها، ثم حاولوا التمدد نحو سوريا التاريخية، لكن ظهورهم في أوج حضارة وادي النيل، وازدهار الإمبراطورية الآشورية/الآشورية جعلها هدفاً لتلك القوى، مما سرع في اندثارها، ذوبان شعبها بانصهاره ضمن شعوب الأناضول.

أما بقية الشعوب الوارد ذكرها في النص التوراتي: الأموريون، والكنعانيون، والجرجاشيون، واليبوسيون، فهي قبائل عربية عرفت بأسماء الآلهة الوثنية التي عبدها، وكانت حاضنتها جغرافية جنوب الجزيرة العربية، خاصة اليمن. وعندما بدأت هجرات تلك القبائل نحو الشمال، واستوطنت ما بين الفرات والنيل، وكان ذلك قبل مولد الجد الأعلى للقبيلة الإسرائيلية بأكثر من ألفي عام، عرفت بأسماء أخرى لا علاقة لها بتلك المذكورة في التوراة.

والأهم، استنتق المؤرخون التاريخ والأرض، فلم يهتدوا إلى ما يثبت أن تلك الشعوب خضعت على مر التاريخ لذرية وارث العهد "إسحاق"، وأن كل السرديات بما فيها سرديات التوراة، والنقوش والآثار؛ أثبتت خضوع الوريث نفسه، وذريته من بعده لتلك الشعوب، بل منها من استعبد واسترق ذرية يعقوب بن إسحاق، كما سنبين ذلك لاحقاً وبالتفصيل.

تقوم فكرة أفضلية الابن البكر حسب التوراة، على وراثة الجزء الأكبر من ميراث أبيه، إذ يأخذ ضعف إخوته، ويستحوذ منفرداً على زعامة الأسرة الدنيوية، وإمامة الشعائر الدينية. لكن نصوص التوراة التي تناولت البكورة متضاربة، إذ جاء فيها قول الرب لموسى عليه السلام في

سفر الخروج 13(2-1): {وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: قَدَسْ لِي كُلَّ بَكْرٍ، كُلَّ فَاتِحِ رَحِمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مِنَ النَّاسِ وَمِنَ الْبَهَائِمِ. إِنَّهُ لِي}. النص لا يحتمل الشرح، ففاتح الرحم، أي الابن البكر، مقدس عند الرب، حتى لو كان من البهائم. ولأن مدون التوراة، وفريق التزوير الاستشراقي منشغلون في حرمان إسماعيل بكر إبراهيم من حقه في الميراث بحجة أنه ابن جارية، فاتهم الانتباه إلى نص آخر يؤكد حق البكر في الميراث حتى لو كان ابنا لجارية مكروهة، بل جعل حقه ضعف أخيه الأصغر رغم كون الأخير ابنا لامرأة حرة محبوبة، كما جاء في سفر التثنية 21(17-15): {إِذَا كَانَ لِرَجُلٍ امْرَأَتَانِ، إِحْدَاهُمَا مَحْبُوبَةٌ وَالْأُخْرَى مَكْرُوهَةٌ، فَوَلَدْنَا لَهُ بَيْنَ، الْمَحْبُوبَةِ وَالْمَكْرُوهَةِ. فَإِنْ كَانَ الْإِبْنُ الْبِكْرُ لِلْمَكْرُوهَةِ فَيَوْمَ يَفْسِمُ لِتَبِيهِ مَا كَانَ لَهُ، لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُقَدِّمَ ابْنَ الْمَحْبُوبَةِ بَدْلًا عَلَى ابْنِ الْمَكْرُوهَةِ الْبِكْرِ. بَلْ يَعْرِفُ ابْنُ الْمَكْرُوهَةِ بَكْرًا لِيُعْطِيَهُ نَصِيبَ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ مَا يَوْجَدُ عِنْدَهُ، لِأَنَّهُ هُوَ أَوْلُ قُدْرَتِهِ. لَهُ حَقُّ الْبُكُورِيَّةِ}.

لكن مدون التوراة وقع في مأزق عندما أراد حرمان "عيسو" بكر إسحاق، وحصر الميراث في أخيه الأصغر يعقوب. فكلاهما مولودان لذات الأمر الحرة المحبوبة، لذلك لجأ الفريق الاستشراقي إلى اختراع "شراء البكورية".

وعلى نهج تفسيرات التوراة جاءت تفسيرات الأنجيل، إذ نجد في موقع "الأنبا تكتلا هيمانوت" نقلا عن كتاب "اللاهوت المقارن" لعداسة البابا شنودة الثالث نصا عجيبا مضطربا: {الابن البكر، هو الابن المولود أولا، والكتاب المقدس واضح في تعريف معنى البكر، إذ يقول الوحي الإلهي قبل تأسيس الكهنوت الهاروني: " قدس لي كل بكر، كل فاتح رحم من الناس، ومن البهائم إنه لي ". فكل فاتح رحم يصير مقدسا للرب، مخصصا للرب، سواء ولد بعده ابن آخر أو لم يولد. ولا ينتظر أبواه إن كان إنسانا، أو مالكوه إن كان من البهائم حتى يولد له أخوة (يصير بهم بكرا) ثم يخصصونه للرب. إنما من مولده يصير مقدسا للرب، لا لأنه كبير إخوته، إنما لأنه فاتح رحم. وهكذا يمكن جدا أن يكون الابن البكر هو الابن الوحيد}.

هذا تفسير ينطبق مع نصوص التوراة، وبالتالي فإن بكر إبراهيم هو إسماعيل، وبكر إسحاق هو عيسو، لأن كل واحد منهما فاتح رحم. لكن بقية النص غاية في العجب، إذ يقول قداسته: {وهكذا كان السيد المسيح: هو الابن البكر، وهو الابن الوحيد. وقد صدق القديس "جيروم" حينما قال: كل ابن وحيد هو ابن بكر، ولكن ليس كل ابن بكر هو ابن وحيد". إن تعبير "البكر" لا يشير إلى شخص ولد بعده آخرون، ولكن إلى واحد ليس له ما يسبقه}. هذا تخبط أكثر منه تفسير، فكله في النهاية يشير رغم تخبطه إلى أن فاتح الرحم هو الابن البكر. لكن ماذا تعني جملة: ليس له ما يسبقه؟ فإذا كانت التوراة تقر بأن آدم هو بكر الرب، فكيف أقرت أن إسحاق هو بكر إبراهيم وقد سبقه إسماعيل، وجعلت "يعقوب" هو بكر أبيه وقد سبقه عيسو؟ ثم كيف عادت التوراة وجعلت "افرايم" بكر أبيه يوسف كما سفر إرميا 31(9): {أَنْتِي صِرْتِ لِإِسْرَائِيلَ أَبَا، وَأَفْرَايِمُ هُوَ بَكْرِي}، مع أن فاتح الرحم الإبن البكر هو "ميثا" كما تؤكد التوراة.

وهكذا، لا يجد الباحث في الكتاب المقدس نصا صريحا يسمح بتجريد الابن البكر، فاتح الرحم من حقوق بكوريته، إنما هي رغبات مدون التوراة، لحصر ميراث الأب الأعلى في شخص معين، وليس بالضرورة أن يكون البكر. فالبكورية يمكن أن تشتري بصحن من شوربة العدس

الأحمر، أو نزولا عند رغبة احدى الزوجات، أو بمكيدة أم تسترق السمع، وتتلصص على لقاء الأب بابنه، أو لمجرد رغبة مدون التوراة وفريق التزوير الاستشراقي.

الآن، وبعد كل ما تقدم، نريد معرفة ماهية ميراث إبراهيم، ومن هو صاحب الحق الشرعي فيه؟ وهل استلم صاحب الميراث إرثه؟ ومن هو؟ وكيف ومتى؟

أسطورة العدس والبكورة

لا يجد الباحث في موروث الأمم السابقة، خاصة تلك التي استوطنت ما بين الفرات والنيل، ما يشير إلى أفضلية وتميز الابن البكر على سائر إخوته. لكن التوراة شرعت ذلك ونسبته إلى الرب، وبنيت عليه أساطير ألبستها ثوب القداسة.

السرديات والنقوش المحفوظة في المتحف البريطاني، وتعود إلى عصر مملكة سبأ الأولى، التي قامت بعد تفكيك ممالك "أوسان وقتبان ومصر الجوف" حوت الكثير من العبارات المنقوشة التي تتحدث عن طريقة رجال الكهنوت في اختيار خلفاءهم للقيام بالمهام الدينية، إذ يتم اختيار ابن الكاهن الأكبر، وعزله لمدة في المعبد كي ينال بركة الألهة، ويتعلم أسرار العبادة، وطريقة العناية بالصنم الإله، كي يرث والده في الإشراف على المعبد، وإرشاد وقيادة الشعب في تادية طقوس عبادة الصنم الإله. وعندما دب الخلاف بين القبائل العربية، وانقسام مملكة سبأ الأولى إلى مملكتي؛ سبأ التي عرفت بمملكة العبرانيين، وحمير التي حملت إسم مملكة اليهوديين أو اليهوديين، وبرغم التباين بين المملكتين في أمور كثيرة، إلا أن عادة وراثه ابن الكاهن الأكبر لميراث أبيه الديني بقيت سائدة بين كهان ورجال الدين فيهما.

علاقة العبرانيين واليهود باليمن لا يمكن تجاوزها بأي شكل من الأشكال، فكل أخبارهم التي سجلتها التوراة، حدثت هناك، وتاريخ الممالك في جنوب جزيرة العرب، هو ذاته تاريخهم بشكل متتابق بطريقة مذهلة، اعترف به عشرات بل مئات المؤرخين والآثاريين وعلماء النقد النصي المتحررين، أو لنقل المتمردين على اللاهوت التوراتي.

الآن اتضح لنا أن موضوع البكورية مأخوذ من التراث الديني الوثني اليمني، اختلسه مدون التوراة، مع تزوير متعمد جعل الهدف منه وراثه الأرض، وليس وراثه المنصب الديني.

نتنقل الآن إلى مشاهد من بيت إسحاق عليه السلام كما صورها مدون التوراة، لنجد الشقيقين "عيسو ويعقوب" قد كبرا وأصبح عيسو: {وَكَانَ عَيْسُو إِنْسَانًا يَعْرِفُ الصَّيْدَ، إِنْسَانٌ الْبَرِّيَّةُ، وَيَعْقُوبُ إِنْسَانًا كَامِلًا يَسْكُنُ الْخِيَامَ} ¹⁴⁰.

مدون التوراة بدأ هنا بتحضير يعقوب لمهمة ما، فرفع من شأنه ووصفه بالإنسان الكامل، في حين حط من قيمة عيسو ووصفه بالمتوحش، وهذا تفسير "إِنْسَانٌ الْبَرِّيَّةُ" عند شراح التوراة.

نمضي مع المشهد لنرى أن الأب "إسحاق" يحب "عيسو"، بينما الأم تحب "يعقوب"، كما في فقرة 28: {فَأَحَبَّ إِسْحَاقُ عَيْسُوَ لِأَنَّ فِي فَمِهِ صَيْدًا، وَأَمَّا رَفِقَةُ فَكَانَتْ تُحِبُّ يَعْقُوبَ}. وذات يوم،

¹⁴⁰ سفر التكوين 25(27).

كان عيسو في البرية يصطاد، فلما أعياه التعب عاد لمضارب أبيه، حيث كان يعقوب يطبخ عدسا، فلما رأى أخاه طلب منه قليلاً من العدس الذي يقوم بطبخه، فوافق يعقوب شريطة أن يبعه "عيسو" بكوريته، فقبل "عيسو" لأنه سيموت ولا حاجة له بالكورية. وهكذا باع عيسو بكوريته، لأنه احتقرها، كما في الفقرات (29-34): **{وَطَبَخَ يَعْقُوبُ طَبِيخًا، فَأَتَى عَيْسُو مِنَ الْحَقْلِ وَهُوَ قَدْ أَعْيَا. فَقَالَ عَيْسُو لِيَعْقُوبَ: أَطْعَمْنِي مِنْ هَذَا الْأَحْمَرِ لِأَنِّي قَدْ أَعْيَيْتُ. لِذَلِكَ دُعِيَ اسْمُهُ "أَدُوم". فَقَالَ يَعْقُوبُ: {بِعَنِي الْيَوْمَ بَكُورِيَّتِكَ. فَقَالَ عَيْسُو: هَا أَنَا مَاضٍ إِلَى الْمَوْتِ، فَلِمَاذَا لِي بِكُورِيَّةٍ؟ فَقَالَ يَعْقُوبُ: أَحْلَفَ لِي الْيَوْمَ. فَحَلَفَ لَهُ، فَبَاعَ بَكُورِيَّتَهُ لِيَعْقُوبَ. فَأَعْطَى يَعْقُوبُ عَيْسُوَ خُبْزًا وَطَبِيخَ عَدَسٍ، فَأَكَلَ وَشَرِبَ وَقَامَ وَمَضَى. فَاحْتَقَرَ عَيْسُو الْبَكُورِيَّةَ.}**

يظهر من السرد التوراتي أن شراء يعقوب بكورية عيسو بقي طي الكتمان بينهما، إذ لم يسمع به الأب إسحاق، بل دليل أنه بعد أن شاح بصره، استدعى ابنه اليكر، وطلب منه أن يذهب ويصيد له صيدا، ثم يطبخه، ويحضره كي يأكل منه حتى يباركه، كمقدمة لوراثته، واستلام زعامة القبيلة بعد موته، كما في سفر التكوين 27(4-1). أثناء الحديث بين إسحاق وعيسو، كان "رفقه" زوج إسحاق تسترق السمع، واطلعت على ما دار بين الأب وابنه، فأخبرت يعقوب، وطلبت منه أن يحضر لها رأسين من الغنم، كي تصنع طعاما يأخذه يعقوب ويطعم أباه لينال هو البركة.

لكن يعقوب لم ترق له الفكرة خوفا من اقتضاح أمره، إذ هناك فرق كبير بينه وبين أخيه عيسو، فالأخير رجل أشعر بينما هو أملس الجلد. لكن الأم طلبت منه الاعتماد عليها. وهكذا أحضر يعقوب عنزتين مذبوحتين، فطبخت اللحم، وصنعت من الجلد ثوبا ارتداه يعقوب ثم دخل على الأب الضريير، واعلمه أنه احضر له طعاما ليأكله وينال بركته. إنطلت الخديعة على الأب، فأكل الطعام وشرب خمرا، وبارك الإبن ودعا له الرب، كما جاء في سفر التكوين 27(29-21): **{فَقَالَ إِسْحَاقُ لِيَعْقُوبَ: تَقَدَّمَ لِأَجْسِكَ يَا ابْنِي. أَنْتَ هُوَ ابْنِي عَيْسُو أَمْ لَا؟ فَتَقَدَّمَ يَعْقُوبُ إِلَى إِسْحَاقَ أَبِيهِ، فَجَسَّهُ وَقَالَ: الصَّوْتُ صَوْتُ يَعْقُوبَ، وَلَكِنْ الْيَدَيْنِ يَدَا عَيْسُو. وَلَمْ يَعْرِفْهُ لِأَنَّ يَدَيْهِ كَانَتَا مَشْعُرَتَيْنِ كَيْدِي عَيْسُو أَخِيهِ، فَبَارَكَهُ. وَقَالَ: هَلْ أَنْتَ هُوَ ابْنِي عَيْسُو؟ فَقَالَ: أَنَا هُوَ. فَقَالَ: قَدِّمْ لِي لِأَكُلَ مِنْ صَيْدِ ابْنِي حَتَّى تُبَارِكَ نَفْسِي. فَقَدِّمْ لَهُ فَأَكُلَ، وَأَحْضُرْ لَهُ خَمْرًا فَشَرِبَ. فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: تَقَدَّمَ وَقَبَّلْنِي يَا ابْنِي. فَتَقَدَّمَ وَقَبَّلَهُ، فَشَمَّ رَانِحَةَ نَبَاهِهِ وَبَارَكَهُ، وَقَالَ: انظُرْ! رَانِحَةُ ابْنِي كَرَانِحَةَ حَقْلِ قَدْ بَارَكَهُ الرَّبُّ. فَلْيَعْطِكَ اللَّهُ مِنْ نَدَى السَّمَاءِ وَمِنْ دَسَمِ الْأَرْضِ. وَكَثْرَةَ حِنْطَةٍ وَخَمْرٍ. لِيَسْتَعْبِدَ لَكَ شُعُوبٌ، وَتَسْجُدَ لَكَ قَبَائِلٌ. كُنْ سَيِّدًا لِأَخَوَاتِكَ، وَلِيَسْجُدَ لَكَ بَنُو أُمَّكَ. لِيَكُنْ لَأَعْنُوكَ مَلْعُونِينَ، وَمَبَارِكُوكَ مُبَارَكِينَ.}**

جوهر الموضوع، والهدف من كل تلك الخديعة، أن يصل بنا مدون التوراة إلى هذه الخلاصة: أن تستعبد وتسجد الشعوب والقبائل ليعقوب ونسله من بعده، والمقصود من ذلك: الشعوب العشرة التي جاء ذكرها مقرونا بوعد الرب عندما أعطى لإبراهيم ونسله ملكية الأرض من الفرات إلى النيل، كما بينا من قبل.

نعود إلى بقية مشهد الرواية التوراتية، لنرى عيسو قد عاد بصيد، طبخه وقدمه لأبيه ليأكل منه وينال بركته. وهنا صعق إسحاق وارتعد ارتعادا عظيما جدا، كما في الفقرات (33-30): **{وَوَحَدَتْ عِنْدَمَا فَرَعَ إِسْحَاقُ مِنْ بَرَكَةِ يَعْقُوبَ، وَيَعْقُوبُ قَدْ خَرَجَ مِنْ لَدُنْ إِسْحَاقَ أَبِيهِ، أَنَّ عَيْسُو أَخَاهُ أَتَى مِنْ صَيْدِهِ. فَصَنَعَ هُوَ أَيْضًا أَطْعَمَةً وَدَخَلَ بِهَا إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لِأَبِيهِ: لِيَقُمْ أَبِي وَيَأْكُلَ مِنْ**

صَيِّدِ ابْنِهِ حَتَّى تُبَارِكَنِي نَفْسُكَ. فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا ابْنُكَ بِرُكَّ عَيْسُو. فَأَرْتَعِدُ إِسْحَاقُ ارْتِعَادًا عَظِيمًا جَدًّا وَقَالَ: فَمَنْ هُوَ الَّذِي اصْطَادَ صَيِّدًا وَأَتَى بِهِ إِلَيَّ فَأَكَلْتُ مِنْ الْكُلِّ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ، وَبَارَكْتَهُ؟ نَعَمْ، وَيَكُونُ مُبَارَكًا.

أسقط في يد إسحاق، فقد خدعه ابنه يعقوب، ونال بركة ليست من حقه. ورغم الحلقة البكائية التي أداها عيسو بين يدي والده، متوسلاً بركة موازية للبركة التي نالها يعقوب، إلا أن إسحاق رفض ذلك، وختم المشهد بقوله: **{فَدَّ جَاءَ أَحْوَكُ بِمَكْرٍ وَأَخَذَ بَرَكَتَكَ}**، فقره (35). بعد ذلك انتفض عيسو غاضباً، معلناً أن أخاه قد خدعه مرتين، فأخذ البكورية ونال البركة، وتوعد أن يقتله.

لم تعب الأم عن المشهد، فقد كانت تسترق السمع، لذلك أخبرت ابنها المحبوب يعقوب بما دار بين إسحاق وعيسو، وطلبت منه الذهاب إلى حاران ليقيم عند خاله حتى تهدأ نفس أخيه.

لو تأملنا نص مباركة إسحاق نجدها:

{لِيُسْتَعْبَدَ لَكَ شُعُوبٌ وَتَسْجُدَ لَكَ قَبَائِلُ}: فهل استعبد بنو إسرائيل شعباً، أو خضعت لهم قبائل رغم مرور 4 آلاف سنة على نص الدعوة ونيل البركة؟ الذي حدث هو العكس وبشهادة التوراة ذاتها، فقد استعبدت كل شعوب المنطقة القبيلة الإسرائيلية، فمنها من قتل أبناءهم واستحيى نساءهم، ومنها من سباهم واسترقهم، ومنها من حكمهم بالحديد والنار.

{كُنْ سَيِّدًا لِأَخْوَتِكَ، وَلِيَسْجُدْ لَكَ بَنُو أُمَّكَ}: لا يوجد ليعقوب أخوة غير عيسو، وبشهادة التوراة فإن الرجل تزوج بنت إسماعيل وأصبح ونسله من بعده جزءاً من القبيلة الإسماعيلية، التي لم تخضع يوماً لبني إسرائيل. فما الحاجة لوضع هذه الجملة في سياق دعوة إسحاق؟

{لِيَكُنْ لَأَعْنُوكَ مَلْعُونِينَ، وَمُبَارَكُونَ مُبَارَكِينَ}: التوراة أخبرتنا في 473 فقرة أن الرب ذاته لعن القبيلة الإسرائيلية، ووصف رجالها بأصحاب القلوب القاسية العنيدة، منكري نعم الرب وفضله. فهل غاب عن الرب ما سيؤول إليه مصير القبيلة، أم هو جهل المدون بما في توراته؟

هناك عشرات الأسئلة يطرحها من يتأمل مشهد شراء البكورية، وخدعة نيل البركة، وقد ناقش بعضها علماء النقد النصي، ولم يملك أحد من التيار اللاهوتي رداً عليها.

هل كان عيسو يعلم أن البكورية تعني وراثة وعد السماء للجد إبراهيم؟

لماذا عرف يعقوب وأمه فقط بأهمية البكورية، وجهل ذلك عيسو؟

هل حقا قال عيسو: **{هَا أَنَا مَاضٍ إِلَى الْمَوْتِ، فَلِمَ آذَى لِي بِكُورِيَّةٍ}**؟ لو حقا قالها، فلماذا سعى لنيل البركة، فالبكورية شرط لنيل البركة.

سعى عيسو لنيل البركة، يشير إلى معرفته بالوعد السماوي، فهل فرط حقا بملكية أرض تمتد من النيل إلى الفرات بصحن من طبيخ العدس الأحمر؟

{قَدْ جَاءَ أَحْوَكُ بِمَكْرٍ وَأَخَذَ بَرَكَتَكَ}، بذلك وصف مدون التوراة الأب الثاني للقبيلة الإسرائيلية، والذي تُنسب إليه وتحمل إسمه: بنو إسرائيل. فقد خدع أخاه واشترى بكوريته بصحن من طبيخ العدس، ثم عاد فخدع أباه ونال بركة لا يستحقها، كونه الإبن الأصغر وليس البكر. وهكذا فإن جميع ما قام به بنو إسرائيل، ومن التحاق بعقيدتهم وعرفوا باليهود، بُني على أساس الخداع والمكر الذي مارسه الأب الثاني يعقوب.

لكن، نفهم أن تنطلي الخديعة على إسحاق الذي هدّه الكبر، وسلبت الأيام منه حاسة البصر، فكيف نفهم انطلاء الخديعة على الرب التوراتي؟ لقد جعل مدون التوراة من الرب عاجزا لا يستطيع اتخاذ القرار وحسم الأمور.

أخيرا نسأل: الوعد الذي قطعه الرب مع إبراهيم ونسله، بوراثة الأرض بين الفرات والنيل، هل تحقق أم ما زال معلقا، ينتظر الوريث الشرعي؟

هل تحقق الوعد الإبراهيمي أم لا؟

يجب علينا التفريق بين نص الوعد الأصلي كما هو في التوراة العبرية الصنعانية، ونصه: **{نَسَلِكَ أُعْطِي هَذِهِ الْأَرْضَ، مِنْ أَوْر الكسديم، إِلَى مَصْرِيم الوادي الكبير}،**

وَالوعد الاستشراقي التعسفي المترجم إلى اللغة العربية، وباقي الترجمات الأخرى، نصه: **{نَسَلِكَ أُعْطِي هَذِهِ الْأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرُ الْفَرَاتِ}.**

بَيِّنًا استحالة انطباق الوعد الثاني الاستشراقي على جغرافية الأرض الممتدة من النيل إلى الفرات، لعدة أسباب نعيد إيجازها:

مصر الحالية لم تُعرف بهذا الاسم في زمن الوعد، وأول ظهور لهذا الاسم كان عام (700) ق.م، حسب بعض النظريات، وفي عام (285) ق.م حسب نظرية "مانيتون"، وقد فصلنا ذلك عند الحديث عن نقش "سرجون الثاني". وينطبق نفس الحكم على نهر الفرات الذي لم يعرف بهذا الاسم. إذ جاء إسمه في النقوش البابلية التي يعود تاريخها إلى ألف عام بعد الرحلة الإبراهيمية، "النهر العظيم، وجاء في النص: **{كَانَ النَّهْرُ الْعَظِيمُ دَافِقًا وَعَرْضُهُ بَعْرَضِ الْبَحْرِ}.** واسمه كما في الكتابة المسمارية (UD.KIB.NUN) وحسب النقوش الآشورية/الآشورية له عدة أسماء منها: بورانون، بورتم، بورتي، بوارنم، حسب اختلاف نطق القبائل له. ثم أطلقت عليه القبائل الفحطانية إسم فروت، ليتحول منذ القرن الرابع ق.م إلى الفرات. أما القول بأن إسم الفرات جاء ضمن أشعار ملحمة جلجامش، المدونة بين (2500-2800) ق.م، فهذا نوع من التضليل المتعمد، والإسقاط التعسفي لطمس التاريخ الحقيقي للمنطقة. فنحن الأمة الوحيدة التي لم تكتب تاريخها بأيدي أبنائها، واعتمدت على ما قرره المستشرقون. وحتى تفرض أمة العرب نفسها على مسرح التاريخ من جديد، عليها كتابة تاريخها بنفسها، مهتديّة بما نطقت به النقوش والسرديات التي كتبها الأوائل منها. لأنه من المستحيل بأي شكل من الأشكال تصديق ما جاء في ملحمة جلجامش بخصوص الكثير من الأسماء، التي تجهلها النقوش المكتوبة بعدها بألف عام.

بالعودة إلى نصوص الوعد الخرافي، بنصيه الاستشراقي واللسان العبري الصنعاني، نجد استحالة انطباق الأول على جغرافية بلاد الرافدين وسوريا التاريخية ووادي النيل، في حين تنسجم الجغرافيا التوراتية مع الأرض اليمنية بشكل أذهل كل العاملين في صناعة التاريخ، والمشغلين بالبحث عن الآثار والشواهد الناطقة بلسان الأمم الماضية.

المدون التوراتي أسقط الميراث على الأرض فقط، ولم يأخذ من عادات القبائل المعاصرة لبني إسرائيل، المتعلقة بكيفية توزيع الميراث بين الأبناء. فقد فرقت تلك القبائل بين البركة الخاصة بميراث الابن البكر للكاهن المشرف على الطقوس الدينية في معابد الآلهة الوثنية، وبين الميراث الحقيقي. إذ كانت توزع تركة الأب كالتالي:

الابن البكر يرث الأموال الثابتة من بيوت وبساتين وسلاح، ويرث الزعامة، وسيادة القبيلة.

الابن الأصغر يرث المواشي والجمال والخدم رعاتها، والخيام. وإن كان للابن الأصغر أخوة، تقسم تلك التركة بينهم بالتساوي. بينما لم تجعل القبائل العربية للإناث نصيبا في ميراث الأب. وقد بقيت عادات القبائل في موضوع الميراث منتشرة كما دونتها النقوش اليمنية، حتى عهد قريب من بداية الإسلام.

مدون التوراة أخذ من عادة الميراث الديني، وتلك المتعلقة بالممتلكات ما يناسب التزوير، فحصر كل من الإرثين في شخص الابن البكر. فإن كان هو البكر ولادة كان به، وإلا يمكنه الحصول على البكرية بالخداع والاحتيال والكذب، كما صور ذلك في قصة بكرية يعقوب.

لو تأملنا حالتي إسماعيل وإسحاق حسب ما جاء في التوراة، وما تواتر من أخبار قبائل جزيرة العرب، سنجد إسماعيل يسكن بيتا بجوار الكعبة، تحيط به بيوت الأبناء والأحفاد، وبيوت من خضع لهم من القبائل العربية خاصة قبيلتي جرهم وعمليق، وسنجد زعيما دينيا يقود الحجيج السنوي المتدفق نحو مكة، رجالا وعلى كل ضامر من كل فج عميق. بينما نجد الخيام مساكن إسحاق وعشيرته، صنعتهم الوحيدة رعي الغنم والجمال، والترحال بحثا عن الماء والعشب ملازما لهما. فإذا حطوا رحالهم مجاورين القبائل الأخرى، فهم تحت رحمتها، فإن رضيت عنهم أقاموا، وإذا سخطت عليهم، هدوا خيامهم وارتحلوا.

كذلك إذا بحثنا فيما آل إليه مصير عيسو ويعقوب بعد موت إسحاق، سنجد عيسو مقيما في بيت تحف به بيوت الأبناء والأحفاد، غير بعيد عن منازل عم وصهر إسماعيل، ثم تندمج عشيرته مع الإسماعيليين مكونة أمة واحدة. وفي المقابل نجد يعقوب بدويا، الخيام منزله، مرتحلا بحثا عن الماء والعشب، تقبله قبيلة وتطرده أخرى، حتى هاجر إلى مصريم الجوف، ملتحقا بابنه يوسف الذي تبوأ مكانة مرموقة بين حاشية ملكها. وفي مصريم الجوف أيضا، بقي يعقوب ونسله رعاة أغنام، منازلهم الخيام بشهادة التوراة.

هكذا نجد أن إسماعيل بكر إبراهيم، نال حقه كاملا من ميراث أبيه، وتحقق فيه وعد السماء. لكن هل توقف تحقيق الوعد السماوي واقتصر على إسماعيل وحده؟ تشهد التوراة بنصوص متعددة واضحة، على تواجد الإسماعيليين أحفاد الجد الأعلى إبراهيم في معظم مناطق اليمن واغلب جزيرة العرب، في حين اقتصر تواجد القبيلة الإسرائيلية، المنحدرة من الفرع اليعقوبي الإسحافي في مناطق محددة من مملكتي "أوسان وقنبان"، إذ كانوا جزءا من النسيج الاجتماعي الذي ضم قبائل أخرى، كما تشير التوراة العبرية الصنعانية. وبظهور حفيد إبراهيم وإسماعيل، حامل لواء التوحيد في مكة، توحدت تحت رايته القبائل العربية الإسماعيلية، ودانت له كافة قبائل قحطان وبقية ثمود وعاد، انطلقت باسمه وتحت رايته لتضم اليمن بكل قبائله تحت اللواء المحمدي المتصل بالجد إبراهيم، ليبقى منذ ذلك الوقت عربي الوجه واللسان، في حين اختفى وجود الفرع اليعقوبي وتأثيره على الساحة اليمنية، ولم يبق منه إلا أقلية ينطبق عليها القول العربي: لا في العير ولا في النفير، وبقايا ذكريات تسجلها النقوش والسرديات اليمنية.

وبذلك تحقق الوعد بصيغته النهائية بظهور محمد عليه السلام، حفيد إسماعيل عليه السلام، بكر إبراهيم عليه السلام، أول مختون من أبناء السلالة المباركة، كعلامة على إبرام الميثاق بين الأرض والسماء بشهادة التوراة ذاتها.

علمنا من التوراة أن نص الميثاق المبرم بين الرب التوراتي وإبراهيم **{النسلك أعطى هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات}** 141، هو القاعدة التي بنى فوقها الاستشراق التعسفي أكنوبة حق القبيلة الإسرائيلية امتلاك الأرض الممتدة بين الفرات والنيل، وإخضاع سكانها واستعباد شعوبها، وبموجب ملحق أضافه الإبن إسحاق، تم حصر الميراث بالابن الأصغر يعقوب، نتيجة لخديعة تطرقنا إليها بالتفاصيل.

مدون التوراة يعلم أن الإرث الإبراهيمي لا يقصد به الخيمة التي كان يسكنها إبراهيم، ولا البعير الذي كان يركبه، ولا قطيع الماشية مصدر رزقه. بل هو امتلاك الأرض من باب هيمنة العقيدة التي سيحمل لواءها الوارث الحقيقي، على باقي الشرائع السماوية، والعقائد الوضعية. لذلك حاول شيطنته، وإلصاق كل نقيصة به. فركز على جوانب معينة، وتجاهل جوانب أخرى، أو لنقل غابت عن ذهنه ولم ينتبه لها. فمثلا تكررت في النسخ المترجمة للتوراة الجملة الفعلية: "أكثر نسلك"، "أضاعف نسلك"، "انمي نسلكم" خلال المناسبات اجتمع الرب أو ملاكه مع كل من إبراهيم، وسارة، وهاجر، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، ويوشع، وغيرهم من أنبياء التوراة. لكن النص العبري الصنعاني، تضمن جذرا واحدا بلهجة سبأ وحمير وهو "فارا" الذي يقابله بلهجة القبائل الأخرى؛ "وفير" و"اوفر". وعندما تم ترجمة التوراة إلى اللغة الإغريقية، استخدم المترجم جملة "إنسانا وحشيا" بشكل متعمد، مع أن النص العبري الصنعاني لا يوحي بأي شكل من الأشكال إلى ذلك المعنى، كما هو واضح من الحوار بين "هاجر" وملاك الرب في النص التوراتي: **{وَقَالَ لَهَا مَلَاكُ الرَّبِّ: هَا أَنْتِ حَبْلِي، فَتَلِدِينَ ابْنًا وَتَدْعِينَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ، لِأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَدْنَتِكَ. وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا، يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ، وَأَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُ}**، وتم ترجمة جملة: "يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ" 142، سيكون ضد كل الناس، وكل الناس ضده في بعض الترجمات، وعدوا لكل الناس، وكل الناس أعداء له.

وعلى نفس المنهاج، تم وصف عيسو بكر إسحاق بأنه **{إِنْسَانٌ بَرِّيَّةٌ}** كما أشرنا إليه في الجزء الأول.

نعود إلى نص الوعد على علاته كما جاء في التوراة، ونسأل: هل تحقق أم ما زال رهينة كجملة مدونة ومحبوسة في الكتاب المقدس، رغم مرور ما يزيد على 4 آلاف عام على صدوره، وتوثيقه بختن إسحاق ثم ابنه يعقوب، وتوالي مسلسل الختن مع كل يهودي حتى الآن؟ بمعنى أوضح: هل سيطر بنو إسرائيل الأرض بين الفرات والنيل، سواء كان ذلك بحد السيف، أو بالهيمنة المباشرة عن طريق فرض عقيدتهم على شعوبها العشرة الوارد ذكرها في النص التوراتي؟

141 سفر التكوين 15(18).

142 سفر التكوين 16(10-12).

بغض النظر عن حقيقة عدم تواجد القبيلة الإسرائيلية في تلك الأرض المذكورة في النص، وأن الأمر مجرد تزوير استشراقي، سنناقش الأمر وكأنه حقيقة، فما هي صورة ذلك التواجد كما رسمتها التوراة ذاتها؟

أمضى إسحاق كل أيام حياته بدويا متنقلا من مكان إلى آخر، تقبل جواره قبيلة، وتطرده عشيرة أخرى حتى وافته المنية. وبالتالي فإنه لم يرث حتى حبة رمل من الأرض التي وعده الرب بها. أما ابنه يعقوب، فكانت حالته أسوأ من حالة أبيه، فحسب التوراة فقد تم طرده وبنه 117 مرة من قبل القبائل صاحبة الأرض، وبلغ به الضعف حدا جعلت تلك القبائل لا تسمح له بجوارها إلا إذا اشترى قطعة الأرض التي ينصب خيمته فوقها، **{وَابْتَاعَ قِطْعَةَ الْحَقْلِ الَّتِي نَصَبَ فِيهَا خِيْمَتَهُ مِنْ يَدِ بَنِي حَمُورَ أَبِي شَكِيمَ بِمِئَةِ قَسِيْطَةٍ}**¹⁴³. أما أسوأ ما تعرض له، فتمثل في اغتصاب "شكيم" ابن زعيم المنطقة التي أقام فيها لابنته "دينة" وإذلالها، **{وَحَرَجَتْ دِينَةُ ابْنَةُ لَيْئَةَ الَّتِي وَلَدَتْهَا لِيَعْقُوبَ لِتَنْظُرَ بَنَاتِ الْأَرْضِ، فَرَأَاهَا شَكِيمُ ابْنُ حَمُورَ الْحَوِيِّ رَئِيسِ الْأَرْضِ، وَأَخَذَهَا وَأَضْطَجَعَ مَعَهَا وَأَذَلَّهَا}**¹⁴⁴. وعندما غضب أبناءه وهجموا على "شكيم" وقبيلته للنار منهم، كانت ردت فعل يعقوب: **{فَقَالَ يَعْقُوبُ لِشَمْعُونَ وَلَاوِي: كَدَّرْتُمَانِي بِتَكْرِيهِكُمَا إِيَّايَ عِنْدَ سَكَّانِ الْأَرْضِ الْكُنْعَانِيِّينَ وَالْفِرْزِيِّينَ، وَأَنَا نَفَرٌ قَلِيلٌ. فَيَجْتَمِعُونَ عَلَيَّ وَيَضْرِبُونَنِي، فَأَبِيدُ أَنَا وَبَيْتِي}**¹⁴⁵. وهكذا كانت حال يعقوب وعشيرته بقية أيامهم في أرض كنعان، وعندما ارتحلوا إلى مصر لم يسكنوا وسط المصريين، بل بعيدا عن تجمعاتهم. ولا يجهل أحد مدى استخفاف المصريين بهم، واستعبادهم وتقتيل ذكورهم. كما لا ينفك اليهود أنفسهم عن ذكر مهانة السبي البابلي. بمعنى مبسط، فقد كانت حياة القبيلة المقدسة مصبوغة بكل أنواع المهانة والذل والاحتقار، من قبل جميع الشعوب والقبائل التي جاورها طوال ألفي عام، من ضمنها مدة حكم "داوود وسليمان"، حتى انتهى بهم الأمر تحت الحكم الروماني الذي مارس ضدهم بسبب فسادهم، إلى ترتيبهم كمواطنين من أدنى درجة، وفرضوا عليهم جزية دفعها كل فرد، بما فيهم السيد المسيح عليه السلام.

في المقابل تشهد التوراة على وجود وسيادة الإسماعيليين على معظم أرجاء جزيرة العرب واليمن، وكانت كل قبائل العرب تسعى إلى كسب ودهم، كونهم سادة بيت العبادة المكي، ومن يشرف على الحج والحجيج. ولم تقتصر سيطرة الفرع الإسماعيلي على أجزاء من جزيرة العرب، إذ امتدت على أيدي أحفاد "نبيانوت" ابن إسماعيل إلى خارج الجزيرة، حيث شادوا مدينة البتراء جنوب الأردن، التي غدت عاصمة للإمبراطورية التي أقاموها، وفرضت هيمنتها

¹⁴³ سفر التكوين33(19).

¹⁴⁴ سفر التكوين34(1-2).

¹⁴⁵ سفر التكوين34(30).

بين الفرات والنيل، وتحكمت بكل طرق التجارة في المنطقة، وغدت البتراء حاضرة الدنيا، والند العنيد لروما وإمبراطوريتها.

وهكذا نجد النسل الإسماعيلي سيذا وزعيما أينما حل، حتى جرت عليه سنة الله الذي يداول الأيام بين الناس، فشملمتهم جاهلية تحكمت بمفاصل مجتمعاتهم، فارتدوا إلى بطاح مكة تاركين المسرح لأمم أخرى. لكن الأمر لم يطل كثيرا، إذ ظهر محمد حفيد إسماعيل وإبراهيم عليه السلام، فجمع شملهم، ووحد قواهم، وهذب أخلاقهم، لينطلقوا بعد أن اعترفت لهم بالسيادة بقية القبائل القحطانية، فاحضعوا الأرض محل الوعد السماوي بحد السيف، وهيمنة عقيدتهم بقوة حجتها على بقية عقائد وديانات شعوبها، ومنذ ذلك اليوم، وتلك الأرض عربية الهوية، يدين غالبية سكانها بعقيدة التوحيد التي انتقلت رايها من الجد الأعلى إبراهيم، مرورا بالأب الأعلى إسماعيل، لتنتهي مرفوعة بيمنى الحفيد محمد، عليهم وعلى كل أنبياء الله الصلاة والسلام.

وهكذا، نقول بكل يقين، لقد تحقق الوعد السماوي، الذي أعطى نسل إبراهيم من الإبن البكر، وراثة الأرض بين الفرات والنيل، بالامتلاك والعقيدة حرفيا، سواء تناولناه من التوراة العبرية الصنعانية:

{لنسلك أعطي هذه الأرض، من أور الكسديم، إلى مصريم الوادي الكبير}.

أو من التوراة التي تلاعب بها يد الاستشراق التعسفي:

{لنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات}.

هنا قد يطرح أحدهم السؤال التالي: وعد بهذا المعنى، وامتلاك أرض بحد السيف، وعقيدة فرضت نفسها بقوة حجتها، هل يوجد في التراث العربي الإسلامي ما يدعمه، ويثبت صحته؟ الجواب وبكل تأكيد: نعم، وهذا مدار حديثنا مستقبلاً، بإذن الله.

حقيقة تحقق وعد الإله لإبراهيم

يشعر كل من يقرأ سيرتي الجد إبراهيم، والحفيد محمد، عليهما السلام، بالدهشة من حجم الشبه بينهما. فكلاهما ولد يتيما لم ير أباه، وكل منهما عاش في كنف عمه*. والجد شب راعيا للأغنام، والحفيد مارس ذات المهنة. الأول تمعن في النجم والقمر والشمس باحثا عن الخالق كي يهتدي إليه، والثاني اعتزل الناس وأوى إلى الكهف متفكرا فيمن أبدع السماوات والأرض، متمنيا عليه الهداية. الجد رفع قواعد البيت العتيق، والحفيد ساهم في إعادة البناء. ذبيح الله ابن الأول، والوالد الثاني. إبراهيم أسكن مكة في قلبه، ومحمد أسكنته مكة في قلبها. الجد بدأ رحلته الدينية بتحطيم أصنام قومه، بينما ختم الحفيد حياته بنفس الفعل، وكلاهما خرج مهاجرا من مسقط رأسه بعد أن تنكر قومه له، ولدعوته. الأول عاد إلى مكة ليظهر للناس شريعة الحج، والثاني عاد مليبا على سنة الأول وهديه.

لا يختلف اثنان من العرب على أن نسب محمد عليه السلام، ينبع من صلب إبراهيم، وإذا كان إبراهيم وبكره إسماعيل صاحب دعاء: **{رَبَّنَا وَإِنْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}** ¹⁴⁶، فمحمد هو الدعوة المستجابة، إذ لم يظهر بين زمن الدعاء، ووقت الاستجابة، وعلى امتداد ما يزيد على 24 قرنا، رجل نادى من فوق جبل الصفا قائلا: أنا رسول الله، إلا محمد عليه السلام.

التوراة تعترف بنص صريح أن إبراهيم اسكن زوجه هاجر وطفلها الرضيع فوق ربوة في برية فاران، التي هي مكة، التي تفجر فيها الماء تلبية لاستغاثة الأم عندما أوشك طفلها الرضيع على الموت عطشا، وأن ملاك الرب كلمها وبشّرها بأن طفلها سيصبح أمة عظيمة. وفيها-التوراة- كذلك 71 نبوءة تشير بالتلميح إلى ظهور نبي من نسل إسماعيل في برية فاران، و11 نبوءة تشير إليه بالتصريح ذاكرة صفاته كاملة، و4 نبوءات تشير إليه بالتصريح المباشر ذاكرة إسمه ومكان ظهوره، وقد تحققت جميعا كما جاء في التوراة.

استجاب الله لدعاء إبراهيم عليه السلام، فخرج من نسله محمد عليه السلام، الذي كوّن أمة من نسل إسماعيل، دانت لها قبائل العرب، وخضعت لها ولعقيديتها شعوب. فبذلك تحقق الوعد حرفيا، وتمت نبوءة يعقوب عليه السلام التي أعلنها قبل موته بلحظات، كما في التوراة: **{لَا يَزُولُ قُصَيْبٌ مِنْ يَهُودًا وَمُسْتَرْعٌ مِنْ بَيْنِ رَجُلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَ شَيْلُونُ وَلَهُ يَكُونُ خُضُوعُ شُعُوبٍ}** ¹⁴⁷.

كان عالم اللاهوت وأستاذ العقيدة "ألبرت بارنز" أول من تناول نبوءة يعقوب هذه، وأثبت أنها رغم ما نالها من تزوير، تخص رجل بعينه هو محمد الذي ظهر بمكة.

¹⁴⁶ سورة البقرة الآية 129.

¹⁴⁷ سفر التكوين 49(10).

من بدهيات اللغة العربية، إذا ذكر اللفظ أب متبوعا باسم علم، فالاسم المذكور لا يعني الأب الوالد، بل قريب: جد أو عم يقوم مقام الأب. فإذا قلت على سبيل المثال، لشخص يدعى احمد: قل لأبيك أني سازوره، فأنا أعني هنا والده المباشر. أما إذا قلت له: قل لأبيك حسن أنني سازوره، فأنا أعني حسن الذي يقوم مقام أبيه. فقله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ اتَّخَذُ أَسْمَاءًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾¹⁴⁸، فأزر هنا ليس الأب الحقيقي، إنما عم يقوم مقام الأب، يبرهن على ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾¹⁴⁹، فقد جعل الجد إبراهيم والعم إسماعيل بمنزلة الأب إسحاق. أما إذا ذكر اللفظ والد، فهو يعني الأب الحقيقي الذي هم من صلبه. لذلك فإن إبراهيم ولد يتيما رباه وكفله عمه الذي يقوم مقام أبيه.

في نهاية القرن الحادي عشر، وبالتحديد عام 1088، عثر أحد المسيحيين من سكان مدينة قونية، وسط الأناضول الجنوبي، على نسخة للتوراة، تحوي الأسفار الخمسة الأولى، أو ما يعرف بأسفار موسى، محفوظة في صندوق خشبي داخل بيت تاجر يهودي، كان مدينا له ببعض المال ذهب كي يدفعه له، فوجده ميتا. فأخذ لفائف التوراة واحتفظ بها عدة سنوات، ثم أعطاها إلى أحد القائمين على الكنيسة الصغيرة التي على أنقاضها بنيت كنيسة "آيا ألنا" الحالية. لكن رجل الدين لم يعرفوا اللفائف أي اهتمام، لأن الأخبار الواردة من أوروبا عن الحشود التي تتجهز لغزو الشرق تحت راية الصليب كان مصدر قلق، فباعها لتاجر يهودي، أعطاها بدوره للمعبد اليهودي في مدينة "درسدن" عاصمة ولاية سكسونيا الألمانية، وبعد عدة سنوات اختفت اللفائف بطريقة غامضة، لتظهر مجددا في جمعية الكتاب المقدس البريطانية. في القاعة الرئيسية داخل الجمعية، توجد رفوف الكتب الأثرية، وهناك مكان فارغ ضمن الخزانة الرابعة، يحتوي على ورقة مكتوب عليها: لفائف الكتاب المقدس/ سكسونيا. لا يمكن لأحد الاطلاع على تلك اللفائف، والرد الوحيد الذي يسمعه كل من يسأل عنها: اللفائف أرسلت إلى المختبر كي يتم معالجة التلف الذي طال جزء منها. وكان آخر من اطلع عليها، عالم اللاهوت وأستاذ العقيدة، "ألبرت بارنز **Albert Barnes**"، الذي تحدث عنها مطولا خلال محاضراته وعظاته، ثم ألف عنها كراسة بعنوان إسماعيل ضحية التوراة، بقي يتداولها طلاب اللاهوت حتى عام 1868، ثم ضمنها في كتابه "Notes on the Old and New Testaments" وفي عام 1870 مات "ألبرت بارنز" بطريقة غامضة، وسحب كتابه من الأسواق، ليعاد طبعه بعد حذف الفصل الرابع، الذي يتحدث عن إسماعيل ضحية التوراة¹⁵⁰.

¹⁴⁸ سورة الأنعام الآية 74.

¹⁴⁹ سورة البقرة الآية 133.

¹⁵⁰ الشرح من محاضرة مكتوبة للدكتور "بارت إيرمان" في جامعة غلاسكو أثناء زيارته إلى معهد الدراسات اللاهوتية فيها

على هامش الوعد

نحن، وبكل أسى، الأمة الوحيدة التي لم تكثف بقبول السرد التاريخي الذي كتبه المستشرقون لها، فزوروا، وبدلوا، وحذفوا، وأضافوا كما خططوا خدمة لأسطورة توراتية، بل ساهمنا سواء عند قصد وسبق إصرار، أو عن عدم قصد، بتزوير تاريخنا ونشر ما زورنا مفتخرين به. وبينما تسعى الأمم من حولنا إلى فرض نفسها عن طريق إعادة إحياء أمجادها الغابرة، نقوم نحن بهدم ما تبقى لنا من إرث، خدمة لكل طامع وعدو.

في صدر الإسلام، دس الشعوبيون آلاف الروايات التاريخية والدينية في موروث الأمة، تلقفها المئات من الرواة العرب، ونشروها في الأفاق، حتى أصبحت جزءا من تاريخنا، إضافة إلى ما أدخلوه من الروايات الإسرائيلية، التي أعاد بعض مفسرو القرآن تضمينها كتبهم، مما فتح ثغرة قاتلة في تاريخ الأمة، تسلسل منها التزوير الاستشراقي، إذ لا يوجد ما يفنده في الموروث العربي الإسلامي.

أدى انتشار ذلك الكم الهائل من الروايات المدسوسة، والمأخوذة من التراث التوراتي إلى مسخ الصورة الزاهية للإسلام أمة وعقيدة، مما دفع عشرات العلماء إلى التفرغ لدراستها سندا ومتنا، وفرز الخبيث من الطيب، وهو العلم الذي عرف فيما بعد بعلم الجرح والتعديل. ومع الزمن أصبح ذلك العلم أحد العلوم الشرعية الضرورية لحماية الموروث، واشتغل به مئات العلماء والمختصين، الذين درسوا كل رواية من ناحية المتن والسند، فظهر على إثر ذلك مصطلحات: رواية صحيحة متواترة، صحيحة، حسنة، حسنة لغيرها، ضعيفة، منكرة، موضوعة... إلخ.

ما قام به رجال الجرح والتعديل على أهميته، بقي ناقصا. فبعد تصنيف الروايات، كان فرز كل ضعيف وموضوع أمر غاية في الأهمية، لأن القارئ الغير متخصص لا يستطيع التفريق بينها، إلا إذا قرأ عشرات الكتب التي وضعها رجال الجرح والتعديل، وهذا أمر شاق.

في العصر الحديث قام العلامة "**محمد بن طاهر البرزنجي**" بتحقيق وتخريج كل روايات تاريخ الطبري، فجمع الروايات الصحيحة في مجلدات منفصلة، وخصص مجلدات أخرى للروايات الضعيفة والموضوعة، ووضع قائمة بأسماء الرواة الضعفاء والمدلسين. وأشرف على ذلك علامة ومحقق آخر هو "**محمد صبحي حسن الحلاق**". بكل المقاييس، فإن ما قام به العلامتان يعد الأبرز في العصر الحديث، وكان الأولى بالأزهر وباقي المؤسسات الدينية أن تحذو حذوهما، وتعيد كتابة الصحاح والسنن والمساند وكتب التاريخ، بعد أن تميّز الموضوعات عن الصحيحة. لكن الذي حدث أن تلك المؤسسات تقاعست سواء تقصيرا منها، أو رضوخا لسلطة أعلى، الأمر الذي ترك تلك الثغرة التي تسلسل منها كل حاقد، ومغرض، وكاره، ومعاد للعرب كأمة، وحملة رسالة سماوية، وهذا ما نعاني منه ويعرفه كل فرد منا.

الأغرب من تقاعس تلك المؤسسات، هو غضها الطرف عن ذلك الكم من الغثيان الذي دسه في موروث الأمة وتاريخها أبناء الأمة أنفسهم، إذ لم تتصدى وتوقف "سلامة موسى" عند حده، إذ دعى إلى نبذ العربية الفصحى، وإحياء العامية المصرية، لأن العربية حسب قوله شاخت ولم تعد تصلح كلغة عصرية. في الحقيقة فإن فخر العرب والعربية، وعملق الأدب مصطفى صادق

الرافعي تصدي لسلامة موسى ووصفه بعدو الإسلام، لكن ذلك لا يكفي لوقف الرجل الذي ألف عدة كتب تعتبر سما زعافا وضع على مائدة التراث. كذلك وقف الأزهر عاجزا أمام "جورجي زيدان" الذي شوه وجه التاريخ العربي الإسلامي بسلسلة الروايات التي بثها في الموروث. والمصيبة أن معظم أعمال جورجي زيدان تحولت إلى مسلسلات وأفلام تسابقت وسائل الإعلام العربية على نشرها على مستوى الوطن العربي كله.

المؤسسات الدينية وعلى رأسها الأزهر ارتكبت معصية، بل كبيرة بتركها طه حسين وعباس محمود العقاد يخوضان في التاريخ، فكانت كتاباتها في ذلك الحقل خنجرا مسموما غرس في ظهر الموروث.

الأمر بكل تأكيد يندرج تحت بند المؤامرة على الأمة وتاريخها وعقيدتها، يساهم النظام الرسمي العربي به، ليس بالسكوت فحسب، بل التمويل والنشر.

سأعطي مثالا للبرهنة على ذلك، فمسلسل عمر بن عبد العزيز مؤله التلفزيون المصري الرسمي، وأشرف على مراجعة مادته التاريخية الدكتور أحمد شلبي الذي يعد مؤرخا ومفكرا متخصصا في التاريخ والحضارة الإسلامية. لا أريد الحديث عن عشرات الأخطاء الدينية التي تضمنها، لأننا في حضرة التاريخ. في إحدى حلقات المسلسل، يقول الحجاج لابن أخيه منتفخا: **{أنا أعلم بكل يحصل في دمشق وبغداد لحظة وقوعه وأنا في مجلسي هذا في الكوفة}**.

فهل حقا دقق الدكتور أحمد شلبي مادة المسلسل التاريخية؟ إذ كيف يجهل أن بغداد بناها المنصور عام 145 هجري، والحجاج مات عام 95 هجري؟

إذا كان تاريخ الأمة يزور ويدس فيه في ظل ثورة المعلومات والنشر بتلك الطريقة الخبيثة، فما بالك بما حصل في عصور اقتصرت فيه الكتابة على بضع مئات من البشر؟

نسأل الآن، كيف غاب عن المفسرين والمؤرخين العرب الذين نقلوا لنا عشرات الروايات من منظور توراتي، والتي تشير إلى أن فلسطين كانت حاضنة التاريخ والوجود الإسرائيلي اليهودي، في ظل وجود عشرات الشواهد التي تبطل ذلك؟

القبائل اليهودية التي هاجرت إلى المدينة قدمت من اليمن وليس من فلسطين، وكلها على الإطلاق عربية النسب، تهودت في عصر دولة حمير الجنوبية، والتي عرفت أيضا بالدولة اليهودية، كما بينا من قبل.

ما ذكره ابن حجر أن نسب بني قينقاع يعود إلى يوسف عليه السلام، وقول ابن الأثير أن نسب قريظة إسرائيلي لا يقوم على دليل، في حين بين السهيلي أن نسبهم ينتهي عن عمر بن هدل. فلماذا فضلت تلك القبائل يثرب على فلسطين؟ ولو كانت تملك أثارة من علم عن ذلك الوعد الخرافي لما استوطنتها.

نحن نعلم من القرآن أن اليهود كانوا يستفتحون على القبائل العربية بالنبي الخاتم، الذي ستكون يثرب مقره، ويتوعدون العرب بقتلهم مقتلة عاد وثمود عندما يظهر كونهم (اليهود) أول من

سيؤمن به، كما في الآية: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾¹⁵¹.

التوراة تذكر في عشرات الفقرات ظهور ذلك النبي الذي سيعيد دعوة إبراهيم من جديد، وirthه، وهذا سبب هجرة تلك القبائل اليهودية إلى يثرب. ولو سلمنا بقولهم إنهم ورثة إبراهيم، فرفضهم دعوة النبي الوارث، أخرجهم من الإرث، وحرّم عليهم، كما حرمت الأرض المقدسة، وقد بينا ذلك.

وعندما وقف اليهود في وجه الدعوة الإسلامية، وتحالفوا مع مشركي مكة، مما أدى إلى إخراجهم من يثرب، كانت فلسطين وجهتهم الأولى، ثم انطلق معظمهم إلى الأناضول ومنها إلى أوروبا. لماذا تركوا فلسطين إذا كانت هي أرض عودتهم؟

وفي الروايات الصحيحة، عربية إسلامية كانت أم مسيحية، نجد أن البطريرك "صفرون يوس" رأس المسيحيين في القدس، اشترط على عمر بن الخطاب عدم السماح لليهود بالبقاء في القدس كي يتم تسليمه المدينة، وقبل عمر ذلك، وتم وضعه ضمن نصوص العهدة التي تحمل اسمه. لو كان لدى البطريرك علم من التوراة بأن فلسطين أرض ميعادهم لما اشترط ذلك، لأن التوراة تعد الأصل الذي قامت عليه المسيحية، لذلك قدموها على أنجيلهم.

أخيراً، إن إطلاق مصطلح "الفتوحات الإسلامية" فيما يخص العراق وسوريا ومصر خطأ فاحش. المؤرخون يقرّون بأن تلك البلدان شهدت هجرات متتالية للقبائل العربية من اليمن والجزيرة العربية، بدأت منذ القرن (60) ق.م، فاستوطنتها وصبغتتها بصبغتها، رغم خضوعها لحكم شعوب أخرى. الباحث في تاريخ الخلافة الأولى، لا يجد أن الصديق أبا بكر أصدر أمراً بصفته القائد الأعلى لخالد بن الوليد أو أياً من قادة جنده بالاندفاع نحو العراق بعد الفراغ من قتال مانعي الزكاة. الذي حصل أن خالد بن الوليد وجد الحاميات الفارسية التي تستعمر العراق تفر من مواقعها بعد هزيمة حلفاءها من القبائل العربية، فاندفع خلفها ليؤمن حدود الجزيرة العربية، وكل ذلك بتدبير إلهي لا يد للخليفة به. وعندما شاع خبر انهزام مانعي الزكاة، وفرار الحاميات الفارسية، أعلنت القبائل العربية في شمال الجزيرة على حدود بلاد الشام التزامها والمعاهدات التي وقعتها مع النبي عليه السلام بعد حملة تبوك، فشرع هرقل بالخطر الذي يهدد الإمبراطورية الرومانية التي كانت تستعمر بلاد الشام ومصر، فأمر بتجهيز الجيش كي يؤمن حدود إمبراطوريته، الأمر الذي استدعى إعلان حالة النفير في عاصمة الخلافة، وتجهيز الكتائب العربية للتصدي للروم. وخلال أقل من بضع سنين، انهارت إمبراطوريتين، وتلاقت القبائل القحطانية التي استوطنت الأرض بين الفرات والنيل، بشقيقاتها، فتم تحرير الأرض والإنسان من استعمار فارس وروما، واستلم الإرث أصحابه. ورغم ما تعرضت له الأرض العربية منذ

¹⁵¹ سورة البقرة الآية 89.

فجر التاريخ، مرورا بعشرات الحملات كالمغولية، والصليبية الأوروبية، وتحكم الفرس،
والترك، والسلاجقة، والمماليك، والأكراد، والبويهيين الفرس، والفرنسيين والإنجليز، إلا أنها
بقيت عربية الوجه واليد واللسان، وربطت غالبيتها بين الجد إبراهيم عليه السلام والحفيد الوارث
محمد عليه السلام في صلاتها بين يدي خالقها.

الجزء الثامن
أسطورة التواجد بنو إسرائيل في مصر
الحالية

مصر والخرافة الفرعونية

يعجز الباحث في العثور على تأكيد واضح، يحدد متى تم توحيد مصر العليا (الصعيد) ومصر السفلى (الدلتا) رغم وجود آلاف المخطوطات والنقوش.

لكن الرأي الغالب بين العلماء أن ذلك حدث بين الأعوام (3200-3500) ق.م. كذلك لا يوجد ما يؤكد إسم الملك النوبي الذي وحد شطريها، وبالرغم من أن الرأي السائد بين المؤرخين أنه الملك "نارمر مينا". لكن هناك من يدعي أن الملك "العقرب" هو موحد مصر، وقلة تقول إن الملك "العقرب هو نفسه الملك نارمر مينا". لكن الملاحظ أن هناك شبه إجماع بين العلماء والمؤرخين على أمرين هما:

الأول: وجود حضارة سبقت توحيد مصر وعصر بناء الأهرامات بحوالي ألف عام، أقامها شعب اندفع من الشرق عبر سيناء، واستوطن معظم أراضي مجرى النيل بين أسبوط وساحل المتوسط. ودليلهم أن الاكتشافات التي توصلت إليها البعثات الأثرية في القرن الماضي وأشهرها :

موقع بني سلامة في الدلتا، وترجع إلى عام (4500) ق.م.

حضارة الفيوم، وترجع إلى عام 4400 ق.م .

حضارة البداري في الصعيد، وترجع إلى عام 4400 ق.م.

حاضرة ناسا في الصعيد وترجع إلى عام 4200 ق.م .

حضارة نقادة في الصعيد، وترجع إلى عام 3600 ق.م.

الثاني: التطابق شبه التام بين حضارات مصر ما قبل عصر الأسر، ونتائج الحفريات في مناطق عديدة في بلاد الشام وأخرى في العراق. وهذا يؤكد ما ذهب إليه الكثير من المؤرخين من أن بلاد العرب كانت تشمل الجزيرة العربية، والعراق والشام ومصر، وقرطاجة وما بعدها وصولاً إلى مستعمرة أنفا على ساحل الأطلسي. وأن تأثيرهم الحضاري من لغة وديانات، أثر على سكان تركيا الحالية، وأرمينيا، واليونان وبلاد فارس، والحبشة. وتركت لغتهم بصماتها على لغات تلك البلاد. وقد ذهب بعض المؤرخون تحت تأثير تشابه حفريات أرمينيا، مع حفريات بلاد الشام والعراق، إلى القول: أن أرمينيا هي موطن الشعوب السامية وليست جزيرة العرب. واستندوا في ذلك إلى ما جاء في التوراة، من أن سفينة نوح رست بعد الطوفان فوق جبل "أرارات". ثم اختلفوا في مكانه، فقال بعضهم إنه في تركيا، بينما قال آخرون أنه في أرمينيا .

لكن حقيقة الأمر، أن ناسخ التوراة وضع قصة الطوفان بذلك السرد لأهداف دينية وسياسية، للوصول إلى تزوير متعمد لأصل القبائل العربية التي أطلق عليها أسماء خرافية، كالكنعانية والآرامية والأمورية، وباقي أسماء التزوير التوراتي، لنزع صبغتها السامية (حسب التصنيف التوراتي)، وطمس حقوقها التاريخية في المنطقة لمصلحة الجنس الإسرائيلي .

فالطوفان لم يشمل إطلاقاً أية منطقة في العالم القديم، باستثناء البقعة التي عاش فوقها نوح عليه السلام وقومه، وأغلب الظن أنها منطقة الربع الخالي من جزيرة العرب، أما باقي الشعوب فلم تكن لهم أية علاقة بنوح، ولم تسمع بطوفانه إلا بعد حدوثه.

ويلاحظ المختص وحتى المهتم بالتاريخ؛ أن معظم المستشرقين أطلقوا على من يجلس على عرش مصر لقب (فرعون) لأنهم اعتمدوا على التوراة كمصدر وحيد موثق.

فناسخ التوراة أول اختراع ذلك اللقب بدءاً من سفر التكوين 12(14-19)، في معرض سرد رحلة (أبرام الأرامي وزوجه ساري) إلى مصر. وتصر التوراة على إطلاق لقب على كل من جلس على عرش مصر منذ ما قبل التاريخ حتى ما بعد عصر السبي البابلي. أما أهل التاريخ فقد اعتبروا (نخت أنبو الثاني) الذي حكم بين الأعوام (360-342) ق.م، أو (نكتنبو) كما يطلق عليه مؤرخو الإغريق، آخر فراعنة مصر. ثم بدأ الاحتلال الفارسي (341-332) ق.م، قتلاه الاحتلال المقدوني

(30-332) ق.م، وأخيراً الاحتلال الروماني (30-641) ق.م، لتحرر مصر بعده على أيدى أبناء القبائل العربية التي اندفعت تحت راية الإسلام، في آخر هجراتها المنظمة كما وصفها بعض المستشرقين والمؤرخين .

ويلاحظ الباحث إصرار التوراة ومن أخذ عنها من المؤرخين، على أن فراعنة مصر كلهم من جنس مصري، إلا أن بعضهم ذكر فراعنة من أصل ليبي ونوبي، فيما حرص المؤرخون الذين جاؤوا بعد التحرير العربي عام 641 م، والمستشرقون على جعل مصطلح فرعون يعني حاكماً وشعباً، فظهر ما يعرف باسم مصر الفرعونية، والشعب الفرعوني، والحضارة الفرعونية. ويعود سبب إطلاق تلك المسميات التي لاقت قبولاً ودعماً من الكنيسة المصرية، لسلخ مصر عن أصلها، ومحيطها العربيين، والادعاء أن حملة الإسلام مجرد محتلين جدد، فرضوا على المصريين دينهم ولغتهم، بعد أن كانوا أقباط على عقيدة مسيحية.

لم يظهر مصطلح مصر الفرعونية بشكله الحالي المنتشر إلا بعد حملة نابليون، فتبين بعض المستشرقين، ثم تلقفه خريجو الجامعات الفرنسية من المصريين. لكن الموضوع لا أساس له ولا سند إلا التزوير التوراتي لتاريخ مصر والمنطقة العربية. فلا وجود لكلمة فرعون في كل النقوش والمسلات والبرديات وجران المعابد والمقابر والكهوف المصرية البتة. فمصر حُكمت من قبل أسر ملكية، ولم يحمل أياً من ملوكها إسم أو لقب فرعون. وللخروج من هذا المأزق، اختراع الاستشراق تفسيراً لكلمة فرعون. فعلماء المصريات الغربيون اعتقدوا أن لقب (برعو) في اللغة المصرية القديمة تعني المنزل الكبير أو البيت الكبير أو ما يعني الباب العالي، وذلك عند محاولتهم تفسير جملة (بر- عا)، التي ظهرت في عهد الأسرتين الثامنة عشر والتاسعة عشر. وحسب دائرة المعارف البريطانية: لا يوجد أي دليل في النقوش التي تحمل أسماء الملوك يشير إلى ذلك اللقب (بر- عا)، وأن العلماء الغربيين حاولوا للتوفيق بين الآثار والتاريخ وبين ما ورد في التوراة، إذ أشارت التوراة في سفر التكوين والخروج لملوك مصر بلقب فرعون. إلا أن التوراة لم تفرق في ذلك اللقب بين الملوك الثلاثة الذين حكموا مصر وعاصروا إبراهيم ويوسف وموسى، بل عممت التسمية أو اللقب على كل من حكم مصر، وفي هذا نظر، حيث لم يظهر اللقب كلقب

ثانوي للملوك إلا في عهد الأسرة الثامنة عشر، ومن ثم يصعب تصور أن يلقب مُلك مصر بهذا اللقب في عهد إبراهيم أي ما يسبق ظهور تركيب (بر- عا) بما يزيد عن أربعة أو خمسة قرون كاملة، هذا في حال افتراضنا صحة الربط بين لقب فرعون وبين (بر- عا).

من حقنا كأمة تريد إعادة كتابة تاريخها أن تجعل القرآن مصدرا لبعض الأحداث التاريخية. فالقرآن لم يستخدم كلمة فرعون عندما تحدث عن يوسف عليه السلام، بينما نجدها عندما أخبرنا عن موسى عليه السلام. وهذا دليل على الفرق بين لقب ملك مصر عند كل حدث، على اعتبار أن مصر الحالية هي جغرافية الحديثين. والأمر الذي يقف أمامه المؤرخون والمستشرقون وعلماء المصريين عاجزين عن تفسيره، أنه لا توجد كلمة واحدة على أي نقش أو مسلة أو معبد أو بردية، تشير إلى أي حدث من أحداث التوراة التاريخية. إذا عن أي مصر يتحدث القرآن؟

الروايات التوراتية التي أيدها النص القرآني شملت أحداثا تاريخيا شملت بيع يوسف عليه السلام الذي تربى في بيت ملك مصر، لينتهي أمره عزيزا لمصر، أي الرجل الثاني بعد ملكها. كما شملت هجرة القبيلة الإسرائيلية إلى مصر، حيث عاشوا منعمين رهذا من الزمن، ثم دارت الأيام لينتهي بهم المطاف مستعبدين تقتل النساء ويستعبد الرجال، حتى ظهر فيهم موسى عليه السلام الذي قاد رحلة خروجهم إلى أرض كنعان حسب السرد التوراتي، أما القرآن فلم يذكر إسم المنطقة التي حطت القبيلة الإسرائيلية رحالها فوقها. وما بين رحلة يوسف عليه السلام الأولى كعبد مسترق، إلى رحيل كامل القبيلة، حدث أمور عظام، ومعجزات وخوارق بدأت بإعتلاء يوسف أهم منصب بعد الملك، وبسنوات سبع خيرها وفير، تلتها سبع قحط ومجاعة ضربت مصر وما جاورها من بقاع. ثم معجزات موسى عليه السلام التسع التي شملت كامل أرض مصر؛ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم واليد والعصى ونقص الثمرات والسنين. ثم تلي ذلك مشهد تحدي السحرة الذين زاد عددهم حسب مفسري التوراة على عدة آلاف، لتنتهي المعجزات بخروج القبيلة الإسرائيلية من مصر بعد شق البحر وغرق فرعون وقومه وجنوده .

كل تلك الأحداث لا نجد لها أثرا أو ذكرا ولو بعبارة واحدة في أي أثر من نقوش مصر التي تزيد على عشرة آلاف أثر، سواء الموجودة في مصر، أو متاحف أوروبا وأمريكا .

لذلك فإن المنطق والواجب يستدعي أن يقوم المختصون من علماء التاريخ والآثار، العاملين في متاحف المصرية ودائرة الآثار، بتشكيل لجنة لإعادة كتابة تاريخ مصر، بعيدا عن التلقيق الإستشراقي، والتزوير التوراتي، وإلا سيبقى المصري العربي يفخر بنسب فرعوني لا وجود له إلا في مخيلة مدون التوراة، وستبقى مصر رهينة التوراة، وإحدى مناطق الطمع الصهيوني.

خرافة عزيز مصر الحالية

ربما يظن البعض، أننا نطعن بالنص القرآني عندما ننفي وجود منصب العزيز الذي جاء ذكره مقرونا بقصة يوسف عليه السلام، وهذا تجني وظلم، لأن غالبية الناس، خاصة المصريين، تعتقد أن مصر المذكورة في القرآن، هي مصر الحالية، بدون وجود سند كنص قرآني، أو حديث صحيح صريح لإثبات ذلك.

سنأخذ الرواية التوراتية أولاً، ثم نحللها أولاً. ثم نسقطها على جغرافية الحدث، لنرى مدى انسجامها مع جغرافية مصر وفلسطين الحاليين.

حدثنا سفر التكوين: {وَجَاءَ يَعْقُوبُ إِلَى إِسْحَاقَ أَبِيهِ إِلَى مَمْرَا، قَرْيَةَ أَرْبَعِ، الَّتِي هِيَ حَبْرُونَ، حَيْثُ تَعَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْحَاقُ. وَكَانَتْ أَيَّامُ إِسْحَاقَ مِئَةً وَثَمَانِينَ سَنَةً. فَاسْتَمَّ إِسْحَاقُ رُوحَهُ وَمَاتَ وَأَنْصَمَ إِلَى قَوْمِهِ، شَيْخًا وَشَبَعَانِ أَيَّامًا. وَدَفَنَهُ عَيْسُو وَيَعْقُوبُ ابْنَاهُ} 152، عن يعقوب الذي استقر به المقام في قرية "حبرون/ الخليل الحالية"، حيث جاور أباه إسحاق المقيم فيها. وبعد موت إسحاق، قام يعقوب وعيسو بدفنه، ثم ارتحل الأخير ليسكن في منطقة سعير، وبقي يعقوب مقيماً في "حبرون". وكعادة أصحاب الماشية، يخرج أبناء يعقوب لرعي أغنامهم كل صباح في المراعي المجاورة. وفجأة نرى أبناء يعقوب مع أغنامهم قرب "شكيم"، نابلس، 37(12): {وَمَضَى إِخْوَتُهُ لِيُرِعُوا غَنَمَ أَبِيهِمْ عِنْدَ شَكِيمَ}، فأرسل يعقوب ابنه يوسف لينظر سلامة إخوته، فلقق بهم في منطقة "دوثان" قرب جنين الحالية. وبما أن الإخوة بيتوا الخلاص من يوسف، القوة في بئر قريية، ثم اتفقوا على بيعة لقافلة للإسماعيليين مرت من هناك متجهة إلى مصر، لكن مجموعة تجار من المديانيين تصادف وجودها، اخرجوا يوسف وباعوه هم للإسماعيليين، الذين اخذوا يوسف معهم إلى مصر 37(31-25): {وَنظَرُوا وَإِذَا قَافِلَةٌ إِسْمَاعِيلِيْنَ مُقْبِلَةٌ..... لِيُنْزِلُوا بِهَا إِلَى مِصْرَ..... تَعَالَوْا فَنَبِّعْهُ لِلْإِسْمَاعِيلِيِّينَ..... وَاجْتَاَزَ رِجَالٌ مَدْيَانِيُونَ نَجَارًا، فَسَحَبُوا يُوسُفَ وَأَصْعَدُوهُ مِنَ الْبَيْرِ، وَبَاعُوا يُوسُفَ لِلْإِسْمَاعِيلِيِّينَ بِعِشْرِينَ مِنَ الْفِضَّةِ. فَأَتَوْا بِيُوسُفَ إِلَى مِصْرَ}. لكن مدون التوراة نسي من أخذ يوسف إلى مصر، لذلك عاد ليخبرنا أن من باعه هم المديانيون، 37(36): {وَأَمَّا الْمَدْيَانِيُّونَ فَبَاعُوهُ فِي مِصْرَ لِفُوطِيفَارَ خَصِيِّ فِرْعَوْنَ}.

هذا التخبط في السرد التوراتي، جعل المهتمون في حيرة من أمرهم، لدرجة أن أحد كبارهم "زائيف هرتزوج" قال: "هذه معضلة لا حل لها إلا بقيام كاتب التوراة من قبره. أما عالم اللاهوت "فريدريك ديليتش"، فقد اعتبر السرد التوراتي مجرد هلوسات مستمدة من أساطير الأشويين، بينما قال المؤرخ "إدوارد ميير": "إن المكتشفات الأثرية جعلت كل ما نعرفه عن الشرق بواسطة العهد القديم واليونان، موضع شك، بل تم تدميره.

من يعرف جغرافية فلسطين تنتابه الدهشة عند تتبع رحلة أبناء يعقوب بحثاً عن مرعى لأغنامهم. فقد خرجوا في الصباح من حبرون/الخليل، لنجدهم عند الظهيرة في شكيم/نابلس، ثم اتجهوا

152 سفر التكوين 35(29-27).

شمالا نحو دوثان/قرب جنين، ومع مغيب الشمس عادوا مع أغنامهم إلى حبرون. تلك رحلة يستحيل أن يقطعوها مع أغنامهم في يوم وأحد، بل إلى عدة أيام. وبما أن مدون التوراة يجهل جغرافية فلسطين، فقد ذكر أسماء الأماكن كما وجدها في النص التوراتي الصنعاني، واسقطها على جغرافيتها ليوحي للقارئ بما يريد هو إثباته.

حسب النص التوراتي فإن الميدانيين هم أبناء "مديان بن إبراهيم" من زوجة الكنعانية، ومساكنهم قرب أريحا. وبالتالي فإن الروابط بينهم وبين أبناء عمهم يعقوب متينة، فكيف لم يعرفوا يوسف بعد أن أخرجوه من البئر، وهم جميعا من الجيل الأول؟ العجيب أن التوراة أعطتنا عمر يوسف عندما لحق بإخوته، وحصل معه ما حصل من إلقاء في البئر، وإخراج المديانيين له، ثم بيعه في مصر، 37(2) {يُوسُفُ إِذْ كَانَ ابْنُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، كَانَ يِرْعَى مَعَ إِخْوَتِهِ الْغَنَمَ}. فهل يعجز شاب في ذلك العمر عن التعريف بنفسه؟

كذلك فإن التوراة تطلق اسم الإسماعيليين على أبناء وأحفاد إسماعيل شقيق إسحاق وعم يعقوب، فكيف غاب عن ذهن مدون التوراة، علاقة قري من الدرجة الأولى، الأمر الذي جعله يتهم أبناء إسماعيل باسترقاق ابن عمهم، ثم بيعه لرجل مصري؟

نمضي مع التوراة لنجد في سفر التكوين 40(15) على لسان يوسف: {لَأَيَّ قَدْ سُرُفْتُ مِنْ أَرْضِ الْغُبْرَانِيِّينَ}. وهذا لقب تجهله فلسطين، ولا تعرفه السرديات الأشورية أو المصرية المجاورة لها. ثم في زمن الحدث، كان تعداد العائلة الإسرائيلية لا يتجاوز 30 شخصا من رعاة الغنم، تطاردهم القبائل الفلسطينية وتمنعهم من العيش في مناطقها، كما في التوراة، فهل يطلق لقبهم على بلاد يرفض شعبها تواجدهم؟

تتفق التوراة من القرآن فيما يتعلق بقصة يوسف أثناء تواجده في مصر (لكن أي مصر؟) بخصوص رؤيا ملكها، وتفسير يوسف لها، وسنوات الخير والنماء السبع، ومثيالاتها العجاف، والقحط الذي أصاب المناطق المجاورة، وتقاطع قوافلها لابتياج الحنطة من منها. وصعود نجم يوسف في بلاط الملك الذي رفع منزلته إلى منصب العزيز. والتطابق شبه تام فيما يخص هجرة يعقوب وذريته للحقوق بيوسف الذي أصبح المشرف على غلات مصر.

المتحف المصري على حاله، ومدونات وادي النيل المنقوشة على المسلات، وجدران المعابد، وحجارة القبور، ولفائف ورق البردي، تقف شامخة أمام محكمة التاريخ، معلننة جهلها التام بكل ما يتعلق بيوسف وحكايته. فمصر الحالية تجهل منصب العزيز، ولم تصب بسنوات قحط دامت سنوات سبع، سبقتها سبع خيرات، ولا تعرف تقاطر قوافل الشعوب المحيطة بها. وكل تاريخها المدون منذ حضارة سفارة الأولى نحو 4800 ق.م حتى الغزو الروماني نحو 63 ق.م، لا نجد فيه أي ذكر ليعقوب وأسرته، أو جغرافية أرض جاثان حيث نصبوا خيامهم. فعن أي مصر نتحدث التوراة إذا؟

النصوص التوراتية أوقعت أهل الاختصاص في حيرة من أمرهم، فوقفوا عاجزين عن الفهم، حتى استطاعت البعثات الاستكشافية على حل لغة نقوش اليمن.

عندما حضر يعقوب وذريته إلى مصر، أراد يوسف أن يعزلهم عن الشعب المصري، كي يتفرغوا للعبادة، لذلك أخبر أباه وإخوته أن يجيبوا فرعون إذا سألهم ما صنعتمهم، كما في النص: **{فَيَكُونُ إِذَا دَعَاكُمْ فِرْعَوْنُ وَقَالَ: مَا صَنَعْتُمْ؟ أَنْ تَقُولُوا: عِبِيدُكَ أَهْلُ مَوَاشٍ مُنْذُ صَبَاْنَا إِلَى الْآنَ، نَحْنُ وَآبَاؤُنَا جَمِيعًا. لَكِي تَسْكُنُوا فِي أَرْضِ جَاسَانَ. لِأَنَّ كُلَّ رَاعِي غَنَمٍ رَجَسٌ لِلْمِصْرِيِّينَ}**¹⁵³. والتاريخ المصري لا يوجد فيه ما يشير إلى احتقار المصريين لمهنة رعي الغنم. لكن مدون التوراة نسي ما كتب، لذلك ومن باب تضخيم منزلة يعقوب، جعل المصريين كلهم يبكون عليه سبعين يوما عندما مات: **{وَأَمَرَ يُوسُفُ عِبِيدَهُ الْأَطِبَّاءَ أَنْ يَحْنُطُوا أَبَاهُ. ---- وَبَكَى عَلَيْهِ الْمِصْرِيُّونَ سَبْعِينَ يَوْمًا}**¹⁵⁴.

بالعودة إلى التاريخ المصري، لا يجد الباحث أي منطقة دعيت بأرض جاسان، ولا وجود لاعتقاد المصريين بنجاسة رعاة الأغنام. والسؤال: كيف استساغ مدون التوراة الادعاء أن المصريين بكوا على راعي غنم نجس سبعين يوما؟

بالاطلاع على ما جاء في المجلدات الخمسة، المحفوظة في المتحف البريطاني، والخاصة بتاريخ اليمن، وما دونه الهمداني في كتابه "وصف جزيرة العرب"، ومطابقة سرديات التوراة معها، نجد أن الرجل المبارك "إبراهيم" الذي فر من بطش ملك حضرموت، استقر في مملكة أوسان، وسكن بين عبدة الإله كنعان. كذلك نجد أن القبيلة الإسرائيلية سكنت قرب واد "داثان"، ثم ارتحلت إلى مملكة "مصرم"، والتي عرفت باسم "مملكة معين الجوف" فيما بعد، ليلتحقوا بأحد أبناءها الذي عمل مشرفا على غلات الملك، وأن مملكة مصرم تحكمت بتجارة القمح عندما أصابت المجاعة كل ممالك اليمن. وهكذا نجد أن جغرافية الحدث التاريخي التوراتي تتطابق بشكل تام مع جغرافية الحدث اليمني. أما فلسطين ومصر، فلا روابط بينهما وبين القبيلة الإسرائيلية وتنقلاتها، وأن السرد التوراتي ما هو إلا إسقاط لسيرة القبيلة الإسرائيلية على تاريخ وجغرافيا البلدين، خدمة للتفسير الاستشراقي الصهيوني، لربط فلسطين بدائرة الأحلام اليهودية خرافة التواجد الإسرائيلي في مصر.

"إن حادثة خروج العبرانيين من مصر لم تقع، وذلك ببساطة لأن اليهود لم يدخلوا مصر من الأساس" من كتاب التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها

زائيف هرتسوغ وإسرائيل فنكلشتاين

¹⁵³ سفر التكوين 46(33-34).

¹⁵⁴ سفر التكوين 50(2-4).

مصريم الجوف أم مصر وادي النيل؟

أثار وجود لفظة "مصريم" في النص التوراتي العبري، جدلاً واسعاً بين اللاهوتيين، لغرابتها من الناحية اللغوية، ثم خرجوا بنتيجة مفادها أنها تعني مصر البلد العربي المعروف. كل ذلك كان بدون دليل يثبت. وعندما أسفرت الرحلات الاستشراقية والأثرية التي جابت اليمن وجزيرة العرب وضمت أعداداً من اللاهوتيين تجوب، عن وجود آلاف النقوش التي حوى الكثير منها لفظة مصريم، عاد الجدل ليفرض نفسه من جديد، وانقسم القوم إلى فريقين؛ الأول تعصب إلى أن اللفظ منحصر في مصر، بينما رفضه الفريق الثاني. ثم جاءت نتائج فك لغة النقوش الحميرية السبئية، لتثبت أن هناك في منطقة الجوف اليمنية ظهرت مملكة مصريم في زمن يتطابق مع التاريخ الديني التوراتي. ومع توالي الرحلات الاستشراقية والأثرية، ودراسة الجغرافيا اليمنية، أصبح لدى الفريق الراض للنص التوراتي دليلاً اركولوجياً، يثبت تطابق الحدث التوراتي مع تاريخ وجغرافية اليمن.

اعتمد المحققون من التيار الراض لهيمنة التوراة، على خلوها من لفظة مصر، إذ كل الفقرات جاء فيها لفظة مصريم. وبدراسة النص التوراتي نجد أن إسم مصر جاء بعدة صيغ، كالتالي:

1- صيغة مصريم، وهي كلمة عربية حميرية تعني المصريين، لأن حرفي الياء والميم أداتا تثنية وجمع بلهجة حمير.

2- صيغة مصري، وقد جاءت في التوراة: ملك مصري.

3- صيغة شفوية هامصريم، وتعني عشائر المصريين. ولا يوجد في تاريخ مصر الحالية المدون والمعروف للجميع، ما يشير إلى تقسيم الشعب المصري إلى عشائر، في أي مرحلة زمنية.

4- صيغة هامصري باستخدام أداة التعريف العبرية "ها"، وتعني المصري. وبالتالي فإن الصيغ الأربع لا تعني مصر الحالية.

نأخذ النص التوراتي الذي يشير إلى هجرة القبيلة الإسرائيلية إلى مصر، للانضمام للابن الذي نصب مشرفاً على غلات مصر، وحمل رتبة العزيز، واستقرار القبيلة في منطقة "جاسان أو جوشن"، بعيداً عن المصريين الذين يعتبرون رعي الغنم نجاسة.

وبعد موت يوسف عليه السلام، وموت الملك الذي قربه إليه، حكم مصر ملوك لا يعرفون مكانة بني إسرائيل، لذلك استعبدهم لسنوات طويلة، حتى بعث الله نبياً مخلصاً، ينقذ القبيلة المقدسة من ظلم فرعون.

لم تحسم التوراة أمرها في مدة بقاء بني إسرائيل في مصر، فسفر التكوين 15(13) حدد المدة ب (400) سنة، بينما نجدها (430) سنة حسب النسخة السامرية، سفر الخروج 12(40). لكن المؤرخون والمفسرون- اليهود والمسيحيين- حددوا المدة ب (215) سنة، (1491-1706) ق.م، وهذا المعتمد تاريخياً.

تناسلت القبيلة المقدسة حتى فاق تعدادها عدد المصريين كما في سفر الخروج 1(7): **{وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَأُكْثِرُوا وَتَوَالَدُوا وَنَمُوا وَكَثُرُوا كَثِيرًا جَدًّا، وَأَمْتَلَّتْ الْأَرْضُ مِنْهُمْ}**. وهنا قرر فرعون مصر الخلاص منهم مخافة أن ينضموا للأعداء، كما في (10-9) **{هُؤَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا. هَلُمَّ نَحْنَالُ لَهُمْ لِنَلَأَ يَنْمُوا، فَيَكُونَ إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُونَ إِلَيْنَا وَيُحَارِبُونَنَا وَيَصْعَدُونَ مِنَ الْأَرْضِ}**. أما الحيلة التي اعتمدها فرعون للقضاء على بني إسرائيل فقد جاءت بالنص (16-15): **{وَكَلَّمَ مَلِكُ مِصْرَ قَابِلَتِي الْعِبْرَانِيَّاتِ اللَّتَيْنِ اسْمُ إِحْدَاهُمَا شِفْرَةَ وَاسْمُ الْأُخْرَى فُوعَةَ، وَقَالَ: "جَيْنَمَا تُولَدَانِ الْعِبْرَانِيَّاتِ وَتَنْظُرَانِهِنَّ عَلَى الْكُرَاسِيِّ، إِنْ كَانَ ابْنًا فَأَقْتُلَاهُ، وَإِنْ كَانَ بِنْتًا فَتَحْنِي"**.

ورغم إقرار التوراة أن عدد بني إسرائيل فاق تعداد المصريين، إلا أنه يقر بسوء المعاملة التي لاقوها منهم، (14-11): **{فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ تَسْخِيرٍ لِكَيْ يُدُلُّوهُمْ بِأَنْفَالِهِمْ، فَبَنُوا لِفِرْعَوْنَ مَدِينَتَيْ مَخَازِنٍ: فِينُومَ، وَرَعْمِيسِينَ. وَلَكِنْ بِحَسْبِمَا أَدَلُّوهُمْ هَكَذَا نَمُوا وَأَمْتَدُوا. فَأَخْتَشَوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَاسْتَعْبَدَ الْمِصْرِيُّونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْنَفٍ. وَمَرَّرُوا حَيَاتَهُمْ بِعُودِيَّةٍ قَاسِيَةٍ فِي الطِّينِ وَاللِّبْنِ وَفِي كُلِّ عَمَلٍ فِي الْحَقْلِ. كُلُّ عَمَلِهِمُ الَّذِي عَمَلُوهُ بِوَأَسِطَتِهِمْ عُنْفًا}**.

لا يمكن للقارئ أن يفهم كيف لا يوجد شعب بذلك التعداد الضخم سوى قابلتين (ممرضة توليد بلغة العصر).

الرواية التوراتية عن حالة بني إسرائيل في مصر، تتطابق إلى حد كبير مع الرواية القرآنية، مع وجود بعض الاختلافات. فحسب التوراة نجد الآيات المعجزات التي أعطيت لموسى عليه السلام إحدى عشر، بينما نجدها تسع في القرآن. إلا أن مهانة وسوء معاملة المصريين لبني إسرائيل واسترقاقهم، متطابقة بين الكتابين.

مولد موسى وتبني زوج فرعون له، وخروجه من مصر بعد قتله لأحد المصريين، شبه متطابقة بين النصين التوراتي والقرآني، إلا أن التوراة تحدد موقع مدين حيث استقر موسى بعد فراره من مصر، بينما اعرض القرآن عن ذلك.

فإذا كانت مدين تقع غرب الحجاز على امتداد البحر الأحمر، حسب بعض فقرات التوراة، وفي جنوب بلاد الشام بين مدينتي معان الأردنية، وتبوك الحجازية، كما في كتب التراث الإسلامي، ففي كلتا الحالتين فإنها تبعد عن مصر عدة مئات من الكيلومترات. لكن القرآن ينفي ذلك ببلاغة التعبير، كما في الآية: **{فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ}**. والخائف المترقب، هو من يسير مسافة قصيرة ثم يتوقف ليلتفت خلفه ناظرًا إن كان يطلبه أحد. فهل سار موسى ما يقرب من 450 كيلومتر، كلما قطع عدة مئات من الأمتار، توقف لينظر خلفه؟ هذا لا يقبله عقل، خاصة إذا عرفنا أن صحراء سيناء قاحلة معدومة المياه. لكن إذا أسقطنا الرحلة على جغرافية اليمن، سنجد المسافة بين حدود مملكة مصر من منطقة وادعة/مخلاف همدان، وعسير حيث مدين، لا تتجاوز 50 كيلومتر، كلها أراض زراعية تنتشر فيها عيون وآبار المياه. ثم لا يقال لم يذهب مسافة بعيد خرج، بل سافر إذا كان ينوي العودة، ومهاجرا إذا كانت نيته الإقامة. نحن نقول خرج إلى السوق، وسافر إلى مصر. فحسب الوصف القرآني، فإن خروج موسى من مصر الحالية أمرا مستحيلا.

كانت مهمة موسى عليه السلام الرئيسية إخراج بني إسرائيل من مصر، ولما رفض طلبه، استخدم الآيات التسع التي أيده الله بها، وهي: العصا، واليد، والسنين، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وأخرها فلق البحر.

يكاد الباحث يصاب بالذهول، من حجم الروايات التوراتية التي تتحدث عن معجزات موسى التي استخدمها لإرهاب فرعون والمصريين، وإجبارهم على السماح له لإخراج بني إسرائيل من مصر. علاوة على الهزيمة المرة التي لحقت بالسحرة على مرأى من فرعون وجموع الشعب يوم الزينة. وقد انفردت التوراة بمعجزة قتل الرب لكل بكر من العائلات المصرية، ومواشيهم ودوابهم وطيورهم.

لكن مدونات وادي النيل التي سطرت أخبار ملوك مصر، منذ وحدها الملك "مينا"، إلى نهاية الوجود الإغريقي، وحت أسماء ملوك كل أسرة، وزوجاتهم، وأبناءهم، ووصف قصورهم وغرف نومهم، ومعابدهم، وكهنتهم، وحروبهم، وقادة جندهم، إضافة إلى أساليب الزراعة وأشهر مزروعاتهم، وحركة التجارة، ومكايل البيع، والأخبار المفصلة عن الشعراء وقصائدهم، والحكماء، وعمليات التحنيط بعد الموت لا تذكر أية إشارة صريحة عن كل تلك الأحداث التي وقعت.

الخروج الأسطوري من مصر وادي النيل

استنفذ موسى عليه السلام كل طرق الإقناع، ووسائل الترغيب والترهيب لإقناع فرعون مصر السماح لبني إسرائيل بالخروج من مصر. لكن تعنت فرعون أحبط كل ذلك، الأمر الذي دفعه للكذب، فادعى أنها رحلة تعبدية تدوم عدة أيام ثم يعودون سيرتهم الأولى. الخروج بطبيعته يستدعي الاستعداد، لذلك نرى موسى يطلب من النساء الإسرائيليات استعارة أواني وحلي المصريات، وكل ذلك بناء على توصية من الرب، كما في خروج 3(22-18): {فَإِذَا سَمِعُوا لِقَوْلِكَ، تَدَخَّلْ أَنْتَ وَشَبُوحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى مَلِكِ مِصْرَ وَتَقُولُونَ لَهُ: الرَّبُّ إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ الْتَقَانَا، فَلِأَنَّ نَمْضِي سَفَرَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْبَرِّيَّةِ وَنَذِيحٌ لِلرَّبِّ إِلَهُنَا. وَأَعْطِي نِعْمَةً لِهَذَا الشَّعْبِ فِي عَيْونِ الْمِصْرِيِّينَ. فَيَكُونُ حِينَمَا تَمْضُونَ أَنْكُمْ لَا تَمْضُونَ فَارِغِينَ. بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا وَمِنْ نَزِيلَةٍ بَيْتِهَا أُمَّتَةً فِضَّةً وَأُمَّتَةً ذَهَبَ وَتِيَابًا، وَتَضَعُونَهَا عَلَى بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ. فَتَسْلُبُونَ الْمِصْرِيِّينَ}. وبعد سرقة المصريين حسب الخطة التي رسمها الرب لموسى، طلب منه عد بني إسرائيل حسب أسباطهم. فعد كل أبناء كل سبط على حدة، وكان مجموع القادرين على حمل السلاح ابن عشرين سنة فصاعدا (603550) رجل، بدون تعداد سبط اللاويين، كونهم سبط الرب وحراس مسكن الشهادة وتابوت التوراة، سفر العدد 1(49-45): {فَكَانَ جَمِيعُ الْمَعْدُودِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَسَبَ بِيُوتِ آبَائِهِمْ مِنْ ابْنِ عَشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ فِي إِسْرَائِيلَ. كَانَ جَمِيعُ الْمَعْدُودِينَ سِتِّ مِئَةِ أَلْفٍ وَثَلَاثَةَ أَلْفٍ وَخَمْسَ مِئَةِ وَخَمْسِينَ. وَأَمَّا اللَّاَوِيُّونَ حَسَبَ سِبْطِ آبَائِهِمْ فَلَمْ يَعدُوا بَيْنَهُمْ، إِذْ كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: أَمَّا سِبْطُ لَأَوِي فَلَا تُحْسِبُهُ وَلَا تَعُدَّهُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}.

هذا العدد الخرافي يتطلب وقفة تأمل. فقد علمنا أن عدد قبيلة يعقوب عند دخولهم مصر كان 70 نسمة، ومدة مكوثهم فيها تتراوح بين 400 و215 سنة. وعرفنا أن عدد المقاتلين عند الخروج هو 603550 مقاتلا، مما يعني أن عدد الشعب كله لا يقل عن 2.5 مليون نسمة، وهذه أعداد خرافية.

التوراة تقر بأن القوم الذين فروا ليلا، مروا من أراض قبائل وأقوام، طاردتهم ومنعتم من النزول معها. فكيف يطلب شعب بذلك التعداد والجيش العرمرم، من قبائل قليلة العدد مجاورتها، فيرفض طلبه ويطرد بالقوة؟

علماء المصريات يعلمون جيدا من النقوش والبرديات، أهمية صحراء سيناء بالنسبة للدولة المصرية الحديثة، كمصدر للمواد الخام؛ كالنحاس والفيروز والحجارة الصوانية، والأهم، كخط دفاع عن أرض وادي النيل الخصبة، محط أطماع الإمبراطورية الآشورية/الآشورية. وقد أدرك حكام مصر الأوائل أهمية سيناء بعد الغارات التي شنتها القبائل القاطنة في جنوبها على الدلتا، والتي أطلق عليها المصريون إسم "المونيتو". لذلك أقاموا عدة حصون وقلاع، ومهدوا العديد من الطرق لتسهيل حركة الجيوش لصد أي هجمات تتعرض لها الدلتا. ومن أشهر تلك القلاع؛ قلعة "ثارو"، وحصن "سيتي" الذي بناه الملك سيتي الأول. لكن التجهيزات المصرية لم تصمد أمام زحف قبائل "الملوك الرعاة"، وهو تحالف ضم قبيلتي جرهم وعمليق، وعرفوا تاريخيا بالهكسوس.

حسب التاريخ اللاهوتي فإن خروج القبيلة الإسرائيلية حدث بعد طرد العماليق على يد الملك "أحمس الأول". ودلت الاكتشافات الأثرية على وجود عدة طرق حربية تشرف على سيناء، وتسهل حركة الجيش المصرية أثناء مطاردة الغزاة القادمين من الشرق، والجزيرة العربية، من أشهرها طريق "حورس" الذي يعده الأثاريون أقدم طريق حربي في التاريخ.

النص التوراتي يدعي أن أرض "جوشن أو جاسان" كانت موطن بني إسرائيل عندما التحقوا بـيوسف عليه السلام، وتقع بين محافظتي الشرقية والإسماعيلية الحاليين. وبناء على الخارطة المرفقة، والتي أعدها اللاهوتيون والأثاريون المؤمنون بصدق التوراة، فإن القبيلة الإسرائيلية ذات العدد الضخم، والجيش الكبير، قطعت مئات الكيلومترات في طريقها إلى الأرض الموعودة. كل ذلك حدث دون أن تلاحظ المفارز العسكرية المصرية المنتشرة، ومهامها حماية حدود مصر الشرقية. فهل كانت المفارز العسكرية المصرية في حالة سبات أثناء مرور القبيلة المقدسة؟

النص التوراتي الذي على قاعدته رسمت الخارطة، يشير إلى اتجاه القبيلة الإسرائيلية نحو أقصى شبه جزيرة سيناء، فإذا كانت الوجهة فلسطين، فلماذا اتجهت إلى أقصى الجنوب؟ كما تخلو الخارطة من بحر يمنع مسيرتهم، فيقوم قائد المسيرة بشق طريق بعصاه، فتتجوا القافلة، وبهالك عدوهم.

كذلك وعلى هدي السرد التوراتي، فقد تضمنت الخارطة: برية سين، وبرية صين، وبرية شور، وبرية فاران، وكل ذلك ضمن صحراء سيناء الحالية. وهذا هو التزوير الاستشراقي الهادف إلى إسقاط الحدث التوراتي على جغرافية مصر وسيناء الحاليين، لتمير الوعد الخرافي.

التيه السينائي الأسطوري

{إِنَّ هُوَ لَأَشْرِكٌ مِّمَّنْ قَالُوا} 155 أصعب ما يواجه الباحث في تاريخ الأمم، هو نسف الخرافة المدعومة بسند ديني لاهوتي، إذ يتهم عند أية محاولة؛ بالزندقة والكفر، من باب معاداة الدين وثوابته.

وقد الصقت تلك التهم بالعديد من الباحثين والمؤرخين ممن حاولوا رد الخرافات التوراتية، منتصرا لعروبة فلسطين. ولعل أسوء السهام الموجهة لهم، تهمة التبعية **للدكتور العربي المسيحي كمال صليبي**، كونه فارس هذا الميدان، وأول من فتح الأبواب الموصدة التي تترس التزوير التوراتي خلفها. وللحقيقة، فإن المسيحيين العرب، كانوا رأس حربة كتيبة الدفاع الأولى، التي تصدت لمحاولات المستشرقين فرض اللهجات العربية لتحل محل اللغة العربية الفصحى، بحجة أن الأخيرة شاخت ولم تعد تصلح لمواكبة العصر ومتطلبات الحداثة. كان ظاهر تلك الدعوة براق، في حين باطنها خبيث، يهدف إلى إزاحة الفصحى كمقدمة لإزاحة القرآن، أخذاً بنصيحة نابليون بونابرت.

كان المستشرق المجري اليهودي "**إجناتس جولد تسيهر/Ignac Goldziher**" أول من إدعى أن القرآن يحتوي على اغلاط إملائية ونحوية، ثم أنطلقت الدعوة إلى تصحيح اخطاء في مصر زمن اللورد "كرومر Cromer" الذي وضع خطة عمل شاملة لتفكيك العالم العربي وسلخه عن تاريخه الإسلامي، عن طريق إزاحة اللغة العربية كمقدمة لإزاحة القرآن من الفكر والوجدان العربي. ثم أخذ زمام المبادرة المهندس الزراعي "**ويليام ويلكوكس William Wilcocks**" الذي وضع جائزة قيمة لمن يعيد كتابة القرآن بالعامية المصرية، ولتشجيع الناس على القيام بذلك، قام بترجمة الإنجيل إلى العامية المصرية، لكن الكنيسة رفضته وحاربتة ومنعت تداوله وانتشاره. وعندما انتشرت دعوة الغربيين لإحلال العامية بدل الفصحى، هب علماء اللغة للتصدي لها، والدفاع عن اللغة العربية وبيان جمالياتها، وكان على رأسهم اللغويين المسيحيين العرب، وأولهم أصحاب جريدة الأهرام؛ بشارة وسليم تقلا، إذ سخرا جريديتهما للدفاع عن العربية، وبنوا أن تلك الدعوة تهدف إلى طمس الشرق العربي من باب حربهم على لغته. ثم انضم إليهما جورجي زيدان الذي سخر جريدة الهلال للدفاع عن العربية، واعتبر الدعوة إلى العامية مؤامرة، تستهدف الأمة العربية وقيمها. وفي لبنان تزعم حملة الدفاع عن العربية المسيحي العربي ناصيف اليازجي أستاذ النحو، وسانده بطرس البستاني، والشيخ يوسف الأسير الأزهري، وثلاثتهم اشتركوا بترجمة الإنجيل إلى العربية الفصحى.

وأول قاموس للغة العربية في العصر الحديث، وضعه ناصيف اليازجي وبترس البستاني، ثم وضع بطرس البستاني أحد أهم القواميس العربية، محيط المحيط.

155 سورة الشعراء الآية 54.

ليس الهدف دفاعا عن المسيحيين العرب، إنما إحقاق الحق، ونسب الفضل لأهله، فقد كانت مساهمة المسيحيين العرب في الدفاع عن اللغة العربية، مستعصية على الإنكار.

بالعودة الى قضية عدد بني إسرائيل عشية خروجهم من مصر، وتعداد حملة السلاح الذي جاوز 600 ألف رجل، نجد أن الغالبية العظمى من مفسري القرآن أخذ الرواية التوراتية كحقيقة مسلمة، فالبسوا الخرافة التوراتية ثوبا إسلاميا، بحيث أصبح الطعن بتلك الخرافة، طعنا بأهل التفسير، وهذا قمة التجني، فقول المفسرين إن لم يستند إلى شواهد من القرآن وصحيح السنة، يبقى موضعا للنقاش، والرد عليه، بل تفنيده ورفضه.

التوراة تدعي أن عدد بني إسرائيل لحظة دخولهم مصر كان 70 رجلاً، وبإضافة يوسف وولديه "افرائيم وميثا" يصبح العدد 73. وأخبرتنا أن يعقوب وأولاده لم ينجبوا في مصر، وبالتالي انحصر الإنجاب بأحفاد يعقوب وعددهم 60 رجلاً.

حسب نظريات إحصاء السكان: تتكاثر المجموعات البشرية بمتتالية حسابية كالتالي: 1-2-4-6-8- كل جيل، اي 25 سنة. وبما أن مدة مكوث الأسرة المقدسة في مصر كانت 215 حسبما اتفق اللاهوتيون، فإن عدد أجيالهم بلغت 9 أجيال تقريبا. وباستخدام كل نظريات الإحصاء المعروفة، فإن عدد بني إسرائيل لحظة خروجهم من مصر لا يتجاوز 1500 نسمة. وبإخراج أعداد الموتى خلال مدة مكوثهم، ونسبة من قتل فرعون منهم، فإن العدد يستحيل أن يتجاوز الألف نسمة. وبالتالي يصبح عدد حملة السلاح (600) رجلا من سن 20 سنة فما فوق مقبولا. وهذا يفسر لنا فرار القبيلة المقدسة من مواجهة كل القبائل التي مروا بمضاربها خلال مسيرتهم.

بيننا أن القرآن لا يحفل بذكر تواريخ وجغرافيا الأحداث، فتلك ليست رسالته، لكنه يقترب من ذلك بالتلميح في بعض الأحيان. لذلك بين تلميحا إلى قلة عدد القبيلة المقدسة، على لسان فرعون بقوله: {إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ}. وهنا القرآن جاء بقرينتين للدلالة على قلة عددها. فشرذمة تعني القطعة الصغيرة، وقليل، لا تحتاج لبيان. وبالتالي يصبح وصف بني إسرائيل: مجموعة بشرية قليلة العدد، فضوية ضعيفة مستباحة، لان ذلك من معاني شرذمة أيضا، وهذا يفسر لنا رفضهم دخول الأرض المقدسة كما طلب منهم.

أطلقت التوراة إسم "حوريب" على صحراء سيناء الحالية، ومعناه بالعبرية أرض الخراب. ثم تم تجزئتها إلى عدة بريات، فظهر في النسخ المترجمة؛ برية سين، وبرية صين، وبرية فاران، وبرية شور. لكن لا يوجد في النص التوراتي الصنعاني لفظة سيناء، بل إن مدون التوراة جهل ذلك الإسم جهلا تاما.

لا يوجد دليل قطعي على أصل كلمة سيناء، فمن المؤرخين من ذكر أن اسمها القديم مشتق من كلمة "حجر" الكنعانية، وتعني الجبال الكثيرة، ومنهم من إدعى أن اسمها في الهيروغليفية "توشريت"، أي الأرض الجذباء. لكن أغلبهم يرجح أن الإسم مشتق من معابد الإله "سين إله القمر" التي بنتها القبائل العربية في الصحراء. بعض علماء المصريات إدعى أن كلمة "بياوو" وتعني أرض المناجم، أطلقت على صحراء سيناء، بينما قال آخرون أنها عرفت في عصر الدولة المصرية الحديثة باسم "خاست مفكات"، وأحيانا باسم "دومفكات"، أي مدرجات الفيروز

أما سكان سوريا القديمة، فقد أطلقوا عليها إسم "الطور"، وهي كلمة عربية قديمة تعني أرض القمر، ومنها جاء إسم جبل الطور المعروف.

في عام 1905 اكتشف عالم الآثار "وليام ماثيو فلنדרز بيري **William Matthew Flanders Petri**" أثني عشر نقشا عرفت بالنقوش السينائية، لكنه لم يستطع حل ابجديتها. وبقي الأمر لغزا حتى تمكن عالم المصريات "الآن جاردنر **Alan Gardiner**" من فك رموزها التي لم تكن سوى كتابات عربية كنعانية من القرن (15) ق.م، تثبت علاقة القبائل العربية في سوريا القديمة بمصر وبوابتها الصحراوية.

شهدت سيناء منذ الأيام الأولى لاحتلالها بعد حرب حزيران 1967، اندفاع مئات من الأثاريين والمنقبين مصحوبين برجالات اللاهوت التوراتيين، لتحقيق السرد التوراتي عن الخروج من التيه في سيناء. وقد بلغ تعدادهم في إحدى المراحل 3 آلاف باحث ومنقب كما جاء في منشورات دائرة الآثار الصهيونية. وكان الفشل حليف كل ما قاموا به، وعبر عالم الآثار الإسرائيلي "إسرائيل فنكلشتاين **Israel finkelstein**" عن ذلك إذ قال: "فتشنا بين كل حبة رمل واختها، ولم نثر على أي دليل يثبت روايات التوراة حول الخروج من مصر والته في سيناء. فإما أننا كنا نبحت عن خرافة، أو أننا نبحت في المكان". فمن أين جاءت الرواية التوراتية؟

مهما بحثنا، فلن نجد جوابا إلا ضمن جغرافية اليمن، وبالتحديد شمال حوريب، باتجاه نهر الخارد، نجد بركة صن ضمن مديرية العدين، محافظة إب. وحتى الآن تحمل نفس الإسم، وتوجد قرية صغيرة تحمل نفس الإسم تابعة لعزلة قصع حليان. وفي كتاب وصف جزيرة العرب، نجد شرحا وافيا لتاريخ المنطقة، التي كانت جزءا من مملكة مصرم، حيث كان بنو إسرائيل، ومنها خرجوا شمالا باتجاه مملكة اوسان، أو بلاد عبدة الإله كنعان. وعندما أدركهم فرعون وجنوده، كانوا يقفون على ضفة نهر الخارد عند مصب وادي شبوة فيه، فجنوب النهر تقع بركة صن، وشماله بركة سين. وهناك بالتحديد حيث عرض النهر يتجاوز 50 مترا، شق موسى بعصاه الماء، فنجى بنو إسرائيل، وهلك فرعون اليمني حاكم مصرم.

ما قام به التيار اللاهوتي الاستشراقي، هو نقل جغرافية الحدث من اليمن واسقطها على جغرافية مصر وسيناء وفلسطين. فمملكة مصرم الجوف، أصبحت مصر الحالية، ومملكة أوسان الكنعانية اليمنية، أضحت فلسطين الكنعانية، وبركة حوريب من أرض الجوف، غدت صحراء حوريب السينائية، وبركة صن نقلت من إب اليمنية إلى جنوب سيناء الحالية، وبركة سين اليمنية حيث يعبد إله القمر سين، أسقطت على شمال سيناء المصرية. وزيادة في التلفيق الاستشراقي التوراتي، تم تحريك بركة فاران الحجازية من الجزيرة العربية لتستقر شمال سيناء الحالية. أما السقطة القاتلة، فهي إطلاق إسم بركة شور على جزء من سيناء.

أسطورة سيناء القاحلة وألوف العجول، وأطنان البخور

كانت سقطة أهل الاستشراق من التيار اللاهوتي، إطلاق إسم برية شور على الجزء الشمالي من صحراء سيناء. فالتوراة السامرية ذكرت برية شور على أنها الحجاز، بينما جعلتها الترجمة السبعينية "سور"، والسور هو الحاجر. وقد وردت في التوراة في عدة فقرات. فهي مكان سكنى بنو إسماعيل، تكوين 25(15)، وكل النبوءات التوراتية عن النور الذي يظهر في بلاد العرب، جعلت برية فاران مسكنه، ولم يطلق إسم بلاد العرب على شمال سيناء. وملاك الرب التقى هاجر عند عين الماء التي فاران. ونجد موسى يقود قومه بعد الخروج من مصر، ثلاثة أيام في برية شور بحثا عن الماء، خروج 15(22). فإذا كانت برية شور هي ذاتها فاران، فأين اختفت عين الماء. وإذا كانت برية شور تقع شمال سيناء، فهي تعج بحركة القوافل والقبائل المترددة بين سوريا التاريخية وبلاد وادي النيل، وتنتشر على طول الطريق الواحات حيث مئات آبار المياه. فأين كانت القبيلة المقدسة تنتقل إذا؟ وبين قادش وسور استقر إبراهيم، تكوين 20(1)، وقادش جبل في مملكة اوسان اليمنية كما جاء في كل النقوش الآشورية/الآشورية.

كل ما أراده الاستشراق التسعفي، حشر أكبر كمية ممكنة من الأسماء الجغرافية، وإسقاطها على جغرافية مصر وسيناء الحاليتين، للدلالة على كون الأولى نقطة الخروج، والثانية محل التيه قبل دخول فلسطين.

ذكر سفر الخروج أسماء (50) مكانا توقفت عندها القبيلة المقدسة، كي تؤدي طقوس عبادتها، فتتحر ذبائحها، وتحرق بخورها. وحسب تعليمات الرب، فقد أقام موسى في كل مكان حل فيه، مذبحا صخريا لنحر الذبائح، ومحرقاة متنقلة لحرق البخور. وقيل ذلك، وفي نهاية الشهر الأول من زمن الخروج، تلقى موسى تعليمات دقيقة من الرب، كي يبني للرب مسكنا مقدسا كي يقيم بين شعبه، كما في 25(8): **{فَيصْنَعُونَ لِي مَقْدِسًا لِأَسْكُنَ فِي وَسَطِهِمْ}**، ثم يبني عدة أشياء أخرى، ليكتمل الصرح المقدس. وبعد أن بين له كيف يتم البناء، أمره أن يطلب من أبناء وبنات القبيلة الإسرائيلية إحضار كل ما يملكون من مستلزمات البناء، ولحياكة ثياب الكهنة 35(19)-5: **{أَخْذُوا مِنْ عِنْدِكُمْ تَقْدِمَةً لِلرَّبِّ. كُلُّ مَنْ قَلْبُهُ سَمُوحٌ فَلْيَأْتِ بِتَقْدِمَةِ الرَّبِّ: ذَهَبًا وَفِصَّةً وَنَحَاسًا، وَأَسْمَانْجُونِيًا وَأَرْجَوَانًا وَقِرْمَزًا وَبُوصًا وَشَعْرَ مَغْرَى، وَجَلُودَ كِبَاشٍ مُحَمَّرَةً وَجَلُودَ ثَخَسٍ وَخَشَبَ سَنْطٍ، وَزَيْتًا لِلضَّوْءِ وَأَطْيَابًا لِدُهْنِ الْمَسْحَةِ وَلِلْبُخُورِ الْعَطْرِ، وَحِجَارَةَ جَزَعٍ وَحِجَارَةَ تَرْصِيعٍ لِلرِّدَاءِ وَالصُّدْرَةِ. وَكُلُّ حَكِيمِ الْقَلْبِ بَيْنَكُمْ فَلْيَأْتِ وَيصْنَعْ كُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّبُّ. الْمَسْكَنُ وَخَيْمَتُهُ وَعِطَاءُهُ وَأَشْبُظَتُهُ وَالْوَاحَةُ وَعَوَارِضُهُ وَأَعْمَدَتُهُ وَقَوَاعِدُهُ. وَالتَّابُوتُ وَعَصَوِيَّهُ، وَالْعِطَاءُ وَحِجَابُ السَّجْفِ، وَالْمَائِدَةُ وَعَصَوِيَّهَا وَكُلُّ أُنْيَتَيْهَا، وَخَيْزُ الْوُجُوهِ، وَمَنَارَةُ الضَّوْءِ وَأُنْيَتَيْهَا وَسُرُجُهَا وَزَيْتُ الضَّوْءِ، وَمَذْبَحُ الْبُخُورِ وَعَصَوِيَّهُ، وَدُهْنُ الْمَسْحَةِ وَالبُخُورُ الْعَطْرِ، وَسَجْفُ الْبَابِ لِمَدْخَلِ الْمَسْكَنِ، وَمَذْبَحُ الْمُحْرِقَةِ وَشِبَاكَةُ النَّحَاسِ الَّتِي لَهُ وَعَصَوِيَّهُ وَكُلُّ أُنْيَتَيْهِ، وَالْمَرْحَضَةُ وَقَاعِدَتَيْهَا، وَأَسْتَارُ الدَّارِ وَأَعْمَدَتَيْهَا وَقَوَاعِدُهَا، وَسَجْفُ بَابِ الدَّارِ، وَأَوْتَادُ الْمَسْكَنِ، وَأَوْتَادُ الدَّارِ وَأَطْنَابَيْهَا، وَالتَّيَابِ الْمُنْسُوجَةِ لِلْخِدْمَةِ فِي الْمَقْدِسِ، وَالتَّيَابِ الْمُقَدَّسَةِ لِهَاوُونَ الْكَاهِنِ، وَتِيَابِ بَنِيهِ لِلْكَهَانَةِ}**.

صناعة التابوت 25(18-11): **{فَيصْنَعُونَ تَابُوتًا مِنْ خَشَبِ السَنْطِ، طُولُهُ ذِرَاعَانِ وَنِصْفٌ، وَعَرْضُهُ ذِرَاعٌ وَنِصْفٌ، وَارْتِفَاعُهُ ذِرَاعٌ وَنِصْفٌ. وَتُعَشِّيهِ بِذَهَبٍ نَقِيٍّ. مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ**

تُعْشِيهِ، وَتَصْنَعُ عَلَيْهِ إِكْلِيلًا مِنْ ذَهَبٍ حَوَالِيهِ. وَتَسْبِكُ لَهُ أَرْبَعَ حَلَقَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَتَجْعَلُهَا عَلَى قَوَائِمِهِ الْأَرْبَعِ. عَلَى جَانِبِهِ الْوَاحِدِ حَلَقَتَانِ، وَعَلَى جَانِبِهِ الثَّانِي حَلَقَتَانِ. وَتَصْنَعُ عَصَوَيْنِ مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ وَتُعْشِيَهُمَا بِذَهَبٍ.

صناعة المائدة (23-30): {وَتَصْنَعُ مَائِدَةً مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ طُولُهَا ذِرَاعَانِ، وَعَرْضُهَا ذِرَاعٌ، وَارْتِفَاعُهَا ذِرَاعٌ وَنِصْفٌ. وَتُعْشِيَهَا بِذَهَبٍ نَقِيٍّ، وَتَصْنَعُ لَهَا إِكْلِيلًا مِنْ ذَهَبٍ حَوَالِيهَا. وَتَصْنَعُ لَهَا حَاجِبًا عَلَى شِبْرِ حَوَالِيهَا، وَتَصْنَعُ لِحَاجِبِهَا إِكْلِيلًا مِنْ ذَهَبٍ حَوَالِيهَا. وَتَصْنَعُ لَهَا أَرْبَعَ حَلَقَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَتَصْنَعُ الْعَصَوَيْنِ مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ وَتُعْشِيَهُمَا بِذَهَبٍ، وَتَصْنَعُ صِحَافَهَا وَصُحُونَهَا وَكَأْسَاتِهَا وَجَامَاتِهَا الَّتِي يُسَكَّبُ بِهَا. مِنْ ذَهَبٍ نَقِيٍّ تَصْنَعُهَا}.

صناعة المنارة (31-40): {وَتَصْنَعُ مَنَارَةً مِنْ ذَهَبٍ نَقِيٍّ... تَكُونُ عَجْرُهَا وَشُعْبُهَا مِنْهَا. جَمِيعُهَا خِرَاطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ ذَهَبٍ نَقِيٍّ... وَمَلَا قِطْعُهَا وَمَنَافِضُهَا مِنْ ذَهَبٍ نَقِيٍّ. مِنْ وَزْنِهِ ذَهَبٍ نَقِيٍّ تُصْنَعُ مَعَ جَمِيعِ هَذِهِ الْأَوَانِي}.

صناعة المسكن (1-6)26: {وَأَمَّا الْمَسْكَنُ فَتَصْنَعُهُ مِنْ عَشْرِ شَقَقٍ بُوَصٍ مَبْرُومٍ وَأَسْمَانُجُونِيٍّ وَأَرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ. بِكَرُوبِيمٍ صَنْعَةً حَانَكَ حَازِقٍ تَصْنَعُهَا..... وَتَصْنَعُ خَمْسِينَ شِطَاطًا مِنْ ذَهَبٍ، وَتَصِلُ الشَّقَقَتَيْنِ بَعْضُهُمَا بِبَعْضٍ بِالْأَشِطَّةِ. فَيَصِيرُ الْمَسْكَنُ}.

صناعة الألواح للمسكن (15-25): {وَتَصْنَعُ الْأَلْوَحَ لِلْمَسْكَنِ مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ قَائِمَةً..... وَتَصْنَعُ أَرْبَعِينَ قَاعِدَةً مِنْ فِصَّةٍ تَحْتَ الْعِشْرِينَ لَوْحًا..... وَأَرْبَعِينَ قَاعِدَةً لَهَا مِنْ فِصَّةٍ. تَحْتَ اللَّوْحِ الْوَاحِدِ قَاعِدَتَانِ، وَتَحْتَ اللَّوْحِ الْوَاحِدِ قَاعِدَتَانِ.... فَتَكُونُ ثَمَانِيَةَ أَلْوَحٍ، وَقَوَاعِدُهَا مِنْ فِصَّةٍ سِتِّ عَشْرَةَ قَاعِدَةً. تَحْتَ اللَّوْحِ الْوَاحِدِ قَاعِدَتَانِ، وَتَحْتَ اللَّوْحِ الْوَاحِدِ قَاعِدَتَانِ}.

صناعة العوارض (26-30): {وَتَصْنَعُ عَوَارِضَ مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ، خَمْسًا لِأَلْوَحِ جَانِبِ الْمَسْكَنِ الْوَاحِدِ.... وَتُعْشِي الْأَلْوَحَ بِذَهَبٍ، وَتَصْنَعُ حَلَقَاتِهَا مِنْ ذَهَبٍ بِيُوتًا لِلْعَوَارِضِ، وَتُعْشِي الْعَوَارِضَ بِذَهَبٍ}.

صناعة الحجاب (31-32): {وَتَصْنَعُ حِجَابًا مِنْ أَسْمَانُجُونِيٍّ وَأَرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ وَبُوَصٍ مَبْرُومٍ.... وَتَجْعَلُهُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَعْمِدَةٍ مِنْ سَنْطٍ مُعْشَاةٍ بِذَهَبٍ. رُزْزُهَا مِنْ ذَهَبٍ. عَلَى أَرْبَعِ قَوَاعِدٍ مِنْ فِصَّةٍ}.

صناعة السجف (36-37): {وَتَصْنَعُ سَجْفًا لِمَدْخَلِ الْخَيْمَةِ مِنْ أَسْمَانُجُونِيٍّ وَأَرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ وَبُوَصٍ مَبْرُومٍ صَنْعَةَ الطَّرَازِ. وَتَصْنَعُ لِلْسَجْفِ خَمْسَةَ أَعْمِدَةٍ مِنْ سَنْطٍ وَتُعْشِيَهَا بِذَهَبٍ. رُزْزُهَا مِنْ ذَهَبٍ، وَتَسْبِكُ لَهَا خَمْسَ قَوَاعِدٍ مِنْ نَحَاسٍ}.

صناعة المذبح (1-8)27: {تَصْنَعُ الْمَذْبَحَ مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ، طُولُهُ خَمْسُ أَذْرَعٍ.... وَتَصْنَعُ قُرُونَهُ عَلَى زَوَايَاهُ الْأَرْبَعِ. مِنْهُ تَكُونُ قُرُونُهُ، وَتُعْشِيهِ بِنَحَاسٍ جَمِيعَ آيَتِهِ تَصْنَعُهَا مِنْ نَحَاسٍ. وَتَصْنَعُ لَهُ شِبَاكَةً صَنْعَةَ الشَّبَكَةِ مِنْ نَحَاسٍ، وَتَصْنَعُ عَلَى الشَّبَكَةِ أَرْبَعَ حَلَقَاتٍ مِنْ نَحَاسٍ.... وَتَصْنَعُ عَصَوَيْنِ لِلْمَذْبَحِ، عَصَوَيْنِ مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ وَتُعْشِيَهُمَا بِنَحَاسٍ}.

صناعة دار المسكن (26-9): {وَتَصْنَعُ دَارَ الْمَسْكَنِ. إِلَى جِهَةِ الْجَنُوبِ نَحْوَ التَّيْمَنِ لِلدَّارِ أَسْتَارًا مِنْ بُوَصٍ مَبْرُومٍ مِثْلَ ذِرَاعٍ طَوِيلًا إِلَى الْجِهَةِ الْوَّاحِدَةِ. وَأَعْمَدَتُهَا عِشْرُونَ، وَقَوَاعِدُهَا عِشْرُونَ مِنْ نَحَاسٍ. رُزْرُ الْأَعْمَدَةِ وَقَضْبَانُهَا مِنْ فِضَّةٍ.... وَأَعْمَدَتُهَا عِشْرُونَ، وَقَوَاعِدُهَا عِشْرُونَ مِنْ نَحَاسٍ. رُزْرُ الْأَعْمَدَةِ وَقَضْبَانُهَا مِنْ فِضَّةٍ.... وَلِبَابِ الدَّارِ سَحْفٌ عِشْرُونَ ذِرَاعًا مِنْ أَسْمَانْجُونِيٍّ وَأَرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ وَبُوَصٍ مَبْرُومٍ صِنْعَةَ الطَّرَازِ. أَعْمَدَتُهُ أَرْبَعَةٌ، وَقَوَاعِدُهَا أَرْبَعٌ. لِكُلِّ أَعْمَدَةِ الدَّارِ حَوَالِيهَا قَضْبَانٌ مِنْ فِضَّةٍ. رُزْرُهَا مِنْ فِضَّةٍ، وَقَوَاعِدُهَا مِنْ نَحَاسٍ. طُولُ الدَّارِ مِثْلَ ذِرَاعٍ، وَعَرْضُهَا خَمْسُونَ فَخَمْسُونَ، وَارْتِفَاعُهَا خَمْسُونَ أذْرَعًا مِنْ بُوَصٍ مَبْرُومٍ، وَقَوَاعِدُهَا مِنْ نَحَاسٍ. جَمِيعُ أَوَانِي الْمَسْكَنِ فِي كُلِّ خِدْمَتِهِ وَجَمِيعُ أَوْتَادِهِ وَجَمِيعُ أَوْتَادِ الدَّارِ مِنْ نَحَاسٍ.}

أما رداء الكاهن، وصدرة القضاء، وجبة القاضي فقد تم تفصيل صناعتها في الإصحاح 28 من سفر الخروج، وكلها صنعت من: {ذَهَبٍ وَأَسْمَانْجُونِيٍّ وَأَرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ وَبُوَصٍ مَبْرُومٍ.}

زينة لباس الكاهن (37-22): {تَصْنَعُ عَلَى الصُّدْرَةِ سَلْسِلَ مَجْدُولَةً صِنْعَةَ الصَّفْرِ مِنْ ذَهَبٍ نَقِيٍّ. وَتَصْنَعُ عَلَى الصُّدْرَةِ حَلْقَتَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ..... وَتَجْعَلُ صَفِيرَتِي الذَّهَبِ فِي الْحَلْقَتَيْنِ عَلَى طَرَفِي الصُّدْرَةِ.... وَتَصْنَعُ حَلْقَتَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ وَتَضَعُهُمَا عَلَى طَرَفِي الصُّدْرَةِ عَلَى حَاشِيَتَيْهَا الَّتِي إِلَى جِهَةِ الرِّدَاءِ مِنْ دَاخِلٍ. وَتَصْنَعُ حَلْقَتَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ، وَتَجْعَلُهُمَا عَلَى كَتْفِي الرِّدَاءِ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْ قُدَامِهِ عِنْدَ وَصْلِهِ مِنْ فَوْقِ زُنَارِ الرِّدَاءِ.... وَتَصْنَعُ جِبَةَ الرِّدَاءِ كُلَّهَا مِنْ أَسْمَانْجُونِيٍّ.... وَتَصْنَعُ عَلَى أَدْبَالِهَا رِمَاتَاتٍ مِنْ أَسْمَانْجُونِيٍّ وَأَرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ، عَلَى أَدْبَالِهَا حَوَالِيهَا، وَجَلَّاجِلٌ مِنْ ذَهَبٍ بَيْنَهَا حَوَالِيهَا. جُلْجُلٌ ذَهَبٌ وَرِمَاتَةٌ، جُلْجُلٌ ذَهَبٌ وَرِمَاتَةٌ، عَلَى أَدْبَالِ الْجِبَةِ حَوَالِيهَا وَتَصْنَعُ صَفِيحَةً مِنْ ذَهَبٍ نَقِيٍّ، وَتَنْقِشُ عَلَيْهَا نَفْسَ خَاتِمِ قُدُسٍ لِلرَّبِّ.}

صناعة مذبح البخور (30-5-1): {وَتَصْنَعُ مَذْبَحًا لِإِيقَادِ الْبُخُورِ. مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ تَصْنَعُهُ.... وَتَغَشِّيهِ بِذَهَبٍ نَقِيٍّ: سَطْحَهُ وَحِيطَانَهُ حَوَالِيهِ وَقُرُونَهُ. وَتَصْنَعُ لَهُ إِكْلِيلًا مِنْ ذَهَبٍ حَوَالِيهِ. وَتَصْنَعُ لَهُ حَلْقَتَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ تَحْتَ إِكْلِيلِهِ عَلَى جَانِبَيْهِ.... وَتَصْنَعُ الْعُصُوبِينَ مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ وَتَغَشِّيهِمَا بِذَهَبٍ.}

فهنا من النص التوراتي، أن القبيلة المقدسة سرقت قبل خروجها ذهب وفضة وأواني المصريين، لكن من أين لهم تلك الكمية الضخمة من خشب السنط، ومن عشرات أنواع البخور والطور؟ لا يستطيع أحد من اللاهوتيين الادعاء أنها من سيناء، إذ لا غابات فيها، ولا إمكانية لنمو الأعشاب، والورود، والأشجار التي يستخرج منها البخور والطور.

الأماكن الخمسين المذكورة في التوراة، التي توقفت عندها القبيلة المقدسة، شهد كل واحد منها نحر عشرات الذبائح من العجول والأغنام، وحرق كميات ضخمة من البخور. فهل أخرجت تلك القبيلة كل ذلك العدد الضخم من العجول والأغنام، وكميات البخور، وهي التي فرت تحت جنح الليل خرفا من فرعون وجنوده؟ وكيف استطاعت المحافظة على ماشيتها، وهي التي سارت ثلاثة أيام بحثا عن الماء، كما مر معنا؟ كما أن كل تلك المحطات لم يتم العثور على أي منها، رغم الألف الرحلات الاستكشافية التي فتشت سيناء شبرا شبرا، أو بين كل حبة رمل وأختها كما قال إسرائيل فلنكتشائين. لو أسقطنا التيه على برية سيناء/صنه من أرض الجوف اليمنية، سنجد هناك مئات المذابح الصخرية التي نحتتها قبائل العرب لنحر ذبائحها تقريبا لالهتها، كما وصفها

التوراة، وسنجد أشجار السنط بكثافة، وعشرات أنواع الأعشاب والنباتات التي يستخرج منها
البخور والعطور.

الجزء التاسع: أسطورة التواجد الإسرائيلي في فلسطين

أسطورة دخول يشوع أريحا

{كُلَّ مَوْضِعٍ تَدُوسُهُ بَطُونُ أَقْدَامِكُمْ لَكُمْ أُعْطِيْتُهُ}156، بموت موسى عليه السلام عبد الرب، انتهى عهد التيه التوراتي المصبوغ برفض واحتقار القبيلة الإسرائيلية، من قبل القبائل والجماعات التي مرت بها، أو حاولت مجاورتها، لبيدأ عهد قوة السيف الإسرائيلي المؤيد من الرب، الطامح إلى إخضاع فلسطين وما جاورها، لتحقيق الوعد السماوي. وكانت أولى أعمال الرب التوراتي، الطلب من "يشوع"، قائد القبيلة المقدسة الجديد عبور نهر الأردن، لأنه، أي الرب، يريد الوفاء بوعد، كما في النص: {وَكَانَ بَعْدَ مَوْتِ مُوسَى عَبْدِ الرَّبِّ أَنَّ الرَّبَّ كَلَّمَ يَشُوعَ بْنَ نُونِ خَادِمِ مُوسَى قَائِلًا: مُوسَى عَبْدِي قَدْ مَاتَ. فَالآنَ فَمَ اعْبُرْ هَذَا الْأَرْضَ أَنْتَ وَكُلُّ هَذَا الشَّعْبِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَنَا مُعْطِيهَا لَهُمْ أَيَّ لِبْنِي إِسْرَائِيلَ. كُلُّ مَوْضِعٍ تَدُوسُهُ بَطُونُ أَقْدَامِكُمْ لَكُمْ أُعْطِيْتُهُ، كَمَا كَلَّمْتُ مُوسَى. مِنَ الْبَرِّيَّةِ وَابْنَانَ هَذَا إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ نَهْرِ الْفُرَاتِ، جَمِيعِ أَرْضِ الْحِثِّيِّينَ، وَإِلَى الْبَحْرِ الْكَبِيرِ نَحْوَ مَغْرِبِ الشَّمْسِ يَكُونُ نَحْمُكُمْ}157.

هذه الفقرات التوراتية المفبركة، تشير بكل وضوح إلى التلفيق الاستشراقي، لعدة أسباب أهمها:

أولاً: طالما أن الرب هو صاحب القرار، فلماذا لم يسهل لهم طريق دخول فلسطين من ناحية غزة على سبيل المثال، وهي الأقرب لصحراء سيناء، حاضنة التيه كما تدعي التوراة؟

ثانياً: بما أن الرب أدخل الأرض الأردنية ضمن حدود السيطرة الإسرائيلية، فلماذا لم يسهل لهم أخذها أولاً، ثم الانطلاق منها إلى فلسطين، لا أن يأخذوا فلسطين، ثم يعودوا إلى الأردن؟

ثالثاً: حسب التاريخ اللاهوتي فإن عام 1271 ق.م شهد موت موسى عليه السلام وتولي يشوع. وعلى الجانب الآخر، فكل المصادر التاريخية تشير إلى أن أول ظهور للحثيين كان في منطقة "حتوساس" من بلاد الأناضول، حوالي سنة (1600) ق.م، قادمين من القوقاز الآسيوي، حيث عاشوا كقبيلة وثنية على هامش التاريخ، حتى ظهر الملك "مورشيلي الثاني" الذي أسس إمبراطوريته امتدت من بحر قزوين حتى الأناضول الأوسط. ثم خاضت عدة حروب مع الإمبراطورية الآشورية/ الآشورية، هزمت فيها، ولم تستطع التمدد خارج الأناضول، حتى انهارت عام 1190 ق.م. وبانهيارها تفرقت القبائل الحثية في الأناضول، وأقاموا ممالك صغيرة في الشمال السوري، ثم أخذت بالتمدد، فخضعت لهم أجزاء من الوسط والجنوب السوري. وأول وجود الحثيين في فلسطين بدأ بعد عام 500 ق.م، واستمر عدة سنوات حيث اصطدموا بالمصريين، الذين أنهوا وجودهم إلى الأبد. فكيف يعد الرب يشوع بالسيطرة على شعب لا وجود له في فلسطين؟ كذلك لا يوجد شعب اسمه الحثيين تعرفه جغرافية اليمن، حيث تدور كل أحداث

156 سفر يشوع(3).

157 سفر يشوع(1-5).

التوراة. لكن الاستشراق التعسفي أسقط إسم الحثيين ضمن جغرافية فلسطين، ليعطي مساحة تاريخية تدعم الرواية التوراتية.

تقول الخرافة التوراتية أن يشوع قاد القبيلة الإسرائيلية، واجتاز بها نهر الأردن، وحاصر مدينة أريحا. وحسب تعليمات الرب، داروا حولها كل يوم دورة، وفي اليوم السابع داروا سبع مرات، ثم هتفوا هتافاً خاصاً بصوت واحد، متزامناً مع نفخ الأبواق، فانهارت أسوار المدينة، ليدخلها يشوع وجنده، ويقتلوا جميع سكانها وكل بهيمة أيضاً. ثم انطلق يشوع بقود قبيلته ليستولي على جبل "علي" والمدينة الرابضة على سفحه. ولما فرغ من قتل جميع سكانها، انطلق وحارب كل ملوك المدن شرق وغرب نهر الأردن، ووصولاً إلى لبنان، وقتل ملوكها وكل الشعوب التي سكنتها، وبلغ عدد الملوك الذين تم قتلهم وأخذ مدنهم (31) ملكاً وهم: **وَهُؤْلَاءِ هُم مَلُوكُ الْأَرْضِ الَّذِينَ ضَرَبَهُمْ يَشُوعُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ فِي عِبْرِ الْأُرْدُنِّ غَرْبًا، مِنْ بَعْلِ جَادِ فِي بَقْعَةِ لُبْنَانَ إِلَى الْجَبَلِ الْأَفْرَعِ الصَّاعِدِ إِلَى سَعِيرٍ. وَأَعْطَاهَا يَشُوعُ لِأَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ مِيرَاثًا حَسَبَ فِرْقِهِمْ، فِي الْجَبَلِ وَالسَّهْلِ وَالْعَرَبَةِ وَالسَّفُوحِ وَالْبَرِّيَّةِ وَالْجَنُوبِ: الْحِثِّيُّونَ وَالْأَمُورِيُّونَ وَالْكَنَعَانِيُّونَ وَالْفَرِزِيُّونَ وَالْحَوِيِّونَ وَالْيَبُوسِيُّونَ. مَلِكُ أَرِيحَا، مَلِكُ عَايَ الَّتِي بِجَانِبِ بَيْتِ إِبِلَ، مَلِكُ أَوْشَلِيمَ، مَلِكُ حَبِرُونَ، مَلِكُ يَزْمُوتَ، مَلِكُ لَخِيشَ، مَلِكُ عَجْلُونَ، مَلِكُ جَازَرَ، مَلِكُ دَبِيرَ، مَلِكُ جَادَرَ، مَلِكُ حَزْمَةَ، مَلِكُ عَرَادَ، مَلِكُ لَبْنَةَ، مَلِكُ عَدْلَامَ، مَلِكُ مَقِيدَةَ، مَلِكُ بَيْتِ إِبِلَ، مَلِكُ تَفُوحَ، مَلِكُ حَافَرَ، مَلِكُ أَفِيقَ، مَلِكُ لَشَارُونَ، مَلِكُ مَادُونَ، مَلِكُ حَاصُورَ، مَلِكُ شَمْرُونَ مَرَاونَ، مَلِكُ أَكْشَافَ، مَلِكُ تَعْنَكَ، مَلِكُ مَجْدُو، مَلِكُ قَادَشَ، مَلِكُ يَفْتَعَامَ فِي كَرْمَلَ، مَلِكُ دُورَ فِي مُرْتَفَعَاتِ دُورَ، مَلِكُ جُوبِيمَ فِي الْجُلْجَالِ، مَلِكُ تِرْصَةَ، جَمِيعِ الْمُلُوكِ وَاحِدٌ وَثَلَاثُونَ¹⁵⁸. وبعد أن فرغ يشوع من قتل الملوك وشعوبهم وحرقت مدنهم، قام بتقسيم البلاد التي استولى عليها على أبناء إسرائيل، حسب الوعود التي قطعها لهم موسى عليه السلام أثناء سنوات النبيه.**

جغرافيا فلسطين وتاريخها في زمن يشوع وتوزيعاته، تجهل جهلاً تاماً جميع أسماء الممالك، وملوكها، ومدنهم، ولا تعرف نهراً باسم الأردن، ولا يوجد في سرديات الإمبراطورية الآشورية/الآشورية، التي كانت فلسطين جزءاً منها ما يشير إلى تلك الأسماء. لكن الأهم من ذلك، هو سور أريحا الذي تهاوى بفعل صيحات أبناء القبيلة المقدسة. فمنذ قيام دولة الكيان الصهيوني حتى الآن، تعاقب على المدينة وما جاورها، مئات البعثات الأثرية الإسرائيلية، وعشرات البعثات الأوروبية التي استنجدت بها دائرة الآثار الصهيونية، ونقبوا المنطقة شبرا شبرا، وبلغ عمق الحفريات التي قامت البعثتان الألمانية والسويدية عشرة أمتار، ومع ذلك لم يتم العثور على أي دليل اركولوجي مهما كان بسيطاً، يشير إلى وجود سور كان يحيط بأريحا، أو بقايا حريق في كل الأغوار الجنوبية.

نص التوراة بالعبرية الصنعانية، يتحدث عن استيلاء يشوع على جبل أريحا وعلى المدينتين الواقعتين على سفحهما، ويرسم النص مشاهد صعود بني إسرائيل إلى أعلى الجبلين. ففي حين

¹⁵⁸ سفر يشوع 12(24-7).

لا يوجد أي أثر لمدينة "علي"، نجد أريحا الفلسطينية تبرز في أعماق نقطة على سطح الأرض، ويستحيل بناء سور حولها، ولا تقع على سفح جبل، والوصول إليها يتطلب هبوطا وليس صعودا.

أما التاريخ اليمني، فيحدثنا من خلال مئات النقوش التي تم العثور عليها، عن مملكة "أوسان" التي بدأت بالتشكل منذ مطلع القرن (10) ق.م، وبلغت أوج ازدهارها في القرن (8) ق.م، حيث قام ملوكها بتوسيع نطاق سيطرتهم على حساب جيرانهم من الممالك الأخرى، ثم عبروا البحر وضموا إلى مملكتهم أجزاء واسعة من بلاد الحبشة وما يعرف الآن بجيبوتي والصومال، فسيطروا على مضيق باب المندب، وتحكموا بطرق التجارة البحرية على طول سواحل بحري العرب والأحمر، وصبغوا تلك البلاد بصبغتهم العربية. وعرف ساحل البحر الأحمر الغربي الممتد من شمال أرتيريا الحالية حتى سواحل الصومال باسم الساحل الأوساني حتى القرن (2) ق.م.

كانت مملكة أوسان هي شريان القلب لحضارة اليمن القديم، وشهدت مدنها الساحلية وموانئها نهضة عمرانية كبيرة وطفرة اقتصادية هائلة، وأصبحت القوة الأولى عسكريا وتجاريا، وبقيت سيدة المسرح حتى تشكل حلف من القبائل الحميرية والسبئية بقيادة الملك "كرب إل وتر" مكرب¹⁵⁹ سبأ، حيث شن هجوما على مملكة "أوسان"، وقتل ملكها "مرتع"، ودمر معابدها، والقصر الملكي "مسور" ووزع أراضيها بين القبائل الحميرية والسبئية وحلفائه القتبانيين والحضارمة وقبيلة سيبان. لكن القتبانيين تمردوا على الملك "كرب إل وتر"، فجهز جيشا وحاربهم وفكك مملكتهم، وقسم أرضها على حلفائه، ومن ضمنهم بني إسرائيل.

ويسجل لنا نقش النصر الذي كتب بأمر من "كرب إل وتر"، أسماء رؤساء جند مملكة "أوسان" وقتبان" الذين تم قتلهم، وأسماء القبائل الحميرية التي وزعت عليها أراضي المملكتين، وكل ما فيه يتطابق حرفيا مع التوزيع التي تدعي التوراة أن يشوع قام به. والمعروف من التاريخ اليمني، كما في شرح النقوش المحفوظة في المتحف البريطاني، أن القبيلة الإسرائيلية كانت حميرية الأصل والمقام.

أما الجغرافيا اليمنية، فقد احتضنت أحد أهم وديان اليمن القديم، وهو وادي "مور" الذي وصفه الهمداني في كتابه "وصف جزيرة العرب" بقوله: "يُقَالُ أَنَّهُ مِيزَابٌ تِهَامَةٌ الْأَعْظَمُ وَيَعْدُهُ فِي الْعَظْمِ وَادِي رَبِيدٍ. يُخْرَجُ رَأْسُهُ فِي غَرْبِي بِلَادِ هَمْدَانَ وَغَرْبِي بِلَادِ حَوْلَانَ وَيَعْضُ حَمِيرٌ، فَأَوَّلُ شَعَابِهِ شَرَسٌ مِنْ جِبَلِ دُخَارٍ، وَمَسُورُ الْمُنتَابِ، وَشَمَالِي جِبَلِ تَيْسٍ، وَالْبَاقِرُ، وَشَاحِذٌ إِلَى جَوَانِبِ مَلْحَانَ، هَذَا أَحَدُ فُرْعَيْهِ الْفُرْعُ الثَّانِي، رَأْسُهُ شَيْعَةُ الْهَلِيَّةِ، وَالْمَوْقِرُ، وَالذَّحْضُ إِلَى مَا وَلاَهُ مِنْ هُنُومٍ وَحَجُورٍ، وَمَسَاقِطُ بِلَادِ وَاِدْعَةَ، وَيَلْقَى سَيْلَ الْحَفْرِ وَحَجَّةً، وَيَلْدُ قَدَمٌ، فَيُخْرَجُ إِلَى تِهَامَةٍ". ويُعتبر وادي مور من أكبر وديان تهامة اليمنية، ومساحة الأرض الزراعية الواقعة على جانبيه، من أخصب الأراضي اليمنية، وشكلت مياه وادي مور المصدر الرئيسي لمياه سد مأرب. ويبدأ وادي مور من أعالي صعدة منحدرًا نحو الجنوب حتى يصب في البحر الأحمر قرب مدينة اللحية القريبة من الحديدية،

¹⁵⁹ مكرب هو لقب حكام سبأ، قبل أن يتخذوا لقب الملك.

ويقسم الجزء الغربي من اليمن إلى قسمين، شرقي وغربي. ويعرف وادي مور في بعض المناطق باسم وادي الجعوم، وباسم وادي الأردن في مناطق مملكة "أوسان" القديمة. وكما بينا، فإن شعب مملكة "أوسان" عرف بإسم الكنعانيين نسبة للإله الصنم كنعان.

وعندما نعود للنص التوراتي الصنعاني، نجد يتحدث عن اجتياز يشوع لمخاضة مائية يطلق عليها مخاضة الأردن، وقد تحدث الهمذاني عن وادي الأردن مطولا.

كذلك، تُحدثنا الجغرافيا اليمنية عن وادي الحار، الذي يبدأ من مديرية عنس في محافظة ذمار، حتى مدينة الحديدية، بطول يزيد على 45 كيلومتر. وتقع ضمن وادي الحار منطقة "بيوس"، حيث تنتشر هناك عدة قرى تعرف بقرى اليبوسيين. وعلى بعد لا يزيد عن ثلاث كيلومترات من قرى اليبوسيين يقع جبل يطلق عليه اليمنيون إسم جبل "يريوخو"، وهو ذات الإسم المذكور في التوراة. وعلى سفح الجبل توجد بقايا مدينة صغيرة، محاطة ببقايا سور مهدم. وبالعودة الى نقش النصر الذي كتب بأمر من "كرب إل وتر"، نجد أن الأرض التي وزعت على قبيلة إسرائيل تبدأ من مدينة "يريوخو" اليمنية.

كل مخطوطات الكتاب المقدس حتى القرن التاسع عشر، تخلو من إسقاط جغرافية التوراة على جغرافية فلسطين، وعندما بدأ التوجيه لجمع يهود أوروبا خارجها، لجأ اللاهوتيون، والآثاريون من التيار التوراتي بإسقاط تاريخ وجغرافية اليمن على جغرافية فلسطين وتاريخها.

وقد بينا خلال البحث كيف قام "إدوارد روبنسون **Edward Robinson**" أستاذ اللاهوت الأمريكي، وبالتعاون مع القس "إيلي سميث **Eli Smith**" الذي يتقن التحدث بالعربية برحلتها الاستكشافية عام 1838، حاملين التوراة، منطلقين من مصر إلى فلسطين مروراً بسيناء، متتبعين كما ظنا مسيرة خروج القبيلة الإسرائيلية حسب النص التوراتي. ثم قاما برحلة استكشافية أخرى عام 1852، حيث أستقر رأيهما على إسقاط جغرافية التوراة على جغرافية الأرض الفلسطينية. وكان هدف ذلك التزوير الاستشراقي؛ خلق رابط بين التوراة وفلسطين من ناحية، وخلق رابط روحي بين يهود أوروبا وفلسطين، كمقدمة لترحيلهم إليها.

أسطورة أورشليم الفلسطينية

{يا اورشليم أيتها الشاهقة، العالية فوق جبل، وتحيط بها قمم الجبال} 160 التوراة العبرية الصنعانية، احتلت أورشليم كمدينة توراتية، مركز الصدارة في الوجدان اليهودي على امتداد أوروبا، كعاصمة الرب الذي سيرسل مسيحه لإحياء مجد داوود التوراتي، كمقدمة لحكم الأمم الأخرى. وقد ساهمت الكنيسة البروتستانتية وجماعة الإنجيليين بدغدغة ذلك الشعور، من خلال بث معزوفة؛ أنتم أيها اليهود أهل المسيح، والأحق بتجهيز المسرح لظهوره، وإن اختلفت الأهداف بين اليهود والمسيحيين.

ونتيجة للعضات الكنسية التي رتلها قساوسة الكنائس والاديرة، وترنيمات حاخامات اليهود من على منابر دور العبادة، وحملة الاستشراق التي نقلتها وسائل الإعلام، أصبحت عبارة: تنساني يميني إن نسيتك يا أورشليم، معزوة يومية يرددها اليهود قبل النوم وبعده، وحول موائد الطعام، وتفتتح بها صلواتهم وتختتم، مصحوبة بالحركات البكائية شوقا لحائط المبكي، الشاهد الوحيد على هيكل سليمان الخرافي، وأطنان الذهب المدفونة تحته. وكل ذلك ممهورا بختم الرب المسطر في نسخ التوراة المترجمة حسب التوجيه والإرشاد اللاهوتي الاستشراقي.

لكن الحقيقة الثابتة التي لا يستطيع أحد من اللاهوتيين إنكارها، تتمثل في أنه لا يوجد في النص العبري للتوراة على وجه الإطلاق، لا تلميحاً، ولا تصريحاً، ولا جملة، ولا كلمة تشير إلى أن القدس الفلسطينية هي أورشليم، وأنها كانت عاصمة الدولة اليهودية التي أسسها داوود. والموجود فيها يتحدث عن جبل مقدس يدعى "قدش"، وعن مدينة دينية فيها معبد تسميها "أورشليم، والنص العبري الصنعاني يقول حرفياً كما في النص: {يا اورشليم أيتها الشاهقة، العالية فوق جبل، وتحيط بها قمم الجبال}. وعندما ترجم النص للعربية وبأبجديات اللغات الأخرى أصبح: {أورُشليمُ الجِبَالُ حَوْلَهَا، وَالرَّبُّ حَوْلَ شَعْبِهِ مِنَ الْآنَ وَإِلَى الدَّهْرِ}.

فهل القدس الحالية، أو "أورشليم" التوراتية مقامة على جبل شاهق، وتحيط بها قمم الجبال؟

لو أسقطنا الرواية التوراتية على جغرافية اليمن، سنجد الجبل المقدس "قدش"، والمدينة الدينية "أورشليم". الهمداني في كتابه وصف جزيرة العرب، يشير إلى أن الوصول إلى الجبل المقدس قدش يمر عبر برية صنة/ه في جنوب تعز، ويبعد عن مدينة عدن مسيرة يومين، وهذا يتطابق مع وصف التوراة وصفا تاماً. واليمنيون يطلقون عليه حتى الآن إسم جبل قدش المبارك، ويرقصون عنده رقصة دينية اسمها رقصة برع، ويرددون: يا قدش يا ذا البرع، ويعرف ذلك كل يمني يقطن تلك المنطقة. لو أخذنا كل هذا وطبقنا عليه ما جاء في النص العبري للتوراة، سنجد أنها تتحدث عن قدش برنيع. لكن عند ترجمة التوراة، جعل المدون مكان قدش برنيع

160 سفر المزامير 125(2).

جنوب بئر سبع الحالية، وأطلق اسم بيرة صنة على الصحراء المحيطة بها، لكنه نسي أنه لا توجد جبال شاهقة، ولا حتى متوسطة العلو عند بئر سبع، ولا في كل جنوب فلسطين.

الغريب أن علماء الآثار اليهود أنفسهم يستخدمون مصطلح "العبرية السبئية، أو العبرية الصناعية" فيما بينهم، وأشاروا في كتبهم إلى ذلك. فما علاقة فلسطين الحالية بالعبرية الصناعية أو السبئية؟ وما علاقة مدينة يبوس/ القدس الفلسطينية بأورشليم التوراتية؟

تعتبر النقوش والسجلات الآشورية/الأسورية المصدر الذي لا مصدر بعده، والشاهد الأوثق كونها سطرت بأيدي صانعي الأحداث. فقد سجلت إسم "قدس/قدش" كاسم لجبل ضمن جغرافيا جبلية، وسجلت إسم "أورشليم" كمدينة دينية في جغرافيا مختلفة، وهذا يبين كيف تلاعب التوراتيون بالتاريخ والجغرافيا معا.

سجلت نقوش "أسور ناصر بال الذي حكم (859-883) ق.م، نقش رقم P177 إسم جبل القدس/قدش في الصورة التالية: (i entered from the land of kadish-haru into the city of anki)، أرض بلاد قدش، وفي مدينة أبكه، دخلت من مدينة أبكة. نلاحظ خلو النص من ذكر مدينة أورشليم.

أما نقش نبوخذنصر الموجود ضمن سجلات الملوك الكلدانية "Chronicles of Chaldaean Kings" في المتحف البريطاني (556-626) ق.م، فقد جاء فيه ذكر إسم القدس/قدش ضمن حملة 599 ق.م، والنص: "في شهر كصلف/ديسمبر/ شهر صفر العربي 599 ق.م، سار نبوخذنصر نصر بجيشه وسيطر على حمت وربة و قدش، وداهم الصحراء القريبة بغارات متتالية ونهب كثيرا من القبائل العربية. هذه النقوش تؤكد بشكل قاطع قيام الآشوريون/ الآشوريين بمهاجمة القبائل اليمنية في مكان يدعى جبل "قدس"، وهو نفس "جبل قدس" في مديرية سامع بمحافظة تعز، وهي ملاصقة لمحافظة لحج، حيث خاض نبوخذنصر معاركه ضد الكهنة اليهود، ثم قام فور انتهاء القتال بتتصيب ملكا/ كاهنا موال له يدعى "جدليا بن اخيقام من شافان" كما هو مذكور في التوراة بالضبط، مع بعض التزوير.

النقوش لا تقول أن قدس هي أورشليم، من قال ذلك هم اللاهوتيون الذين ترجموا إسم قدس إلى أورشليم، فدمجوا المكانين في إسم واحد، ثم سردوا لنا تاريخا مزيفا.

أورشليم التي سجلتها النقوش هي مدينة دينية وليست جبلا، ويتضح ذلك من مقارنة بين النص التوراتي وما حوته النقوش. فمثلا نقش سنحاريب (705) ق.م يقول: بعد أن أراح سنحاريب الكاهن اليهودي حزقيا، أعطى جزء من أراضي ملك موال له يدعى "متنيا/متنية" ثم عين ابنه يعوقم بدلا منه، ونقوش سنحاريب تروي كيف أنه أغلق كل النوافذ على الكهنة اليهود حين هاجم أورشليم، والقي القبض على الفارين، كما يقول النقش:

28: I shut up in Jerusalem his royal city.

أغلقت في أورشليم مدينته الملكية.

31: The cities of his, which i had... to Mitinti, kig of Ashdod.

المدن التابعة له التي سلبتها لقد اقتطعتها من أرضه وألحقها بأرض ملك اشدود. وقد سجلت التوراة الحدث كالتالي: **(وَأَمَّا الشَّعْبُ الَّذِي بَقِيَ فِي أَرْضِ يَهُودَا، الَّذِينَ أَبْقَاهُمْ نَبُوخَدْنَصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ، فَوَكَّلَ عَلَيْهِمْ جَدَلِيَا بْنُ أُخِيْقَامَ بْنِ شَافَانَ)¹⁶¹**. وهكذا تم تعيين ملك جديد موال لملك بابل.

النقش يقول: جدليا بن اخيقام من نشافان.

التزوير التوراتي يقول: جدليا بن اخيقام بن شافان.

فالأول جعل جدليا بن اخيقام من منطقة شافان، بينما جعلت التوراة شافان جدا للملك الجديد، وذلك كي يلتبس الأمر على القارئ. لكن أين نجد منطقة شافان؟ نجدها في: محافظة لحج، مديرية حالمين، عزلة حبييل الريدة، قرية شافان، التي يعرفها كل أبناء المنطقة. ويتضح الأمر عندما نعرف أن شافان نقطة جغرافية لجبل قدس في مديرية سامع. خرافة أورشليم الفلسطينية.

يعتبر كتاب "تاريخ العالم" الذي ألفه القسيس "بلو اوروسوس Paulus Orosius" يطلب من القديس اوغسطين، أحد أوثق مصادر التاريخ الذي تفخر به الكنيسة الإسبانية. وقد دون "اوروسوس" في كتابه ما نما إلى علمه من أخبار منذ بدء الخليقة، حسب ظنه، حتى عام 417 م، زمن الفراغ من كتابته.

علاقة العرب بهذا الكتاب بدأت بعد مضي سنوات على صدوره، إذ ترجم إلى العربية في عهد الحكم الثاني المستنصر بالله. وأول مصدر عربي ذكره، كتاب "طبقات الأطباء والحكام" الذي ألفه عام 377م أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل. وذكر ابن خلدون خبر نقل الكتاب إلى العربية هكذا: "وما نقله أيضا هروشيوش، مؤرخ الروم، في كتابه الذي ترجمه للحكم المستنصر من بني أمية، قاضي النصارى وترجمانهم في قرطبة". وقد استعان به ابن خلدون فيما نقله عن أخبار تتعلق بتاريخ اليونان والرومان، لأنه المصدر الوحيد في ذلك العصر. وقد كان كتاب "اوروسوس" أحد أشهر الكتب الأوروبية وأوسعها انتشارا منذ صدوره حتى عصر النهضة، واستعان به الكثير من المؤرخين. لكن الغريب أن الكتاب بقي مهملا من قبل المؤرخين العرب، رغم ما به من معلومات تاريخية، ثبتت أن فلسطين تجهل كل ما يتعلق بالتوراة وخرافاتهما، حتى تاريخ صدور الكتاب على الأقل. وبقي الكتاب مجهولا لأمة كان فرض "إقرأ" أول أوامر ربها لها، حتى بعثه للحياة من جديد الدكتور عبد الرحمن بدوي، بنقله من اللاتينية للعربية مرة أخرى.

¹⁶¹ سفر الملوك الثاني 25(22).

يهمنا من كتاب تاريخ العالم، ما ذكره "اوروسوس" عن مصر اليمينية، ومدينة القدس الفلسطينية، إذ قال: عند جبل Climax جنوب غرب اليمن تنتهي مصر الأدنى، وتبدأ مصر الأعلى التي تمتد من بحر القلزم حتى جوف خليج العرب. وعند الحديث عن القدس، ذكرها بإسم إيلياء. بمعنى أنه حتى عام صدور الكتاب 417 م، لم تكن مصر الحالية موطنًا للتغرب الإسرائيلي، ولم تعرف القدس الفلسطينية بإسم أورشليم. وفي صفحة (87)، يتحدث عن بني كوش السبئيين التي جعلت التوراة من نسل حام، فيقول: ومن بني كوش (شبا)، هم الذين سكنوا أرض اليمن قبل العرب ودعوا السبئيين وفيهم يقول الشاعر الروماني: إن أغصان البخور للسبئيين خصوصاً. فكيف يتفق هذا وكل المراجع التاريخية المستندة إلى النقوس والسرديات تشير إلى أن السبئيين من نسل قحطان السامي؟

يعتبر عالم الرياضيات "اقلاديوس البلطمي" الأب الروحي لعلم المساحة ورسم الخرائط الجغرافية، ولد في الإسكندرية (260-330) ق.م، زمن الاحتلال اليوناني لها. تجول اقلاديوس في بلاد الشام والجزيرة العربية، ووضع لها خرائط مع شرح لأسماء الأماكن. وفي الخريطة التي وضعها لجزيرة العرب يقول: وفي اليمن (مصر التوراتية) سكن بنو إسرائيل في جازان (جاسان التوراتية)، وهي أرض جوش، وهم بطن من قبيلة جذام، أو جوذان في بلاد ذمار. وقد سخر فرعون مصر اليمينية بني إسرائيل في بناء بلدة بر-رعسيس.

وحسب معجم المدن والقبائل اليمينية ص (77)، فجازان بلدة على ساحل البحر الأحمر من جهة صبيا وأبي عريش باليمن.

أما "والس بودج E. A. Wallis Budge" مؤلف كتاب

"Dictionary An Egyptian Hieroglyphic" فقام بحصر المدن التي تسمى "بر-رعسيس":

بر رعسيس مر يمن Per Ramessu – Mer-Amen

بر رعسيس حيكانو Per Ramessu – Heqamo

بر نبا رعن رعسيس Per Npa Ran Rameses

الآن نوضح أماكن تلك المدن:

مر، واد في وائلة من بلد همدان شرقي صعدة. ومر يمن تعني مر اليمينية.

حيكان، وادي في بلاد الحدا في الشمال الشرقي من ذمار.

نبا رعن، يقول الهمداني في وصف جزيرة العرب، ص (139): نبا أرض رعن في اليمن من أرض مصر، وفيها ظهر موسى الذي أمره الرب بالخروج ببني إسرائيل إلى أرض "هودا" الكنعانية.

ما فعله اللاهوتيون والمستشرقون من التيار التوراتي، إسقاط كامل جغرافية اليمن، على جغرافية مصر وسيناء وفلسطين، بشكل تعسفي لإثبات أسطورة وعد سماوي لا دليل يسنده.

سأذكر بعض الأسماء الواردة في التوراة، وجغرافيتها الحقيقية.

بلاد يام: تقع في منطقة الجوف، كانت تسكنها قبيلة يام قبل انتقالها إلى نجران¹⁶².

بلاد هوذا، هي ذاتها بلاد يام التي خرج إليها بنو إسرائيل، وسميت بأرض هوذا بعد أن سكنتها قبيلة هوذا/هودى، والتي هي فرع من همدان¹⁶³.

مصران بالنون اليمنية، هي بلاد الحجرية، وبلدة مصر تقع في واد الثنية، في بلاد عسير. ومصر عند اليونان "هاكوبتاه/قوبيطاه". والقبيلة، ناحية كبيرة شرق ذبحان اليمنية¹⁶⁴.

بنو سبأ، عزلة من بلاد يريم وحمير. وسبأ هو الجد الجامع لقبائل اليمن. وكهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. ومن حمير التي جهدا الرابع قحطان، وكهلان تفرعت قبائل اليمن والعرب¹⁶⁵.

بنو حث، هم بنو حيثم، وهم ومرثد من بطون قبيلة بكيل، ومساكنهم في همدان¹⁶⁶.

وردت أسماء الشعوب التالية: "حيث، اليبوسي، الأموري، الجرجاشي، العرقي، السيني، الصماري، الحماتي/الحمادي" في التوراة على أنها شعوب هزمها الإسرائيليون في فلسطين، واستولوا على مدنهم.

الأموري/الأموريون، هم الموري سكان واد مور.

¹⁶² معجم المدن والقبائل اليمنية، ص (469).

¹⁶³ معجم المدن والقبائل اليمنية، ص (447).

¹⁶⁴ معجم المدن والقبائل اليمنية، ص (323).

¹⁶⁵ معجم المدن والقبائل اليمنية، ص (199).

¹⁶⁶ المفصل في تاريخ العرب 2(394-391).

اليبوسي/ اليبوسيون، هم سكان بيت بوس جنوب صنعاء حتى بلاد ذمار، وتدعى بلاد بوسان¹⁶⁷.

حوى، قبيلة صفوية من رعين، ظهر اسمها في النقش (C 5081)¹⁶⁸.

العرقى، سكان بلدة عرق، وتعرف الآن عند أهل زبيد بإسم مقبرة باب سهام¹⁶⁹.

السيني، سكان بلدة سين الموجودة في منطقة الأباره اليمنية¹⁷⁰.

الجرجاشي، سكان بلدة الجراجيش اليمنية¹⁷¹.

الحماطي، سكان بلدة حماط الواقعة ناحية مجزر من أعمال صعدة¹⁷².

التزوير التوراتي حوّل سكان القرى اليمنية التي وزعها "كرب إل وتر" على أسباط بني إسرائيل، إلى شعوب وممالك، وصنع خرافة الانتصار الإسرائيلي عليها.

كل أسماء الممالك، والمدن، والشعوب المذكورة في التوراة على أنها في مصر والعراق وفلسطين، موجودة بذات الأسماء في اليمن، وكلها نجدها في:

وصف جزيرة العرب للهمداني، معجم المدن والقبائل اليمنية، تاريخ العرب القديم، المفصل في تاريخ العرب، القبائل التمودية والصفوية.

وكل تلك المراجع، ومئات النقوش اليمنية والآشورية تذكر القدس على أنها جبل هرمي ضخم يدعى قادس، يقع جنوب جبل صبر، وتحيط به جبال شاهقة، وأعلى جبل قادس بنت القبائل اليمنية معبدا دينيا نصبت داخله عشرات الأصنام، الآلهة التي عبدتها، وسمت المعبد بيت السلام/أور سالم. معبد تشترك عشرات القبائل اليمنية في تأدية طقوس عبادتها، ومن ضمنها

¹⁶⁷ معجم المدن والقبائل اليمنية، ص (60-85).

¹⁶⁸ كتاب القبائل التمودية والصفوية (309).

¹⁶⁹ معجم المدن والقبائل اليمنية، ص (283).

¹⁷⁰ معجم المدن والقبائل اليمنية، ص (5).

¹⁷¹ . معجم المدن والقبائل اليمنية، ص (84).

¹⁷² معجم المدن والقبائل اليمنية، ص (128).

اليهودية، ولا علاقة لبني إسرائيل بذلك المعبد، لأن اليهودية كانت دين وثني، وعقيدة بني إسرائيل تقوم على التوحيد. أما الهيكل الذي تدعي التوراة أن النبي الملك سليمان عليه السلام، فلا علاقة لمعبد أور سالم به، لأنه ببساطة تم تشييده في مكان آخر يبعد عن جبل قادس/ القدس عدة مئات من الكيلومترات، وسنين ذلك مستقبلاً.

الملك سمعي التوراتي، حقيقة أم أكذوبة؟

تردد في التوراة ذكر سمعي/شمعى على أنه ملك مرة، وعود لداوود مرة أخرى، ومملكة ضمن تحالف يعادي داوود.

﴿وَأَذْكَرَ أَيْضًا شَمْعَى بْنَ جِيرَا الْبَنِيَامِينِيِّ مِنْ بَحُورِيمَ. إِنَّهُ مَا يَزَالُ فِي هَذِهِ النَّوَاجِي. تَذَكَّرَ أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَيَّ لَعْنَاتٍ شَدِيدَةً يَوْمَ هَرَبْتُ إِلَى مَحْنَائِمَ. ثُمَّ نَزَلَ لِلْقَائِي عِنْدَ نَهْرِ الْأُرْدُنِّ. وَحَلَفْتُ لَهُ بِاللَّهِ أَنِّي لَنْ أَقْتُلَهُ. وَالْآنَ، لَا تَغْفُ عَنْهُ، فَأَنْتَ رَجُلٌ حَكِيمٌ. فَفَكَّرْ بِمَا يَتَّبِعِي عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَ بِهِ. لَكِنْ لَا تَدْعُهُ يَمْتُ بِسَلَامٍ فِي شَيْخُوخَتِهِ﴾¹⁷³. هذا النص جزء من وصية داوود لإبنه سليمان يوصيه بقتل اعداءه.

سمعي هي مملكة يمنية قديمة ذكرت في النقوش كمملكة وشعب بإسم سمع. وسمع في الأساس هو إسم الرب الوثني سمع/السميع الذي سميت به أرضهم وقبيلتهم. وفسره المستشرقون بأنه إله القمر. وأرض سمع تقع في شرق وغرب وشمال مدينة صنعاء، وأهم مدنها اليوم سنحان.

ويرى أيضاً بعض الباحثين أن هذه المملكة كانت قائمة لمدة طويلة سبقت تدوين النقش الذي ذكر أول ملك لها وهو: "يهعن ذبين بن سمع إيل بن كرب إيل"، أي يهعن ذبيان بن إسماعيل بن كرب إيل، وذكر مع هذا الملك "كرب إيل وتر" ملك سبأ وأنها كانت تربطهم علاقة وطيدة وطيبة بينهم منذ عهد الأجداد، ومنهم "كرب إيل جد يهعن ذبيان" ومن جاء بعده من ملوك سبأ وسمعي حتى عهد كرب إيل وتر في القرن السابع قبل الميلاد، وعهد ملك سمعي يهعن ذبيان وأبنة أي اسمه أفقق. كذلك كان عدد من الملوك سبقوا "يهعن ذبيان" في الحكم وكانوا أسلاف له ومنهم "أفق بن سمع يفع"، و"يسمع إيل" وأيضاً اسمه كرب، وهذا مما يرجح أن تاريخ سمعي يعود إلى ما قبل القرن العاشر ق.م حسب النقوش التي اكتشفت حتى الآن. ويطلق على مقر الملك إسم "يعد"، ويساعد الملك في الحكم مجلس يسمى "مسود الشعب السمعي/مسود شعب سمعي" يضم فيه زعماء هذه الإمارة ورؤساء عشائرها والشخصيات المهمة فيها. ثم أصبحت تابعة لمملكة، ثم لمملكة وذو ريدان، ثم لمملكة سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت، ثم لمملكة سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت والطود والتهائم وأعرابهم، ثم لمملكة سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت والطود والتهائم وأعرابهم والسواحل.

أما السجلات الآشورية المحفوظة في المتحف البريطاني فيروي النقش (Ancient Assyrian Records P103)، الخاص ب "تغلث فلاسر الأول TIGLATH-PILESER 1" الوقائع التالية:

¹⁷³ سفر الملوك الأول(2)(8-9).

1: في 1090-1116 ق.م، استولى تجلات بلاسر الأول على "أرض اليهودية". في هذا الوقت كان عزريا اليهودي هو الكاهن/الملك (المحلي) في أورشليم.

2: بدأت الحملة ضد ملكة تدعى "زبيبة" كانت ملكة مقاطعة "العربية/ الصحراء". ثم اتسعت لتشمل قبائل "حبيشني" of Hubishna, Zabibe, queen of Arabia وملك منطقة تدعى سوا/جبل سوا (Mount Sau).

3: وسرعان ما واجه تجلات بلاسر الأول، تحالفا من قبائل كثيرة احتشدت لقتاله، الملك "مناحيم" في منطقة شمير (Menahem) of Samerina (Samaria)، والملك بعل إل (بعل إيل) bi'li، والملك إسماعيل (Sam'al) كما أن قبائل أوسان (Usnu) حشدت مقاتليها في مواجهته.

لكنه انتصر عليهم وأخضعهم جميعا، ثم فرض عليهم الجزية، وأخذ منهم كميات هائلة من الذهب، والفضة، والرصاص، والحديد، والجلود، والعاج والثيراب الملونة الصوفية، وملابس الكتان الأزرق والأرجواني، وخشب البقس والبخور.

أثار هذا النقش الحيرة في أوساط علماء الآثار، فهل ظهرت اليهودية في هذا العصر؟ هل عرفت فلسطين زراعة أشجار البخور؟ وهل كانت هناك كل هذه الكميات الهائلة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة والعاج؟ ومما ضاعف الحيرة أكثر، أن هذه السجلات تستخدم تعبيرا غامضا، إذ وجد تجلات بلاسر الأول خلال حملته، أن عزريا كان دون أعداد؟ Azariah, the land of Judah فماذا يعني ذلك؟

هذه العبارة الغامضة ظلت دون تفسير. لكننا سنكتشف حين نعود إلى نصوص التوراة، أنها ليست غامضة تماما، وأنها تتضمن فكرة دقيقة عن حالة عزريا في هذا الوقت.

ليس المثير للدهشة والتساؤلات أن الجغرافية التي جرت فيها هذه الأحداث لا وجود لها في فلسطين وحسب؛ بل أن تاريخ فلسطين لا يعرف ملوكا بهذه الأسماء، ولا يعرف القبائل الواردة في النقش، فهل اختفت الجبال والمدن فجأة، وزالت عن وجه الأرض دون أي أثر، أم أن الحملة دارت في مسرح حربي آخر؟ لكن لماذا ولأي غرض جرى وضع هذه الوقائع ضمن التاريخ الفلسطيني؟

ما قام اللاهوتيون به؛ هو تقديم شروح إضافية على النص، سرعان ما أصبحت حقائق يرددها الجميع حتى في الجامعات العربية دون أي دليل مادي، ومفادها أن "تجلات بلاسر الأول" استولى على "أرض اليهودية" في فلسطين، في هذا العصر المبكر، وذلك ما يؤكد مقدار الاستهتار المهني الذي طبع عمل ونشاط اللاهوتيين في علم الآثار؛ إذ كيف لعامل أن يتخيل وجود جغرافية في فلسطين، تضم "أرض يهوذا"، ومملكة أوسان اليمينية الشهيرة، وزبيبة ملكة العربية، وإسماعيل، وعزريا ملك اليهود، ومناحيم اليهودي وجبل السوا ضمن مقاطعة شمير؟ وهل كانت فلسطين أرض الذهب والبخور، بحيث إنه استولى على كميات هائلة منها كما يقول النقش؟

التوراة تكذب كل هذه المزاعم، وهي لا تؤيد بأي شكل من الأشكال وجود غزو آشوري لفلسطين في أي وقت من التاريخ، وكل ما يكتب ويقال ويروج له في المؤلفات التاريخية، مصمم لتمرير أكلوبة أن الإسرائيليين واليهود كانوا في فلسطين في قبل ثلاثة آلاف عام.

{ فِي السَّنَةِ النَّاسِعَةِ وَالثَّلَاثِينَ لِعَزْرِيَا مَلِكِ يَهُودَا، مَلَكَ مَنَحِيمُ بْنُ جَادِي عَلَى إِسْرَائِيلَ فِي السَّامِرَةِ عَشْرَ سِنِينَ } { بְּשָׁנַת שְׁלֹשִׁים וְתֵשַׁע שָׁנָה، לְעִזְרִיָּה מֶלֶךְ יְהוּדָה: מֶלֶךְ מְנַחֵם בֶּן-גְּדִי עַל-יִשְׂרָאֵל، עֶשֶׂר שָׁנִים-בְּשַׁמְרוֹן }¹⁷⁴.

التطابق بين الروايتين الآشورية والتوراتية تام.

في النقش: إن الملك الإسرائيلي مناحيم كان يقيم في مقاطعة شمير "مناحيم في شمير"، وفي التوراة: إن "مناحيم في السامرة".

في النقش: عزريا في أرض اليهودية، وفي التوراة الملك اليهودي عزريا كان يقيم في "أرض اليهودية".

هذا التطابق التام بين النقش التاريخي والرواية الدينية، ليس أمرا عرضيا بكل تأكيد، لأنه يعطي صدقية خاصة للوقائع الجغرافية والتاريخية، ويؤكد أن السجلات الآشورية سجلت الأحداث والأسماء بدقة. وكل هذا يعني أن المعارك جرت في مكان معلوم، لكنه ليس في فلسطين بكل تأكيد.

الحدث التاريخي حسب النقش: كان عزريا الكاهن ابن ستة عشر عاما عندما أصبح كاهن أورشليم، لكنه أصيب بالبرص وظل مريضا حتى وفاته. وكان لا يزال يحكم في "أرض اليهودية" ككاهن/حاكم مخالف محلي عندما واجه تحديا لسلطته الدينية من كاهن إسرائيلي منافس وخصم، تسميه التوراة "مناحيم" وكان يحكم مقاطعة شمير.

أما الملكة زيبية، فكانت تحكم مقاطعة يسميها النقش "العربية أي الصحراء"، بينما كان إسماعيل ملكا في مدينة تسميها النقوش الآشورية "مدينة إسماعيل".

إذا وضعنا هذه الوقائع الجغرافية والتاريخية ضمن تاريخ ممالك اليمن القديم، ستبدو الأحداث التي يسجلها النقش والتوراة على حدّ سواء، قابلة للتصديق؛ لأن اليمن عرفت ملكة زيبية، ومدن إسماعيل، وجبل شمير، وجبل السواء، و"أرض اليهودية".

كان عزريا الكاهن مواليا للآشوريين، وهو غير عزرا الكاهن الذي أسره الآشوريون، لكنه مع ذلك كان شديد التدين ومحبويا من اليهود اليمنيين، رغم اعتزاله الحياة العامة بسبب مرضه. وهنا تبدو إشارة تجلات بلاسر الأول الغامضة والتي حيرت علماء الآثار: "كان عزريا دون أعداد"

¹⁷⁴ سفر الملوك الثاني 15(17).

تعبيراً عن عزلته هذه بسبب مرضه، وذلك ما شجع خصمه الملك الإسرائيلي في "السامرة" على مهاجمته في أرضه. ولأنه كان موالياً للأشوريين، فقد تدخلوا لإنقاذ عرشه من السقوط.

والهجوم حسب النقش بدأ ضد الملكة زيبية (في الصحراء). ليست زيبية هذه التي اصطدم بها الآشوريون سوى إحدى ملكات مآرب، وحتى اليوم نجد اسمها هناك: محافظة مآرب، مديرية رحبة، عزلة آل بو عشة، قرية وادي اللب، محلة زيبية.

أما مدينة إسماعيل، فهي "مدينة شعب سمعي/سمع إيل إسماعيل في نقوش المُسند" الذين كانوا يقيمون في صروح العاصمة الدينية. ثم انتقلت المعارك إلى تعز حيث جبل حبشي، الذي يسميه النقش "حبشية/حبشي". ولذلك حشد مناحيم فرسانه في جبل السوا، وهو اليوم الجبل نفسه وبالاسم نفسه على مقربة من "السوا"، وهذا هو الإقليم القديم الذي يعرفه التاريخ اليمني باسم "السوا" وكان من أهم أقاليم تعز، لأنه لعب دور مركز النشاط التجاري لقربه من ميناء الحديدة. حيث كانت السيطرة على طرق التجارة هدفاً مركزياً في الصراعات القبلية.

السؤال: هل قرأ علماء الآثار أسماء المدن والجبال والملوك بطريقة مغلوطة، أم كان الأمر مدروساً لأجل تأكيد أنها في فلسطين؟

الأمر ليس مواضع متشابهة تحتل الاختلاف، فنحن أمام وقائع تاريخية لا سبيل للسجال حولها. كل هذا يعني أن التوراة سجلت وقائع صحيحة لا يتعين الاستخفاف بها. ولهذا، إذا ما قرأنا نقوش الآشوريين قراءة نزيهة، ووضعنا جغرافيتها، والوقائع التاريخية التي تسجلها ودون تكلف، ضمن جغرافية وتاريخ اليمن القديم، فسوف نكتشف أن الحملة هدفت إلى إخضاع القبائل اليمنية، ومنعها من السيطرة على المقاطعات الحيوية، ولذا خاضت جيوش الآشوريين باستمرار معارك عنيفة من أجل الاستيلاء على الذهب والمعادن الثمينة، وتأمين طرق تجارة البخور التي كانت تتعرض لهجمات واعتداءات القبائل المتمردة. وكما يتضح من السجلات الآشورية، فقد كانت اليمن تحتكر تجارة البخور، وتمتلك ثروة من الذهب، لذلك كانت هدفهم، وليس جنوب الشام الفقير، فلسطين، الذي كان في الأصل جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الآشورية.

إن وجود النقوش والسجلات الآشورية، جعلت تزوير التاريخ أمراً عسير المنال، لذلك افتضح أمر التوراة التي حولت مدينة إسماعيل، وشعب مملكة/مخلاف سمعي إلى شِمَعَى بَنَ جِيرَا البَنِيَامِينِي مِنْ بَحُورِيمَ، التي يجهلها الكل.

اغتناب ممتلكات الآخرين وأرضهم، يتطلب تزوير الأوراق الرسمية، والسجلات التاريخية. وفي موضوع التاريخ المتعلق بفلسطين، فإن النقوش والسجلات الآشورية هي أوراق التاريخ التي يستحيل تزويرها، التوراة تعج بقصص الصراع والتآمر بين الإسرائيليين واليهود.

أسطورة حبرون التوراتي

وَمَاتَتْ سَارَةُ فِي قَرْيَةِ أَرْبَعِ، الَّتِي هِيَ حَبْرُونَ، فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. فَآتَى.... أَنَا غَرِيبٌ وَنَزِيلٌ عِنْدَكُمْ. أَعْطُونِي مَلِكٌ قَبْرٍ مَعَكُمْ لِأَدْفِنَ مَيِّتِي مِنْ أَمَامِي.... فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ وَسَجَدَ لِشَعْبِ الْأَرْضِ، لِبَنِي حَثَ.... فَاسْمَعُونِي وَالتَّمَسُّوا لِي مِنْ عَفْرُونَ بْنِ صُوحَرَ... أَنْ يُعْطِيَنِي مَغَارَةَ الْمَكْفِيلَةِ الَّتِي لَهُ..... فَسَجَدَ إِبْرَاهِيمُ أَمَامَ شَعْبِ الْأَرْضِ¹⁷⁵.

حدثتنا التوراة عن موت سارة زوج إبراهيم في قرية أربع التي هي حبرون، واجتماع الزوج مع رجالات من شعب الحثيين، ليطلب منهم قطعة أرض، أو مغارة لدفن الزوجة، مذكرا إياهم أنه غريب ديار بينهم. كان جواب القوم استعدادهم التنازل عن موضوع قبر لها، فتأثر إبراهيم من عرضهم، فسجد لهم سجود الشكر. ثم طلب منهم التوسط لدى عفرون بن صوحر كي يبيعه مغارة له في حقل يملكه. فوافق عفرون، فما كان من إبراهيم إلا أن يسجد لعفرون شاكرًا له ذلك.

أليس عجا أن يسجد إبراهيم، الذي وعده الرب التوراتي ملك فلسطين، مرتين، الأولى لجموع الحثيين، والثانية لعفرون وحده؟

أليس هو من خاطبه الرب قائلا: **لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ تَرَى لَكَ أُعْطِيَهَا وَلِنَسْلِكَ إِلَى الْأَبَدِ**¹⁷⁶، فكيف يسجد مالك الأرض بموجب وعد سماوي؟ ثم كيف لمن أعطي ذلك الوعد الادعاء أنه غريب، ونزيل في أرض المفروض أنه مالكها؟

تعتبر مدينة الخليل الفلسطينية، نقطة مركزية في صلب الدعوة اليهودية، كونها تحتضن المغارة التي اشترها إبراهيم من "عفرون" أحد رجالات "بني حث" بمبلغ 400 شاقل من الفضة ليدفن زوجه سارة، ثم دفن هو فيها، ودفن الإبن إسحاق وزوجه، والحفيد يعقوب وابنه يوسف. وتيمنا بالنبي إبراهيم عليه السلام، ومن لقبه "خليل الرحمن"؛ اشتق الفلسطينيون اسم الخليل، وأطلقوه على مدينتهم، في حين أبقت التوراة اسم "حبرون".

بينما أن التوراة ذكرت الحثيين أو بني حث، من المكونات السكانية في فلسطين قبل وصول إبراهيم إليها. ومعروف تاريخيا أنه الرحلة الإبراهيمية بدأت على وجه التقريب بين (1850-2000) ق.م، وهذا نوع من التضليل المتعمد، إذ تؤكد الوثائق المسمارية التي اكتشفت في الأناضول، واشترك بجل رموزها العلامة الفرنسي "مورجان" والمؤرخ "لورمان"، والعلامة الإنجليزي "سايس"، وعالم اللغويات "بيدشيك هرونزي"؛ أن الحثيين قبائل اشكنازية جاءت من القوقاز الآسيوي واستقرت في شمال الأناضول، تركيا حاليا، وأسست امبراطورية في منطقة "حتوساس" حوالي سنة (1600) ق.م، أي بعد رحلة إبراهيم بحوالي 200 عاما، فعلى أي أساس استندت

¹⁷⁵ سفر التكوين 23(12-2).

¹⁷⁶ سفر تكوين 13(15).

التوراة لنسج تلك الاكذوبة، بينما كل الدلائل تشير إلى أن أول وجود الحثيين في فلسطين بدأ بعد عام 500 ق.م

الإسم "حبرون" الذي تطلقه التوراة على مدينة الخليل الفلسطينية، ليس له سند تاريخي، ولا جذر لغوي يعود إلى لغة أهل البلاد الأصليين، أو اللغة العبرية. في المقابل نجد قرية "حبر"، تقع في محافظة أبين جنوب اليمن، وهي مقر لمن يحكم المنطقة، واشتهرت بصناعة الثياب التي يرتديها الملوك وعلية القوم، وهي التي عرفها العرب بإسم الثياب الحبرية. وبالعودة الى رحلة إبرام حسب الجغرافيا اليمنية، فإن منتهها كان بين محافظتي لحج والضالع، نستطيع فهم علاقة حبر بالسرديات التوراتية. كذلك تشير النقوش اليمنية إلى أن كهنة معبد "حبر" أطلق عليهم الأحبار، وهو الإسم الذي حمله رجال الدين اليهودي بعد قيام الدولة اليهودية الحميرية، ويطلق على رجال الدين في دولة "إسرائيل" الحالية.

أثبتت حفريات تل الرميدة سنة 1964 وجود آثار تشير إلى تواجد بشري يعود الى حوالي 6 آلاف عام، أي خلال حقبة العصر الحجري النحاسي. وتشير الحفريات إلى نهضة أوسع تعود إلى (2700) ق.م، وهي المرحلة الزمنية التي شهدت هجرة قبائل عمليق اليبوسية من بلاد ييوس اليمنية، إذ وجد على لوح مسماري ضمن الحفريات، أسماء أربع شخصيات تتشابه مع أسماء اليبوسيين اليمنيين. وقد دونت الموسوعة الفلسطينية نتائج تلك الحفريات، التي اختفت شواهدا الأثرية بعد الاحتلال الإسرائيلي.

بلاد الحثيين اليبوسيين تقع قرب بلاد "هودا" التي هي مأرب اليمنية، تقول التوراة أن سارة ماتت في قرية "أربع" التي أمام "ممر". أربع قبيلة عربية، سميت مساكنها باسمها، فعرفت ببلاد أربع، وكان يلقب شيوخها بلقب الملك، وعرف منهم حسب النقوش: نبط ايل، ولحي عث بن سلمان، وعم أمن¹⁷⁷.

وممرا، وادي في منطقة نائلة من بلد همدان شرق صعدة¹⁷⁸.

هكذا يتضح أن إبراهيم هاجر من حضرموت إلى جنوب اليمن، وسكن بين قادش وشور، تغرب في جرار. بينا أين تقع قادش، أما جرار فهي مدينة صغيرة غرب إب، وشور برية مملكة "قتبان"، حيث بلاد الكنعانيين¹⁷⁹.

¹⁷⁷ تاريخ العرب القديم، ص (331).

¹⁷⁸ معجم المدن والقبائل اليمنية، ص (375).

¹⁷⁹ تاريخ العرب القديم ص (260).

أما عوفرن بن صوحر الذي باع المغارة لإبراهيم، فينسب إلى "آل عفر" وهم من بطون قبائل ذو حسين ومساكنهم في الجوف، وخولان وآل عفر من قبائل همدان.

الاستشراق التوراتي تلاعب بجغرافية اليمن، ونقلها إلى فلسطين بعد أن حرف بعض الأسماء. فقبيلة حيث اليمنية، أصبحت شعب الحثيين، وقرية أربع نقلها من همدان إلى جانب مدينة اليبوسيين التي أطلق عليها حبرون، لأن أربع اليمنية تجاوزها مدينة الحبر التي اشتهرت بصناعة الثياب الحبرية، وجعل من حبرون ومغارتها مقبرة للجد إبراهيم وكوكبة من نسله، ليخلق من الأوهام جذورا للقبيلة الإسرائيلية في فلسطين.

بقي أمر في غاية الأهمية، فحتى تاريخ طرد الجيوش العربية للمحتل الروماني، لم يكن أحد يعرف أن مدينة الخليل تحتضن رفاة أولئك الأنبياء. والمعروف تاريخيا أن شهداء معركة أجنادين (634) م نقلوا من الرملة حيث دارت المعركة، ودفنوا في مغارة الخليل الحالية. ولو كان لدى الصحابة آثار من علم بأن المغارة تضم رفاة أولئك الأنبياء، لما دفنوا أحد إلى جوارهم.

لا أود الغوص في مقدسات إسلامية، حشرت في أدمغة أبناء الأمة، لكن نحن نتحدث عن تاريخ. لذلك لا يوجد دليل علمي أثري، يثبت أن الشخوص المباركة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأسابطه ونسلهم، تواجدوا في فلسطين في أي مرحلة تاريخية تعود إلى ما قبل إجلاء يهود يثرب. كما أننا لا نملك رواية دينية موثقة تشير إلى أنهم كأنبياء مدفونين في مدينة الخليل الفلسطينية. فكل ما ذكره المؤرخون العرب لا يستند إلى نص قرآني، أو حديث نبوي صحيح صريح، بل عرفوا من مستنقع التوراة بدون تثبت.

قضية فلسطين مسألة وجود، إضافة إلى كونها جزء من العقيدة، والمطلوب من الفلسطينيين؛ عزف سمفونية تاريخية خاصة بهم، تستند إلى حقائق التاريخ، وما نطقت به الأرض من ثوابت تنفي التواجد التوراتي المزيف في بلادهم. وقدسيتها لا تعود إلى قبور أنبياء تدعي التوراة وجودها في مدينة الخليل، بل إلى ربط السماء للمعبد الذي بني قبل مولد الجد التوراتي الأعلى بأربعين قرنا، بالمعبد الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام في وادي "بكة/مكة".

تواجد أهل فلسطين فوق أرضهم ثابت، منذ أولى هجرات قبائل قحطان العربية، والتي بدأت في القرن الأربعين ق.م، أي قبل مولد الجد التوراتي الأعلى بألفي عام. وهم قيس من الحضارة الآسورية/الاشورية التي علّمت الدنيا فن الكتابة، ودمشقة¹⁸⁰ المدن ودوسرتها، وكفى بذلك فخرا

¹⁸⁰ دمشق (بفتح الدال وتسكين الميم) كلمة عربية قحطانية، إلى سهل الغوطة، وحطت رحالها، لم تكن تظن أن شتاء المنطقة شديد البرودة. لذلك مع بدأ تساقط الثلوج، تنادوا فيما بينهم لبناء مساكن تقيهم البرد، وكانوا يحثون بعضهم البعض بالقول: دمشقوا دمشقوا، أي أسرعوا أسرعوا. وبعدها أطلقوا على تجمعهم السكني إسم دمشق، أي المبنية بسرعة.

. دوسر كلمة عربية سبغية تعني المنيح، والمحصن، والقوي، والثابت. ويطلق على الأسد إسم دوسر، أي القوي.

أسطورة السطو على ماشية أيوب عليه السلام

أخبرتنا التوراة أن نسب نبي الله أيوب عليه السلام يعود إلى إبراهيم عليه السلام، وأن زوجه تدعى "منشا" بنت يوسف بن يعقوب عليهم السلام، وأن بعثته كانت بين بعثتي إبراهيم وموسى عليهم السلام، وهوران جنوب دمشق محل إقامته، وهناك مات أيضا. وأيد المؤرخون المسلمون ذلك، وعلى رأسهم الذهبي وابن كثير.

المعروف من التراث التوراتي أن أيوب تعرض لابتلاء من الله، بدأ بفقدانه أمواله. وأيد القرآن ذلك الابتلاء.

حسب النص التوراتي، نجد أن جماعة من السبئيين أغاروا على أبقار أيوب وسرقوها وقتلوا الرعاة، وأن الكلدانيين أغاروا على جماله فسلبوا بعد قتل الرعاة أيضا، والنص: {وَكَانَ ذَاتَ يَوْمٍ وَابْنَاؤُهُ وَبَنَاتُهُ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ خَمْرًا فِي بَيْتِ أَخِيهِمِ الْأَكْبَرِ. أَنْ رَسُولًا جَاءَ إِلَى أَيُوبَ وَقَالَ: الْبَقَرُ كَانَتْ تَحْرَثُ، وَالْأْتُنُ تَرْعَى بِجَانِبِهَا، فَسَقَطَ عَلَيْهَا السَّبْئِيُّونَ وَأَخَذُوهَا، وَضَرَبُوا الْعُلَمَانَ بِحَدِّ السَّيْفِ، وَنَجَوْتُ أَنَا وَحَدِي لِأَخْبِرَكَ. وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ إِذْ جَاءَ آخَرُ وَقَالَ: نَارُ اللَّهِ سَقَطَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَأَحْرَقَتْ الْعَنَمَ وَالْعُلَمَانَ وَأَكَلَتْهُمْ، وَنَجَوْتُ أَنَا وَحَدِي لِأَخْبِرَكَ. وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ إِذْ جَاءَ آخَرُ وَقَالَ: الْكَلْدَانِيُّونَ عَيْنُوا ثَلَاثَ فِرْقٍ، فَهَجَمُوا عَلَى الْجِمَالِ وَأَخَذُوهَا، وَضَرَبُوا الْعُلَمَانَ بِحَدِّ السَّيْفِ، وَنَجَوْتُ أَنَا وَحَدِي لِأَخْبِرَكَ} 181.

النص واضح لا يحتاج لتأويل، فالسبئيون سلبوا أبقار وحمير أيوب، بينما جاء الكلدانيون بثلاث فرق ليسلبوا جماله، لو حللنا جغرافية الحدث كما ترويه التوراة، نجد:

هوران جنوب دمشق موطن نبي الله أيوب.

السبئيون هم سكان مملكة سبأ اليمنية، وهذه حقيقة لا يختلف عليها اثنان، ولا يوجد في كل السرديات التاريخية ما يشير إلى حكم السبئيين لبلاد الشام.

الكلدانيون حسب كل المراجع التاريخية، سكان جنوب العراق.

حسب الرواية، فإن السبئيين قطعوا المسافة من سبأ جنوب اليمن، إلى حوران الشام ليسلبوا بقرات وحمير أيوب فقط، ثم عادوا إلى ديارهم، بينما جهز الكلدانيون ثلاث فرق عسكرية انطلقت من جنوب العراق، لسلب قطيع من الجمال عند أطراف حوران.

رواية لا يقبلها عقل، ولا تنسجم مع الحقائق التاريخية، وتلفظها الجغرافيا.

181 سفر أيوب(17-13).

الزمن التقريبي لبعثة أيوب عليه السلام ينحصر بين (1450-1850) ق.م، وهي المدة بين إبراهيم وموسى عليه السلام. وكل المراجع التاريخية تؤكد أن الإمبراطورية الكلدانية لم تعمر إلا (200) سنة، حيث ظهرت عام (2400) ق.م، وانتهت عام (2200) ق.م، أي قبل بعثة أيوب بسبعة قرون. فكيف هاجم الكلدانيون حوران إذا؟

بيننا أن كل أحداث التوراة حدثت في اليمن، فبالتالي كانت سبأ هي موطن أيوب، وهذا يفسر سطوهم على بقره وحميره.

فهل يقبل العقل أن يقطع جماعة من السبئيين المسافة من اليمن إلى جنوب دمشق لسلب عدة بقرات، ثم يعودوا إلى سبأ، ويأت الأكاديون من جنوب العراق بحملة عسكرية مكونة من ثلاث فرق لأخذ بعض الجمال والعودة بها؟ أم أن أيوب كان يعيش في منطقة قريبة من السبئيين، وأن السرد التوراتي عن تواجده في بلاد الشام مجرد هذيان، وتلفيق ممن دون التوراة لأغراض استيطانية شيطانية؟

لم يستطيع أحد من اللاهوتيين الإجابة على السؤال المطروح منذ نهاية القرن التاسع عشر، ونصه: ما الدافع لحشر اسم الأكاديين في رواية حدثت بعد زوال ملكهم، وانصهار من تبقى منهم ضمن شعوب وقبائل جنوب العراق؟

لم تكن أسطورة تواجد أيوب عليه السلام على حدود فلسطين يتيمة توراتية، بل لها مئات الشقيقات تضمنتها أسفار القضاة، وصموئيل الأول والثاني، وسفري الملوك، وسفري أخبار الأيام الأولى والثانية، سنذكر بعضها مستقبلاً، في سبيل رد خرافة تواجد القبيلة الإسرائيلية فوق الأرض العربية.

أسطورة مملكة موآب الأردنية

وَقَالَ لَهُمْ: انْبِعُونِي لِأَنَّ الرَّبَّ قَدْ دَفَعَ أَعْدَاءَكُمْ الْمُوآبِيِّينَ لِيَدِكُمْ. فَتَزَلُّوا وَرَاءَهُ وَأَخَذُوا مَخَاوِصَ الْأُرْدُنِّ إِلَى مُوآبَ، وَلَمْ يَدْعُوا أَحَدًا يَغِيرُ. فَضَرَبُوا مِنْ مُوآبَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ نَحْوَ عَشْرَةِ آلَافٍ رَجُلًا، كُلَّ نَشِيطٍ، وَكُلَّ ذِي بَأْسٍ، وَلَمْ يَبْجُ أَحَدٌ. فَذَلَّ الْمُوآبِيُّونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَحْتَ يَدِ إِسْرَائِيلَ. وَاسْتَرَاخَتِ الْأَرْضُ ثَمَانِينَ سَنَةً. وَكَانَ بَعْدَهُ شَمْجَرُ بْنُ عَنَاءَ، فَضَرَبَ مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ سِتَّ مِئَةِ رَجُلٍ بِمَنْسَاسِ الْبَقْرِ. وَهُوَ أَيْضًا خَلَّصَ إِسْرَائِيلَ¹⁸².

القصة باختصار تتحدث عن هزيمة بني إسرائيل على يد ملك موآب واسمه عجلون، واستعبادهم حتى ظهر فيهم القاضي "يهود بن حيرا البنياميني"، الذي وحد القبيلة الإسرائيلية، وعبر بها مخاضة الأردن وهاجم مملكة موآب وقتل من شعبها 10 آلاف رجل، واستعبدوا الباقي 80 عاما، حتى ظهر في موآب رجل اسمه "ميشع بن كموشيت" فوحد الشعب الموابي، وطرده الإسرائيليون الى غرب مخاضة الأردن.

وقد دون الملك "ميشع" انتصاره بنقشه على حجر بازلتي اسود، ونصه كما ترجمه اللاهوتيون: "أنا ميشع بن كموشيت ملك موآب الذيباني، أبي ملك على موآب ثلاثين سنة، وأنا ملكت بعد أبي، وأنشأت أهراماً، لكموش، ولقد بنيت ذلك لأن كموش أعانني على قهر كل الملوك، ولأنه أشمتني بكل أعدائي المبغضين، أما "عمري" ملك إسرائيل، فقد اضطهد موآب طويلاً، ذلك لأن كموش أضحى مكروهاً بأرضه، وخلف "عمري" ابنة فقال هو الآخر "سأضطهد موآب" أجل، لقد قال شيئاً كهذا الكلام، ولكن كموش جعلني أراه مهزوماً من أمامي، هو وإلهه، وبادت إسرائيل، بادت إلى الأبد. وكان "عمري" قد ورث أرض مادبا، فأقام بها مدة حكمه، كما أقام بها الإسرائيليون من بعده، مدة تبلغ نصف حكم أبناء "عمري" فمجموع ما أقاموه بلغ أربعين سنة، وقال لي كموش "أذهب وخذ نيو من إسرائيل فذهبت في نفس الليلة/ واشتبكت بالمدينة من وقت تبين الخيط الأبيض من الأسود حتى الظهر، وافتتحتها، وذبحت كل سكانها، وعددهم سبعة آلاف، رجالاً وصبياناً ونساءً، وبنات وإماء.. كما أنني أخذت من هنالك مواقف يهوه وسحبته جميعاً حتى وضعتها بين يدي كموش".

اكتشف النقش عام 1868 على يد الراهب الألماني "ف. أ. كلين" الذي كان يقيم في القدس، ثم أخذه منه المستشرق الفرنسي "شارل كليرمون - غاثيو" الذي أهداه لمتحف اللوفر الباريسي عام 1873. وحسب التاريخ الذي فرضه اللاهوتيون على المنطقة، فإن الرواية تعود إلى حوالي 850 ق.م، وبالتالي اعتبر النقش من أقدم نقوش بلاد الشام.

لغة النقش عربية بلسان قبائل مملكة "قنبان" اليمانية، والتي تعد العبرية الصنعانية إحدى لهجاتها. وبترجمته إلى العبرية الحديثة، أصبحت مادة النقش تنسجم مع مرويات التوراة الاستشراقية الهادفة إلى خلق تواجد لبني إسرائيل في فلسطين. لذلك وجدنا تمسك اللاهوتيون بما جاء في النقش، لدرجة أن بعضهم طعن في مصداقيته في المواضيع التي تتعارض مع النص التوراتي،

¹⁸² سفر القضاء 3(28-31).

بينما اعتبر المستشرق وجامع المخطوطات "إبراهيم شالوم يهودا"، (1877-1951)، كتابته ملفقة، وهذا ما دونه ضمن عمله كمشرف على المخطوطات اليمنية في جامعة ميتشغان الأمريكية.

في السنوات اللاحقة التي شهدت محاولات محمومة قام بها اللاهوتيون لتطويع نقوش بلاد الشام واليمن ومصر، لتتنسج مع الخرافات التوراتية، ظهرت عدة قراءات مختلفة لنقش ميشع، أهمها قراءة البروفسور العربي "كمال صليبي"، والعلامة "توماس ل. طومسون Thomas L. Thompson"، عالم اللاهوت وأستاذ الكتاب المقدس في جامعة كوينهاغن بين الأعوام (1993-2000)،

فكلاهما يتقن اللغات: العربية، والعبرية الصناعية، والعبرية الحديثة، وقد اثبتا خطأ قراءة اللاهوتيين الغربيين لأسماء المدن والأشخاص الواردة في النقش. وأثبتت قراءتهما أن كل أسماء القرى هي ذاتها الكائنة في حدود مملكتي "اوسان وقتبان" اليمينيتين، ولها شبيهات تحمل ذات الأسماء في منطقة الطائف الحجازية.

فالأسماء اليمنية: عم يب، وديين، هذبء.

بينما الأسماء الحجازية: أم الياب، والديبان، وهديبة. ولا علاقة لفلسطين والأردن بتلك الأسماء، فمثلا التوراة تتحدث عن "ملك عمري"، وليس الملك عمري. وقد بينا أن عمري منطقة يمنية كما في النقوش اليمنية والأشورية التي تحدثت عن المعارك التي دارت مع ملوك منطقة عمري. كذلك لا تعرف سرديات بلاد الشام كلها صنما عبد كاله يحمل اسم كموش، بينما عبد الاله كمش في جنوب اليمن. لذلك اعتبر "تومسون" ما حواه النقش مجرد أخيلة و رغبات لأحياء معتقدات أسطورية.

من يقارن بين نص نقش "ميشع" والسرد التوراتي يجد اختلافات جوهرية، تنسف الحدث من أساسه، منها:

1- جاء في التوراة: ﴿فَلَمَّا رَأَى مَلِكُ مُوآبَ أَنَّ الْحَرْبَ قَدْ اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ أَخَذَ مَعَهُ سَبْعَ مِئَةِ رَجُلٍ مُسْتَلِّي السُّيُوفِ لِكَيْ يَشْفُقُوا إِلَى مَلِكِ أَدُومَ، فَلَمْ يَقْدِرُوا. فَأَخَذَ ابْنُهُ الْبِكْرَ الَّذِي كَانَ مَلِكًا عَوْضًا عَنْهُ، وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عَلَى السُّورِ. فَكَانَ غَيْظٌ عَظِيمٌ عَلَى إِسْرَائِيلَ. فَأَنْصَرَفُوا عَنْهُ وَرَجَعُوا إِلَى أَرْضِهِمْ﴾¹⁸³.

2- النص يتحدث عن فشل "ميشع" في هزيمة الإسرائيليين في بداية الحرب، عندها اختار 700 جندي، وأخذ ابنه وقدمه قربانا للإله "كموش" كي يرضى عنه وينصره. فلماذا رأى الإسرائيليين ذلك خارت قواهم وانهمزوا

¹⁸³ سفر الملوك الثاني 3(26-27).

هذا الحدث المركزي أزيح من نص المسلة. فلماذا يتخلى ميشع في نقشه المزعوم عن أهم حدث في القصة، وهو الحدث الذي أدى إلى انتصاره؟ هذا ما يضاعف الشكوك حول النقش. إذ هو يعطي الانطباع بأن هناك طرفاً ما، يحكم على نص سفر الملوك، ويفصل بين ما يعتقد أنه تاريخي وما يعتقد أنه أسطوري فيه، راميا الأسطوري إلى سلة المهملات، وزارعاً ما يعتقد أنه التاريخ في نص النقش.

1- نص النقش يختصر قصة سفر الملوك الثاني ويزيد من استقطابية ملكين فقط. فهو يحذف يهودا وأدوم من المشهد، باعتبارهما عنصرين تشوش في العرض التاريخي- الدرامي المطلوب، فيما يبدو.

2- المشكلة المركزية في النقش، والتي تثير أشد أنواع الشكوك هي مسألة الإله يهوه. فالنقش جعل يهوه إله إسرائيل القديمة. وهذا يوافق الخطة التوراتية التي حدثت بعد زمن متأخر. فالإله يهوه كان في الأصل إلهاً لليهود وحدهم، بينما عبد الإسرائيليون إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى. وبعد السبي البابلي وحد اليهود والإسرائيليين آلهتهم، وعبدوا الإله يهوه، وحدث ذلك في القرن الخامس ق.م. وحسب التاريخ التوراتي فإن حرب ميشع حدثت بحدود 850 ق.م. فكيف علم ميشع بالإله يهوه الذي ظهر بحوالي أربعة قرون؟

3- حاول بعض اللاهوتيون للخروج من هذا المأزق، الادعاء بأن الحدث والنقش يعود إلى مرحلة ما بعد السبي البابلي، وهذا مستحيل. إذ لا يوجد حتى في التوراة ما يشير إلى قيام كيان اسمه إسرائيل، لا في فلسطين، ولا في اليمن بعد السبي البابلي الذي أنهى مملكة إسرائيل.

4- التشابه الواضح بين النقش الذي دون سيرة سرغون الأول، ونقش ميشع. فالأول كتب بعد عدة مئات السنوات من موت سرغون، ويقول في جملته الأولى: أنا سرغون، ونقش ميشع كتب بكل تأكيد بعد مئات السنوات من موته، وأول جملة فيه: أنا ميشع. والأمر الذي يثير الاستغراب، أن نقش سرغون الأول اكتشف وترجم عام 1867، ونقش ميشع اكتشف وترجم عام 1868، أي بفارق عام واحد بين النقشين، في أوج الاندفاع الاستشراقي لخلق تواجد لليهود في فلسطين. فمن زور النقش الأول، هو ذاته من زور النقش الثاني.

5- ليس من عادة الملوك عند تدوين سيرتهم، البدء بوصف ذلهم وخضوعهم لملوك آخرين، حتى لو كان ذلك صحيحاً. وكذلك ليس من عادة مدون التوراة الاعتراف بهزيمة اليهود بذلك الشكل المهيم. ويبدو أن مزور النص كان همه الوحيد خلق أكنوبة تثبت التواجد اليهودي في المنطقة، ولو على حساب هزيمة نكراء تلحق بالشعب اليهودي.

6- لم تعرف الجزيرة العربية، ولا بلاد الشام كلها قبيلة بإسم ذبيان، إلا في مرحلة متأخرة تعود إلى مئة عام قبل الإسلام. فقبيلة ذبيان تنسب إلى ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، كما تقول كتب الأنساب العربية، وذبيان الجد من معاصري هاشم جد بني عبد المطلب، ومن أبناء عمومته إذ يلتقي نسبهما بالجد مضر بن نزار. وبنو ذبيان أخوة قبائل بنو فزارة وبنو مرة. وبعد تحرير بلاد الشام من الاستعمار

الروماني هاجرت قبيلة بنو ذبيان وتفرقت بين الأردن وفلسطين، وكان ذلك أول تواجد لهم في المنطقة.

أما الرواية البوليسية العجيبة التي ألقت للعثور على النقش، فتقدم الدليل الدامغ على تزوير النقش، وهي رواية طويلة، سأختصرها قدر الإمكان.

تبدأ القصة على لسان الراهب الألماني "ف. أ. كلين" الذي إدعى أنه سمع أثناء زيارته لقبيلة بني حميدة في آب 1868، برفقة سطم ابن شيخ بني صخر، فسمع بوجود نقش أثري في ذبيان، فذهب ووجده بين الرمال. ولأنه يجهل اللغات القديمة، قام بنسخ عدة سطور، وأرسل ذلك للفنصل الألماني في القدس، الذي أبدى الاهتمام بالحصول عليه، لأنه خبير باللغات الشرقية. وبعد مدة علم الدكتور "باركلي" أحد أعضاء الإرسالية اليهودية، فأخبر المستشرق الفرنسي "جانو كليرمون"، الذي دخل على مسرح الرواية وأخذ يناقش الألمان للحصول على النقش. وبعد مراسلات بين الفنصل الألماني والصدر الأعظم التركي محمد أمين، ومتصرف القدس، اتفق الفنصل مع شخص يدعى "سابا قعوار"، كي يحضر النقش مقابل مبلغ 120 ليرة ذهبية فرنسية، تشمل ثمنه ومصاريف نقله. سافر "قعوار" وعقد مع الشيخ عودة بن صعب الهواري الحميدي اتفاقية بيع وشراء للحجر مقابل مبلغ عشرة ليرات. لكن الاتفاقية فشلت بسبب معارضة مشايخ عرب الحميدة الذين أحسوا بقيمة النقش، فطلبوا مبلغ ألف ليرة ذهبية، كما أن القبائل المجاورة رفضت مرور النقش من أراضيها دون مقابل.

أما المستشرق الفرنسي "جانو كليرمون"، فكان يعمل بصمت، إذ أرسل خزافين عربيين يدعى أحدهما سليم القاري، والآخر يدعى يعقوب كرفاسة إلى ذبيان. فتمكن سليم القاري من نسخ تسعة أسطر بواسطة الورق المقوى بالشمع، فيما تمكن يعقوب كرفاسة من صنع نسخة على عجل. وبسبب أطماع أبناء قبيلة بني حميدة، شب نزاع بينهم وتضاربوا، ثم قام بعضهم بحرق الحجر وصب الماء البارد عليه بعد ذلك لتفتيته. وأثناء نزاع القوم فر سليم القاري ويعقوب كرفاسة بعد أخذ عدة قطع من النقش الذي تفتت، وبما نسخا من النقش، وسلما كل ذلك للمستشرق "جانو كليرمون"، الذي حصل بعد ذلك على قطعتين كبيرتين و18 شظية صغيرة تتضمن 613 حرفاً مما يقارب 1000 حرف، هي حروف النقش الأصلي. ثم حصل على 18 شظية من صندوق استكشاف فلسطين البريطاني، فأصبح يملك ثلثي النص. وفي سنة 1870 وُضع النقش بعد ترميمه في متحف اللوفر بباريس وأطلق عليه اسم نقش ميشع4.

دبّت حمى النقوش المؤابية، فاستغل الخزاف سليم القاري ذلك، فأخذ يشوي التماثيل والأواني الخزفية التي تحمل نقوشاً في فرنه في القدس وبييعها للسياح والباحثين بدعوى أنها مؤابية قديمة. كانت لسليم القاري علاقة وطيدة "بموزيس ويلهام شبير"، تاجر الآثار اليهودي، الذي جمع ثروة طائلة من بيع منتجات سليم القاري، ومما جمعه من البدو، باعها كلها للمتاحف الأوروبية، خاصة متحف برلين، على أنها نسخ أصلية حقيقية. لكنه اصطدم بالمستشرق "جانو كليرمون"، الذي واجهه وأثبت زيف ما يبيع. وبعد اقتضاح أمره، رفعت ضده عدة قضايا لاسترداد الأموال التي استلمها مقابل النقوش المزورة، ونشر كل ذلك في الصحف الأوروبية وانتهى به الأمر إلى الانتحار عام 1884.

في عام 1902 زار القدس البروفيسور "أبراهم شالوم يهودا" والتقى بسليم القاري الذي اعترف أمامه بأنه زيف نقوشاً وأثرية مؤابية منها نقش ميشع. وأنه كان يقرأ الكتابات القديمة حتى أن البدو أطلقوا عليه اسم القارئ.

وقد نشر البروفيسور أبراهم شالوم يهودا مقالة بعنوان: "حكاية التزوير ونقش ميشع" قال فيها: "إنه زار فلسطين عام 1902 والتقى بسليم القاري الذي كانت له علاقة بنقش ميشع والأثرية المؤابية التي بيعت سنة 1872 إلى متحف برلين على يد اليهودي المنتصر، سيئ السمعة، "موزيس ويلهام شبيرا".

كل المكاتبات والاتفاقيات بخصوص نقش ميشع"، موجودة في ملف رقم: ف-439/2 في أرشيف الدولة في القدس، ومنشورة على عدة مواقع.

أعلم أن هذا الجزء من البحث سوف يشعل الروح الوطنية بين أبناء الأردن، فقد بنينا مجدا خرافيا قام على قصة الملك المؤابي، وتفاجر الأردنيين بتاريخ لا أصل له، لكنها الحقيقة التاريخية التي لا تعرف المجاملة. ثم إن الأردنيين لا يحتاجون إلى الزيف التوراتي لإثبات تاريخ بلادهم العربي الضارب في أعماق التاريخ. فالأردن كان المحطة الأولى للقبايل العربية الأمورية التي حطت رحالها قبل حوالي 4000 ق.م، وبنيت أول معبد للإله أمون. وكانت عمان تدعى ربة أمون على مدار آلاف السنوات. ويكفي فخرا أن إمبراطورية العرب الأنباط سادت الشرق كله، وكانت البتراء حاضرة الدنيا، والمنافسة العنيدة لروما لعدة مئات السنوات.

إنني أدعو إلى التدقيق في المسئلة وفي صحتها. أعرف بالطبع أن كثيراً من الناس، وفي الأردن خاصة، تبهجهم فكرة أن ميشع قدم ابنه أضحية لكي يواجه إسرائيل القديمة المفترضة، مماهين إسرائيل القديمة بإسرائيل الصهيونية الحالية. أنا أتفهم هذا جيداً، وأفهم الروح الوطنية الكامنة وراءه، لكن هذا خطر أيديولوجياً وتاريخياً. فإسرائيل القديمة كانت جزءاً من هذه البلاد وليس لنا معها أي مشكل. مشكلنا مع إسرائيل الصهيونية الاستعمارية التي زرعتها في فلسطين أوروبا وأميركا. هذا أولاً. أما ثانياً فاحتمالات أن تكون المسئلة مزورة عالية جداً، بل تكاد تكون مؤكدة في نظري. ولسنا بحاجة إلى أثر مزور كي يكون رمزاً لنا.

أسطورة شمشون ودليلة

"إذا أردت أن تلغي شعبا، تبدأ أولا بشل ذاكرته التاريخية، ثم تشوه لغته وثقافته، وتجعله يتبنى ثقافة أخرى غير ثقافته، ثم تلفق له تاريخا آخر غير تاريخه وتعلمه إياه. عندئذ ينسى هذا الشعب من هو، ومن كان، وتندثر معالم حضارته، وبالتالي، ينساه العالم، ويصبح مثل الأمم المنقرضة"¹⁸⁴

تتطبق عبارات السيد "كوردل هل" علينا نحن أمة العرب، فتاريخنا من الألف إلى الياء كتبه غيرنا ثم فرض علينا، وتلقفناه وأما به، وأصبح هو ماضيها الذي نفخر به. ولم يقتصر الأمر على تاريخ حقبة ما قبل الإسلام، بل طال التلفيق كل مراحل التاريخ حتى حوادث الأمس القريب، إذ ما زال البعض يزور ما نشهده منها، ويغلفها بغلالة من الكذب والتزوير، ثم يطلقها في فضاء الأمة التي فقدت بوصلتها بعد أن تنكرت لتاريخها. وحتى نملك قاعدة انطلاق راسخة، لا بد لنا من تصحيح مفاهيمنا التاريخية، لأن الشعوب التي لا تحافظ على تاريخها يكون مصيرها إلى زوال.

ومن الأساطير التي عشعشت في ذاكرة الأمة؛ قصة شمشون ودليلة التي اعتبرت جزءاً من تاريخ بني إسرائيل في فلسطين والمنطقة، وأصبحت مقولة "على وعلى أعدائي" عربية الهوى واللسان. فبعد أن كانت خرافة توراتية أخرجت شمشون بطلا أسطوريا وملاكاً، بشر الله أمه العاقر بولادته، وليعاقب الفلسطينيين ويخلص الإسرائيليين منهم بقوته الجسدية، فيتظاهر بحب فلسطينية، وفي الطريق لخطبتها هاجمه أسد فقتله بقوة الرب بلا سلاح، ثم عكش النحل في جثة الأسد ليصنع عسلاً، يأكله ويطعم والديه، وفي احتفال الخطوبة يلقي على 30 فلسطينيا حضروا لعزة، ويعددهم بملابس جديدة مكافأة لهم، إن حلوا اللغز خلال سبعة أيام، ولكن الفلسطينيين لغبانهم لا يعرفونه، ويسلطون على شمشون حبيبته دليلية، التي خدعته واحتالت عليه حتى عرفت منه الحل وأخبرت قومها، فيغضب. وليفي بوعده قتل 30 فلسطينيا، ومنح ملابسهم لمن حضر الحفل، وهكذا بالقتل يفي الإسرائيليون بنذورهم ووعودهم حتى يومنا هذا. ثم تمض الأسطورة لتخبرنا أن شمشون اصطاد 300 ثعلب وربط بأذنانها مشاعل لتركض خائفة وتحرق حقول الفلسطينيين انتقاماً منهم، ويرحل إلى غزة فيقبض الفلسطينيون عليه ويقيدونه ويسجنونه لكنه يحطم البوابة ويحملها إلى الهضبة ويعتصم بكهف، ولما لحق به جيش الفلسطينيين قتل ألفاً منهم بفك حمار. ثم يحاول ثانية الزواج من دليلية الفلسطينية، التي خدعته واحتالت عليه وعرفت أن سر قوته في طول شعره، فطلبت من قومها حلقه وهو نائم في حجرها، فيقبضون عليه، ويفقأون عينيه ويسجنونه في قبو تحت معبدهم يطحن الشعير، لتنتهي الأسطورة عند مشهد احتفال الفلسطينيين بمعبد الإله "داجون" شكراً لمساعدته في القبض على شمشون. وخلال فترة السجن نما شعره وطال فاسترجع قوته، وتعرف من الخادم على أعمدة المعبد الرئيسية الوسطى، فدفع أحدهما بيمينه والثاني بيساره، هاتفاً "على وعلى أعدائي يا رب" فانهار المعبد وقتل ثلاثة آلاف

¹⁸⁴ كوردل هل Cordell Hull

فلسطيني كانوا يحتفلون فيه. وهكذا ينتقم شمشون للإسرائيليين ويغدو مثلاً للتضحية بنفسه من أجل قومه وليس انتحارياً، بطريقة لا يقبلها دين، ولا تقرها شريعة.

انتقلت العدوى إلينا، وأصبحنا نطلق لقب شمشون الجبار على كل من يقوم بعمل خارق، بدءاً من جر الشاحنات الضخمة بواسطة الحبال، مروراً بالمشي على لوح خشبي مثبتة عليه مسامير، وصولاً إلى قضبان الحديد بواسطة الأسنان. وصرنا نطلق لقب دليلا على كل أنثى تقوم بعمل يزعج بعلمها، وتمسكنا بالخرافة حتى أصبحنا أمة شمشونية، لكن، كرتونية القوة والفعل.

الأسطورة التوراتية جعلت شمشون يقتل ألفاً من الفلسطينيين بفك حمار، ولكنها لم تخبرنا هل قتلهم بقوة الرب التوراتي أم بقوة استمدها من سر شعر رأسه الطويل؟ صيد عشرة ثعالب يرهق مئة رجل، فهل صاد شمشون 300 ثعلب بمساعدة الرب أيضاً؟

يحتفل علماء الآثار من التيار التوراتي بكل اكتشاف أثري إذا كانت له علاقة بمرويات توراتهم، لذلك اسمعوا الدنيا كلها صيحات الفرح عندما اكتشفوا خاتماً حجرياً يحمل صورة حيوان يشبه الأسد، واعتبروه دليلاً قاطعاً على الرواية الشمشونية. وقد ملأت قصة الخاتم أرجاء المعمورة، لدرجة أن جريدة "التلغراف" البريطانية تغنت به. لكن سرعان ما أسدلوا على الاكتشاف ستائر من الإهمال والنسيان، بعد أن أثبت الفحص المخبري أن تاريخه لا يتطابق مع تاريخ الخرافة الشمشونية، إذ تبين أن الخاتم يعود إلى ما قبل عام 1100 ق.م، أي قبل مولد بطل الخرافة بحوالي 250 سنة.

ثم عاد آثريو ذلك التيار للرقص على أنغام اكتشاف معبد الإله الوثني "داجون" التي تقول الرواية أن شمشون هدمه وقتل 3 آلاف فلسطيني.

وتأبى الحقيقة أن تبقى مختفية، فظهرت على لسان رئيس بعثة الآثار الإسرائيلية البروفيسور "آرن مانير" من جامعة "بار إيلان"، وذلك يوم الخميس 28 تموز 2010، عندما صرح بأن معبد "داجون" تدمر بفعل زلزال بلغت قوته 8 درجات، وأن تاريخه يعود إلى قبل 900 ق.م، أي قبل 50 سنة من مولد البطل الشمشوني على أقل تقدير، كما في تقرير معهد "ماكس بلانك" الألماني Max Planck Institute والمهم أن معبد "داجون" الذي أفرح الإسرائيليون لم يكتشف في غزة، بل في منطقة تل الصافي التي تقع في منتصف الطريق بينها وبين مدينة الخليل. والأهم، أن شعب غزة لم يعبد الإله الوثني "داجون"، رغم شهرته عند قبائل اليمن والعراق وبلاد الشام، كونه إله الخصب والنماء حسب اعتقادهم، إنما عبدوا عدة آلهة منها الإله سين والإله بعل. فمن أين سرقت التوراة قصة شمشون الخرافية إذا؟ الجواب نجده ضمن التراث والتاريخ اليمنيين، وجزء من أساطيرهم.

النص العبري الصنعاني للتوراة يقول إن شمشون أحرق مزارع الكنعانيين والعموريين والفلسطينيين. وتبين معنا أن تلك الشعوب استوطنت ممالك "اوسان وفتبان ونشان". وكانت هيكلية الحكم في الممالك اليمنية يقف على رأسها الملك، ثم الكاهن الأعظم أو المكرب، وأخيراً القضاة أو الأكيان. والقاضي هو رأس القبيلة وقاضيها، ولا زال منصب القاضي موجوداً في قبائل اليمن. وبعد تفكيك ممالك "اوسان وفتبان ونشان" على يد كرب وتر إيل، وتقسيم أراضيها على تحالف القبائل

التي ساندته، ومن ضمنهم قبائل الإسرائيليين. وهكذا تحولت القبيلة الإسرائيلية الكبرى (مجموع قبائل الأسباط) من حياة البداوة والترحال، إلى حياة الزراعة والاستقرار. في ذلك الزمن كان السبنيون بما فيهم القبيلة الإسرائيلية، يعبدون إله المقه، وهو إله العقل الذي تعبده مكة، أو بعبارة أخرى عبادة التوحيد التي أرساها الجد الأعلى إبراهيم. وعلى الجهة المقابلة، كانت قبائل حمير اليهودية تعبد آلهة وثنية متعددة، إذ تعبد كل قبيلة الصنم الإله الخاص بها. ونشأ صراع دام 300 عاما لفرض عقيدة التوحيد، نتج عنه هزيمة الحميريين اليهود، الذين رفضوا الاعتراف بذلك، وصوروا عقيدتهم الوثنية بالنور، أو ضوء الشمس/شمس بلهجة حمير، الذي هزمه الظلام، أو الليل/ ذو ليله بلهجة حمير أيضا. انتصر الظلام أو ذو ليلة على النور أو ضوء شمس. وعندما أعيد كتابة التاريخ الديني التوراتي، أسندت قيادة القبائل اليهودية لرجل أطلق عليه لقب شمشون، أي زعيم جيش النور، مشتقا من الجذر شمش، وقيادة الطرف الآخر لامرأة أطلق عليها لقب دليلة، أي زعيمة جيش الظلام.

نعود للنص التوراتي المترجم للعربية وغيرها لنجد في سفر القضاة 15(15): **{وَوَجَدَ لَحْيَ حِمَارٍ طَرِيًّا، فَمَدَّ يَدَهُ وَأَخَذَهُ وَضَرَبَ بِهِ أَلْفَ رَجُلٍ}**.

النص يقول بأن شمشون قتل ألف رجل بفك لحية حمار طري.

لكن نص التوراة بالعبرية الصنعانية يقول: **{وهزم شمشون في بلد أحمر عند واد ذو لحية، قرب قرية طريه ألف رجل من الفلشتيم}**.

وفي تعز، مديرية المواسط، نجد عزلة أحمر، واد ذو لحية، قرية طريه، تماما كما في التوراة العبرية الصنعانية.

وعندما أراد التيار التوراتي الاستشراقي إسقاط هذه الرواية على الجغرافيا الفلسطينية، لم يجدوا في كل فلسطين بلد أحمر، وواد ذو لحية، وقرية طريه. لذلك تلاعبوا بالنص، كالتالي:

أحمر جعلوها حمار.

واد ذو لحية جعلوه لحية.

قرية طريه جعلوها طري.

فلشتيم جعلوها الفلسطينيين.

فأصبح النص: لحي(فك) حمار طري، واختاروا غزة وعسقلان مسرحا للحدث الخرافي، وهكذا زورت كل الأسماء والأماكن اليمينية وأسقطت على جغرافية فلسطين.

القصة بمجملها خرافة ذات أصل ديني، تلقفناها من التزوير الاستشراقي، ورددناها حتى أصبحت جزءا من تاريخ بلاد فلسطين، فمتى ننزع عنا عباءة الخرافات التوراتية، ونعيد كتابة تاريخنا العربي؟

خرافة منطقة السامرة الفلسطينية

ورد إسم جبل شامير في التوراة مرتين:

الأولى: {وَفِي الْجَبَلِ: شَامِيرٌ وَيَيَّرُ وَسُوكُوهُ}185، وذلك من ضمن إقطاعات سبط يهوذا، التي أوصفتها يشوع ذاته.

الثانية: {وَاشْتَرَى جَبَلَ السَّامِرَةِ مِنْ شَامِرَ بوزَنْتَيْنِ مِنَ الْفِضَّةِ، وَبَنَى عَلَى الْجَبَلِ. وَدَعَا اسْمَ الْمَدِينَةِ الَّتِي بَنَاهَا بِاسْمِ شَامِرِ صَاحِبِ الْجَبَلِ السَّامِرَةِ}186. في النص العبري الصنعاني جاء إسم البائع شامير.

حسب التاريخ التوراتي الذي لفته التوراتيون، فإن يشوع استلم قيادة القبيلة الإسرائيلية بعد موت موسى عليه السلام، وهذا منذ حوالي عام (1406) ق.م. وبالتالي فإن إسم شامير كجبل معروف منذ ذلك الوقت، إذ ألحقه يشوع بممتلكات سبط يهوذا. بمعنى أن إسم السامرة أيضاً كان معروفاً قبل دخول القبيلة الإسرائيلية أرض فلسطين. بينما النص الثاني يخبرنا أن الإسم من ابتكارات الملك "عمري"، الذي اشترى جبل السامرة من رجل اسمه شامر/شامير بوزنتين من الفضة، وغيّر إسمه من السامرة ليحمل إسم الرجل الذي باعه. وكما هو معلوم من التاريخ التوراتي، فإن الملك "عمري" حكم بين الأعوام (873-884) ق.م، وهذا بعد ظهور يشوع بخمسة قرون، فأين الحقيقة؟

في الواقع، إن من يقرأ النصوص التوراتية بمعزل عما حوته السرديات والنقوش اليمينية، وبلاد ما بين النهرين، يخرج بنفس ما نفهمه من النص التوراتي التالي:

{وَقَالَ حُوشَائِي لِصَادُوقَ وَأَبِيئَاتَارَ الْكَاهِنَيْنِ... كَذَا وَكَذَا أَشَارَ أَخِينُوفُلُ عَلَى أَبْشَالُومَ.... وَعَلَى شَبُوحَ إِسْرَائِيلَ، وَكَذَا وَكَذَا أَشْرَتْ أَنَا}187.

التضارب بين النصين توقف عنده علماء النقد النصي حتى تصدعت رؤوسهم، ولم يخرجوا بنتيجة، ثم تبين أن التضارب راجع إلى عملية تلفيق واسعة قام بها اللاهوتيون، عندما أسقطوا تاريخ وجغرافية اليمن على فلسطين.

¹⁸⁵ سفر يشوع 15(48).

¹⁸⁶ سفر الملوك الأول 16(24).

¹⁸⁷ سفر صموئيل الثاني 17(15).

في سفر ملوك الأول 16(1-27)، نجد **{أَيْلَةُ بَنُ بَعْشَا}** ملكا على مملكة إسرائيل، وعاصمته "تَرْصَةَ"، الكائنة في السامرة، وأن رئيس مركباته العسكرية يدعى "زَمْرِي"، في حين أن القائد العام للجيش يدعى "عُمْرِي". وفجأة وبدون إبداء الأسباب، يدخل "زَمْرِي" على الملك "أَيْلَةُ بَنُ بَعْشَا" وهو يَشْرَبُ وَيَسْكُرُ فَضْرَبَهُ، فَقَتَلَهُ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ لِأَسَا مَلِكِ يَهُودَا، وَمَلَكَ عَوْضًا عَنْهُ. لكن الشعب لم يرض بحكمه، لذلك نصبوا "عُمْرِي رَنِيْسَ الْجَيْشِ مَلِكَا عَلَى إِسْرَائِيلَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ". كانت العاصمة تدعى "تَرْصَةَ". ثم اشترى عُمْرِي جَبَلَ السَّامِرَةِ مِنْ شَامِرٍ بَوْرُنْتَيْنِ مِنَ الْفِضَّةِ، وَبَنَى عَلَى الْجَبَلِ. وَدَعَا اسْمَ الْمَدِينَةِ الَّتِي بَنَاهَا بِاسْمِ شَامِرٍ صَاحِبِ الْجَبَلِ السَّامِرَةِ.

النص غامض ومتضارب، فالتوراة لم تجزم أمرها بخصوص نسب الملكين "زَمْرِي وَعُمْرِي"، فلا يوجد أدنى دليل على أنهما من بني إسرائيل، في حين أن السرديات اليمنية تتحدث عن ملوك ذمار وملوك عمران. ولأن اللغة العبرية لا تعرف حرف الذال، لذلك كتبت الكلمة زمار، وملك زمار، الذي أصبح الملك زمري، في حين أصبح ملك منطقة العمري في محافظة إب يدعى ملك عُمْرِي. وتتحدث السرديات اليمنية عن الصراع بين ملوك ذمار وعمري للسيطرة على منطقة السامرة من ناحية، وبين ملوك مملكة الجنوب اليهودية الحميرية، وملوك مملكة الشمال الإسرائيلية السبئية للسيطرة على منطقة السامرة نفسها، وهذا صراع تقليدي داخلي بين المدن والقبائل اليمنية. وهذا يتطابق تماما مع السرد التوراتي، الذي يشير بوضوح إلى أن المملكتين الشمالية والجنوبية تبادلتا السيطرة على السامرة، فمرة تخضع للدولة اليهودية، ومرة تخضع للدولة الإسرائيلية.

التوراة تقر بأن السامرة إسم قديم، تمَّ تغييره إلى شامير بعد أن اشترها الملك عُمْرِي من رجل اسمه شامر/ شامير، وذلك عام (848) ق.م.

بالعودة إلى النقوش الآسورية بدءا من حكم تغلث بلاسر الأول، والثاني، والثالث، وسنحاريب، وسرحدون، وسرجون، سنجد أن كل أولئك الأباطرة قادوا حملات عسكرية للسيطرة على منطقة السامرة اليمنية.

السؤال: ما أهمية تلك المنطقة، حتى تشغل أقوى إمبراطورية في ذلك الزمن، فتسير عدة حملات للسيطرة عليها؟

خارطة الجغرافية اليمنية تخبرنا أن المنطقة الفاصلة بين المملكتين اليهودية الجنوبية، والإسرائيلية الشمالية، أو مملكتي حمير وسبأ تدعى جبال شامير، وتدعى الآن باسم " شامير مقبنة"، أو شامير المكابين. وأهمية جبال شامير تكمن في إطلالته على ميناء المخا في الجنوب، وميناء الحديد في الشمال. وهما أهم موانئ اليمن القديم، ومركز تصدير البخور والأخشاب والذهب والنحاس. ومن يسيطر على جبال شامير، يتحكم بحركة التجارة البحرية والبرية، علاوة على أن تلك الجبال والسهول المحيطة بها، تعد بعد حضرموت، ثاني أهم مناطق اليمن التي تنبت فيها أشجار ونباتات البخور، توجد فيها مناجم الذهب. وقد سطر الهمداني في كتابه "الجوهريتين" شرحا مفصلا لمواقع مناجم الذهب فيها.

بالعودة إلى كتاب الهمداني "وصف جزيرة العرب"، نجد أن أشهر القبائل العربية التي سيطرت على منطقة الجوف اليمنية منذ ما قبل (900) ق.م، والتي عرفت باسم "معين مصرن" هي:

قبيلة خليل، قبيلة إرم، وقبيلة سمع إيل، وقبيلة شخيم أو سحيم حسب اختلاف اللهجات السبئية والحميرية. ولأن أكبر تلك القبائل هي شخيم، عرفت أماكن تواجدتها بأرض شخيم.

التيار اللاهوتي الاستشراقي، سرق التاريخ اليمني حرفيا وأسقطه على فلسطين. ولأن حرف الخاء لا وجود له في اللغة العبرية، ويستعاض عنه بحرف الكاف، أصبح إسم أرض شخيم؛ أرض شكيم.

وحقيقة الأمر المستمدة من النقوش الآسورية الموجودة في المتحف البريطاني، والسرديات اليمنية، تدل على أن الصراع حول السيطرة على جبال شامير، كان بين القبائل اليمنية الحميرية اليهودية، والقبائل اليمنية السبئية العبرانية، ولا علاقة لفلسطين بكل ذلك، وأن بني إسرائيل كانوا مجرد قبيلة صغيرة، أو مخلاف صغير ضمن تحالف المخاليف السبئية، لا تأثير لها، ولا تاريخ يعتد به، والميزة الوحيدة التي طبعت حياة أبناءها، وجود تلك الكوكبة المباركة من الأنبياء بدأ بموسى وانتهاء بالمسيح عليهم السلام، الذين لم يتركوا أثرا خارج نطاق قبيلتهم، كون رسالتهم محصورة ضمنها.

لذلك ما فعله اللاهوتيون هو سرقت تاريخ اليمن كله، وأسقطوه على أسباطهم، ثم أسقطوا الجغرافية اليمنية على فلسطين، فأصبح للقبيلة الرعوية المتخلفة، دين، وحضارة، ودولة، وملوك، وجغرافية وتاريخ، وكل ذلك تليفقا وتزويرا.

من يقرأ كتاب الهمذاني "وصف جزيرة العرب" يجد أن تواريخ الأحداث، وأسماء القبائل التي صنعتها، وأسماء ملوكها، وأماكن تواجدها، يتردد صداها في التوراة بنفس التواريخ والأماكن والقبائل بشكل تام، مما يجعل التوراة كتاب دون التاريخ اليمني، ولا علاقة لفلسطين بكل ذلك.

من يدرس النص التوراتي، ويبحث نسب ملوك المملكة الجنوبية التي جعلها الاستشراق التعسفي الدولة اليهودية، يجدهم عربا ولا رابط بين نسبهم وانساب أسباط القبيلة الإسرائيلية. ومن يرفض هذا، نقول له: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

أسطورة السبي البابلي من فلسطين

1- المملكة الإسرائيلية الشمالية

قسم الاستشراق التوراتي فلسطين إلى مملكتين شمالية وجنوبية، أطلق على الأولى اسم مملكة إسرائيل/السامرة وعاصمتها شكيم/نابلس الحالية، وعلى الثانية اسم مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم/ القدس الحالية

وإدعى أتباع التيار التوراتي أن الانقسام حدث بعد موت الملك النبي سليمان عليه السلام (990-931 ق.م)، وابتدع حروبا خرافية بين المملكتين دامت 300 سنة، وخلطة تاريخية عجيبة، إذ جعل الإمبراطور الآشوري/الآشوري "شلمانصر الثاني" (860-825 ق.م معاصرا لملوك يهوذا "ليوشافط ويهورام وأخزيا ويهواش"، وملوك إسرائيل "أخاب وأخزيا ويهورام ويهاو"، وهو الإمبراطور الذي قاد أولى الحملات الحربية التسع، التي أنهت الوجود الإسرائيلي اليهودي في فلسطين، وأسفرت عن السبي البابلي للقبيلة المقدسة بشقيها.

كان الاستشراق التعسفي في عجلة من أمره، همُّه الوحيد خلق تواجد لليهود في فلسطين، دعما لفكرة عودتهم إليها، لذلك فاته الكثير من الحقائق التي لم ينتبه إليها. فحسب التوراة فإن أول ملوك المملكة الموحدة هو رحبعام بن سليمان، الذي رفض حكمه عشرة من أسباط القبيلة الإسرائيلية، بينما أيد حكمه سبطي بنيامين ويهوذا، وبالتالي فإن انقسام الدولة الموحدة ابتدأ في عهد رحبعام، وهذا هذيان وليس تدوينا للتاريخ.

وحسب التاريخ التوراتي، فقد دامت مملكة إسرائيل الشمالية 208 سنوات (930-722 ق.م، عندما أنهى وجودها السبي الآشوري/ الآشوري.

تعترف التوراة بأن ملوك إسرائيل كانوا جميعا من الأشرار، ولكن تفاوتت شروهم، وقد نشروا العبادات الوثنية في أرجاء البلاد، ولم يستجيبوا لمحاولات الله العديدة لافتقادهم أحيانا بالنصرة على الأعداء، وأحيانا بإرسال الأنبياء ورجال الله، ففي هذه المملكة عاش إيليا النبي الناري، وتلميذه أليشع النبي المختار، وكم أجرى الله على أيديهما من معجزات باهرة، ولكن الشعب ظل في طريقه نحو الانحدار السريع، لا يلو على شيء.

كذلك تعترف بأن ملوكها لم يكونوا من عائلة واحدة، وأن الملك انتقل إلى تسع عائلات عن طريق الخيانة والقتل والاعتيالات، فاعتيل ثمانية من ملوكها وهم ناداب بن يربعام، وأيلة بن بعشا، وزمري الذي مات منتحرا عندما حوصر، ويهورام بن أخاب، وزكريا بن يربعام، وشلوم بن يابيش، وفقيا بن محنيم، وفقح بن رمليا. واثناء السبي هرب قسم من اللاويين، ونتج من اختلاطهم مع الوثنيين شعب هجين هم السامريين الذين لا يعترفون إلا بأسفار موسى الخمسة، وكانت عباداتهم مشوشة.

بعد انقضاء عصر القضاة بدأ عصر الملوك بطلب الشعب ملكا لهم أسوة ببقية الممالك، ولم يفتنعوا بملك الله عليهم، لأن الله غير منظور، مع أن أعماله كانت محسوسة.

بعد موت سليمان، آل الملك إلى كل من:

يربعام بن ناباط: كان الذراع اليميني لسليمان، لكنه غدر به، ثم فر إلى مصر. وبعد موت سليمان عليه السلام عاد ليستلم الحكم، فانشقت المملكة بسبب تصرفاته.

خشى يربعام من عودة الشعب للعبادة في هيكل أورشليم فيأخذه الحنين، ويرتد عن مملكة يربعام، فصنع عجلي ذهب أقام أحدهما في دان والآخر في بيت إيل، وقال لشعبه: **كثيّرَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَصْعُدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا آلِهَتُكُمْ يَا إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَصْعَدُوكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ.. وَبَنَى بَيْتَ الْمُرْتَفَعَاتِ، وَصَبَّرَ كَهَنَةً مِنْ أَطْرَافِ الشَّعْبِ لَمْ يَكُونُوا مِنْ بَنِي لَأوِي.. فَعَمِلَ عِيدًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَصَعِدَ عَلَى الْمَذْبَحِ لِيُوقِدَ¹⁸⁸**. وانتشرت عبادة الأوثان في زمنه.

ناداب بن يربعام: كان شريراً، حكم لمدة سنتين، ومات مقتولاً بيد بعشا بن أخيا.

بعشا بن أخيا: فعل الشر في عيني الرب، وكانت الحرب بينه وبين آسا ملك يهوذا طوال مدة حكمه، وتحالف مع بنهدد ملك آرام.

أيلة بن بعشا: حكم بعد موت أبيه، وكان شريراً سكيراً، اغتاله زمري أحد قادة جنده.

زمري: قتله عمري قائد جيشه.

عمري: اشترى جبل السامرة من شامر، وأنشأ مدينة السامرة وجعلها عاصمة لمملكه بدلاً من ترصة. فكانت السامرة من أجمل وأخطر المواقع في إسرائيل، ولا سيما أن عصره كان عصر سلام ورواج لإسرائيل. أنشأ علاقات تجارية مع أثبعل ملك الصيديونيين، وأخذ إيزابل ابنة أثبعل زوجة لابنه أخاب، وفعل الشر في عيني الرب¹⁸⁹.

أخاب: تزوج بإيزابل ابنة أثبعل المرأة الشريرة، فعمل الشر في عيني الرب أكثر من جميع الذين ملكوا قبله، وأقام مذبحاً للبعل بغواية امرأته وسجد للبعل. تحالف مع آرام ضد آشور. فقتل في الحرب ولحست الكلاب دمه¹⁹⁰.

أخزيا بن أخاب: ملك بعد مقتل أبيه، عمل الشر في عيني الرب وعبد البعل وسجد له وكان سكيراً.

¹⁸⁸ سفر الملوك الأول 12(26-33).

¹⁸⁹ سفر الملوك الأول 16(16-28).

¹⁹⁰ سفر الملوك الأول 16(30-33).

يهورام بن أخاب: عمل الشر في عيني الرب، ومات مقتولا.

ياهو بن نمشي: حافظ ياهو على استقرار البلاد، وأسس أسرة ملكية توارث فيها الأبناء الحكم لمدة مائة عام، وفي عصره هاجم شلمناصر ملك آشور إسرائيل سنة (841) ق.م، في المرة الأولى، ثم عاد وهاجمها سنة (837) ق.م.

يهوآحاز بن ياهو: لم يترك شيئا ذي بال.

يهوآش بن يهوآحاز: حارب أمصيا ملك يهوذا وانتصر عليه، وهدم سور أورشليم.

يربعام بن يوآش: كان شريرا فعمل الشر في عيني الرب، لكنه مقاتل عنيد. شهد عصره نشاطا اقتصاديا ضخما، ويعتبر من أغنى ملوك إسرائيل وأكثرهم رفعة.

زكريا بن يربعام: حكم عمل ستة أشهر، ومات مقتولا بيد شلوم بن يابيش.

شلوم بن يابيش: حكم مدة شهر واحد، ومات مقتولا بيد منحيم بن جادي.

منحيم بن جادي: عمل الشر في عيني الرب. في مدة حكمه هاجم تغلت فلاسر الثالث ملك آشور، فقدم له منحيم ألف وزنة من الفضة ليثبتته على كرسيه، وفرض ملك آشور جزية على بني إسرائيل بمعدل 50 شاقل فضة عن كل رجل¹⁹¹.

فقحيا بن منحيم: عمل الشر في عيني الرب، واغتاله فقح بن رمليا¹⁹².

فقح بن رمليا: تحالف مع رصين ملك آرام، وفي عهده سبى ملك آشور شمال أرض إسرائيل¹⁹³. مات مقتولا بيد هوشع بن أيلة.

هوشع بن أيلة: عمل الشر في عيني الرب، وظل لعدة سنوات يدفع الجزية لأشور، ثم توقف فجاء شلمناصر ملك آشور وحاصر السامرة لمدة ثلاث سنوات، حتى سقطت في أيام سنحاريب ملك آشور، فألقى هوشع في السجن، وسبى شعب إسرائيل إلى آشور وأحل مهجرين بدلا منهم، فكانت نهاية مملكة إسرائيل سنة (722) ق.م¹⁹⁴.

¹⁹¹ ملوك الثاني، ملوك الثاني 15(18-20).

¹⁹² سفر الملوك الثاني 15(25).

¹⁹³ سفر الملوك الثاني 15(19)، و16(9).

¹⁹⁴ سفر ملوك الثاني 17(2-6).

المسيحيون يؤمنون بصحة التواريخ التوراتية كإيمان اليهود، بل أشد منهم، ويقول "المطران يوسف الدبس" في كتابه تاريخ الشعوب المشرقية في الدين والسياسة والاجتماع (398)2: "وقد تبين من الآثار المسمارية Cuneiform أن سقوط السامرة كان سنة 722 أو 721 ق.م، وهذا يطابق ما جاء في الكتاب طباقاً تاماً، وهو يقضي علينا بصحة التواريخ الواردة في أسفار الملوك وسفري أخبار الأيام". وقول المطران يوسف الدبس، نوع آخر من التضليل والتزييف.

هذا يتطابق مع النص القرآني: ﴿لَمَّا تَرَى إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ ائْبَعَثْ لَنَا مَلَكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾¹⁹⁵.

¹⁹⁵ سورة البقرة الآية 246.

2- المملكة اليهودية الجنوبية

أخبرتنا التوراة أن الملوك الذين توارثوا عرش المملكة اليهودية الجنوبية، كانوا من نسل سبط يهوذا، باستثناء عثليا بنت أخاب، التي اعتلت العرش بعد موت زوجها الملك، وابنها الملك. ورغم كونها من مملكة إسرائيل الشمالية، إلا أنها أصبحت ملكة.

حسب التاريخ التوراتي، نجد أن عصر القضاة (1050-1375) ق.م، دام 325 سنة، ثم بدأ عصر الملوك بملك شاول أول ملوك إسرائيل (1050 - 1010) ق.م، أعقبه داود (1010-970) ق.م، ثم سليمان (970-930) ق.م، وبذلك عاشت إسرائيل مملكة موحدة تضم جميع الأسباط لمدة 120 عاما، أعقبها انشقاق المملكة في بداية عصر رحبعام إلى مملكة إسرائيل في الشمال، ومملكة يهوذا في الجنوب، واستمرت المملكة الجنوبية نحو 334 عاما، خلال المدة من (730-586) ق.م، تولى خلالها الحكم تسعة عشر ملكاً جميعهم من سلالة داود بالإضافة إلى ملكة واحدة وهي "عثليا" من نسل عمري ملك إسرائيل. ونختصر تاريخ ملوكها:

رحبعام بن سليمان: هو ابن "نعمة العمونية"، تولى الحكم بعد موت أبيه سليمان عليه السلام، وفي عهده انقسمت المملكة، فتولى "**يربعام بن ناباط**" حكم العشرة أسباط الشمالية، بينما تولى "**رحبعام**" حكم سبطي يهوذا وبنيامين.

دام حكمه 17 سنة في أورشليم، وفي عهده بنى الشعب المرتفعات وأقاموا الأنصاب والسواري على كل تل مرتفع، وتحت كل شجرة، وسقط بعضهم في الشذوذ الجنسي، ملوك الأول 14(21-24).

أبيام (أبيا) بن رحبعام: دام حكمه ثلاث سنين، وكان شريرا، حارب مملكة إسرائيل وقتل منها 400 ألف إنسان¹⁹⁶.

آسا بن أبيا: كان مستقيما في عيني الرب، وأزال المأبوسين، ونزع جميع الأصنام، وعزل جدته معكة من الملك، وقطع تمثال السارية التي عملته وأحرقه¹⁹⁷، نصره الرب على زارح الكوشي بدون قتال، الأيام الثانية 14(9-15). تحالف مع "بهدد" ملك آرام ضد "بعشا" ملك إسرائيل.

يهوشافاط بن آسا: كان مستقيما في عيني الرب، وقام بإصلاحات سياسية واقتصادية ودينية، فجعل جيشاً في كل مدن يهوذا الحصينة، وبنى حصوناً ومدن ومخازن¹⁹⁸.

¹⁹⁶ سفر الملوك الأول 15(1-3).

¹⁹⁷ سفر الملوك الأول 15(11-13).

¹⁹⁸ سفر الأيام الثاني (17).

يهورام بن يهوشافاط: تزوج بعثليا ابنة أخاب وإيزابل، فأغوته على فعل الشر، حتى أنه قتل جميع إخوته بحد السيف، وبنى معابد للإله بعل وأقام عبادته¹⁹⁹.

أخزيا (يهواحاز) بن يهورام: تحكمت فيه أمه عثليا، فعمل الشر في عيني الرب، وقتله ياهو بن نمشي²⁰⁰.

عثليا بنت أخاب: ابنة أخاب وإيزابل من الإسرائيليين، وهي من نشر عبادة البعل في مملكة يهوذا. تولت الحكم بعد مقتل ابنها أخزيا.

يوأش بن أخزيا: عمل يوأش ما هو مستقيم في عيني الرب، وقام بترميم الهيكل. لكنه وافق الشعب عندما طلبوا منه أن يسمح لهم بعبادة الآلهة الغربية. مات مقتولا بيد عبيده.²⁰¹

أمصيا بن يوأش: عمل ما هو مستقيم في عيني الرب، ثم انحرف واحضر آلهة بني سعيير وسجد لها، ومات مقتولا²⁰².

عزريا بن أمصيا: عمل ما هو مستقيم في عيني الرب، وحصن أورشليم إذ بنى أبراجا فيها، واهتم بتسليح الجيش وعمل منجنيقات لرمي السهام والحجارة حتى صار أقوى ملوك المنطقة، فكان مصدر خطر على الإمبراطورية الآشورية، وورد اسمه في السجلات الآشورية على أنه يُعمل له ألف حساب.²⁰³

يوثام بن عزريا: استكمل الإصلاحات التي بدأها أبوه، وبنى مدنا على جبل يهوذا وحارب العمونيين وانتصر عليهم، وفرض جزية سنوية عليهم²⁰⁴، رفض التحالف مع رصين ملك آرام وفتح بن رمليا ملك إسرائيل ضد آشور، ولما انقلبا عليه استعان هو بملك آشور، الذي صعد على

¹⁹⁹ سفر الأيام الثانية 21(4-11).

²⁰⁰ سفر الأيام الثانية 22(2-9).

²⁰¹ سفر الأيام الثانية 24(25).

²⁰² سفر الملوك الثاني 14(3-6).

²⁰³ سفر الأيام الثانية 26(6-15).

²⁰⁴ سفر الأيام الثانية 27(24 - 6).

دمشق وقتل ملكها رصين²⁰⁵، ذهب إلى دمشق إلى اللقاء وشكر تغلث فلاسر، وعاد معجبا بآلهته الوثنية فعبدها.

أحاز بن يوثام: عمل الشر في عيني الرب، وأوقد في وادي ابن هنوم، وأحرق بنيه بالنار إذ قدمهم ذبائح بشرية للإله الوثني "مولك"، وذبح وأوقد على المرتفعات وعلى التلال وتحت كل شجرة، فحمى غضب الرب عليه. وفي عهده هاجم المملكة ملك آشور تغلث فلاسر²⁰⁶.

حزقيا بن أحاز: عمل المستقيم في عيني الرب، وفتح أبواب الهيكل المغلقة، وطهره من الأوثان والأصنام، وكسر التماثيل. في عهده هاجم سنحاريب ملك آشور مدن يهوذا الحصينة فاستولى عليها، فدفع له حزقيا إناءة ثلثمائة وزنة من الفضة وثلثين وزنة من الذهب، حتى أنه قسّر الذهب عن أبواب هيكل الرب والدعائم²⁰⁷.

منسي بن حزقيا: لم يسلك منسي طريق أبيه حزقيا، بل صنع الشر في عيني الرب، فبنى المرتفعات، وعمل تماثيل سارية وضعه في بيت الرب، وأعاد طقوس الدعارة إلى معبد أورشليم، وبنى إصطبلات خيول لإله الشمس، وقدم الشعب أطفاله ذبائح بشرية للإله مولك في وادي ابن هنوم، وسجد لكل جند السماء وعبدها، وعبر ابنه في النار وتفاعل واستخدم الجان والتوابع، وأضل الشعب وراءه²⁰⁸، أسره ملك آشور، ثم أطلقه بدون تخبرنا التوراة لماذا.

أمون بن منسي: عمل الشر في عيني الرب، فعبد الأصنام وذبح لجميع التماثيل وعبدها، وترك الرب إله آبائه، قتله عبيده²⁰⁹.

يوشيا بن أمون: عمل ما هو مستقيم في عيني الرب، فطهر أورشليم وكل مدن المملكة من الأصنام، مات مقتولا²¹⁰.

²⁰⁵ سفر الملوك الثاني 16(9-5).

²⁰⁶ سفر الأيام الثانية 28(2-25).

²⁰⁷ سفر الملوك الثاني 18(13-16).

²⁰⁸ سفر الملوك الثاني 21: (9-2)، وسفر الأيام الثانية 33 (7-2).

²⁰⁹ سفر الملوك الثاني 21(21-22).

²¹⁰ سفر الملوك الثاني 23 (4 - 20)، وسفر الأيام الثانية 24 (7-3).

يهوآحاز بن يوشيا: عمل الشر في عيني الرب، أسره ملك مصر، ومات هناك.

يهوياقيم بن يوشيا: عمل الشر في عيني الرب، وفي عهده استعبد نبوخذناصر مملكة يهوذا، ودفع له يهوياقيم الجزية لمدة ثلاث سنين. ثم حاول التمرد، فعاد نبوخذناصر فحاصر أورشليم وقتل يهوياقيم وكل أركان حكمه.

يهوياكين بن يهوياقيم: فعل الشر في عيني الرب فحاصر جيش نبوخذ ناصر أورشليم، وسباه وكل أسرته إلى بابل، بعد أن حרב بيت الرب وأخذ خزائن الملك²¹¹.

صدقيا بن يوشيا: عينه نبوخذناصر، وكان فاسقا وسادت في عهده العبادة الوثنية حتى نجس الهيكل، وتحولت أورشليم إلى مركز للمؤامرات. تمرد على نبوخذناصر الذي جاء على رأس جيشه، فهدم الهيكل وسور أورشليم، وقتل كبار الشعب، وربط صدقيا بالسلاسل حتى مات، وسبى بقية الشعب. وبهذا كانت نهاية مملكة يهوذا في عام (586) ق.م، وقد صور المؤرخ اليهودي "يوسيفوس فلافيوس" تلك الأحداث بعبارات شبه خيالية.

كان لزاما أن نقوم بهذا السرد لتوضيح عدة أمور قبل التطرق لموضوع السبي البابلي، أهمها:

أن انقسام المملكة التي أسسها "شاؤول"، ثم دعم كيائها داوود عليه السلام، وبلغت أوج مجدها في زمن سليمان عليه السلام، بدأ بعد عام (931).

أن زوال المملكة الشمالية وسبي شعبها الذي حدث عام (722) ق.م، كان قبل زوال المملكة الجنوبية وسبي سكانها، وبفارق زمني بلغ (136) عاما.

أن هناك من ملوك إسرائيل الشمالية من تحالف مع الآشوريين لقتال إخوتهم ملوك يهوذا الجنوبية، وهناك من ملوك يهوذا الجنوبية من تحالف مع الآشوريين لقتال إخوتهم ملوك إسرائيل الشمالية.

أن التوراة تعترف بتبعية ملوك المملكتين؛ اليهودية الجنوبية، والإسرائيلية الشمالية للإمبراطورية الآشورية{الآشورية}. بل تقر بأن منهم من كان بمنزلة العبد عند الآشوريين.

أن الإمبراطور الآشوري/ الآشوري شلمنصر الثاني (860-825) ق.م عاصر ملوكا من كلتا المملكتين.

ليكون ذلك مدخلا لتوضيح التواريخ الحقيقية لتلك الأحداث.

²¹¹ سفر الملوك الثاني 24(9-17)، والأيام الثانية 36(9-10).

صنم السارية، هذا إسم أطلقه الاستشراق التوراتي التعسفي على الإله الوثني فلس/فلشت باختلاف النطق بين السبئيين والحميريين، والذي نسبت إليه قبيلة الفلستين/ الفلشتيم. وهو إله عبده القبائل القحطانية اليمنية منذ الحقبة الثمودية. وقد بينا ذلك في الجزء الذي حمل عنوان: آلهة وثنية أصبحت أقواما، والجزء الذي يحمل عنوان: فلسطين أم فلشتيم.

هذا أول ذكر للعرب في التوراة، لكن بدون تحديد نسبهم أو جغرافية توأجدهم، ونلاحظ أن ذكرهم جاء مقرونا بالفلسطينيين والكوشيين.

مولك من آلهة اليمن الوثنية، ولا يعرف إله وثني بهذا الإسم في بلاد الشام والعراق.

3- مراحل السبي

اختلف الاستشراق، خاصة المتأثر بالسرد التوراتي، خلطة تاريخية عجيبية للمنطقة المحصورة بين الفرات والنيل من جهة، وبين هضبة الأناضول وبحر العرب من جهة أخرى، ثم استولد منها رواية خرافية خاصة، سجلت مراحل تاريخ القبيلة الإسرائيلية، بحيث جعلتها ضحية لسطوة أعتى الممالك والإمبراطوريات القديمة، خاصة الآشورية{الآشورية}والمصرية في مرحلة تاريخية متقدمة، ثم اليونانية والرومانية في مرحلة تاريخية متأخرة.

لكن تراجيديا السبي البابلي، تبقى الأكثر تأثيرا لاستدرار عطف وشفقة جمهور المؤمنين بعهد الرب الجديد الذي جاء بعباءة الإنجيل، معلنا اقتراب عودة المخلص ممطيا السحاب، ليقوم ملكوت الرب. وبالطبع، فإن عودة المخلص تحتاج إلى بقعة جغرافية تكون قاعدة له، ومركز عمليات للتخطيط والإعداد، ونقطة انطلاق جحافل جنده. وبما أنه يستحيل إقناع أحد بأن بريطانيا أو ألمانيا، على سبيل المثال، هي مهبط المخلص، لذلك تم توجيه الأنظار نحو البقعة التي شهدت مولده، والقبيلة التي ينتسب إليها. وبما أنه إسرائيلي النسب من جهة أمه، فأولى الأمم باستقباله هم شعب إسرائيل، ومعهم اليهود بغض النظر عن أنسابهم. لكن ذلك يحتاج الى بقعة جغرافية، أو مسرح أعداد وتجهيز واستقبال للمخلص الآتي، وليس هناك أولى من فلسطين بذلك، كونها حسب التلفيق التوراتي أرض الآباء الأوائل، وحاضنة أورشليم، ومسقط رأس المخلص. لكن هذا الادعاء اللاهوتي الذي يخفي خلفه أطماعا استعمارية، وشهوة نهب ثروات الشرق، اصطدم بمعضلة عدم تطابق جغرافية فلسطين بجغرافية السرد التوراتي. لذلك نشط الاستشراق في عملية تزوير ضخمة، مدعوما بالحكومات الغربية الواقعة تحت ضغط العداة لليهود، ورغبة التخلص منهم، وحلما طالما راود المجمع الكنسي، بالانتقام من أحفاد من هتفوا مطالبين بصلب الرب يسوع، وواضعين دمه عليهم وعلى أولادهم، كما في إنجيل متى(27:25): **{فَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّعْبِ وَقَالُوا: «دَمُهُ عَلَيْنَا وَعَلَى أَوْلَادِنَا»}**.

ولأن إثارة الشفقة تحتاج إلى مأساة، اخترع الاستشراق خرافة السبي البابلي المحزنة، التي رسمت لوحة بكائية جعلت من القبيلة الإسرائيلية ضحية سطوة الإمبراطورية الآشورية{الآشورية} على امتداد ما يزيد على قرنين ونصف من الزمن، بدأت مع شلمانصر الثاني ملك آشور (860-825) ق.م وانتهت بنبوخذ ناصر سنة (586) ق.م.

لكن الغريب أن أحد لم يملك جرأة طرحه الأسئلة التالية:

ما الذي يجعل إمبراطورية عظيمة كالإمبراطورية الآشورية{الآشورية} تجهز تسع حملات عسكرية ضخمة، فاق تعداد جنود كل حملة 120 ألف مقاتل، يفود معظمها الإمبراطور نفسه، لمهاجمة مقاطعة صغيرة كفلسطين؟

ما حجم تأثير قبيلة محدودة العدد، كالقبيلة الإسرائيلية على مسرح الأحداث، حتى تكون هدفا إستراتيجيا لإمبراطوريات وادي الفرات، وممالك وادي النيل؟

ما هي الثروات التي تمتاز بها فلسطين، حتى تكون محط أطماع تلك الإمبراطوريات، علما أن التوراة تعترف بأن كل حملة أسفرت عن استيلاء المهاجمين على كميات ضخمة من الذهب، والأواني النحاسية، وكم هائل من الأخشاب النادرة، وأطنان من البخور؟

إذا ما صدقنا السرد التوراتي عن تلك الغنائم، فأين اختفت مناجم الذهب والنحاس، والغابات ومزارع البخور؟

لماذا قام الآشوريون {الآشوريون} بسبي القبيلة الإسرائيلية وحدها من فلسطين، وتركوا باقي الشعوب، كما تدعي التوراة؟

حسب التاريخ الذي فرضه اللاهوتيون، فإن زوال المملكة الإسرائيلية الشمالية تم عام (722) ق.م بينما زالت المملكة اليهودية الجنوبية عام (586) ق.م. فإذا كان هدف الغزوات الآشورية/الآشورية القضاء على القبيلة الإسرائيلية، فلماذا انتظر الغزاة (136) سنة بعد القضاء على المملكة الشمالية، لمهاجمة المملكة اليهودية؟

قبل الإجابة على تلك التساؤلات، سنلقي نظرة سريعة على الحملات التي تعرّضت لها كلتا المملكتين.

غزوات شلمانصر الثاني (825-860) ق.م.

بدأ أول احتكاك بين الإمبراطورية الآشورية {الآشورية} في عهد شلمانصر الثاني، الذي عاصر -حسب التوراة- ليهوشافاط ويهورام وأخزيا ويهوآش ملوك يهوذا، وأخاب وأخزيا ويهورام وياهو ملوك إسرائيل. وحسب اكتشافات الرحالة وعالم الآثار "أوستن هنري لايرد **Austen Henry Layard**" والمحافظة في المتحف البريطاني، خاصة المسلة السوداء، والنصوص المحفورة على الأبواب البرونزية التي اكتشفها "هورموزد رسّام **Hormud Rassam**" عام 1878م، فإن شلمانصر الثاني سحق حلفا مكونا من جيوش دمشق وحماة وإسرائيل في موقعة "قرقر" سنة (854) ق.م. وكل ما فعله هو أخذ الجزية من صور وصيدون ومن "ياهو ملك عمري"، ولم يسبي أحدا.

غزوة "رمون نيراري" (781-810) ق.م، حفيد شلمانصر الثاني.

لم تذكر التوراة اسمه صراحة، لكن ملوك الثاني 13(5-23) يذكر أن ملك آشور أجبر ملك آرام على أن يرخي قبضته عن إسرائيل في أيام يهوآحاز، وقد فضل شعب إسرائيل أن يخضعوا اسميًا لسيادة ملك بعيد في نينوى، عن الخضوع لملك قريب في دمشق يسومهم الاضطهاد. وهذا يتطابق مع زمن حكم هذا الملك الآشوري {الآشوري}.

غزوة تغلث فلاسر الثالث (745-726) ق.م

لا تذكر التوراة سبب مهاجمته المملكة الإسرائيلية، واكتفت بالقول إنه وضع "منحيم" وغيره من الملوك تحت الجزية، كما في ملوك الثاني 15(15-20). ثم عاد في زمن "فقح بن رمليا" ملك إسرائيل، واستولى على الأجزاء الشمالية من إسرائيل وسبى الشعب إلى آشور²¹²

العجيب أن التوراة تعترف بأن "أحاز" ملك يهوذا استنجد بتغلث فلاسر الثالث لينصره ضد "رصين" ملك آرام و"فقح بن رمليا" ملك إسرائيل، كما في سفر إشعياء (4)، وأرسل له الفضة والذهب الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك هدية، سفر ملوك الثاني 16(8). فجاء واجتاح بقواته سورية والأراضي المتاخمة حتى وصل إلى غزة. وفي طريق عودته استولى على السامرة دون أن يدمرها إلى الأرض، وكان الشعب قد اغتال "فقح بن رمليا"، فأقام الملك الأشوري "هوشع" ملكًا عوضًا عن "فقح" تحت سيادة آشور.

غزوة شلمناصر الرابع (727-722) ق.م.

بعد موت شلمناصر الثالث، ظن "هوشع" أن أسور {آشور} ضعفت، فامتنع عن دفع الجزية، وتحالف مع ملك مصر، فجاء شلمناصر الرابع واخذ "هوشع" أسيرًا إلى نينوى، واجتاح إسرائيل وعاث فيها فسادًا.

غزوة سرجون.

لم يذكر سرجون في الكتاب المقدس إلا مرة واحدة، في سفر إشعياء 20(1)، مع أنه أعظم ملوك أسور {آشور} وذلك من النقوش الكثيرة التي خلفها. وقد جاء في إحدى حولياته: "في بداية حكمي استوليت على مدينة السامرة بمعونة "شماش" 213 الذي ضمن لي النصر. وأخذت 27290 أسيرًا من سكانها، كما استوليت على خمسين مركبة ملكية منها.. لقد أعدت الاستيلاء على المدينة، وأسكنت فيها أناسًا من البلاد التي غزوتها بذراعي.. وعينت حاكمًا عليهم وفرضت عليهم الجزية والضرائب كما على الأشوريين".

أما تفكيك الدولة اليهودية الجنوبية، وسبى سكانها إلى بابل، فقد تم بعد مرور (136) سنة على زوال المملكة الإسرائيلية الشمالية. والعجيب أن كل الحملات العسكرية التي أدت إلى زوالها

²¹² سفر الملوك الثاني 15(29).

²¹³ شماش هو الإله الوثني الذي كان يعبد سرجون.

كانت بقيادة "نبوخذناصر" بعضها وهو قائد عام الجيوش الإمبراطورية، وبعضها بعد أن أصبح هو الإمبراطور.

تم القضاء على الإمبراطورية الآشورية{الآشورية}على يد نبوبولاسار، الضابط الأشهر في جيشه "نبوخذناصر". وخلال عملية انتقال السلطة، ظن ملك يهوذا "يهوياقيم" أن عملية انتقال السلطة إلى الكلدانيين ستستغرق وقتاً، لذلك أعلن التمرد عليها، الأمر الذي أدى إلى قيام حلف من الكلدانيين والأراميين والموابيين والعمونيين بقيادة "نبوخذناصر" هاجم المملكة اليهودية، وأسر يهوياقيم نفسه، وقيده بسلاسل نحاس ليذهب به إلى بابل، وكان ذلك في عام 606 ق.م،²¹⁴وبعد ذلك اتجه "نبوخذناصر" إلى "كركميش" ليهزم التحالف المصري سنة (704) ق.م، وليبدأ عصر الإمبراطورية الكلدانية الذهبي. وهناك من المؤرخين من يحسب سنوات السبي البابلي من عام (606) ق.م. اعتلى عرش يهوذا بعد يهوياقيم ابنه يهوياكين، الذي حاول التمرد في عام (697) ق.م على نبوخذنصر، الذي سارع إلى حصار أورشليم وسبي ملكها وأمه وعشرة آلاف شخص، وأخذهم إلى بابل. وقبل أن يغادر مملكة يهوذا عين "مثنيا" ملكا عليها وغير اسمه إلى صدقيا²¹⁵.

في عام (588) أعلن "صدقيا" التمرد على بابل، فزحف "نبوخذناصر" لتأديبه، وأوكل قيادة الجيش إلى "نبوزرادان" الذي حاصر أورشليم، ثم دخلها ودمرها، وأسر "صدقيا" وقلع عينيه وقيده ثم أرسله بابل، الملوك الثاني (4-7). وفي عام (581) عاد نبوخذ ناصر وأرسل إلى المملكة اليهودية الجنوبية قائد جيشه نبوزرادان الذي سبي ما تبقى من اليهود، ملوك الثاني (14-16)،²⁴ وأنهى بذلك شطرا من حياة المملكة اليهودية الجنوبية.

يدعي شراح التوراة أن المملكة الشمالية -مملكة الأسباط العشرة- انتهت وأصبحت مجرد ولاية آشورية، يحكمها وال من قبل ملك آشور. أما عن الجلاء - أي الأسرى - فيجب ألا ننظر أنهم قد امتصتهم الشعوب الذين استقروا بينهم، بل احتفظوا بتقاليدهم اليهودية وممارساتهم وتماسكهم، وأصبحوا جزءاً من شتات اليهود المنتشرين في كل بلاد الشرق. ومن المحتمل جداً أنهم اندمجوا -فيما بعد- مع المسيبيين من يهوذا، الذين سباهم نبوخذنصر ملك بابل، وهكذا أصبح أفرايم ويهوذا شعباً واحداً -كما لم يحدث من قبل- وأصبح اسم "اليهود" يطلق على الجميع سواء كانوا قبلاً من المملكة الشمالية (إسرائيل) أو من المملكة الجنوبية (يهوذا).

²¹⁴ سفر الأخبار الثانية 36(6).

²¹⁵ سفر الملوك الثاني 24(10-17).

4. حقيقة السبي

صوّر الاستشراق التعسفي مستندا إلى نصوص التوراة، أحداث السبي البابلي على أنه استهداف لليهود فقط، بدون أن يعطي أسبابا وجيهة لذلك. فالمتدبر للنص التوراتي لا يجدا سببا مقنعا، يدفع الإمبراطورية الآسورية بشقيها الأشوري والكلداني، لتسير تسع غزوات ضخمة لمهاجمة مقاطعة صغيرة كفلسطين، خالية من أي ثروات طبيعية. كل ما ذكرته التوراة يتلخص في: وحمي غضب الرب بعد أن عبد الإسرائيليون واليهود آلهة وثنية، فسلط عليهم أقواما تذلمهم، وهذا تضليل وكذب.

من يدرس التاريخ اليمني القديم، يجد أن طبيعة البلاد الجبلية الوعرة، فرضت على اليمنيين نظام حكم انفرادي به، وهو ما يعرف بنظام المخاليف.

والمخلاف عبارة عن بقعة جغرافية تقطنها قبيلة أو عدة قبائل، تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي، يحكمها شيخ القبيلة، فهو الملك، والقاضي، وحارس القوافل التجارية عندما تمر ضمن الأراضي الواقعة تحت سيطرته، وجابي الضرائب لمصلحة الدولة المركزية. ومساحة المخاليف تختلف من مخلاف لآخر، فبعضها لا يتعدى مساحة جبل وما حوله من برية، وبعضها يضم مساحات شاسعة، ويتوقف ذلك على حجم القبيلة، وأهمية موقعها الجغرافي. ومن النقوش اليمنية، نجد أن عدد المخاليف اليمنية بلغت 81 مخلافا، إضافة إلى مخلافي حضرموت، يصبح العدد 83 مخلافا.

عرف اليمن القديم بأنه أرض البخور والأخشاب النادرة، علاوة على مناجم الذهب والنحاس المنتشرة على اتساعه، وطول سواحله البحرية التي تتحكم بحركة التجارة البحرية، مما جعله محل اهتمام وأطماع كل الإمبراطوريات المجاورة، خاصة الإمبراطورية الآسورية.

النقوش والسرديات اليمنية والآسورية، تشير بكل وضوح إلى عمق العلاقات بين اليمن وسوريا التاريخية (العراق وبلاد الشام)، خاصة التجارية، ويعود ذلك إلى وحدة الأصل والنسب، فالكل يعود نسبه إلى قحطان، رغم التدليس والكذب الذي بثه المؤرخين عند تقسيم الأمم والشعوب استنادا إلى سرديات التوراة، المجهولة من حيث زمن التدوين وأسماء المدنين.

قامت استراتيجية الإمبراطورية الآسورية؛ على قاعدة ضمان تدفق خيرات وموارد اليمن من ذهب ونحاس وبخور، إما عن طريق السيطرة المباشرة، أو عن طريق ولاء وتبعية قبائل اليمن. ودلت النقوش والسرديات التي زاد عددها على عدة آلاف، على ذلك.

منذ تشكلت الإمبراطورية الآسورية القديمة حوالي (2600) ق.م، والترابط مع اليمن والمحافظة على علاقات قوية مع قبائله، سياسة آسورية ثابتة. وطالما أن قوافل التجارة تتدفق بدون معوقات، تبقى العلاقة الآسورية اليمنية هادئة. أما إذا تعطلت حركة التجارة، أو تمردت القبائل اليمنية على الإمبراطورية الآسورية، عندها يخرج الإمبراطور على رأس جيشه ليؤدب المتمردين، وضمان تدفق الثروات اليمنية.

الادعاء بأن الإمبراطورية الآشورية كانت استهدف بني إسرائيل دون سواهم من القبائل، تكذبه التوراة، وتثبت أن العديد من ملوك اليهودية الجنوبية، والإسرائيلية الشمالية كانوا مجرد تابعين، أو لنقل عملاء للإمبراطورية الآشورية، وسنستدل على ذلك ببعض الأمثلة التي أوردناها سابقاً، ونعيدها للتأكيد:

{فَجَاءَ مَلِكُ أَشُورَ عَلَى الْأَرْضِ، فَأَعْطَى مَنَحِيمَ لِمَلِكِ أَشُورَ لَفَ وَزُنَةَ مِنَ الْفِضَّةِ لَتَكُونَ يَدَاهُ مَعَهُ لِيُثَبِّتَ الْمَمْلَكَةَ فِي يَدِهِ وَوَضَعَ مَنَحِيمَ الْفِضَّةَ عَلَى إِسْرَائِيلَ عَلَى جَمِيعِ جَبَابِرَةِ الْبَاسِ لِيُدْفَعَ لِمَلِكِ أَشُورَ خَمْسِينَ شَاقِلَ فِضَّةٍ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ، فَرَجَعَ مَلِكُ أَشُورَ وَلَمْ يَقُمْ هُنَاكَ فِي الْأَرْضِ".} 216
ملك يهوذا " منحيم بن جادي " يصبح تابعا لملك آشور.

{وَأَرْسَلَ أَحَازَ رُسُلًا إِلَى تَغْلَثَ فَلَاسِرَ مَلِكِ أَشُورَ قَائِلًا: أَنَا عَبْدُكَ وَأَبْنُكَ. اصْعَدْ وَخَلِّصْنِي مِنْ يَدِ مَلِكِ أَرَامَ وَمِنْ يَدِ مَلِكِ إِسْرَائِيلَ الْفَانِمِينَ عَلَيَّ. فَأَخَذَ أَحَازَ الْفِضَّةَ وَالذَّهَبَ الْمَوْجُودَةَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ وَفِي خَزَائِنِ بَيْتِ الْمَلِكِ وَأَرْسَلَهَا إِلَى مَلِكِ أَشُورَ هَدِيَّةً. فَسَمِعَ لَهُ مَلِكُ أَشُورَ، وَصَعِدَ مَلِكُ أَشُورَ إِلَى دِمَشْقَ وَأَخَذَهَا وَسَبَّأَهَا إِلَى قَيْرَ، وَقَتَلَ رَصِينَ. وَسَارَ الْمَلِكُ أَحَازَ لِلِقَاءِ تَغْلَثَ فَلَاسِرَ مَلِكِ أَشُورَ، إِلَى دِمَشْقَ} 217. وهنا أيضاً نجد "أحاز بن يوثام" ملك يهوذا يستنجد بملك آشور ليخلصه من ملك إسرائيل.

{فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ لِأَحَازَ مَلِكِ يَهُودَا، مَلِكُ هُوشَعُ بْنُ أَيْلَةَ فِي السَّامِرَةِ عَلَى إِسْرَائِيلَ تَسْعَ سِنِينَ. وَعَمِلَ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ، وَلَكِنْ لَيْسَ كَمُلُوكِ إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ. وَصَعِدَ عَلَيْهِ شَلْمَنْأَسَرُ مَلِكُ أَشُورَ، فَصَارَ لَهُ هُوشَعُ عَبْدًا وَدَفَعَ لَهُ جَزِيَّةً. وَوَجَدَ مَلِكُ أَشُورَ فِي هُوشَعُ خِيَانَةً، لِأَنَّهُ أَرْسَلَ رُسُلًا إِلَى سَوَا مَلِكِ مِصْرَ، وَلَمْ يُوَدِّ جَزِيَّةً إِلَى مَلِكِ أَشُورَ حَسَبَ كُلِّ سَنَةٍ، فَقَبِضَ عَلَيْهِ مَلِكُ أَشُورَ وَأَوْثَقَهُ فِي السِّجْنِ. وَصَعِدَ مَلِكُ أَشُورَ عَلَى كُلِّ الْأَرْضِ، وَصَعِدَ إِلَى السَّامِرَةِ وَحَاصَرَهَا ثَلَاثَ سِنِينَ. فِي السَّنَةِ الثَّاسِعَةِ لِهُوشَعُ أَخَذَ مَلِكُ أَشُورَ السَّامِرَةَ، وَسَبَى إِسْرَائِيلَ إِلَى أَشُورَ}. 218

النص يقول بأن "هوشع بن أيلة" ملك إسرائيل صار كالعبيد عند ملك آشور، ولكن عندما أحس بخيانتته، وتأمره مع ملك مصر، انقض عليه وأوثقه في السجن، ثم حاصر السامرة وسبى شعب إسرائيل إلى آشور.

216 سفر الملوك الثاني 15(19-20)

217 سفر الملوك الثاني 16(7-10).

218 سفر الملوك الثاني 17(1-6).

وهناك عشرات الفقرات التوراتية التي تؤكد تبعية القبيلة الإسرائيلية، وكثير من القبائل اليمنية لملك أسور {أشور} سواء كان يحكم نينوى أو بابل، لدرجة دفعت هيرودوت إلى وصفه بملك "العرب وأسور".

تشير النقوش الآسورية إلى أسماء عشرات القبائل العربية التي تم سبيهما، منها: بنو جبر، بنو لحم (اللخميين)، بنو سمعي، بنو حارث، بنو هيوم، بنو عم (العمونيون)، بنو سعد، بنو إسرائيل، بنو حريشة، بنو صبيحة، بنو حسفة، وبنو حشم، بنو خليل، بنو بعشا، وغيرها الكثير. وكلها قبائل يمنية لا علاقة لها بفلسطين، مما يجعل اليمن الموطن الذي سبق منه بني إسرائيل للسبي وليس فلسطين، وأن سبب السبي هو تمرد القبائل اليمنية على الإمبراطورية الآسورية، وليس كراهية بني إسرائيل كما تدعي التوراة.

السبي البابلي بين الحقيقة التاريخية والتلفيق التوراتي

دأب التيار التوراتي على استدرار عطف الشعوب على القبيلة الإسرائيلية، من باب احتكارها للمأساة، وإظهارها كأمة مضطهدة، لاقت الكثير من المعاناة والظلم على مر السنين. ولعل آخر صور الأكاذيب تلك، حصيلة قتلى الحرب العالمية الثانية. ففي حين تجاوز عدد قتلى الإتحاد السوفيتي 20 مليون إنسان، وقتلت ألمانيا 9 ملايين من البشر، وإجمالي القتلى بشكل عام ما بين 60-80 مليون إنسان، فإن العالم لا يتذكر إلا ضحايا الهولوكوست من اليهود، بفعل الدعاية الضخمة ما زالت تلف الحدث.

لم تكن عملية تضخيم قضية ضحايا الهولوكوست حدثًا طارئًا في حياة اليهود، فالأمر له جذوره الضاربة في التاريخ. إذ صور مدون التوراة بطريقة مأساوية حياة القبيلة الإسرائيلية في مصر، بطريقة تفوق أي تصور يمكن للعقل البشري تخيله، بدون أن ينسى ضخ كمية ضخمة من الأكاذيب تخالف الحقائق التاريخية. فمثلا يدعي اليهود أن ملوك مصر سخروهم كالعبيد لبناء الأهرامات. وهذا من الكذب والتزوير، إذ تشير الفحوصات إلى أن تاريخ بناء هرم "منقرع"، وهو أحدثها، يعود إلى حوالي سنة (2100) ق.م، أي قبل رحلة القبيلة الإسرائيلية إلى مصر بحوالي (400) سنة، هذا في حال صدقنا الرواية التوراتية حول التواجد الإسرائيلي في مصر، وهو الأمر الذي أصبح معروفًا أنه من أكاذيب وتلفيق التوراة.

وكعادة مدون التوراة، فقد لفق رواية خرافية حول موضوع السبي البابلي، وجعل منها مأساة تذيب الصخر حزنا على ما آلت إليه القبيلة الإسرائيلية. لكن، كعادة كل مزور، لم يتقن مدونو التوراة عملهم، وسطرت أيديهم روايات تُكذِّب ما سردوه. وفي هذا الجزء سنبين تلك الأكاذيب، ثم نبين كيف لفقوا جغرافية الحدث. لكن قبل كل ذلك، سنمر على الرواية التوراتية لأحداث السبي وتسلسلها.

تحدثنا سابقا عن الحملات العسكرية التسع التي شنها ملوك الإمبراطورية الآشورية على اليمن، لإخضاع قبائله، وتأمين تدفق خيراته من البخور والذهب.

قامت استراتيجية الإمبراطورية الآشورية على ضمان تدفق خيرات اليمن، إما عن طريق السيطرة المباشرة على البلاد، أو من خلال تبعية قبائله لها، بدون التدخل في عقائدها.

بدأت علاقة بلاد الرافدين باليمن بتولي "سرجون الأكادي" (2279-2334) ق.م، الذي قاد حملة لإخضاع القبائل اليمنية له، لضمان تدفق البخور والذهب. وبالطبع فقد خلت التوراة من الإشارة إليه، لأن تاريخ القبيلة الإسرائيلية يبدأ من الرحلة الإبراهيمية التي انطلقت حسب التوراة حوالي (1850-1900).

حسب السرد التوراتي؛ فقد بدأ الاحتكاك المباشر بين الإمبراطورية الآشورية ومملكة إسرائيل الشمالية، مع ظهور شلمانصر الثاني ملك آشور (825-860) ق.م، الذي قاد أول حملة عسكرية في السنة السادسة من حكمه وواجه قوات دمشق وحماة وإسرائيل وغيرها، التي تحالفت معًا لمقاومة تقدمه غربًا، ولكنه استأصل هذه القوات تمامًا في موقعة "قرقر" عام (854) ق.م. وكان

هذا الخطر الكاسح قد دفع سورية وإسرائيل إلى التحالف، وهو ما تؤيده القصة التوراتية عن عقد معاهدة بينهما، شجبها نبي الله، كما في سفر ملوك الأول 20(34-43). ولكن يبدو أن الهزيمة النكراء التي أوقعها بهم "شلمناصر" قد قضت على هذا التحالف. وكل ما سجلته التوراة، أخذ شلمناصر الجزية من صور وصيدون، ومن "ياهو ملك أرض عمري" - كما كان يطلق على إسرائيل في الآثار الآشورية. وكما بينا سابقاً؛ فإن أرض عمري توجد في اليمن، وليس في فلسطين.

ثم جاء الغزو الآشوري الثاني الذي قاده الملك "رمون نيراري" (810-781) ق.م، حفيد شلمناصر الثاني. لكنه لم يكن ضد مملكة إسرائيل، بل لنصرتها ضد مملكة أرام التي فرضت حصاراً عليها. فقد فضل الملك بهوأحاز وشعب إسرائيل الخضوع لملك نينوى، على الخضوع لملك دمشق الذي كان يسومهم الاضطهاد. ووصفت التوراة "رمون نيراري" بأنه المخلص الذي أعطاه الرب لإسرائيل ليخرجهم من تحت يد الأراميين، كما في سفر ملوك الثاني 13(5-23). وهنا لم يحدث أي سبي، لأن المملكة الإسرائيلية كانت حليفة وديةً للآشوريين.

أما الغزو الثالث فقد قام به تغلث فلاسر الثالث (745-726) ق.م، الذي أخضع "منحيم" ملك إسرائيل وفرض عليه جزية مقدارها خمسين شاقل فضة عن كل رجل، ثم عاد إلى نينوى، كما في سفر ملوك الثاني 15(19-20).

لكننا نجد في سفر الملوك الثاني 15(29) أن تغلث فلاسر الثالث عاد في أيام الملك "فقح بن رمليا" ليستولي على الأجزاء الشمالية من إسرائيل ويسبى الشعب إلى آشور.

لكننا نجد أنفسنا أمام معضلة، إذ نجد في سفر الملوك الثاني 16(8)، إشعيا 7(4) أن "أحاز" ملك يهوذا استنجد بالآشوريين لينصروه ضد "رصين" ملك أرام و"فقح بن رمليا" ملك إسرائيل. ولكي يضمن معونة الآشوريين "أخذ أحاز الفضة والذهب الموجود في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك وأرسلها إلى ملك آشور هدية". فجاء "تغلث فلاسر" واجتاح بقواته سورية والأراضي المتاخمة حتى وصل إلى غزة. وفي طريق عودته استولى على السامرة دون أن يدمرها، وكان الشعب قد اغتال فقح، فأقام الملك الآشوري "هوشع"، قائد المؤامرة، ملكاً عوضاً عن فقح، تحب سيادة آشور.

المعضلة أننا أمام نص توراتي يدعي أن ملك آشور سبى الشعب، وآخر ينفي ذلك، بل يؤكد أن ملك آشور عين ملكاً مالياً له، ليحل محل الملك الذي قتله شعبه.

مع تولى شلمناصر الرابع (727-722) ق.م الحكم، أعلن "هوشع" ملك إسرائيل تمرداً على آشور، فقاد ملكها الحملة الرابعة لتأديب المتمردين، أسفرت عن أسر الملك الإسرائيلي فقط، كما في ملوك الثاني (17 و 18).

باعتلاء سرجون الثاني (722-705) ق.م العرش بدأت نهاية مملكة إسرائيل الشمالية، بعد أن ضاق ذرعاً بتكرار تمرداتها على حكم الإمبراطورية الآشورية، فقاد حملة ضخمة، وحاصر السامرة ثلاثة سنوات حتى استسلمت، كما في سفر الملوك الثاني 17(5). وقد جاء في نقشه: "في بداية حكمي استوليت على السامرة بمعونة "شماش الذي ضمن لي النصر.. وأخذت 27.290 أسيراً

من سكانها، كما استوليت على خمسين مركبة ملكية منها.. لقد أعدت الاستيلاء عليها، وأسكنت فيها أناسًا من البلاد التي غزوتها بذراعي.. وعينت حاكمًا عليهم وفرضت عليهم الجزية والضرائب كما على الآشوريين". وقد اعتبر مدون التوراة أن ما حدث كان عقابًا من الرب، لأن الشعب تجاوز تعاليمه، كما في سفر الملوك الثاني 17(6-7)، و18(11-12). ونجد في سفر عزرا 4(2-10) أن ملك أسور "أسور بانيبال" أمر بإرسال واحد من الكهنة الذين سبق أن سباهم من السامرة إلى "بيت إيل" ليعلم الشعوب التي رحلها من الشرق إلى السامرة "قضاء إله الأرض". وقد وصفتهم التوراة كما في سفر الملوك 17(33): "كانوا يتقون الرب ويعبدون آلهتهم كعادة الأمم الذين سبواهم من بينهم". وهنا وقف علماء النقد النصي واجمين أمام هذه النصوص، لدرجة أنهم وصفوها بالاطلسم. فملوك أسور لم يحتكوا بمملكة يهوذا لأنهم كانوا حلفاء طائعين لها، فلما يرسل ملك أسور كاهن إلى "بيت إيل" إذ لا وجود لشعوب تم ترحيلهم إليها؟

الخلاصة؛ أن الحملات الآسورية الستة لم تستهدف اليهود لكونهم يهودا، بل هدفت إلى إخضاع المتمردين فقط. وأن السبي لم يطال كامل شعب إسرائيل الشمالية، بل جزء من سكانها، خاصة السامرة.

حافظت مملكة يهوذا الجنوبية على كيانها بعد سقوط مملكة إسرائيل الشمالية لمدة قرن ونصف، بسبب تبعيتها للإمبراطورية الآسورية. لكن تفكك تلك الإمبراطورية وقيام المملكة البابلية على أنقاضها، أدى إلى شعور ملوك يهوذا بقرب الخلاص من القبضة الآسورية، فأعلنوا تمردهم وامتنعوا عن دفع الجزية لها. لكن تقدم "نيوخدنصر" على رأس حملة عسكرية ضخمة نحو الغرب، أربع مملكة يهوذا، فسارع ملكها إلى إعلان التبعية لبابل، والتعهد بدفع الجزية لها. وهكذا انتقلت يهوذا من تحت سيادة آشور، إلى سيادة بابل.

أصبح نيوخدنصر (604-562) ق.م سيدًا على كل غربي آسيا، وكان من العبث أن تتمرد يهوذا عليه، فقد كانت له ذراعًا طويلة يؤدي بها كل من يخرج على طاعته. والعجيب أن نجد النبي "إرميا" ينصح شعب يهوذا بالخضوع لملك بابل، وأن يصلحوا طرقهم أمام الرب، حتى ينجوا من الغضب الإلهي الذي يتهدهدهم²¹⁹.

لكن ملك "يهوياقيم" (608-597) ق.م تمرد على سيده البابلي، الذي قاد تحالفًا ضمن الكلدانيين والآراميين والموابيين والعمونيين، وحاصر أورشليم، ثم اقتحمها وأخذ بعض أنية بيت الرب، وعدد من أفراد النسل الملكي وشرفاء يهوذا، وكان من بينهم دانيال النبي ورفقائه، دانيال 1(1). وهنا نجد أنفسنا أمام طلسم آخر من طلاس التوراة. ففي حين يخبرنا سفر الملوك الثاني 24(5-6): أن يهوياقيم -بعد أن ملك 11 سنة- اضطجع مع آبائه، أي مات ميتة طبيعية ودفن في أورشليم، نجد سفر دانيال يخبرنا أن السبي كان يشمل يهوياقيم نفسه، وهو ما يؤكد سفر الأخبار

²¹⁹ سفر إرميا 25(11).

الثانية 36(6) إذ يقول: {عليه سعد نبوخذنصر ملك بابل وقيده بسلاسل نحاس، ليذهب به إلى بابل}.

في سنة (597) ق.م عاد نبوخذ نصر لمحاصرة أورشليم وسبى ملكها "يهوياكين" الذي خلف أباه "يهوياقيم"، وأعلن تمرده على بابل. يبدو أن نبوخذنصر قد ضاق ذرعاً من تصرفات ملوك يهوذا، لذلك سبى الملك يهوياكين وأمه وعبيده وروساءه وخصيانه وجميع جبابرة البأس، عشرة آلاف مسبي، وجميع الصناع والأفيان، لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض. كما حمل معه "كل خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك، وكسر كل آنية الذهب التي عملها سليمان ملك إسرائيل في هيكل الرب، والصناع والأفيان ألف، وجميع الأبطال أهل الحرب، سباهم إلى بابل. ثم عين نبوخذنصر "متتيا" ملكاً وغير اسمه إلى "صدقيا"²²⁰. وعاش الملك يهوياكين 37 سنة أسيراً في بابل. ويبدو أنه كان يحظى باحترام وولاء المسيبيين الذين عاش بينهم، إلى أن أخرجه "أويل مرووخ" ملك بابل من السجن²²¹.

بعد أقل من عام على تعيينه ملكاً من قبل "نبوخذنصر"، أعلن "صدقيا" ملك يهوذا التمرد، والامتناع عن دفع الجزية له.

ولم يكن نبوخذنصر ذلك الرجل الذي يقبل مثل هذه الخيانة من أحد أتباعه، فزحف على الفور إلى الغرب، وأوكل إلى "نبوزرادان" قائد جيشه مهمة الاستيلاء على أورشليم، فحاصرها ثلاثة سنوات (586-588) ق.م، حتى أرهاقها الحصار والمجاعة. ويبدو أن صدقيا ورجال الحرب لم ينتظروا بالمدينة حتى سقوطها، بل هربوا منها ليلاً "في طريق جنة الملك من الباب بين السورين"، وساروا شرقاً نحو العربية، ولكن جيش الكلدانيين سعى وراءهم، فأدركوا صدقيا في سهول أريحا، وأخذوه أسيراً وأحضره إلى نبوخذنصر، الذي أمر بقتل أبنائه أمام عينيه. لم يكتف "نبوخذنصر" بذلك، فأمر بقلع عيني "صدقيا"، وقيده بسلاسل من نحاس وإرساله إلى بابل. ولم ينجو هذه المرة لا المدينة، ولا الهيكل، ولا القصر، فقد أحرق "نبوزرادان" بيت الرب، وبيت الملك، وكل بيوت العظماء بالنار، وهدم جنوده أسوار أورشليم. وكل ما نجا من كنوز الهيكل وأمتعته الثمينة، نُقل إلى بابل²²²، لقد كان خراب أورشليم كاملاً، ويعبر سفر مراثي إرميا عن مشاعر الحزن والأسى والعار التي جاشت في نفسه كشاهد عيان لِمَا حاق بالمدينة المقدسة.

نقرأ في نبوة إرميا عن الدفاعات الثلاث الأخيرة من السبي البابلي. ففي السنة السابعة لنبوخذ نصر ملك بابل، أي في (597) ق.م، سبى 3.023 من اليهود، وفي السنة الثامنة عشر أي في (586) ق.م سبى 832 شخصاً. وفي السنة الثالثة والعشرين، أي في (581) ق.م، سبى

²²⁰ سفر الملوك الثاني 24 (10-17).

²²¹ سفر الملوك الثاني 25 (27-30).

²²² سفر الملوك الثاني 25(4-9).

نبوزرادان رئيس الشرطة 745 شخصًا من اليهود. أي أن جملة النفوس أربعة آلاف وست مائة²²³.

ويقول جورج آدم: "وهكذا لم يترك نبوخذنصر سوى مجموعة من مساكين الفلاحين غير المثقفين بلا هيكل ولا قائد وبلا تنظيم، أنهكهم الجوع وأحاط بهم الأعداء من كل جانب. كانوا كمية مهملّة، بل صاروا عبئًا على الذين عادوا من السبي وأعادوا بناء الأمة."

وقيل أن يغادر نبوخذنصر، عين "جدليا" حاكمًا على من بقي اليهود. ولأن أورشليم تم تدميرها، جعل "جدليا" من المصفاة مقرًا لحكمه، ومعه حامية بابلية. لم يمضي "جدليا" طويلًا في الحكم، إذ قتله إسماعيل بن نثنيا. وبمقتله انتهت مملكة يهوذا تمامًا ولم تقوم لها قائمة.

ظلت قصة الترحيل البابلي لليهود هي الشغل الشاغل لأكثر الباحثين في المجال التاريخي، وخاصة اليهود منهم، واعتبروها كجزء مهم من تاريخ اليهود في بلاد الرافدين، فخلقوا منها قصصا درامية أسطورية، وسلسلة أكاذيب لا حصر لها، حتى وصلت بهم لاعتبار أن ملك بابل "نبوخذنصر" كان قد تحول إلى شكل أشبه بالحيوان ومجنون قبل موته، وهذا جزء من انتقام رب الجنود حسب ما جاء في كتاب "التناخ" اليهودي.

²²³ سفر إرميا 52 (28-30)، وشفر الملوك الثاني 24 (14-16).

الترحيل البابلي أم السبي البابلي؟

تعتبر مسألة السبي البابلي لليهود، إحدى أكبر أكاذيب وتلفيق التوراة، لكن ترويجها وتبني الاستشراق اللاهوتي لها، جعلها إحدى حقائق التاريخ التي لا يرقى إليها شك.

لكن النقوش الآشورية تؤكد غير ذلك، فليس فيها أن البابليين قاموا بسبي أو ترحيل أي شعب، بل هم لم يعرفوا هذه السياسية. وقبل توضيح ذلك، دعونا نذكر الفرق بين السبي والترحيل. فالسبي يخص النساء والأطفال، أو مجموعة صغيرة من البشر، في حين أن الترحيل هو عملية سياسية، واجتماعية تقوم على حمل بعض القبائل، أو الشعوب، أو حتى الأفراد من شعب معين، على الانتقال من مواطنهم وأقاليمهم التي يستقرون فيها، إلى مقاطعات وأماكن بعيدة عنها، وإسكانهم فيها ضمن الإمبراطوريات أو الدول التي يخضعون لسيادتها، لأسباب كثيرة. ولذلك فهي سياسة كانت موجودة عند الشعوب القديمة، لتحقيق أهداف يراد منها تجنب الدولة للمشاكل، أو عمليات العصيان، والاضطرابات التي تثيرها الأقاليم الحدودية البعيدة عن مركز السلطة. وللحيلولة دون قيام كيانات جديدة تهدد كيان الإمبراطورية، كما فعل الملك الآشوري سرجون الثاني (722-705 ق.م)، الذي قام بترحيل سكان السامرة إلى أراضيه، وهناك أصبحوا مواطنين من الدرجة الأولى لا يميزهم أي شيء عن سكان بلاد آشور الأصليين، وذلك باعتراف التوراة. ولذلك لا يصح استخدام مصطلح السبي، لأن هذا يخص النساء والأطفال أو حتى المجموعات الصغيرة، أما عن الرجال فكان يستخدم مصطلح الأسر وليس السبي. وبما أن التوراة تقول إن الحدث شمل شعب كامل من نساء وأطفال ورجال، فلذلك لا يمكن وصفه بالسبي، بل بالترحيل.

تبدأ مقدمات أحداث المشكلة البابلية اليهودية، بصعود الملك "يهوياكين" للسلطة في يهودا (608-597 ق.م)، الذي تمرد على السلطة الجديدة في بلاد الرافدين، فأمر الملك الكلداني "نبوبلاصر" ابنه وقائد جيشه "نبوخذنصر" بالتحرك لوضع حد لذلك التمرد، خشية أن تحذو حذوه بقية ممالك و قبائل اليمن. فتحرك نبوخذنصر على رأس جيش جرار، لكنه لم يكمل مهمته، إذ وصله نبأ وفاة والده، فاضطر للعودة إلى بابل ليقيم مراسم دفنه، ونصيب نفسه ملكاً. أحست الممالك والقبائل التابعة لبابل بقوة "نبوخذنصر"، فسارعت إلى إرسال الهدايا له، ومنها مملكة يهودا، من أجل اقتداء نفسها، وإبعاد خطر البابليين عنها. إلا أن نبوخذنصر كان قد فهم أن تلك الممالك ستقاوم الكلدانيين في المستقبل، لذلك قرر حسم الأمر، وبدأ التخطيط للهجوم على يهودا، وباقي الممالك المتمردة، مما جعل "يهوياكيم" يخضع له ويتعهد بدفع الجزية.

لكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ توقفت مملكة يهودا عن إرسال الجزية إلى بابل، وهذا ما دعى النبي "أرميا" على تأكيد عودة البابليين إلى يهودا وتدميرها وسبي شعبها، كما تشير التوراة. وفي عام (599 ق.م) قرر "نبوخذنصر" الهجوم على يهودا، فاستدعى حلفاءه من الآدوميين والموابيين والعمونيين إلى جانب بعض حامياته التي كانت موجودة في المنطقة، وتم الإعزاز لها بالتقدم لمهاجمة يهودا قبل أن يتوجه هو إليها.

يبدو أن هدف نبوخذنصر من هذا التحالف كان يتعدى الهدف العسكري وينصب في المصالح الاقتصادية، إذ أن مساعدة تلك القبائل له، ستمكنه بالتالي من السيطرة على خط التجارة الممتد من حضرموت حتى ميناء "المخا"، وهو الميناء التجاري الرئيسي وقتها.

ويتضح هدف ملك بابل من إبقاء جيشه في عام 598 ق.م، ففي شهر تشرين الأول/الثاني قاد جنده واتجه صوب يهودا (Alia-a-hu-du)، لقمع تمرد حاكمها الذي انقطع عن دفع الجزية منذ عامين. والنص البابلي صريح في عباراته بأن الجيش البابلي عسكر أمام يهودا وأخضعها في الثاني من آذار عام(597) ق.م، والتي انتهت باسقاط "يهوياكين" وتعيين "صدقيا" بدلاً عنه، وجاء في نص بابلي مكتوب على لوح محفوظ في المتحف البريطاني ويحمل الرقم(21946):"في السنة السابعة من شهر (كيسليمو) استدعى ملك أكد (بابل) "نبوخذنصر" جيشه وسار به وعسكر قبالة يهودا (Alia-a-hu-du)، فحاصر المدينة واحتلها في اليوم الثاني من شهر (آذار)، وخلع ملكها، ونصب ملكاً آخر حسب رغبته، أخذ الكثير من الغنائم من هناك، وأرسله(المقصود بالملك الأسير) إلى بابل".

وتذكر التوراة أن الملك البابلي قام بنهب المدينة ودك سورها، ودمر الهيكل الذي بناه سليمان عليه السلام ورحّل شعبيها إلى بابل فيما عُرف بالسبي البابلي أو الترحيل البابلي، فقتل منهم من قتل، واستعبد من لم يقتل، وهكذا سقطت مملكة يهوذا. ولكن لو راجعنا النص البابلي بتمعن، سنجد أنه لا يذكر اي شيء عن مصير "يهوياكيم" ولا عن كيفية تنصيب الحاكم الأخر بدلاً عنه، غير أننا نعرف من مصدر بابلي آخر تفيد بتعيين صدقيا حاكماً على يهودا بدلاً من يهوياكين. وكذلك النص البابلي لا يذكر اي معلومة عن تدمير للمدينة، ولا اي تفاصيل عن مدة الحصار. لذلك لا يمكننا أن نعرف ذلك إلا عن طريق حساب تاريخ انطلاق الجيش البابلي، وتاريخ دخوله للمدينة. وهذا يقودنا للتعرف على مدة الحصار الفعلي للمدينة، وفي ضوء إشارات التوراة إلى معرفة مصير "يهوياكيم" الذي كانت الحملة تهدف إلى قمع تمرده لتوقفه عن دفع الجزية، فضلاً عن تعرفنا على تاريخ "يهوياكين" وابنه وبقية سكان المدينة الذين تم ترحيلهم إلى بابل. أن حصار المدينة لم يدم أكثر من شهرين، وهذا ما نستنتجه من تاريخ انطلاق الجيش البابلي في شهري تشرين الأول/الثاني عام (598) ق.م، والزمن المقدر للجيش البابلي أن يقطع المسافة بين بابل ويهودا في أيام الشتاء الممطرة، واستناداً إلى ذلك فلا بد من وصوله إلى أورشليم في شهر كانون الثاني/شباط وضرب الحصار عليها، وهذا يقع على الأرجح في أقل من شهرين من تاريخ سقوط المدينة. أما مصير "يهوياكيم" الذي لم يشر له النص البابلي، كما لا تقف عليه روايات التوراة، فيبدو أنه مات قبل سقوط المدينة بثلاثة اشهر وعشرة أيام كما في أخبار الأيام الثانية34(9)، وبظروف مجهولة، اي في الثاني والعشرين من شهر كانون الأول عام (598) ق.م. ولكن هذا لا يجعلنا نتقبل جوهر ما أشارت إليه التوراة والمؤرخ "ويوسفوس"، بأن حملة "نبوخذنصر" كانت مخططة كرد فعل لوفاة "يهوياكيم" وتتويج "يهوياكين" ابنه مكانه، حيث أن "يهوياكين" خلع في الثاني من آذار عام (597) ق.م، اي بعد حكم ثلاثة أشهر فان الصورة النهائية للوضع الذي كان قائماً في يهودا أثناء الحصار البابلي، هي أن "يهوياكين" كان الحاكم الفعلي للمدينة، وتم تتويجه بعد وفاة والده، والعقاب الذي خطط له نبوخذنصر وقع على خلفه يهوياكين، حيث أن هذا لا يغير في الأمر من كون هدف الحملة الأساس هو تأديب يهوذا.

والأهم من ذلك هو أن النص البابلي لا يذكر أي شيء عن سبي أو نقل لشعب من يهودا إلى بابل، بل أشار فقط إلى أسر الملك، وأولاده، وحاشيته فقط، كما العرف السائد القديم، حيث أن أسر هؤلاء يعتبر علامة من علامات النصر. أي أنه لا يوجد أي سبي أو نقل لشعب من يهودا إلى بابل. وظهرت إشارة بابلية "ليهوياكين" ملك يهودا وكذلك لأبنائه الخمسة وحاشيته في لوح مسماري محفوظ حالياً في متحف "بيرغامون" في برلين، ويتكلم هذا اللوح عن توزيع الجرايات (هي عطايا عينية وتتضمن الجبوب والزيت والصوف والقماش والملابس والخبز والسمك والطحين) في بابل. ويشير أيضاً إلى أن يهويكين قد استقر هو وأفراد عائلته وحاشيته في بابل، واحتجز في القصر الملكي، حيث عثر على الجرايات التي كانت مخصصة لهم، وعثر المنقبون على هذه القوائم المكتوبة على الألواح في بيت الأقبية الذي يقع في الزاوية الشمالية الشرقية للقصر الجنوبي الكبير، حيث عثر على سرداب تحت الأرض يتكون من سلسلة من أربع عشرة حجرة مقببة وتشير خطة بناء المبنى الغريب انه ربما كان يستعمل مخزناً أو وحدة إدارية، وجاء في نص هذا اللوح:

1. إلى يهويكين (Ya'u-kin) ملك أرض يهودا.
2. بي (Pi [19]) ليهوياكين، ملك أرض يهودا
3. سيلا ([20] (sila) للأبناء الخمسة لملك أرض يهودا
4. سيلا لثمانية رجال يهود كل واحد سيلا
5. بي ليهوياكين
6. سيلا للأبناء الخمسة ...
7. بي ليهوياكين، ابن ملك أرض يهودا
8. سيلا لأبناء الملك يهودا بيد كاناما

يهويكين، ملك أرض يهودا...الأبناء الخمسة لملك أرض يهودا بيد كاناما".

هناك نص من لوح آخر يتكلم عن نفس الموضوع، وهو تخصيص الجرايات للأسرى الحروب في بابل، واستناداً إلى ما ورد في هذا اللوح فإن المؤن والمواد الغذائية لم تقتصر على الأسرى من يهودا دون غيرهم بل شملت أناس من شعوب مختلفة.

مما تقدم نلاحظ انه لا توجد إشارة بابلية إلى وجود سبي لشعب كامل، وإنما فقط الملك وأبناءه وحاشيته، هم الذين تم أسرهم ونقلوا إلى بابل، ونلاحظ أيضاً الأسرى كانوا قد تلقوا معاملة طيبة داخل القصر الملكي البابلي، بدليل أن النص البابلي بقي يحتفظ بتسمية ملك يهودا على يهويكين. فمصدر موضوع الترحيل للشعب اليهودي هو مصدر توراتي متأخر عن النص البابلي المعاصر، ولا يوجد أي ذكر له في مصدر آخر معاصر. واستند الكثير من الباحثين على القصة التوراتية للأحداث، وجعلوا منها مصدراً لخلق تاريخ يهودي في بابل، وقاموا بنسب الكثير من الأمور في بابل إلى اليهود. ومثال على ذلك: نسبوا العائلات البابلية المصرفية والتي عرفت باسم "ايكيبوموراشو" إلى أصل يهودي، وقالوا انهم من بقايا المسيبين في بابل، واعتبروا أن اسم "ايكيبو" قريب لفظياً من اسم يعقوب، وقالوا إن "ايكيبو" هو تحريف بابلي لاسم يعقوب. وأما المصادر العربية التي أشارت الى يهودية عائلة "ايكيبو" فوجد أنها اعتمدت على الباحثين اليهود، وعلى الباحثين المنحازين لليهود، وبعض الباحثين الغير مختصين. أما المصادر المختصة من

علماء المسماريات فهي لا تشير إلى يهودية عائلة "ايكيبى" بكونهم يهود، بل ترجعهم الى كونهم عائلة بابلية عريقة، وأن هذا الانحياز لليهود هو محاولة منهم من أجل القول إن اليهود هم أصحاب إنجاز في بابل، وأنهم أول من أسس المصارف في التاريخ. وزعموا أن الشيفل هو وحدة عملة يهودية قديمة، في حين تثبت المصادر السومرية القديمة قبل أكثر من (2000) سنة ق.م أن الشيفل استخدم لديهم، وتؤكد التوراة أن الجد الأعلى إبراهيم اشترى قبر لزوجته سارة بأربعمائة شافل فضة، كما في سفر التكوين (16)23. وقد قام المؤرخون من التيار اللاهوتي الاستشراقي بتدريس تاريخ العائلتين كتاريخ يهودي، وهذا ما لا يقبله البحث التاريخي السليم، لأن الألواح التي تتكلم عن هاتين العائلتين لا تشير إلى أصل غريب عن بابل، لذلك تعتبر ألواحهم أرشيف بابلي وليس يهودي. وهي بذلك تعود إلى عائلة ايكيبى وعائلة موراشو، حيث أسست تلك العوائل مصارف مالية في بابل، كانت من خلالها تقوم بتقديم القروض للمواطنين البابليين مع فوائد، وان تلك الألواح دونت كأرشيف لعمل هذه المصرف.

أما حياة اليهود الاجتماعية في بابل، فهذا بالتحديد أيضاً لم يردنا إلا من خلال النصوص التوراتية، ولا يوجد نص بابلي يذكر أسماء ذات صلة باليهود.

أما الحملة البابلية التي تدعي التوراة حدوثها بعد أن رفض الملك "صدقيا" دفع الجزية لبابل، مما جعل "نيبوخذنصر" يهاجم أورشليم ويحاصرها لمدة سنتين كما في الإصحاح 25 من سفر الملوك الثاني، ثم استلمها بعد نفاذ المؤن، وقيام نبوزرادان رئيس الشرط البابلية بحرق المدينة، واسر الملك "صدقيا" وسمل عينيه، فلا يوجد ما يشير إليها في كل النقوش البابلية، علماً بأن ملوك بابل حرصوا على تدوين أخبارهم وانتصاراتهم. لذلك يرفض معظم المؤرخون من خارج التيار اللاهوتي الاستشراقي القبول بصحة هذا الادعاء التوراتي. وقد ساهم الموروث الإسلامي في تثبيت الخرافة التوراتية من خلال تفسير الآية: ﴿وَكَاذِبِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَسْنُهُ وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾²²⁴، بالادعاء بان ذلك الرجل هو عزيز، وأن القرية هي بيت المقدس، وأن الحدث كان بعد تدميرها على يد نبوخذنصر، وكل ذلك مأخوذ من التوراة بدون دليل.

وبما أنه لا يتوفر اي نص بابلي حول تلك الحملة ضد صدقيا ملك يهودا، وأنها جاءت خلال مصادر توراتية فقط، فان صحة حدوثها أصبح محل شك، بل ورفض عند الكثير من المؤرخين.

²²⁴ سورة البقرة الآية 259.

نقرأ في التوراة الفقرة التالية: {لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا مَسَاكِينُ شَعْبِ الْأَرْضِ} 225، وهي عبارة تتكرر عند كل غزوة للإمبراطورية الآشورية بداية من شلمانصر الثاني حتى نبوخذنصر. وحسب تفسير التوراة، فإن مساكين شعب الأرض تعني: الفلاحين، والعمال، وكبار السن، والخدم، والعبيد، والنساء، والأطفال. وهؤلاء يشكلون الغالبية العظمى عند كل الأمم والشعوب، وبالتالي فهو إقرار بأن السبي البابلي لم يشمل كل اليهود سواء كانوا من سكان المملكة الشمالية أو الجنوبية.

العجيب أن مدون التوراة يتخبط عند سرده لأحداث ما سماه السبي الأخير، فنقرأ النصوص التوراتية التالية: {وَسَبَى كُلُّ أُورُشَلِيمَ وَكُلَّ الرُّؤَسَاءِ وَجَمِيعَ جَبَابِرَةِ الْبَأْسِ، عَشْرَةَ آلَافٍ مَسْبِيٍّ، وَجَمِيعَ الصَّنَاعِ وَالْأَقْيَانِ. لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا مَسَاكِينُ شَعْبِ الْأَرْضِ. وَسَبَى يَهُوْيَاكِينُ إِلَى بَابِلَ. وَأَمَّ الْمَلِكُ وَنِسَاءَ الْمَلِكِ وَخَصِيَانَهُ وَأَقْوِيَاءَ الْأَرْضِ، سَبَاهُمْ مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى بَابِلَ. وَجَمِيعَ أَصْحَابِ الْبَأْسِ، سَبْعَةَ آلَافٍ، وَالصَّنَاعِ وَالْأَقْيَانِ أَلْفًا، وَجَمِيعَ الْأَبْطَالِ أَهْلَ الْحَرْبِ، سَبَاهُمْ مَلِكُ بَابِلَ إِلَى بَابِلَ. وَمَلِكُ بَابِلَ مَتْنِيًّا عَمَهُ عَوْضًا عَنْهُ، وَعَبَّرَ اسْمَهُ إِلَى صَدَقِيًّا} 226.

في الفقرة الأولى: {وَجَمِيعَ جَبَابِرَةِ الْبَأْسِ، عَشْرَةَ آلَافٍ مَسْبِيٍّ}.

في الفقرة الثانية: {وَجَمِيعَ أَصْحَابِ الْبَأْسِ، سَبْعَةَ آلَافٍ}.

ترى لو كان السبي حقيقيا، فلماذا يجهل مدون التوراة عدد المسبيين.

الحقيقة، أن السبي البابلي مجرد أكذوبة اخترعها اللاهوتيون، كما اخترعوا أكذوبة الوعد الإلهي بوراة الأرض من النيل إلى الفرات.

225 سفر الملوك الثاني 24(14).

226 سفر الملوك الثاني 24(14-17).

دأب المؤرخون من أنصار التيار التوراتي على تدوين تاريخ مشرق للشعب الإسرائيلي/اليهودي، مستندين إلى الروايات التوراتية، وخيال مدوّنيها، ثم نشره حتى أصبح ذلك السرد حقيقة تاريخية مسلّم بها، وأصبح الباحث المنصف يواجه صعوبات جمة لتفنيدها.

لو أخذنا بالروايات التاريخية المتأثرة بالسرد التوراتي، سنجد الادعاء بأن اليهود ساهموا في بناء الأهرامات المصرية، وأن جزءاً من حضارة وادي النيل قامت على أكتافهم وبمجهودهم، مع أن الحقيقة التاريخية تثبت أن هرم "منقرع" الأحدث بناء، يعود تاريخ تشييده إلى عدة قرون تسبق مولد الجد الأعلى للقبيلة الإسرائيلية، بينما تخلوا النقوش الآسورية من ذكرهم وقد بينا هذا في الجزء "هيروdot أكبر كذاب ومزور للتاريخ".

لم يختلف تاريخ القبيلة الإسرائيلية في فلسطين (نحن نتحدث عن الرواية التوراتية، وليس عن التاريخ الحقيقي) كثيراً كما جاء في التوراة ذاتها. فالجد الأعلى أمضى حياته بدويا متنقلا يسوق أغنامه بحثاً عن الماء والعشب، ينصب خيمته بعد استئذان جيرانه. وعندما ماتت زوجته لم يستطع دفنها في مقابر سكان البلاد الأصليين، مما اضطره إلى شراء مغارة كي يدفنها. ولم يختلف الأمر مع ابنه "إسحاق"، فسيرة حياته نسخة مكررة عن حياة أبيه. أما الحفيد يعقوب الذي تنسب إليه القبيلة، فلم يستطع نصب خيمته قرب "شكيم" إلا بعد دفع ثمن الأرض التي سيقم فوقها، وقد بينا ذلك مفصلاً.

التوراة تقر بأن تاريخ القبيلة الإسرائيلية خلال مرحلتي القضاة والملوك، وعلى مدار (300) عام شهد حروباً طاحنة بين المملكتين اليهودية والإسرائيلية، نتج عنها حرق وتدمير عشرات المدن، وقتل مئات الألوف من البشر. ترى أين هو تاريخ المشرق لتلك القبيلة إذا، وأية حضارة أشادتها، وأين كانت؟ علماً أن الفقرات التوراتية التي في هذا الجزء، تشير إلى أن الرب يهوه أخبر موسى عليه السلام عند خروجه على رأس القبيلة من مصر متوجهاً إلى أرض كنعان، سيدخل مدناً عظيمة لم بينها، وبيوت مملوءة بالخيارات لم يجنيها، وآبار محفورة لم يحفرها، وبساتين عنب وزيتون لم يغرسها، والخطاب له ولقومه، فأين حضارتهم المزعومة؟

بيننا خلال هذا الجزء أن السبي البابلي مجرد أكذوبة صنعها مدونو التوراة، وأن الأمر مجرد عملية ترحيل طالت المتأمرين والمتمردين على الإمبراطوريات التي حكمت وادي الرافدين، مارسها الأباطرة ضد اليهود وغيرهم، حفاظاً على استقرار الحكم. وأن الترحيل شمل الملوك والحاشيات وعلية القوم، وقادة الجيوش، ولم يرحل غيرهم، بشهادة التوراة، والنقوش الآسورية. وقد تمتع المرسلون بنفس امتيازات سكان الإمبراطورية، وكانت تصرف لهم العطايا والمنح بأمر الإمبراطور، مع حفظ القاب الملوك، وعدم التدخل في طقوس وعبادات المرسلين.

بعد وفاة نبوخذنصر حكم من بعده ثلاثة ملوك ضعفاء، لم يستطيعوا أن يحكموا أكثر من ست سنوات ونصف، وأولهم "مردوك"، (560-562) ق.م، الذي ذكرته التوراة باسم "مردوخ"، كما في سفر ارميا 52(31). وذكرت التوراة في سفر ملوك الثاني 25(27-30) انه أظهر حسن معاملة مع الملك يهوياكين، حتى أنه أطلق سراحه.

حاز موضوع عودة اليهود من السبي البابلي كما يصفه المؤرخون نقلا عن السرد التوراتي، على أهمية خاصة في الوجدان اليهودي، تمثل في رفع الملك "قورش" الذي سمح لهم بالعودة الى فلسطين وإعادة بناء الهيكل، إلى مرتبة القديس، ثم منح لقب ابن الرب، لينتهي الأمر إلى جعله حليفا له.

حسب التوراة، نجد النبي حزقيال وهو من المرشحين الأوائل بدأ من عام (593) ق.م في وعظ اليهود في بابل، ومبشرا بالعودة الى يهودا، وإعادة بناء المعبد، ومواصلة عبادتهم للإله يهوه، واستعادة المملكة الموحدة التي تضم كل من إقليمي يهوذا وإسرائيل، وأن العودة ستكون على يد مسيح يختاره الرب لتلك المهمة. وبما أن النص التوراتي يؤكد أن قورش هو من تولى عملية إعادة اليهود، وجب على مدون التوراة أن يطلق عليه لقب مسيح الرب، للمحافظة على صدق نبوءة حزقيال، لذلك تم تأليف نصوصا وإصاقتها بنبي آخر هو "اشعيا". لذلك نجد في سفره 45(1-3): {هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ لِمَسِيحِهِ، لِقُورَشِ الَّذِي أَمْسَكَتْ بِيَمِينِهِ لِأَدْوَسَ أَمَامَهُ أَمَمَا، وَأَحْقَاءَ مُلُوكِ أٰخْلَ، لِأَفْتَحَ أَمَامَهُ الْمِصْرَاعَيْنِ، وَالْأَبْوَابَ لَا تُغْلَقُ. أَنَا أَسِيرُ قُدَامَكَ وَالْهَضَابُ أَمَهْدُ. أَكْسِرُ مِصْرَاعِي النَّحَاسِ، وَمَعَالِيْقَ الْحَدِيدِ أَقْصِفُ. وَأَعْطِيكَ دَخَائِرَ الظُّلْمَةِ وَكُنُوزَ الْمَخَابِي، لِكَيْ تَعْرِفَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الَّذِي يَدْعُوكَ بِاسْمِكَ، إِلَهَ إِسْرَائِيلِ}.

هذا النص التوراتي يتطابق مع ما جاء في النقش المحفوظ في المتحف البريطاني تحت اسم أسطوانة قورش رقم(90920)، وهذا جزء مما هو مدون: "أنا قورش، ملك العالم، الملك العظيم، الملك القوي، ملك أرض بابل، ملك أرض سومر وأكاد، ملك جهات الأرض الأربعة، ابن الملك العظيم قمبيز، ملك مدينة انشان، حفيد الملك قورش العظيم، ملك مدينة انشان، سليل الملك العظيم تابسيس، الملك العظيم، ملك مدينة انشان، الذي يعد النسل الأبدي للملكية، الذي أحب حكمه كل من بل (مردوك) ونابو، والذنان تمنيا لحكمه الملكي أن يريح قلوبهما، عندما دخلت بابل كصديق، (و)أقمت وفرح مقر الحكم في قصر الحاكم، مردوك السيد العظيم (لي) قلبي الواسع، من بابل [اهتممت بعبادته] يوماً بيوم، قواتي اخترفت بابل سلمياً، ولم أسمح لأحد أن يثير الفع (في أي مكان) من [بلاد سومر] وأكد، مدينة بابل ولك معابد حافظت عليها جيداً، وسكان بابل [الذين] بعكس إرادة الآلهة (نير) [لا يلبق بهم] جعلتهم (يرتاحون) من عنائهم، ورفعت عنهم السخرة، مردوك السيد العظيم سر من أعماله الطيبة. وباركني برحمة، أنا قورش الملك الذي يعبد، وكذلك قمبيز ابني من صلبي، وكل قواتي [بخير] ساروا مشياً أمامه. كل الملوك الذين يجلسون على عروش، كل جهات العالم من البحر الأعلى، وحتى البحر الأدنى الذي يسكنون في جهات بعيدة، والآخرون من كل ملوك الغرب الذين يسكنون في خيام، جلبوا لي الجزية الثقيلة، وقبلوا قدمي في بابل(أما من إقليم) ... حتى آشور وسوسة وأكد وشنونا ومدن زمان وميتورنو ودير وكل إقليم كوتيوم، المدن على الطرف الآخر من نهر دجلة، والتي بيوتها كانت متداعية منذ القدم، الآلهة المقيمة هناك أعدتها الى مساكنهم وآلهة سومر وأكد التي جلبها نبونئيد لإغضاب سيد الآلهة، بناء على مردوك السيد العظيم، جعلتها تتخذ في معابدها المكان الذي يفرح قلبها...إلا ليصلي كل الآلهة التي أعدتهم الى مدنهم المقدسة ... ليصلوا يوماً من أجل نابو وبل، حياة طويلة وليوصوا بي مردوك مولاي حتى يردد قورش الملك الذي يعبد وابنه قمبيز".

قورش يؤمن بمردوخ الإله العظيم، وبنابو الإله الأدنى مرتبة، والتوراة على لسان إشعيا جعلته مسيحا للرب يهوه، وأعلنت قيام تحالف بينه وبين قورش. ولو قارنا بين النص التوراتي ونقش الأسطوانة، نجد أن التوراة تدعي أن الإله يهوه هو من اختار قورش، بينما في الأسطوانة نجد الإله مردوخ هو من إختاره. فالإله يهوه في المصادر التوراتية يأخذ مكانة الإله مردوك/مردوخ

في أسطوانة قورش، فضلا عن ذكر قورش في نصوص مفصلة من كتاب التوراة، وبشكل خاص في سفري عزرا وإشعيا، إذ عبرا عن ذلك بأن الإله يهوه إله السنوات، سخر قورش ملك فارس لينفذ اليهود في بابل الذين بلغ تعدادهم بحدود (40) ألف شخص، الى جانب إرجاع كل أثاث معبد اورشليم الذي قام بإخذه الملك نبوخذ نصر الثاني من الهيكل.

لكن اهم ما جاء في نقش الأسطوانة، يشير إلى إرجاع قورش للآلهة والتماثيل التي سلبها نبوخذنصر، والملك "نبونيد" الذي حكم مدينة بابل (539-555) ق.م.

نلاحظ في نص أسطوانة قورش؛ أنه لا يوجد اي ذكر لليهود على الرغم من الثناء الكبير له في التوراة، فاليهود يتنون عليه لأنهم يقولون إن قورش أرجعهم إلى بلادهم، وبذل لهم الأموال لتجديد بناء الهيكل، وردّ إليهم نفائس الهيكل المنهوبة المخزونة في خزائن ملوك بابل. لذلك عندما سيطر على بابل سنة (539) ق.م، استقبله اليهود بحفاوة كأنه الشخص الذي أرسل لكي يتم رسالة ارميا، ويرجع اليهود إلى اورشليم، وحسب التوراة عمل قورش في السنة الأولى لحكمه على إرجاع اليهود إلى بلادهم، وأمر ببناء معابدهم في اورشليم، فارجع لهم كل الصحون الفضية والذهبية التي أخذت إلى بابل، كما جاء في سفر عزرا 1(7-11): **{وَالْمَلِكُ كُورْشُ أَخْرَجَ آيَةَ بَيْتِ الرَّبِّ الَّتِي أَخْرَجَهَا نَبُوخَذْنَصْرُ مِنْ أُورُشَلِيمَ وَجَعَلَهَا فِي بَيْتِ الْهَيْتَةِ. أَخْرَجَهَا كُورْشُ مَلِكُ فَارِسَ عَنْ يَدِ مِثْرَدَاثَ الْخَازِنِ، وَعَدَّهَا لِشَيْشْبَصْرَ رَئِيسِ يَهُودَا. وَهَذَا عَدُّهَا: ثَلَاثُونَ طَسَنًا مِنْ ذَهَبٍ، وَأَلْفَ طَسَنٍ مِنْ فِضَّةٍ، وَتِسْعَةَ وَعِشْرُونَ سَكِينًا، وَثَلَاثُونَ فِدْحًا مِنْ ذَهَبٍ، وَأَفْدَاحَ فِضَّةٍ مِنَ الرَّبِّيَّةِ الثَّانِيَةِ أَرْبَعِ مِئَةٍ وَعِشْرَةَ، وَأَلْفَ مِنْ آيَةِ أُخْرَى. جَمِيعَ الْآيَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ خَمْسَةَ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ. الْكُلُّ أَصْعَادُ شَيْشْبَصْرَ عِنْدَ إِصْعَادِ السَّبْيِ مِنْ بَابِلَ إِلَى أُورُشَلِيمَ}.**

في التفاسير اليهودية نجد أن قورش أمر عام (537) ق.م، بإرجاع اليهود وتجديد بناء اورشليم، وساعد اليهود على تعمير بيت الرب، واخذوا كل مقوماتهم وكلفة سفرهم من بيت المال الملكي الاخميني الذي كان تحت أشرف "ميثرادات" أمين أموال قورش، وساروا إلى اورشليم وطنهم وبعدها أخذت القوافل كل يوم بالذهاب والإياب بين بابل وأورشليم. وحسب سفر "عزرا" رجع ما يقارب (40) ألف نفر من قبائل اليهود المختلفة، وكانوا بإشراف وقيادة "زروبابل"، "وشيوعة بن يو صادق" الكاهن الكبير الذي كان زعيم أحد الجاليات اليهودية.

تحدثنا عن سياسة الإمبراطوريات الآسورية المتعاقبة، وطرق تعاملها مع الممالك الصغيرة، والقبائل اليمينية التي تتحكم بالأراضي المزروعة بالبحور وغابات الأخشاب ومناجم الذهب والفضة. إذ كان همها ضمان تدفق كل تلك الخيرات بدون معوقات، لذلك حافظت على علاقات جيدة معها عن طريق التحالف، والحكم المباشر إذا اقتضى الأمر. وبينما أن معظم ملوك إسرائيل الشمالية، ويهوذا الجنوبية كانوا مجرد تابعين للسلطة الحاكمة في بلاد الرافدين، وكل من حاول التمرد منهم، نال عقابا قاسيا. وحفاظا على مصالح الإمبراطورية، لجأ ملوكا إلى ترحيل المتمردين من أماكن سكناهم إلى مناطق أخرى، وإحلال قبائل أخرى حليفة لتحل محلهم. والسرديات اليمينية تشير إلى ترحيل عشرات القبائل اليمينية إلى أماكن جديدة داخل اليمن نفسه، أو إلى بابل. وكانت القبيلة الإسرائيلية بفرعيها الشمالي والجنوبي من ضمن القبائل التي تم ترحيلها. وعندما سيطرت الإمبراطورية الفارسية بزعامة قورش على بابل، لجأ إلى أسلوب جديد في التعامل مع القبائل للمرحلة. فبعد أن كانت تلك القبائل مجرد حراس على قوافل التجارة،

أصبحوا شركاء للإمبراطورية. وبناء على ذلك الاتفاق سمح قورش للمرحلين بالعودة إلى بلادهم الأصلية.

الغريب في مسألة عودة اليهود من بابل، أن عشرات المؤرخين يقرون بأن غالبية اليهود فضلوا البقاء في بابل على العودة إلى أورشليم. ويرجع بعضهم أسباب ذلك الرفض إلى عدة أمور، أهمها: أنهم تعودوا على المعيشة في بابل، وأن الرحلة إلى أورشليم طويلة وشاقة، كما أنهم تزوجوا من بنات بابل وأنجبوا منهن أطفالاً، وأن أورشليم بالنسبة لهذا الجيل غير معروفة كما أنها خربة، وماذا سيفعلون هناك؟ لهذا فضل الكثير منهم البقاء في بابل، أو على الأقل تأجيل العودة. وقد اعتبر مفسرو الكتاب المقدس من اليهود والمسيحيين، أن نداء العودة إلى أورشليم، كان بمثابة اختبار عظيم للشعب (وهي نفس دعوة الله لنا.. تعالوا بالتوبة واتركوا لذة الخطية)، كما ورد على موقع الأنبا تكلاهيمنوت نقلا عن عشرات الآباء والقديسين.

ترى هل كان الرافضون من اليهود للعودة إلى فلسطين، على علم بالوعد السماوي لهم بامتلاكها؟

باختصار، رغم حجم الذكر لقورش في المصادر اليهودية، إلا أنه في أسطواناته الشهيرة الموجودة في المتحف البريطاني، لا يذكر أي شيء عن اليهود، ولا عن إرجاع الشعوب إلى مناطقها، بل ذكر انه قام بإرجاع تماثيل الآلهة إلى معابدها، تلك التماثيل التي قام نبوخذنصر ملك بابل السابق بنقلها إلى بابل، بحجة أنه قام بذلك، ليحميها من خطر العدوان الفارسي على بابل، وكما جاء في نص الأسطوانة. ومن يملك دليلاً تاريخياً من الأرشيف الآشوري يشير إلى سبي كامل للقبيلة الإسرائيلية إلى بابل بسبب أنهم يهود، أو من الأرشيف الفارسي يشير إلى عودة كامل اليهود من بابل، فليفضل ويأت به²²⁷.

حسب نصوص التوراة التي يعالجها الكاتب العراقي فاضل الربيعي²²⁸ في كتابه حقيقة السبي البابلي، فقد وقعت خلال حملة نبوخذ نصر على بلاد اليهودية، معركة كبرى ضد القبائل المتمردة، جرى خلالها إلقاء القبض على الملك اليهودي صدقيا، ومن ثم تسليمه للآشوريين، بعد ملاحقة فلوله في وادي العرب وتدمير أورشليم. لكن قصة هذه المعركة تعرضت لتتشويه فظيع، عندما ارتكب المترجمون سلسلة من الأخطاء الفادحة المقصودة، التي شوهدت الرواية التوراتية، ومن ثم شوهدت تاريخ فلسطين. حسب النص العبري في الصورة أعلاه، وقد تُرجم هذا النص بشكل اعتباطي في الطبعة العربية من التوراة، ونحن نسوق هذا المثال للدلالة على طبيعة

²²⁷ كتاب حقيقة السبي البابلي للدكتور فاضل الربيعي، وكتاب التوراة جاءت من جزيرة العرب، وترجمات النقوش الموجودة في المتحف البريطاني، والنقوش الموجودة في فوردرايسياتشس، برلين.

²²⁸ الدكتور فاضل الربيعي أحد خبراء العرب باللغة العبرية الصنعانية، ولهجات القبائل اليمنية، خاصة الحميرية التي تعد القبيلة الإسرائيلية إحدى قبائلها.

التزييف والتزوير في الترجمة، فهو يقول: "وكان جميع رجال الحرب، ليلاً في طريق الباب الذي بين السوريين، بالقرب من بستان الملك، بينما كان الكلدانيون يحيطون بالمدينة. وفي أثناء ذلك ذهب الملك في طريق العربة فجرى جيش الكلدانيين في أثره."

وهذه الترجمة غير مقبولة ومرفوضة كلياً، لأنها تصور أحداثاً لم تقع وأماكن لا وجود لها، مثلاً: إن مسرح الأحداث لا يعرف مكاناً يدعى "بين السورين"، ولا طريقاً يدعى "طريق الباب"، ولا وجود لهما في العالم القديم كله. كما أن الكلدانيين بقيادة "نبوخذ نصر" لم يتشكوا قط، مع خصومهم في هذه المواضع. بل لم يكن هناك كلدانيون أصلاً في هذه المعركة. ما يقوله النص العبري برأينا ووفقاً لفهمنا الدقيق له {الكلام للدكتور الربيعي} هو التالي:

"كل رجال الحرب، ساروا ليلاً في طريق جبل-شعر، وفي طريق حمتيم الذي في أعلى وادي-جن. وبينما كان الملك والكسديين في أعلى منازل وادي الضباب، سلكوا طريق العرب، ليلحق بهم جيش الكلدانيين آخر وادي المالك."

ولأن محققي التوراة كانوا يعتمدون القياس كما يبدو، لمعرفة معاني بعض الكلمات العبرية الغامضة، أو تلك التي تبدو في نظرهم دون معنى، أو تلك التي لا مكافئ لغوياً مقبولاً لها، فقد اجتهدوا في تقديم ترجمة غريبة لاسم (كسديم) التي تخيلوها على أنها كلدانيين. ولما كان نبوخذ نصر كلداني الأصل، فقد ترجموا كلمة كسديم إلى كلدانيين، بمعاملة الياء والميم في كلمة كسد بالعبرية كأداة جمع، ظناً منهم أن هذا هو المقصود منها، علماً أن الرواية تصبح في هذه الحالة متناقضة، إذ كيف يكون هناك كلدانيون مع صدقيا الذي هُزم أمامهم وراحوا يطاردون فلوله؟ كما أن محققي التوراة لم يجدوا في العبرية، مكافئاً مقبولاً لكلمتي (شعر) و(بين) ولذلك قاموا بترجمتها كجملة واحدة في صورة "بين السورين". وبذلك تكون الطبعة العربية من التوراة قد لفقت مكانين لا وجود لهما على وجه الأرض. ولكن، حين وقعت معركة ربله-ربل التي خسرها الملك صدقيا، وجرى إلقاء القبض عليه بسهولة، تم اقتياده إلى معسكرات الجيش الآسوري، حيث كان يقيم نبوخذ نصر آنذ، فأمر بأن يُذبح ابنا صدقيا أمام ناظره، قبل أن يأمر بأن تفتق عيناه ويؤخذ أسيراً إلى بابل، بينما كان صدقيا نفسه يأمل بمساعدة أقوى من قبائل الكسديم (الكسديين). بيد أن هذا الأمل سرعان ما خاب وتلاشى حسب منطوق هذه الرواية. ويبدو من الواضح أن قوات مملكة-مخلاف يهوذا وأحلافها من قبائل الكسديم-الكساد، ضاعت وتفرقت في وادي الضباب والعرب وفي غابات جبل شعر. وهذه كلها مواضع لا وجود لها في فلسطين على وجه الإطلاق. إن تلفيق اسم الكلدانيين من النص (كسديم) هو دليل كبير على طبيعة التلاعب في النص، لأن من المستحيل لغوياً تحويل السين في (كسد) إلى لام (كلد). ليصبح الجمع العربي كلدانيين، بينما الجمع العبري الصحيح هو كسدانيين أو كساديين. والكسدانيون من القبائل المعروفة في اليمن، ومن أشهر أعلامهم ابن وحشية أحمد بن علي بن قيس الكسداني، مترجم كتاب الفلاحة النبطية، الذي كان يصف نفسه كأحد أبناء طائفة دينية ذات أصول بابلية.

إن افتراض حدوث تحول لغوي، يسمح بقراءة الإسم في صورة كلدانيين، هو من نسج خيال المحققين الذين لم يجدوا في العبرية مكافئاً للكلمة. ولذلك، سنبدأ بتحديد أول سراة اليمن من محيط عدن الساحلي.

عندما تفرق جيش صدقيا في الوديان والجبال، إثر الهزيمة التي لحقت به على يد الأسوريين، وتبعثرت قواه وتمزقت تماماً، فقد توزع فرسانه في طريقين متباعدين، أحدهما طريق جبل شعر، والآخر طريق (بين) ثم طريق حمتيم. وبكل تأكيد لا وجود لجيش من الكلدانيين أبناء الإمبراطورية يعملون في خدمة هذا الملك المتمرد، وبحيث يقاتلون ضد أبناء جلدتهم دون سبب منطقي؛ بل هناك طائفة دينية وقبلية، تصفهم التوراة بأنهم (إخوة الملك صدقيا) أي أنهم يرتبطون معه بعقيدة روحية، ولذا قاتلوا معه ضد الأسوريين. وهذا منطقي تماماً، والقول بأنهم من الكلدانيين سوف ينسف الرواية من أساسها. يصف الهمداني الطريق من وادي الضباب وحميم، باتجاه جبل شعر، وصولاً إلى مفترقات وادي الجنة- الجنات (جن في النص العبري)، والنص على النحو التالي: "جميع ما بين عدن ووادي نخلة من الأودية الكبار أولها، أتحم، والثاني وادي أديم من شرقيه جبال ذات السريح (ذي السريح من المعافر ثم في-جبل-قدس) ووادي الضباب (...). وجبل دمت وحميم. ثم وادي زبيد فجبل صرر والشعر. (...). فالى الفرحية فشرقي جبل سامع (..) ومما يصالي وادي الجنات (وادي الجنات هذا في عزلة الأشعوب ولا يزال كما وصفه الهمداني".

هذا الإيجاز الشديد للوصف الخاص بأهم الأودية والمواقع، بين زبيد وعدن غرضه إعطاء صورة واضحة عن المسالك الوعرة، والطرق التي شهدت الحدث. لدينا-هنا- طريق من وادي الضباب (صبب) يؤدي إلى جبل الشعر (شعر) وليس إلى (الباب أو السورين) كما في الترجمة العربية. وهذا الطريق يفضي بالسائر إلى وادي العرب-ها-عربه، وهو الوادي الذي ذكرته النقوش الآشورية في صورة عربيي. ولدينا- في هذا النص- فضلاً عن ذلك، صورة دقيقة عن الطريق السالكة إلى وادي جن-جنات. وهو أمر يتوافق كلياً مع الرواية التوراتية ولا يتعلق بتطابقات لغوية. ولمزيد من الإضافة نذكر وصف الهمداني لوادي الضباب ومنازل قبائل الأشعر:

" فحيق بني مجيد، فرع عدن وهو جبل يحيط البحر به والضباب (والضباب أيضاً وادي في قدس من المعافر جنوبي، (هذا توضيح من الربيعي) ووادي الملح ويسكنه الأشعر وفيما بينه وبين تيشاعة، قبيلة من الأشعر ثم يتصل في هذا السراة بلد الشراعب من حمير وريمه وقرعد وموضان والخنن (وهذه أماكن كان يطلق عليها في القديم: العدين- توضيح من الربيعي) ثم يتصل بها سراة بني سيف. وجبل برع ووادي-العرب وأرض لعسان".

نلاحظ هنا: أن إحدى المعارك التي خاضها الأسوريون، انتهت بأسر ملك برعو- برع في وادي العرب (عربيي)، وقد سجلت النقوش اسمه في هذه الصورة، بينما تخبرنا النصوص الإخبارية العربية (الطبري وابن حبيب وسواهما) أن المعارك دارت في وادي العرب وفي مخلاف حضور. وها نحن الآن في قلب مسرح المعارك. وهذا هو الطريق الذي سلكته فلول الملك صدقيا بين جبل الشعر ووادي الضباب، ثم وادي العرب، فادي خنن-خن- حيث جبل قدس إلى الجنوب. وهنا نجد أرض لعسان التي سوف نعتز فيها على اسم مياه تدعى مربل-الربل؛ حيث ألقى الأسوريون القبض على صدقيا ملك مملكة/مخلاف يهوذا (اليهودية) المهزوم. ومن الهام للغاية ملاحظة أن وصف الهمداني الأنف يتضمن وصفاً لمياه لعسان. وفي هذه الأرض هناك مسيل مياه يدعى ربل، حيث دارت المعركة: ومناهل- مياه-لعسان، السنانية والعقل وذو الخناصر. فأما أرض لعسان في بطن تعامة فالجعدية ومربل. وهذه هي مياه ربله- ربل- التي شهدت واقعة أسر

الملك صدقيا. وهذا وصف منازل الكسديين- كسديم الذين هبوا لنجدة الملك اليهودي المطارِد وتخليصه من أيدي الأشوريين، وجرى تخيلهم في صورة (كلدانيين) عملوا ضمن جيش صدقيا. ومع أن مثل هذا الأمر خيالي إلى النهاية؛ إذ يستحيل تصور وجود كلدانيين في ميدان الحرب، يهبون فجأة ومن دون مبرر مقنع للدفاع عن ملك يطارده جنود الإمبراطورية ويمزقون فلوله في الوديان؛ فإن الاسم في العبرية لا يشير إليهم، لا من قريب ولا من بعيد، وإنما يشير إلى جماعة من الكسديين (كسديم-كسدانيين). وإلى هذا كله، لا يتضمن الاسم حرف اللام اللازم لنطق اسمهم في صورة كلدانيين. هذا فضلاً عن أن السين العبرية في كسديم لا تنقلب لأمماً بافتراض صحة هذه المقاربة اللغوية بين الاسمين.

يقول الهمداني واصفاً المسالك والطرق في هذه الوديان والجبال، كما يلي: "ثم ذي بين ويلقاها سيل الكساد²²⁹. فهل هي مصادفة لغوية فقط، أن معركة ربله/ربل جرت في مكان يقيم فيه الكساد/كسديم وهم من قبائل مرهبة، وحيث توجد مياه (بين) تماماً كما في النص العبري؟ وادي (ذي بين/بين) الذي تخيله المحققون ظرف مكان (بين) فقاموا بدمجه مع كلمة شعر، لتصبح الجملة (بين البابين) فيما هو اسم مكان بعينه، سلكته قوات الملك المهزوم. وهنا منازل قبائل الكساد من مرهبة التي هبت لمساندة الملك صدقيا. لا وجود إذن لكلدانيين في هذه الوديان، ولا وجود لمكان يدعى بين السورين. وكل هذا سوف يحلينا إلى مسألة أور الكسديم في مروية سفر التكوين التي تتحدث عن مجيء إبراهيم النبي، حيث جرى تخيلها على أنها (أور الكلدانيين) في العراق القديم. وفي الواقع، تثير مسألة تحقيق التوراة التي أشرف عليها علماء ومتخصصون مشهود لهم بالكفاءة، مشكلات عويصة أمام اليهود المتدينين؛ فإذا كانت كسديم تعني كلدانيين- مع أن هذا مستحيل من الناحية اللغوية، - وهي في الآن ذاته اسم موطن النبي إبراهيم، فما الذي جاء بهم إلى هذا المكان؟ وما علاقة هؤلاء الكلدانيين، وهم من سكان أقصى الجنوب العراقي المفترض، بالأشوريين الشماليين المحاربين؟ ما تقوله الرواية التوراتية عن الهجوم الآسوري على أورشليم في عصر نبوخذ نصر، هو التالي: إن ملك مخلاف/مملكة يهوذا صدقيا، خاض معركة يائسة بقواته وقوات حلفائه من قبائل الكساد، وإنه هزم على ضفاف وادي العرب، قبل أن يلقي القبض عليه في معركة مياه ربل. يعني هذا أن الرواية التوراتية كانت تتحدث عن فرار جيش الملك صدقيا، وتفرفقه في أماكن داخل السراة اليمنية وليس في فلسطين، وأن القبائل القاطنة في الكساد كسديم، كانت في عداد هذا الجيش وقد لحقت به، ولكن أمكن للأشوريين في النهاية، إيقاع الهزيمة بهم، بحيث تسنى لهم إلقاء القبض على الملك والمجيء به إلى ربل، ففقت عيناه ونقل منها أسيراً إلى بابل. وكل هذه الوقائع تبدو متطابقة إلى حد بعيد، سواء تلك التي وردت في السجلات الآشورية أم تلك التي وردت في التوراة، أم في نصوص الإخباريين العرب، وبوجه الإجمال، يكون لنا بالدليل القاطع أن الحملات الحربية وقعت في اليمن. أما جملة (ها-حمثيم- عشر- عل- جن -ها- ملك- وكسديم) التي ترجمت ويا للغرابة إلى: "السوريين بالقرب من بستان الملك، بينما كان الكلدانيون.. فإنها مؤلفة من مقطعين قصيرين، لهما طابع خيري صرف، الأول، ويقول حرفياً (ها- حمثيم- عشر- عل-جن) أي (وحميم التي في أعلى جن) بينما يقول

²²⁹ والكساد وطن من مرهبة الدعامة عامرة بالسكن.

المقطع الثاني، إن الملك ولى هارباً صوب طريق وادي العرب، فلقق به جيش الكسديين من آخر- وادي- المالك).

ولذلك، يمكن الاستنتاج أن المترجمين لم يفلحوا في استيعاب دلالات النص بدقة، فليس ثمة بستان للملك المهزوم في هذا المكان، بل هناك وادي جنة- جنات في أعلى حميم- والهمداني يقول إن حمميم- حميم تقع قرب وادي الضباب؛ وهي عزلة دب إليها الخراب اليوم فلا تكاد تعرف، وقد نسبها القدماء من اليمانيين إلى حميم بن سدد بن زرعة بن حمير، وورد اسمها في النقوش والمساند الحميرية في صورة ذات حميم وهي آلهة يمنية قديمة، آلهة المياه الحارة إذ يعني اسمها الساخن، الحار (ها-حمميم). ولأجل إعطاء تفصيلات أخرى عن هذا الحادث التاريخي ومكان وقوعه فعلياً، فسوف نقدم بعض التفصيلات الضرورية والهامة. لقد سردت الرواية التوراتية الأحداث التي أعقبت أسر الملك صدقيا، وذلك عندما تمكن الآسوريين من قتل أعداد كبيرة من الفرسان في ربله من أرض حمت (ويتم-ب- ربله- م - عرض- حمت - ويجل- يهوده- م-عل- عدمتو) أي (وقتلوهم في ربله من أرض حمت، وأجلوا يهوذا من غلي وهدمت). وكما قام الآسوريين بتعيين حاكم على مخلاف/مملكة يهوذا، يأتمر بأمرهم هو الملك جدليا. وفي نطاق تسجيل هذا الحدث ارتكب المترجمون أخطاء أخرى، كان من شأنها أن ضاعت تفاصيل هامة. ولذا سنقوم بإعادة تركيب الرواية استناداً إلى قراءة مغايرة، ولكن أمينة ومطابقة في الآن ذاته للنص العبري. يقول النص في معرض تصويره لعملية اقتحام أورشليم من قبل الجيش الآسوري بعد أسر صدقيا، أن نبوخذ نصر أرسل أحد قواده إلى المدينة لتفقدوها، لكن هذا قام بإحراق الهيكل (بيت العبادة) وهدم أسوار أورشليم ونهب ممتلكاتها:

"وأت-حومت-بروشليم-صبيب-نتصو-كل-حيل-كسديم- عشر- رب-طفحيم- وءت-يتر-ها-عم-ها-نفليم- وشر- نغله-عل-ها-ملك-بيل- وءت- يتر- هممون- ها-جله-نيوزر-ءدن-رب-طفحيم- ومدلت-ها-عرض-ها-شئير-رب-طبحيم- لكرميم-ولنبيم وءت-عمدي-ها-نحشت- عشر- بيتيهوه-وءت-ها-مكوت- وءت-يم-ها-نحشت- عشر- ب-بيت-يهوه-شبرو-كسديم-و-يشئو-ءت- نحشت-ب-بله." « وترجمتها بالعربية: "وعند أسوار أورشليم والضباب، كُسرَت كل قوة الكساديين، والذين هم رؤساء الطفحيين، ومعهم تساقط كثيرون ممن فروا من الديار مهزومين. فقام ملك بابل كثيرون ممن فروا من الديار مهزومين. فقام ملك بابل بنفي جمع غفير منهم، من بينهم نبوذ-آذان سيد الطفحيين، وبعض فقراء الأرض من موالى أكابر الطفحيين والكرميمين والنببيين. كما نُهبَت أعمدة النحاس التي في بيت يهوه، وآلات البحر النحاسية التي في بيت يهوه. لقد كسروا الكساديين وحملوهم من- وادي- نحاس ومن باله".

المشكلة العويصة التي واجهت المحققين في فهم مضمون هذا النص المثير تكمن هنا: هم إفترضوا أن كسديم تعني كلدانيين، مع أن هذا مستحيل من الناحية اللغوية، ففي هذه الحالة، يتعين عليهم أن لا يتراجعوا عما كرسوه من فهم للكلمة في أذهان قراء النص التوراتي، وأن يبرروا، مرة أخرى، سبب فهمهم للنص الأنف بهذه الطريقة، وأن يترجموا الكلمة نفسها، إلى كلدانيين حيث وردت. فهل بوسعهم القول- هنا- أن المقصود من الكسديم، جماعة أخرى لا علاقة لها بالكلدانيين؟ هو ذا المأزق، فما هم الكسديون ممزقون مهزومون، ويؤخذون أسرى، وينقلون إلى موطن آخر. ولذلك اضطر المترجمون إلى القول إن المقصود من جملة "رب-طفحيم"، إنما هو رئيس الحرس الكلدانيين؛ بينما نجد في سفر التكوين- قصة يوسف- أن التوراة تسمي رئيس

الحرس المصري "طبحيم" بالباء، وليس طفحيم، بالفاء. فهل المقصود من الاسم في الحالتين رئيس حرس الكلدانيين. إذا سلمنا بهذا الاستنتاج ووافقنا على الترجمة، فعلينا أن نلاحظ أنه يتضمن تناقضاً صارخاً داخل التاريخ والثقافة. فهل من المنطقي أن تكون الكلمة، هي ذاتها في مصر وفلسطين والعراق القديم وبالمعنى نفسه، فيما نعلم عمق الفروق والاختلافات، بين اللغة الأرامية/الكنعانية الفلسطينية وما يعرف بالفرعونية المصرية والأكدية العراقية؟ هذا مستحيل وغير قابل للتصديق، فما علاقة الفرعون المصري، ورئيس حرسه في قصة يوسف، بالكلدانيين في العراق القديم؟ يعني هذا أن "رب- طفحيم" في النص أعلاه تشير إلى أمر آخر. وعلى هذا النحو اختلطت الأمور وضاعت المقاصد الفعلية من النص.

وهناك مثال آخر عن فوضى الترجمة: فالنص ينسب كل هذه الأحداث إلى شخص يدعى (نبو- زر-دان) الذي يسميه المترجمون رئيس الحرس. في الواقع لم يكن هناك رئيس للحرس في قصة نهب وتدمير أورشليم، ولا وجود لهذا الشخص في الأحداث الحربية الدامية، بل كان هناك سيد قبلي اسمه نبو-ذر-أذان، وهو سيد الطفحيين/طفحيم، وليس رئيس الحرس الكلداني. ولو كان صحيحاً أن طفحيم تعني رئيس الحرس الكلداني، فما معنى نفيه من أورشليم؟ كما أن النص المترجم ينسب بعض الأحداث إلى جيش الكلدانيين (حيل-كسديم). وهذا غير منطقي أيضاً؛ لأن هذا الجيش هو جيش الآسوريين. ولذا، فالمقصود يجب أن يكون في هذه الحالة، جيش الكسديين الذين جاءوا من موضع يدعى الكساد (جمع كسد). يشير الاسم في سياق النص إلى سيد قبلي كبير من سادة الطفحيين، ممن دفعوا ثمن الهزيمة، بعد دخول الآسوريين أورشليم اليمينية حيث جرى نفيه. ولو كان اسمه يعني رئيس الحرس أو رئيس السياقين الكلدانيين، فلماذا ينفي من أورشليم؟ هذا الخلط في الأسماء والدلالات والمواضع، ناجم عن خلط أعم. وهذا ما سنبرهن عليه حين نعيد بناء مضمون الجملة الطويلة.

إن ما تشير إليه جملة (سيد الطفحيين) قصد به الإشارة إلى جماعة قبائلية، كانت تعيش في أوطان المراشي-مرشه، الوارد ذكرها في التوراة، ووصفها الهمداني على أنها في الجوف اليمني على مقربة من الكساد، حيث يلتقي مسيلاً وادي الكساد وسروم العقل. كما أنها تشير إلى النحاس المنهوب من بيت الرب (هيكل يهوه) مثلما تشير في الوقت ذاته إلى موضع بعينه يدعى نحاس-نحشت. وهذا هو مغزى تكرار كلمة نحش ونحشت في جملة واحدة، فهي ترد مرة في صورة نحشت، دون أداة التعريف العبرية، ومرة أخرى بأداة التعريف هانحشت.

نأت إلى وصف الهمداني لمنازل الكسديين وطفحين- طفحان إذ يقول: ونحاس في أوطان المراشي: (ويلقاها سيل العقل والكساد) ثم (والعقل وأوطان المراشي وطفحان). ها هنا الكساد-كسديم، وها هنا طفحان اسم التثنية، أي أن عمليات النفي من الأرض، بعد سقوط أورشليم في الحملة الجديدة شملت جمهوراً كبيراً من القبائل المهزومة. ومن بين هؤلاء المنفيين، رجال من بني طفحان- طفحيم على رأسهم سيدهم (كبيرهم) وبعض الأسياد والفقراء على حد سواء. أما جملة (يشئو- عت- نحشت- ب- ربله) فلا تشير إلى نقل النحاس كما توهم المترجمون؛ إذ لو قصد سارد النص ذلك، لرسم الكلمة في صورة (ها- نحشت) بأداة التعريف (أي نقلوا النحاس وليس نقلوا نحاس). بل هي تشير إلى نقل الأسرى من موضع يدعى نحاس، ومن مكان آخر يسمى ربل-ربله بعد تنفيذ عمليات تدمير أورشليم. بهذا المعنى فقط؛ فإن الجملة تقول وبوضوح: "وحملهم من نحاس ومن ربله". فضلاً عن ذلك، قام المترجمون بمكافأة جملة (نحشت-ب- ربله)

بجملة تتحدث عن نقل النحاس إلى بابل؟ فيما نعلم أن النص ميز بين اسمين محددين ورسمهما بطريقتين مختلفتين (بيل بمعنى بابل) و(ب-بله)، بمعنى باله. كما أن نحشت- نحاس ترد أكثر من مرة وفي صيغ متماتلة من دون مبرر، فهل قصد سارد النص من كلمة (نحشت) مكاناً بعينه قرب ربله، وفي الآن ذاته قصد بها النحاس الذي نهب؟ ونحاس هذه هي إلى الجوار تماماً من منازل بني طفحان-طفحيم، وقرب الكساد في أوطان المراهشي- مرشه التي اجتاحتها الآسوريون. وهذا ما يفسر لنا سبب وجود اسم مرشه في المراثي التوراتية، كمكان تم تدميره. والمثير للاهتمام أنها قرب صحراء الشور التي توهم المترجمون أنها آشور؟ وهذه المواضع نفسها وبالتسلسل ذاته كما وردت في النص، نجدها في كتاب الهمذاني إذ يقول:

"أوطان نهم من الجوف: نحاس، ووادي الشوار. ووما هو بين نهم وبين بني عبد بالمراهشي والعقل وأوطان المراهشي، أتان وطفحان."

بيننا من نصوص توكلات بيلاصر الثالث، أثناء حملته الحربية على أورشليم، أنه قام بنقل المسبيين اليهود إلى آشور. وفي حملة نبوخذ نصر التي نتناولها هنا، نجد أنه قام بنقل الأسرى من وادي نحاس الخصب، إلى مكان يدعى الريل-ربله (وهو مسيل مياه) حيث وقع هناك العقاب الفظيع بحق ملك يهوذا نفسه. وسوف نرى دلالة وجود وادي الشوار/ الشور هنا، فقد خلط المترجمون بينه وبين آشور الإمبراطورية على النحو ذاته الذي خلطوا فيه، بين بيل- بمعنى بابل، وب-بله، بمعنى في بله- وستكون الصورة واضحة كل الوضوح، بالنسبة لمتلقي النص، وهو يتابع تفاصيل عمليات النفي التي قام بها الآسوريون في هذه الحملة، وذلك حين يتوقف أمام جملة (ويتم- ب-ربله- ب-عرص- حمت- ويجل- يهوه- م- عل- عدمتو) فهي تشير إلى ما يلي: "وقتلهم في ربل وأجلى اليهود من غلي وأدمة". وهذه المواضع قرب وادي الضباب. هذا يعني أن نبوخذ نصر قام بإجلاء القبائل العربية من وادي أديم والغلي، بعد تدمير أورشليم إلى مواضع مجدية. كما أجلاهم من وادي نحاس ومن بله-باله. وكنا رأينا أنه قام بقتل بعضهم في ربل-مربل. وهنا يتكشف لنا بوضوح أن المقصود من كسديم ليس الكلدانيين بل قبائل الكساد وأحلافها في طفحان-طفحيم. وفي هذا السياق تمت ترجمة المقطع التالي، وهو يتحدث عن مصاعب واجهت الملك الجديد جدلياً الذي نصبه الغزاة: "ويشبع- لهم- جدليه- ول- عنشيهم- ويئمر- لهم- عل- تيرعو- م- عبيدي- ها 'كسديم- شبو- ب- عرص- وعبدو- عت- ملك- بيل- ويطب- لكم." «

وترجمتها بالعربية: "فحلف جدليا لهم ولرجالهم وقال لهم: لا تخافوا من عبودية الكلدانيين واسكنوا هذه الأرض، واخدموا ملك بابل فيكون لكم خير." وهذه الترجمة صحيحة ومقبولة، لولا أن جملة (عل- تير- عو- م- عبيدي- كسديم) لا تعني ما ذهب إليه المترجمون، بل إن الجملة تقول: "وأقسم جدليا لهم ولرجالهم وكلمهم فقال: ارتادوا الأرض من- وادي عبد والكساد، وابقوا، ولكن أطيعوا ملك بابل فذلك أفضل لكم". إن عبد-عبيدي هنا لا تعني (عبودية) وليس ثمة في العبرية كلمة (عبيدي) يمكن أن تؤدي معنى الخوف من العبودية والصحيح أن سارد النص قصد الإشارة إلى محاولات الملك الجديد تني بعض البطون القبلية والعشائر الصغيرة الخائفة، عن الجلاء طوعاً من الأماكن التي أضحت تحت نفوذ الآسوريين المطلق. وكذلك الإشارة التشجيعية، بأن يرتادوا المناطق التي كانوا يرتادونها في السابق مثل وادي عبد والكساد. ولكن شرط الولاء المطلق للإمبراطورية. "هذا هو الدليل:

"وهذه أودية تصب من قابل نهم الشمالي ومما هو بين نهم وبين بني عبد وأوطان المراشي حلتان وسروم العقل وطفحان".

وكنا رأينا من نصوص الحملات الآسورية، أنهم أسروا جماعة من العباييد (أباييد). وهنا جماعة من بقايا تدعى بن عبد، لم يتبق لها من أثر اليوم، وهي تقيم في الأماكن ذاتها التي وردت في النصوص والسجلات الآسورية. لقد كان جدلياً-جدلية الملك الجديد الذي نصبه الآسوريون على مخالف يهوذا بعد هذه الأحداث، يكابد من أجل إقناع بعض القبائل المذعورة بالبقاء في أرضها وقبول الأمر الواقع، وهو لا يريد أن يفتح عهده بهجرة قبلية كبرى بدافع الخوف. ولذلك راح ينصح القبائل، بأن لا تهجر وتسيح في الأرض، وأن تستقر وتتعلم طاعة الإمبراطورية. في هذا الإطار وحده، سوف نتضح مقاصد النص العبري من ها-كسديم مرة أخرى، فهم ليسوا كلدانيين، وإنما جماعة من القبائل التي شاركت في المعارك ضد الآسوريين. إن كلمة (عبدو) في الجملة التالية من مقطع آخر داخل النص تقول شيئاً مختلفاً جديراً بالتوضيح: (شوبب- عرص- و- عبدوا- عت- ملك بيل و- يطب- لكم) فهي إذا ما صدقنا الترجمة السائدة، وسلمنا بصحة ما ذهب إليه النص المترجم، لا تعني عبودية (لاحظ الفرق بين عبدي -عبدو) بل تعني: أطيعوا، بينما تعني (عبدي) في الجملة السابقة (عبد) وهذا اسم الوادي والقبيلة.

في ختام هذا الفصل سنتوقف عند التالي: يقدم النص العبري صورة دقيقة عن الكسديم جماعة قبلية، تحالفت ضد الغزو الآسوري وواجهته ودفعت الثمن؛ إذ يقول في فقرة تسرد الأحداث التي أعقبت اغتيال جدليا نفسها، يُعيد تنصيبه مباشرة من قبل الآسوريين ما يلي:

{ويهييه- بحدش- ها- شبيعي- عت- يشمعله- بن- ننتيه- بن- عليشمع- مزرع- ها - ملوكة- وعشره- عنشي- عتو- ويكو- عت- جدليهو- يمت- وعت- ها - يهو- وعت - ها - كسديم عشر- هيو- عتو- ب- مصفه.}}

والنص يقول حرفياً ما يلي: "وفي الشهر السابع جاء إسماعيل بن ننتيه بن السمع من عائلة الملك، وعشرة من رجاله، فضربوا جدليا واليهود والكسديين الذين كانوا معه في الصفاة فمات".

يشير هذا النص إلى مصرع رجال من ها-كسديم، سوية مع بعض اليهود الذين ظلوا على ولائهم للملك، المعين من قبل الآسوريين، ولم يغادروا الأرض امتثالاً للنصيحة التي روج لها الملك القتل بنفسه. وبذلك، تُطوى صفحة أخرى من الصراع على أورشليم، ومعها تُطوى مسألة ها-كسديم (الكسديين) الذين لم يظهروا، بعد الآن في نصوص التوراة كقوة موالية لليهود. لقد كان هؤلاء من القبائل الحليفة، ولم يكونوا كلدانيين كما توهم محققو النصوص. هذا في حال أن كل ذلك تم تحت افتراض وجود خطأ في الفهم والترجمة. أما واقع الحال فيشير إلى أن هناك تعمداً في تزوير ما حوته السرديات والنقوش اليمينية والآسورية، خدمة لمشروع اغتصاب فلسطين بسند ديني وآخر تاريخي.

مرحلة ما بعد السبي

1- الترحيل

تعج السرديات والنقش اليمنية بتفاصيل دقيقة عن التاريخ اليمني، يعود بعضها إلى (3000) سنة ق.م، مما يجعلها قريبة من أحداث نبي الله هود عليه السلام بن فالخ وقومه قبيلة عاد، الذي حمل لقب عابر بعد هلاك قومه، وهجرته إلى منطقة سبأ. وحسب الأنساب العربية؛ فإن فالخ وقحطان إخوة.

كذلك تشير تلك النقوش إلى ظهور أول تجمع سياسي عرف بمملكة سبأ الأولى، التي تشكلت من وحدة قبيلتي "حمير وكهلان". والعودة إلى الأنساب العربية التي توارثها العرب، وثقوها نقشا، نجد أن سبأ (الأب) الذي ينحدر من سلسلة آباء ينتهي نسبهم عند قحطان، هو: أبو حمير وكهلان، وبالتالي فإن مملكة سبأ الأولى أقامتها قبيلة واحدة مكونة من فخذين هما حمير وكهلان. وكانت مأرب هي عاصمة تلك الدولة، وسدها المائي الذي يعد أول بناء شيد لتجميع مياه الأنهار والوديان على وجه الأرض. وعلى جانبي سد مأرب نشأة الحضارة اليمنية القديمة، التي دان أهلها بديانة التوحيد التي نشرها نبي الله هود بعد وصوله إلى سبأ قادما من الأحقاف. ومأرب هي البلدة الطيبة المذكورة في القرآن: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جُنَيْتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرِينَ. وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّبِيْرَ سَيَرُوا فِيهَا لِيَالِيٍّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ. فَقَالُوا رَبَّنَا بِأَعْدٍ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾²³⁰، وبعد أن تسللت الطقوس الوثنية إلى عبادة التوحيد، وأعرض أهل سبأ عن عبادة الله، وانهار سد مأرب، تفرقت القبائل اليمنية، وبدأت الهجرات الثانية نحو الشمال، واستوطنت مجاورة لأخواتها التي سبقتها إلى سوريا التاريخية، وبلاد القبط.

بقي اليمن متفرقا لأكثر من ألف عام بعد انهيار سد مأرب، حتى بدأت تتشكل ممالك صغيرة منها أوسان، وقتبان، ومعين مصر/مصرم، وريدان، وحضرموت. وبقي الانقسام هو سيد الموقف حتى تشكلت مملكة سبأ الثانية، التي حمل ملوكها لقب؛ ملوك سبأ وذوي ريدان، وذو ريدان هو الإسم الذي حمله الحميريون في ذلك الوقت. ولا تزال بقايا قصر "سالحين" مقر ملوك سبأ الثانية المذكور في النقوش اليمنية القديمة، شاهدة على عظمة تلك المملكة. وهو القصر الذي وصفه العلامة الحسن بن أحمد الهمداني في كتابه وصف جزيرة العرب.

كانت عقيدة سكان مملكة سبأ الثانية قائمة على نوع من التوحيد، متوارثة من رسالة هود عليه السلام، مدعومة بعقيدة توحيد حمل لواءها إبراهيم عليه السلام، وأخرى في الشمال يحمل لواءها

²³⁰ سورة سبأ من الآية 15 إلى الآية 19.

إسماعيل عليه السلام. وكانت القبيلة الإسرائيلية تشكل جزء بسيطاً من المملكة السبئية الثانية، ليس لها أي تأثير سوى اشتغال أفرادها برعي الأغنام، وحراسة القوافل التجارية المارة بجانب مضاربها، وأماكن تواجدها.

شكل إعادة ترميم سد مأرب الهم الرئيس عند ملوك سبأ الثانية، وعندما نجحوا في ذلك، عاد الازدهار الذي اشتهرت به سبأ الأولى.

وقد تحكم موقع مأرب في وادي سبأ، بطريق التجارة الهام المعروف بطريق اللبان، وكان اللبان من أحب أنواع الطيوب وأغلاها في بلدان الشرق القديم، وحوض البحر المتوسط، وقد تميزت اليمن بإنتاجها أجود أنواع اللبان وهو الذي كان ينمو في الجزء الأوسط من ساحلها الجنوبي في بلاد المهرة وظفار، وقد أدى ذلك الطلب المتزايد عليه، وعلى باقي أصناف البخور والطيب؛ إلى تطوير تجارة واسعة نشطة، تركزت حول هذه السلع، وامتدت إلى سلع أخرى نادرة، خاصة الذهب والفضة عبر طريق التجارة المذكور، وكان يمتد بصفة رئيسية من ميناء قنا في مصب وادي ميفعة على بحر العرب، إلى غزة على البحر المتوسط، مروراً بمدينة شبوة ومأرب، ثم يمر بوادي الجوف، ومنه إلى نجران حيث يتفرع إلى فرعين: طريق يمر عبر قرية الفاو في وادي الدواسر، ومنه إلى هجر في منطقة الخليج، ثم إلى جنوب وادي الرافدين، وطريق رئيس يمتد من نجران نحو الشمال، ماراً ببثرب، ثم ددان في شمال الحجاز، ومنه إلى البتراء، ويتجه الطريق الرئيس من البتراء نحو ميناء غزة، بينما يتجه فرع آخر إلى دمشق وإلى مدن الساحل السوري. ولا شك أن الجمل لعب دوراً بارزاً في ازدهار التجارة، بسبب قدرته على حمل الأثقال لمسافات طويلة.

وإذا كانت التجارة وموردها المالي الوفير، قد أسهمت بقسط عظيم في صياغة الحياة العامة للناس، وازدهارها في مراكز الحضارة اليمنية القديمة، وخاصة في قلب تلك الحضارة: أرض سبأ وعاصمتها مأرب، فإن سد مأرب هو أهم شاهد على أن اليمن شهدت أيضاً حضارة زراعية فائقة. وتشير بعض الدراسات الأثرية الجادة التي أجريت ميدانياً على آثار السد إلى أن ترميمه يعود تاريخياً إلى قبل مطلع الألف الأول ق.م على الأقل، وهو أمر يتوافق أيضاً مع ما دونته النقوش من أخبار تتحدث عن حضارة يمنية راقية في تلك الحقبة. وقد ذكرت النقوش ملكة سبأ التي حكمت في القرن العاشر قبل الميلاد، وهي التي عاصرت النبي سليمان عليه السلام، ملك مخلاف قبيلة بني إسرائيل، التي كانت تسكن جزءاً من أراضي مملكة أوسان، حيث تجاور القبائل التي كانت تتعبد للإله الوثني كنعان، ونسبت إليه. وبعدها ذكرت عدداً كبيراً من المكربين والملوك الذين تولوا الحكم في دولة سبأ، والفرق بين الملك و المكرب هو أن الملك يحكم شعباً واحداً أو قبيلةً واحدة، بينما المكرب لقب للمجمّع والموحد لعدة شعوب أي الموحد، ووجود المكربين في تاريخ اليمن القديم يشهد بجدارة على الجهود المبكرة جداً لتوحيد أهل اليمن تحت سلطة سياسية واحدة، وقد حاول العلماء ترتيبهم زمنياً خلال الألف الأول قبل الميلاد، فبلغوا ما يقارب الخمسين، ابتداءً من القرن الثامن إلى القرن الأول قبل الميلاد، ومن هؤلاء الحكام: يثع أمر بين بن أسنم علي الذي تذكره الحوليات الأشورية حوالي عام (715) ق.م مقترناً بالملك الأشوري سرجون الثاني وهو ما يشهد على قيام علاقات دبلوماسية مع العالم الخارجي

أما النقوش اليمنية فتذكره مقترناً ببعض المنشآت المعمارية ومنها أنه سَوَّرَ مأرب. ومنهم أيضاً كَرَبٌ إل وتار بن ذمار على الذي بعث بهدية إلى الملك الأشوري سنحريب، حسب ما يذكر نقش بناء معبد بيت أكيو في أسور، حوالي (685) ق.م، ويرجح أنه هو نفسه صاحب نقش صروح الكبير الذي يذكر أن هذا الملك قد قام بعدة حملات عسكرية داخلية خلال فترة حكمه يهدف منها إلى تثبيت السلطة المركزية لدولته وتأييد من خرج عنه. وشملت حملاته مناطق أوسان وغيرها من المناطق الجنوبية حتى باب المندب، كما شملت حملاته أيضاً مناطق امتدت ما بين نجران والمعافر بلاد الحجرية، من محافظة تعز وبعض مدن وادي الجوف، مثل: نشان ونشق. ويذكر النقش أنه كافأ الجهات التي حافظت على الولاء له مثل: حضرموت وقتبان، وأنه قام بإصلاحات واسعة في منطقة مأرب، ومنها قصر سلحين وسَوَّرَ عدداً من المدن اليمنية، وأصلح عدداً من سبل الري والأراضي التابعة لها، ويُعدُّ المكرب "يَدْعُ إل ذريح بن أسْمُهُ علي" أشهر حكام سبأ في أمور البناء، فقد عُثِرَ على نقوش عديدة من عهده تذكر منشآته المعمارية، وخاصة المعابد، وقد ارتبطت باسمه معابد شهيرة باليمن القديم مثل معبد أوام البيضاوي الكبير، ومحرم بلقيس، ومعبد صروح، وغيرها من الأبنية التي تنبئ عن آثارها عن مستوى راقٍ من الإتقان المعماري والإبداع الهندسي، وظلت سبأ وحتى القرن الخامس قبل الميلاد الدولة الكبيرة الأم، حين خرجت عن سيطرتها مناطق عدة واستطاعت أن تكون دولاً مستقلة، ودخلت هذه الدول في منافسة مع سبأ، وشاركتها نفوذها السياسي والتجاري، بل إن كل واحدة من تلك الدول لم تكن أقل شأنًا من سبأ في أوج ازدهارها وأبرز هذه الدول هي: معين مصرن، وقتبان، وأوسان، ودادان، وحضرموت.

امتد نفوذ السبئيين من مدينة مأرب شرقاً وصولاً إلى صنعاء غرباً، ثم ضمَّ إليها إقليم المعافر بعد القضاء على مملكة أوسان؛ لتُصبح سلطنتها مفروضةً على معظم أراضي البلاد اليمنية، ثم امتد ليشمل الهضبة الحبشية (إثيوبيا وارتيريا) وكامل الساحل الغربي الجنوبي للبحر الأحمر، وصولاً إلى معظم أراضي بلاد الصومال الحالية، ثم سيطرة على معظم جزر البحر المطل على شواطئ اليمن وصولاً إلى زنجبار.

يعود الفضل في توحيد القبائل اليمنية في مملكة موحَّدة عرفت بإسم مملكة سبأ الثانية، أو سبأ وحمير كما اصطلح المؤرخون على تسميتها استناداً إلى عشرات المسنديات؛ للملك "كرب إيل وتر بن ذمر بن سمع علي"، الذي عمل على تفكيك الممالك اليمنية الأخرى وضمها للمملكة الموحدة. وعندما فكك مملكة أوسان تلقى دعماً ومساندة من القبيلة الإسرائيلية، الأمر الذي ترتب عليه منحها مساحات شاسعة من أراضيها، وكان النصيب الأكبر من حظ سبط يهوذا، كونه أكبر الأسباط عدداً. وقد ذكرت التوراة ذلك، لكنها نسبتها زورا إلى كاهنها "يوشع بن نون".

بموت "كرب إيل وتر بن ذمر بن سمع علي"، بدأ الضعف يتسلل إلى مفاصل المملكة، مما أدى إلى انقسامها إلى مملكتين شمالية وأخرى جنوبية.

وكعادة الممالك الصاعدة، أخذت كل مملكة تبحث عن نسب لها، كي تثبت أقدميتها وأصلها العريق، فاختارت المملكة الجنوبية التي شكلت قبيلة حمير معظم سكانها إسم الجد الأعلى هود، والذين ينطق حسب لهجتها بإسم يهود، وعرفت تاريخياً بالمملكة اليهودية، بينما اختارت قبيلة

سبأ التي شكلت عصب المملكة الشمالية لقب الجد هود وهو عابر، وعرفت تاريخيا بإسم المملكة العبرانية.

تحدثنا خلال الأجزاء السابقة عن مراحل السبي البابلي، أو بالأصح الترحيل الذي قام به ملوك الإمبراطورية الآشورية، والذي بدأ بغزوات شلمانصر الثاني (860-825) ق.م، وانتهى بغزوات نبوخذنصر الأخيرة عام (582) ق.م.

وبينا أن ادعاء كتابة التوراة الذي ينص على أن السبي البابلي شمل معظم أبناء القبيلة الإسرائيلية بشقيها الشمالي والجنوبي، مجرد أكذوبة أطلقها الكتبة أنفسهم، لإضفاء روح المأساة، واستدراج عطف الشعوب على أبناء القبيلة. والحقيقة التي استندنا في إظهارها على السرديات والنقوش الآشورية واليمينية، والكثير من الفقرات التوراتية التي تغافل مدونو التوراة عنها، تمثلت في بيان التالي:

أولاً: أن ملوك آشور وبابل لم يدر في خلداهم سبي أو ترحيل أيا من قبائل اليمن، بما فيها القبيلة الإسرائيلية. وأن إستراتيجيتهم قامت على ضمان تدفق خيرات اليمن بسلاسة وانتظام. لذلك حرصوا على عقد اتفاقيات تحالف مع معظم القبائل اليمينية، تقوم بموجبها بتأمين وحراسة القوافل التجارية المارة في أراضيها، والمتجهة صوب مقر الحكم الآشوري. وتشير التوراة إلى عشرات الكهان/ الملوك من شقي القبيلة الإسرائيلية الذين تحالفوا مع الإمبراطورية الآشورية، بل قام بعضهم بطلب مساعدتها لقتال الأشقاء والأخوة من أبناء قبيلتهم.

ثانياً: أن ملوك آشور وبابل لم يجرّدوا أية حملة عسكرية ضد القبائل اليمينية، إلا عندما يحصل تمرد منها، وتتقطع حركة التجارة وسير القوافل المحملة بالخيرات اليمينية.

ثالثاً: أن الحملات العسكرية الآشورية اقتصرت على تأديب المتمردين، وخلق ملوكهم، وتعيين ملوك آخرين يدينون بالولاء لسيدهم الآشوري.

رابعاً: أن الترحيل اقتصر على الملوك المتمردين، وأبناءهم، وقادة الجند، ورؤوس القبيلة، وكهانها، وأواني الذهب والفضة والنحاس الخاصة بالمعابد، وأن جملة "لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض" وردت في السرد التوراتي الذي تحدث عن كل الحملات الآشورية.

خامساً: أن معظم حملات الترحيل كانت داخل الأرض اليمينية ذاتها، إذ كان الآشوريين يقومون بترحيل آلاف الأفراد من القبائل المتمردة من أماكن تواجدها، إلى مناطق أخرى. وقد سجلت لنا النقوش الآشورية واليمينية عمليات ترحيل لأفراد عشرات القبائل اليمينية، ومنها الإسرائيلية داخل اليمن.

سادساً: أن الترحيل لم يشمل القبيلة لكونها إسرائيلية، بل بسبب تمرداها على السيد الآشوري. وأنه- الترحيل- شمل عشرات القبائل الأخرى التي تمردت، وقد سجلت التوراة أسماء بعضها، تطابقت مع ما حوته المسنديات والسرديات والنقوش اليمينية والآشورية.

بصعود ملك الفرس "قورش" الذي أزاح المملكة البابلية من مسرح الأحداث، ظهرت عقلية الإمبراطور التاجر. لذلك لجأ قورش إلى نوع جديد من التحالف مع القبائل اليمينية، يقوم على إعطائها جزءاً من ثمن البضائع مقابل تأمين وصولها إلى عاصمة الإمبراطورية، لذلك أصدر قراراً يسمح بعودة المرحلين سواء المتواجدين في بلاد الرافدين وفارس، أو المرحلين داخل حدود اليمن إلى أماكنهم الأصلية. وهكذا عاد معظم من تم ترحيلهم، إلا أن الكثير من قبيلة "بني لخم" فضلوا البقاء في بلاد فارس، والتحموا بإخوتهم العرب سكان شاطئ الخليج العربي الشرقي، وهم أسلاف سكان ما يعرف بإسم خوزستان اليوم، وعاصمتها مدينة "المحمرة". وللتوضيح؛ فإن كون قبيلة بني لخم من بطون حمير، فقد أطلقوا إسم حمير على المدينة التي سكنوها، ومع مرور الوقت عرفت بإسم "المحمرة" خاصة عندما أصبحت عاصمة لمملكة عربية تدعى مملكة ميسان، التي تحالفت مع الإمبراطورية الفرثية (247 ق.م-224م)، فحافظت على كيانها كمملكة مستقلة. وكما تلاعب المستشرقون اللاهوتيون بتاريخ المنطقة العربية التي تضم سوريا التاريخية وبلاد النيل، فقد تلاعب المؤرخون بتاريخ خوزستان العربية، وأدعو كذبا أن الإسكندر المقدوني هو من بنى مدينة المحمرة، مع أنها بنيت قبل ظهوره بعدة قرون. ثم جاء الفرس فيما بعد وضموها لمملكتهم، وفي العصر الحديث أطلقوا عليها إسم مدينة "خورمشهر".

الأمر الذي يثير الدهشة، أن علماء الآثار والمختصين لم يجدوا بعد دراسة النقوش الفارسية، خاصة أسطوانة قورش، أي ذكر يشير إلى سماح قورش لليهود بالعودة من مملكته إلى موطنهم الأصلي، وتخلو كل السرديات والنقوش الفارسية من أي ذكر لذلك الحدث مما يسقط الرواية التوراتية، بل ينسفها.

نعم كان هناك عدة آلاف من أبناء القبيلة الإسرائيلية تم ترحيلهم إلى بابل، كما حصل مع غيرهم من عشائر القبائل اليمينية، لكن لا يوجد أي ذكر لهم كأمة تم سبيهما، ثم سمح لها بالعودة إلى بلادها. وقد بينا أن من قرر العودة لم يتعدى ثلث المرحلين، بينما فضل البقية في بابل، ومنها انتشروا في بقية أرض فارس، خاصة منطقة طبرستان.

أدى انهيار مملكة سبأ الثانية من جهة، وما حدث من ترحيل للقبائل اليمينية سواء داخل اليمن أو إلى بابل من جهة أخرى، إلى تفرق أبناء القبيلة الإسرائيلية. وبظهور مملكة شمالية وأخرى جنوبية على أثر ذلك الانهيار، وجد أبناء تلك القبيلة أنفسهم رعايا مملكتين متناحرتين، بسبب رغبة كل مملكة السيطرة على مناطق زراعة البخور، ومناجم الذهب والفضة والنحاس. لكن أهم تغير طرأ على أبناء تلك القبيلة، هو تخلي أفرادها المتواجدين ضمن حدود مملكة حمير الجنوبية اليهودية عن عقيدة التوحيد، والانغماس في عقيدة الشرك، بينما حافظ إخوتهم المتواجدين ضمن حدود مملكة سبأ العبرانية الشمالية على الكثير من تعاليم موسى عليه السلام وما جاء في توراته. وعندما عاد بعض الذين رحلوا إلى بابل، وجدوا أنفسهم أمام مأزق الانتماء، فمن بقي في اليمن عبدوا آلهة وثنية، والقادمون من بابل رغم بقايا عقيدة توحيد في ذاكرتهم، إلا أن بعدهم عن اليمن جعلهم غرباء بعد عودتهم. وهنا برز دور الكهنة الذين حاولوا توحيد شقي القبيلة، وكان لزاماً إعادة كتابة التوراة من جديد، كونها الرابط الروحي الذي سيعيد اللحمة بين الأشقاء، وهنا لم يجد الكهنة تاريخاً يعتد به، ويبعث روح العزة والفخر بينهم، فاخذوا التاريخ اليمني بكل تفاصيله ودونوه على أنه تاريخ القبيلة الإسرائيلية. فمن يقرأ التوراة ويقارن ما دون فيها مع النقوش المسندية اليمينية، وما دونه الهمداني في كتابه وصف جزيرة العرب؛ يجد أن هناك تطابق

تام بشكل يثير الدهشة والاستغراب. لذلك نستطيع القول وبكل ثقة: أن التوراة لا تعدو عن كونها كتاب يؤرخ للتاريخ اليمني، بفارق واحد، ألا وهو أن مدون التوراة استبدل الأسماء اليمنية بأخرى يهودية.

فمثلا أصبحت المملكة الشمالية العبرانية، المملكة السامرية الإسرائيلية الشمالية، وأصبحت مملكة حمير الجنوبية اليهودية، مملكة يهوذا الجنوبية، وألصقت كل المعارك بين المملكتين اليمنيتين، وأسماء ملوكها، بالممالك الإسرائيلية، سامرية ويهودية. وللإنصاف فإن من دون التوراة، لم يذكر أن الأحداث المدونة تتعلق بتاريخ وجغرافيا فلسطين، أو العراق، أو مصر.

فمثلا، في التوراة العبرية، نتحدث الفقرات عن اجتياز الكاهن يشوع مخاضة "الأردم" التي هي جزء من وادي مور، في طريقه إلى أرض كنعان، وبعد أن خاض عدة معارك مع الكنعانيين وهزمهم، قام بتوزيع أراضيهم على أسباط القبيلة الإسرائيلية. ثم انطلق وحارب العمونيين وانتصر عليهم. وتجهل جغرافية فلسطين تلك الأسماء سواء زمن الأحداث أو ما بعدها، حتى بدأ تزوير جغرافية فلسطين لتتطابق مع سرديات التوراة.

لو عدنا إلى المسنديات اليمنية نجدها؛ تتطابق تماما سواء من الناحية الجغرافية، أو الأحداث التاريخية مع الحدث التوراتي.

ممالك التوراة والتاريخ اليمني

أدى صعود الملك "كرب إيل وتر بن زمر بن سمع علي" إلى توحيد القبائل اليمنية في مملكة موحدّة عرفت حسب المسنديات بمملكة سبأ وحمير. وبسبب طبيعة الأرض اليمنية الوعرة، وصعوبة سيطرة الدولة المركزية على كامل التراب اليمني، فقد تم تقسيم المملكة إلى عدة مخاليف، يتكون كل مخاليف من قبيلة، أو عدة قبائل تقيم في نفس المنطقة، ويقوم نظام الحكم في كل مخاليف على قاعدتين

الأولى: منصب الملك، أو الكاهن العام الأعلى، يحيط به ستة من الكهان المحليين، عرفوا بإسم "الأقيان"، ومجموعة من الأدواء، أو ما عرف بالإقطاعيين. ويشكل تجمع "الكهان/الأقيان والأدواء" مجلس حكم استشاري يساعد الملك/الكاهن العام في إدارة المخلاف الخاص به. فالكهان الستة يناط بهم أمر الشؤون الدينية، بينما يقوم الأدواء بجمع الضرائب وحراسة القوافل التجارية المارة في أرض المخلاف.

الثانية: يخلف الكاهن العام الأعلى ابنه البكر، إذ يقوم الأب بتلقيه أسرار وطقوس العبادة، وطريقة الحكم.

وقد جاء هذا التقسيم لنظام الحكم لملاءمة طبيعة الأرض اليمنية، وصعوبة حكمها مباشرة.

هذا الترتيب لنظام حكم المخاليف؛ يفسر لنا لماذا لا نجد أسماء ملوك القبيلة الإسرائيلية حسب وصف التوراة ضمن سلسلة ملوك اليمن، بينما نجدهم كلهم بدون استثناء ضمن قائمة الكهان في التاريخ اليمني، إذ تشير المسنديات اليمنية إلى أن القبيلة الإسرائيلية لم يزد حجمها عن مخاليف، وأن الأسماء التي وردت في التوراة كملوك، لم تكن إلا أسماء كهان القبيلة.

هناك أمر غاية في الأهمية، يتعلق بنظام الأنساب واختلافه بين قبائل سبأ وحمير. ففي حين تنسب قبائل سبأ الشمالية الإبن لأبيه، نجد قبائل حمير الجنوبية تنسب للأم، إذ هي من تحدد نسبه لأي أب، لأن معاشرتها لأكثر من رجل، كان أمرا سائدا بين قبائل حمير، وإذا ما عدنا للتوراة، نجد أسماء كل كهان يهوذا الجنوبية الذين تطلق التوراة عليهم لقب ملوك، متبوعا بإسم الأم، كالتالي:

- رحبعام بن سليمان، وهو إبن "نعمة العمونية".
- أبيام(أبيا) بن رحبعام، وهو إبن "معكة ابنة أبشالوم".
- آسا بن أبيا، ولأن مدون التوراة يجهل إسم أمه، نسبه إلى جدته معكة.
- يهوشافاط بن آسا، واسم أمه "عزوبة بنت شلحي".
- يهورام بن يهوشافاط، واسم أمه "مشلمة".
- أخزيا(يهواحاز)، وإسم أمه "عتليا بنت أخاب".
- عتليا بنت أخاب، وإسم أمها "إيزابل".
- يوأش بن أخزيا، وإسم أمه "ظبية".
- أمصيا بن يوأش، وإسم أمه "يهوعدان".

- عزريا بن أمصيا، وإسم أمه "يكليا".
- يوثام بن عُزّريا، وإسم أمه "يروشة بنت صادوق".
- أحاز بن يوثام، وإسم أمه "ملكة".
- حزقيا بن أحاز، وإسم أمه "أبية ابنة زكريا".
- منسي بن حزقيا، وإسم أمه "حفظية".
- أمون بن منسي، وإسم أمه "مُثَلِّمة بنت حاروص".
- يوشيا بن أمون، وإسم أمه "يديدة بنت عداية".
- يهوآحاز بن يوشيا، وإسم أمه "حموطل بنت أرميا".
- يهوياقيم بن يوشيا، وإسم أمه "فداية".
- يهوياكين بن يهوياقيم، وإسم أمه "نحوشتا ابنة الناثان".
- صدقيا بن يوشيا، وإسم أمه "حميطل ابنة أرميا".

في المقابل، نجد مدون التوراة يذكر أسماء كهان/ملوك مملكة إسرائيل الشمالية، وهم: يربعام بن ناباط، وناداب بن يربعام، وبعشا بن أخيا، وأيلة بن بعشا، وزمري، وعمري، وأخاب بن عمري، وأخزيا بن أخاب، ويهورام بن أخاب، وياهو بن نمشي، ويهوآحاز بن ياهو، ويهوآش بن يهوآحاز، ويربعام بن يوآش، وزكريا بن يربعام، وشلوم بن يابيش، ومنحيم بن جادي، وفقحيا بن منحيم، وفقح بن رمليا، وهوشع بن أيلة، بدون ذكر أسماء أمهاتهم، ما عدا أولهم "يربعام بن ناباط"، فقد جاء أنه ابن امرأة أرملة تدعى "صروعة"، وسبب ذلك أن والده توفي وهو ما زال جنينا في رحمها، وهي من لقنته أسرار الكهانة.

وحسب المسنديات اليمنية، وتراجمها الموجودة في المتحف البريطاني، فإن كل كهان المملكة الإسرائيلية الشمالية، والمملكة اليهودية الجنوبية؛ جاء ذكرهم ككهان وليس ملوكا، شاركوا في سلسلة الحروب التي دامت حوالي (300) سنة، سواء تلك التي دارت بين المملكتين على خلفية السيطرة المباشرة على ثروات اليمن، وطرق التجارة البحرية والبرية، أو الحروب ضد الإمبراطورية الآسورية، علما بأن المملكة الشمالية كانت ضمن تحالف عريض يعادي الإمبراطورية الآسورية، في حين كان معظم كهان/ملوك المملكة الجنوبية على علاقة جيدة معها، ما بين تحالف وتبعية، وأنهم اشتركوا في قتال إخوتهم الشماليين.

وتخبرنا السرديات أيضًا، أن النظام الزراعي في اليمن القديم، كان يقوم على قاعدة زراعة الأرض ست سنوات متتالية، ثم تركها سنة كي تستريح، لتعطي غلة وافرة بعد ذلك. والغريب أن التوراة ذكرت نفس ذلك النظام الزراعي وكأنه من ابتكارات القبيلة الإسرائيلية، لكنها أرجعت ذلك الى قصة نشأت الكون، إذ تدعي أن الرب خلق الكون في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع.

حدثتنا التوراة عن الخلاف الذي حصل بين شأوول بن قيس²³¹، وداوود بعد أن أصبح الأول ملكاً، وقتل الثاني لملك الفلسطينيين جالوت. ونسب شأوول حسب التوراة كالتالي: طالوت بن قيس بن أفيل بن صاروا بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

حسب التوراة، نجد أن شأوول ارتكب عدة خطايا أمام الرب، لذلك أوحى الرب إلى النبي صموئيل كي يجرد شأوول من الملك، ويجعل داوود ملكاً عوضاً عنه. ومن هنا بدأ الخلاف بين الرجلين. إلا أن داوود بقي مخلصاً لشأوول الذي لم يستطع أن يصدق أن داوود يخلص له الولاء²³²، بل ظنَّ أنه يتحين أول فرصة مواتية للانقلاب عليه، ليخلفه على العرش ويقضي على كل أسرته، فكان كل همه أن يتخلص منه. وكانت أولى محاولاته، أن أرسله للإغارة على الفلسطينيين مؤملاً أن يُقتل بيدهم²³³، ثم حرض عبيده على اغتياله²³⁴، ثم حاول أن يقتله بيده غدرًا²³⁵، وبعد فشل كل محاولات شأوول لقتل داوود، تحول غضبه إلى حنق شديد امتد حتى إلى الكهنة الذين أحسنوا إلى داوود وأيدوه، فقتل منهم خمسة وثمانين رجلاً، وضرب مدينة الكهنة وتدعى "نوب" بحد السيف، وقتل الرجال والنساء والأطفال...²³⁶. ومع ذلك بقي يطارد داوود من مكان إلى آخر كما يطارد "الحجل في الجبال"، حسب وصف داوود نفسه²³⁷.

أسفر الخلاف بين الرجلين، إلى انحياز أحد عشر سبطاً من أسباط القبيلة الإسرائيلية، ونصف سبط بنيامين إلى جانب داوود، الذي التحم بأخوته من باقي الأسباط، بينما أيد النصف الثاني من سبط بنيامين شأوول. وبعد موت شأوول بن قيس، التحم الجزء المؤيد له من سبط بنيامين مع أبناء عمومتهم من الإسماعيليين، ومنذ ذلك الحين نجد أن سبط بنيامين قد اندثر وتلاشى. لكن بقي الخلاف اليمني القيسي قائماً حتى عصر الدولة الأموية. فقد انحازت قبائل اليمن إلى جانب معاوية وابنه يزيد، ثم إلى جانب مروان بن الحكم وابنه عبد الملك، لا لسبب إلا إحساسهم بالغبن،

²³¹ شأوول هو طالوت حسب النص القرآني.

²³² سفر صموئيل الأول 24(9).

²³³ سفر صموئيل الأول 18(21-29).

²³⁴ سفر صموئيل الأول 19(1).

²³⁵ سفر صموئيل الأول 19(9-10).

²³⁶ سفر صموئيل الأول 22(17-19).

²³⁷ سفر صموئيل الأول 26(20).

إذ منذ ظهور الخلاف بين داوود وقبائل اليمن المؤيدة له، وأنصار شاؤول بن قيس، والغلبة والسيادة للإسماعيليين وحلفاءهم. ثم ظهر محمد عليه السلام والخلفاء؛ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي(ض)، وكلهم من الإسماعيليين. لذلك انحازت القبائل اليمنية إلى جانب الأمويين، ومعاقبة خاصة، كون زوجه ميسون بنت بحدل الكلبية، وأم ابنه يزيد منهم. ولم يخيب معاوية ومن جاء بعده ظن القبائل اليمنية بهم، فقد تقلدوا معظم مناصب الدولة في عصرها الأول.

نخرج بنتيجة واضحة، ملخصها؛ أن التوراة سجلت لنا التاريخ اليمني بحذافيره، من حيث أسماء الملوك والكهان، والحروب التي دارت بينهم، وأسبابها، والحركة التجارية، ونظام وراثته الحكم، والنظام الزراعي، وصولاً إلى الخلاف اليمني القيسي، ولا علاقة لفلسطين بكل تلك الأحداث.

الجزء العاشر: مملكة سليمان الخرافية

عرش بلقيس وهيكل سليمان

جاء في الموروث الإسلامي، رواية بطرق عدة عن أربعة ملوك، حكموا الأرض، نختصرها كالتالي: رواية الطبري: ذكر في تفسيره بسنده: **عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: وَقَالَ: مَلِكُ الْأَرْضِ مَشْرِقُهَا وَمَغْرِبُهَا أَرْبَعَةٌ نَفَرٌ؛ مُؤْمِنَانِ، وَكَافِرَانِ. فَالْمُؤْمِنَانِ: سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ، وَذُو الْقُرَيْنِ. وَالْكَافِرَانِ: بُخْتَنَصْرُ، وَنَمْرُودُ بْنُ كَنْعَانَ. لَمْ يَمْلِكْهَا غَيْرُهُمْ.**

رواية ابن شيبه: ذكر في مصنفه، حدثنا ابن فضيل، عن حصين، عن مجاهد، قال: لم يملك الأرض كلها الا أربعة؛ مسلمان وكافران. وأما المسلمان: فسلیمان بن داوود، وذو القرنين. وأما الكافران: فبختنصر، والذي حاج إبراهيم في ربه.

رواية الحاكم: ذكر في المستدرک عن معاوية، قال: ملك الأرض أربعة: سليمان بن داود، وذو القرنين، ورجل من أهل حلوان، ورجل آخر. فقيل له: الخضر؟ فقال: لا.

هذه الرواية ذكرها الذهبي في التلخيص، وابن كثير في البداية والنهاية، ولم يحكما عليها بشيء، لا صحة ولا ضعفا.

كما ذكر ابن كثير نفس النص في البداية والنهاية، عن سفيان الثوري أنه بلغه ... ثم ساقه، ولم يحكم عليه بشيء.

بما أن معاوية لم يرفع روايته، تبقى قابلة للطعن، بل وللرفض.

رواية السيوطي: تفرد السيوطي في كتابه "العرف الوردی في أخبار المهدي برفع الرواية إلى النبي عليه السلام فقال: وأخرج ابن الجوزي في "تاريخه" عن ابن عباس، قال: قال النبي عليه السلام: ملك الأرض أربعة؛ مؤمنان، وكافران. فالؤمنان: ذو القرنين، وسليمان. والكافران: نمروذ، وبختنصر. وسيملكها خامس من أهل بيتي.

الغريب أن النص غير موجود في تاريخ ابن الجوزي "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم". وذكره ابن تيمية ولم يعقب عليه.

الروايات التي جاءت عن طريق مجاهد، لا يسندها إلى رسول الله عليه السلام، وبالتالي تبقى قابلة للطعن، بل ورفضها.

أما رواية السيوطي، فقد نقلها عن ابن الجوزي، ومع ذلك لا وجود لها عند ابن الجوزي، وبالتالي تبقى مجرد رواية، وهذه تعد من سقطات السيوطي.

نحن أمام روايات لا تصح، إذ لا سند لها من قرآن أو حديث. والغريب أن المؤرخين والمفسرين العرب، ذكروا أن الذي حاج إبراهيم في ربه اسمه "النمرود"، بدون دليل الا ما نقلوه عن اليهود، إذ جاء ذكره في سفر التكوين (8-10): **{وَكُوشٌ وَدَّ نَمْرُودُ الَّذِي ابْتَدَأَ يَكُونُ جَبَّارًا فِي**

الأَرْضِ، الَّذِي كَانَ جَبَّارَ صَيِّدٍ أَمَامَ الرَّبِّ. لِذَلِكَ يُقَالُ: كَنِمْرُودَ جَبَّارَ صَيِّدٍ أَمَامَ الرَّبِّ. وَكَانَ ابْتِدَاءُ مَمْلَكَتِهِ بَابِلَ وَأَرْكَ وَكَأَنَّ، فِي أَرْضِ شِنْعَارَ.

هنا نعود إلى البداية، فقد تبين لنا من نصوص التوراة، أن إبراهيم عليه السلام لا تربطه بأرض شِنْعَارَ ولا أور الكلدانيين رابطة، وأن مولده أرض حضرموت، وهجرته إلى مملكة أوسان اليمنية، أرض الإله الوثني كنعان.

لم نجد أي ذكر لملك يماني يحمل اسم "النمرود"، وتخلو نقوش العراق من ذكره، لذلك ما زال المؤرخين في حيرة من أمرهم، ولا توجد رواية موثقة تثبت وجوده، وبالتالي فإن حكمه للأرض مجرد خرافة تورانية.

بالنسبة لبختنصر "نبوخذناصر"، فأقصى امتداد لحكمه شمل سوريا التاريخية مع العراق، والأجزاء الشمالية من جزيرة العرب، والشريط الساحلي بين عمان وميناء الحديد، والأجزاء الجنوبية من الأناضول. وبالتالي فإن مسألة حكمه الأرض تسقط.

اختلفت آراء أهل التفسير والتاريخ في شخصية "ذي القرنين"، فرغم أن النص في الموروث يصفه بالمؤمن، إلا أن هناك من ادعى أنه "الإسكندر المقدوني"، مما ينسف الرواية من أساسها. فالإسكندر المقدوني لم يحكم أي بلد أوروبي، وتجهله الأرض الواقعة غرب مدينة الإسكندرية، ولم تسمع به جزيرة العرب. أما ذي القرنين المذكور في القرآن، فلا نملك دليلاً من التاريخ يشير إليه كملك حكم الأرض. فكلمة الأرض يفهم معناها من سياق الكلام، فهي تعني قطعة أرض محدودة معلومة للمتكلم والسامع، وتعني بلداً بعينه، كقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَ مِنْ الْأَرْضِ فَأَعْرِضْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا²³⁸﴾، وهي تعني مملكة معين مصرن اليمنية كما تثبت النقوش الآشورية واليمنية، أو مصر الحالية حسب الخرافة التوراتية.

الأمر ليس تشكيكاً بالنص القرآني، إنما بأقوال من ادعى أن الرجل حكم الأرض كلها. فمصر الحالية على سبيل المثال، تجهل حكماً تحت سيطرة ذي القرنين اليمني. لا أريد الخوض في التفسير واختلاف آراء أهله في نسبه، وزمن حكمه. فالقرآن يشير إليه كرجل صالح أتاه الله الملك، ومغيب الشمس ومطلعها راجع إلى الأرض التي وصلها. فمطلع الشمس ومغيبها لشخص يعيش في الصين، يختلف مطلعها ومغيبها لشخص يسكن الأردن على سبيل المثال. وبالنسبة للسد الذي بناه، فهناك عدة أقوال حول مكان البناء، يستطيع من يريد العودة إليها في بطون كتب التاريخ والتفاسير.

فذو القرنين شخصية حقيقية، وما سطره القرآن عنه لا شك فيه، إنما حكمه الأرض كلها هو موضع الشك، أو بمعنى أدق، محل رفض.

²³⁸ سورة الإسراء الآية 103

نأت إلى لب الموضوع، وجوهره، ألا وهو مسألة حكم سليمان عليه السلام للأرض كما في النص الذي بين ايدينا.

حسب التاريخ التوراتي فإن سليمان حكم بعد أبيه ملكة إسرائيل الموحدة، بين الأعوام (970-930) ق.م ولا يوجد في التوراة ما يشير إلى حكم سليمان لأي بقعة خارج فلسطين، بل هناك نصوص تشير إلى تمرد أجزاء منها على حكمه، خاصة غزة وعسقلان. لا أريد الإطالة، وسأكتفي بذكر الرواية التوراتية عن بناء الهيكل، وكيف اضطر سليمان عليه السلام إلى عقد معاهدة مع "جيرام" ملك صور، كي يمدّه بالأخشاب اللازمة للبناء، والنص كما في ملوك الأول (11-15): {وَأَرْسَلَ جِيرَامُ مَلِكُ صُورَ عَبِيدَهُ إِلَى سُلَيْمَانَ، لِأَنَّهُ سَمِعَ أَنَّهُمْ مَسَّحَوْهُ مَلِكًا مَكَانَ أَبِيهِ، لِأَنَّ جِيرَامَ كَانَ مُحِبًّا لِدَاوُدَ كُلِّ الْأَيَّامِ. فَأَرْسَلَ سُلَيْمَانَ إِلَى جِيرَامَ يَقُولُ: أَنْتَ تَعْلَمُ دَاوُدَ أَبِي أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَبْنِيَ بَيْتًا لِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِهِ بِسَبَبِ الْحُرُوبِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِ، حَتَّى جَعَلَهُمُ الرَّبُّ تَحْتَ يَطْنِ قَدَمَيْهِ. وَالْآنَ فَقَدْ أَرَاخَنِي الرَّبُّ إِلَهِي مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ فَلَا يُوْجَدُ خَصْمٌ وَلَا حَادِثَةٌ سَرًّا. وَهَاتِنَا قَائِلًا عَلَى بِنَاءِ بَيْتٍ لِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِي كَمَا كَلَّمَ الرَّبُّ دَاوُدَ أَبِي قَائِلًا: إِنَّ ابْنِكَ الَّذِي أَجْعَلُهُ مَكَانَكَ عَلَى كُرْسِيِّكَ هُوَ يَبْنِي الْبَيْتَ لِاسْمِي. وَالْآنَ فَأَمُرُ أَنْ يَقْطَعُوا لِي أَرْزًا مِنْ لُبْنَانَ، وَيَكُونُ عَبِيدِي مَعَ عَبِيدِكَ، وَأَجْرَةَ عَبِيدِكَ أُعْطِيكَ إِيَّاهَا حَسَبَ كُلِّ مَا تَقُولُ، لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَنَا أَحَدٌ يَعْرِفُ قَطْعَ الْخَشَبِ مِثْلَ الصِّيدُونِيِّينَ. فَلَمَّا سَمِعَ جِيرَامُ كَلَامَ سُلَيْمَانَ، فَرِحَ جِدًّا وَقَالَ: مُبَارَكٌ الْيَوْمَ الرَّبُّ الَّذِي أَعْطَى دَاوُدَ ابْنًا حَكِيمًا عَلَى هَذَا الشَّعْبِ الْكَثِيرِ. وَأَرْسَلَ جِيرَامُ إِلَى سُلَيْمَانَ قَائِلًا: قَدْ سَمِعْتُ مَا أَرْسَلْتَ بِهِ إِلَيَّ. أَنَا أَفْعَلُ كُلَّ مَسَرَّتِكَ فِي خَشَبِ الْأَرْزِ وَخَشَبِ السَّرْوِ. عَبِيدِي يُنْزِلُونَ ذَلِكَ مِنْ لُبْنَانَ إِلَى الْبَحْرِ، وَأَنَا أَجْعَلُهُ أَرْمَاتًا فِي الْبَحْرِ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي تَعْرِفُنِي عَنْهُ وَأَنْفِضُهُ هُنَاكَ، وَأَنْتِ تَحْمِلُهُ، وَأَنْتِ تَعْمَلُ مَرْضَاتِي بِإِعْطَانِكَ طَعَامًا لِبَيْتِي. فَكَانَ جِيرَامُ يُعْطِي سُلَيْمَانَ خَشَبَ أَرْزٍ وَخَشَبَ سَرْوٍ حَسَبَ كُلِّ مَسَرَّتِهِ. وَأَعْطَى سُلَيْمَانَ جِيرَامَ عَشْرِينَ أَلْفَ كَرٍ حِنْطَةً طَعَامًا لِبَيْتِهِ، وَعَشْرِينَ كُرًّا زَيْتٍ رَاضٍ. هَكَذَا كَانَ سُلَيْمَانَ يُعْطِي جِيرَامَ سَنَةً فَسَنَةً.}

النص يشير بكل وضوح إلى توسل سليمان عليه السلام إلى ملك صور كي يمدّه بالأخشاب، متعهدا بدفع أجور عماله، وأرسال طعاما وحنطة وزيت، ليس لمرة واحدة، بل كل سنة من سنوات بناء الهيكل، مقابل الأخشاب المرسله.

فكيف لملك يحكم الأرض أن يتوسل لحاكم مدينة صغيرة كي يرسل له أخشاب يحتاجها لبناء هيكل الرب؟

أصدق الحديث قول الله، فقصة الهدهد مع سليمان الواردة في القرآن، تثبت لنا محدودية مملكته. بغض النظر عن كون عذا الهدهد طير أم رجل وسواء كان يقيم في فلسطين حسب التفريق التوراتي، أو في مملكة "قبتان" اليمينية، فهو لا يعلم شيئا عن مملكة سبأ عابدة الشمس، لولا رحلة الهدهد إلى بلادها، كما صورها القرآن: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ. لَأُعَذِّبُنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحُنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ. فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحُطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ..... وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ

اللَّهُ وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ} 239. النص يشير إلى أن سليمان عليه السلام لا يعلم شيئاً عن ملكة سبأ عابدة الشمس، والدليل رده على الهدهد إذ قال: {قَالَ سَتَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَأَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ}.

السؤال هنا: لو كان لديه معرفة بعبادة تلك الملكة، فلماذا أراد التأكد من رواية الهدهد؟ هذه الرواية تثبت أن سلطته كانت محصورة في مخلاف محلي صغير، يشغل حيزاً متواضعاً من مملكة قتيبان اليمنية، فهو نبي القبيلة، وملكها فقط.

هنا قد نواجه تحدياً يتمثل في السؤال التالي: كيف يتفق هذا الشرح مع الإمكانات الهائلة التي تمتع بها سليمان، بعد أن سأل ربه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، كما في الآيات: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}، فاستجاب له كما في الآيات: " فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ. وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ. وَأَخْرَيْنَ مُقْرَبِينَ فِي الْأَصْفَادِ} 240. وكيف يتفق مع قدرة جنده من الجن والشياطين كما في: {وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يُعَوِّصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ} 241، والآيات: {وَلَسَلِيمِ الرِّيحِ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَرِغْ مِنْهُمْ عَنَ أَمْرِنَا نَذْفُهُ مِّنْ عَذَابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشَاءُ مِّنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا عَمَلًا دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ} 242.

في البداية، لا بد من توضيح أمر غاية في الأهمية؛ يتمثل بالإيمان المطلق بكل ما جاء في القرآن، ولا جدال في صحة الرواية القرآنية المتعلقة بأنبياء الله عليهم السلام، وأن الله اختص القبيلة الإسرائيلية بسلسلة من الأنبياء، ومنهم داوود وسليمان كأنبيا وملوك، ولهما جملة أفعال ذكرها القرآن. فداوود قتل طالوت، وأتاه الله الملك بعد النبوة، ثم ورثهما ابنه سليمان. وحدثنا عن مملكة سبأ التي حضرت إلى عاصمة سليمان، بدون ذكر اسمها، وعن عرشها وكيف أحضر له عرش الملكة، وعملية التمويه التي طالته، وعن الصرح الممرد الذي بناه خصيصاً لبيهرها، مما جعلها تؤمن بوحدانية الله وبرسالته كنبى، إذ جاء النص: {فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرَشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتَيْنَا أَلْعَلَمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ. وَصَدَّها ما كانت تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانت مِن قَوْمِ كَفَرِينَ. قِيلَ لَها ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكشفت عَن ساقِها قال إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ

²³⁹ سفر صموئيل الأول 26(20).

²⁴⁰ سورة ص من الآية 35 إلى الآية 38.

²⁴¹ سورة الأنبياء الآية 82.

²⁴² سورة سبأ الآية 13.

مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ²⁴³. هذه أحداث عظيمة، تحدث عنها القرآن بدون تحديد زمن الحدث أو جغرافيته. في المقابل لا يوجد في السرديات اليمنية، أو الأسورية المتعلقة باليمن، ما يشير إلى تلك الأحداث على عظمتها. فسليمان في التوراة، وكما ذكر المفسرون المسلمون بعضا من صفاته وأعماله، شخصية تاريخية مجهولة، والتاريخ لا يعرف ملكة سبئية بإسم بلقيس، ولا علم له بعرش عظيم طار من مكان لآخر.

لقد ساهم الموروث الإسلامي في صنع الخرافة، بأخذه من النصوص التوراتية بدون تمحيص. فمثلا تفنن المفسرون في شرح قصة ضياع خاتم سليمان، وما ترتب عليه من ضياع ملكة بعد أن خدعته إحدى زوجاته، التي كانت على علاقة ما بالجن. ثم ذهب بهم الخيال إلى سرد كيفية العثور على خاتمه، وبالتالي عودته إلى عرش ملكه. والحقيقة التي لا مفر من الاعتراف بها، أن الموروث الإسلامي ساهم، بدون قصد، في تثبيت الرواية التوراتية، إذ فيه أن داوود قتل جالوت في فلسطين، وأن سليمان بنى هيكل الرب في القدس، بعد أن أفروا أن اسمها العبري هو أورشليم.

فمنذ بدأت فكرة عودة اليهود إلى أرض الميعاد، أو أرض الوعد الإلهي لإبراهيم، حرص الأثاريون والمؤرخون من التيار التوراتي، على إرغام جغرافية العراق وسوريا التاريخية ومصر على التأقلم مع جغرافية التوراة. وعندما بدأ عصر كتابة التاريخ، هيمنت الرواية التاريخية التوراتية على التاريخ، وفرضت علينا، وأصبحنا ندرس تاريخ المنطقة العربية بعيون توراتية، وأما بإمبراطوريات آشورية، وكدانية، وأكادية، وفينيقية، وكنعانية، مع أنها مسميات لا دليل يسندها.

نعود إلى موضوع هذا الجزء من الكتاب، والخاص بعرش بلقيس وهيكل سليمان، وما لحق بالرواية من أكاذيب وتلفيق.

هناك أمر غاية في الأهمية، فالنقوش الآشورية تتحدث عن شلمانصر الثالث الذي حكم آسور واليمن، وفقد عرشه عندما ثار عليه أحد ضباطه، ثم أعاده إليه ابنه "شمشي أد الخامس"، وألبسه خاتم الملك. وتتحدث النقوش المسندية اليمنية عن ملك اسمه سلمانو، خضعت له الإنس والجن، وعاش ملكا أربعين عاما، فقد ملكه ثم استرده، ومات ودفن في السامرة، ثم أصبحت قصته جزءا من الأساطير اليمنية الشعبية. لو قارنا الرواية التوراتية مع نقش شلمانصر الثالث، والمسنديات اليمنية، سنجد أن كل الروايات تتحدث عن نفس الشخص الذي فقد ملكه، ثم استرده، وعلامة الملك هو الخاتم.

ولو نظرنا في إسم "شلمنأسر" كما ترجمه المختصون الذي حققوا النقوش الآشورية، ثم سألنا: على أية قاعدة ترجم الإسم بهذا الشكل؟ ولماذا يكتب باللغة الإنجليزية Shalmaneser وشرح على أنه إسم آشوري معناه "شلمان رئيس"؟ ولماذا وصفوه بأنه "King of Assyria" ثم ترجموه: ملك آشور؟ ولماذا تجاهلوا وصف "هيروودوت" له بأنه: ملك العرب وآسور؟ ولماذا

²⁴³ سور النمل من الآية 42 إلى الآية 44.

تجاهلوا السرديات اليمنية الحميرية والسبئية التي ذكرته بإسم: سليمان المنصور؟ لا توجد إجابات، لأن كتاب "التناخ" جعله شلمانو عوضاً عن سليمان، ونصر حلت محل ناصر أو المنصور. ولأن التاريخ التوراتي، وما حوته كتب تفسيرها كالتناخ والمدراش هي المهيمنة، لذلك ابتعد عنه المختصون، خاصة أن النظرية اللاهوتية تنص على أن الطعن في تاريخ التوراة يعتبر طعناً في التوراة ذاتها، إضافة إلى الرغبة العارمة في طمس التاريخ الحقيقي للمنطقة، خدمة لمشروع الوعد السماوي المزعوم. لكن لو سألنا أي يمني من هو سليمان؟، سيجيب: ملك الأانس والجن، ملك اليمن، وهذا يشير إلى أنه جزء من الذاكرة اليمنية.

التاريخ التوراتي يدعي أن سليمان كملك حكم بين (970-930) ق.م، بينما السرديات والنقوش تتحدث عن زمن شلمانصر الثالث بين (858-824) ق.م، والفرق بين الزمنين يدور حول مئة عام، وهذا حسب رأي علماء التاريخ منطقي، إذ لا يوجد ما يشير إلى قطعية زمن الأحداث بشكل دقيق، نحن هنا أمام احتمالين:

الأول: أن شلمانصر الثالث هو ذاته سليمان.

الثاني: أن الأساطير التي نسجت حول شلمانصر الثالث، تم إسقاطها على سيرة سليمان، فأصبحت كأنها سيرته الحقيقية.

الاحتمال الأول مستبعد لأن شلمانصر كان يعبد آلهة وثنية، بينما سليمان نبي اصطفاه الله، لذلك يبقى الاحتمال الثاني.

نحن نعلم أن القبيلة الإسرائيلية كانت عبارة عن مخلاف يمني محلي، يشكل مع بقية المخاليف ما عرف بالمملكة اليمنية الأولى، ثم أصبح جزءاً من مملكة حمير التي عرفت بالمملكة اليهودية الجنوبية. وكما هو معروف، فإن التوراة أعيد تدوينها بعد العودة من السبي البابلي. ولأن ذاكرة القبيلة الإسرائيلية تفتقد إلى تاريخ تفخر به، كونها قبيلة رعوية عاشت في بداية تشكلها كتابع للمملكة المركزية، مهمتها حماية القوافل، ثم استقرت في بقعة جغرافية محددة بعد أن تحالفت مع "كرب ايل وتر"، لتفكيك مملكتي "قتبان وأوسان"، فانعم عليها بإقطاعات زراعية، لذلك أخذت تاريخ ملوك اليمن، ونسخته على أنه تاريخ ملوكها، أو كهانها على وجه الدقة.

أما فيما يتعلق بمملكة سبأ التي أطلق عليها إسم بلقيس، فلا يوجد في التوراة أو القرآن أو النقوش الأسورية، أو المسنديات اليمنية ما يشير إلى هذا الإسم. فالقرآن ذكر أنها ملكة سبأ، كما في الآيات: **﴿فَمَكَتْ عَيْرٌ بَعِيدٌ فَقَالَ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ يُحِطْ بِهِ﴾** وَجَنَّكَ مِنْ سَبَأٍ نَبَأٌ بَيِّنٌ. إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ²⁴⁴. والتوراة لم تذكرها بهذا الإسم ضمن أسفارها، وكل ما عثر عليه بخصوصها، جاء في شروحاتها من أقوال المدونين والكتبة، كما في كتابي "المدراش والتناخ". فما جاء في التوراة يتحدث عن ملكة سبأ التي سمعت بسليمان وحكمته،

²⁴⁴ سورة النمل الآيتين 22 23.

فسعت إليه على رأس قافلة من الجمال المحملة بالذهب والبخور، كما في سفر الملوك الأول 10(1-3): {وَسَمِعَتْ مَلِكَةَ سَبَا بَخِيرَ سُلَيْمَانَ لِمَجْدِ الرَّبِّ، فَاتَتْ لِنَتَمَتِّحَنَّهُ بِمَسَانِلٍ. فَاتَتْ إِلَى أُورُشَلِيمَ بِمَوْكِبٍ عَظِيمٍ جَدًّا، بِجَمَالٍ حَامِلَةٍ أَطْيَابًا وَذَهَبًا كَثِيرًا جَدًّا وَحِجَارَةً كَرِيمَةً. وَأَتَتْ إِلَى سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَتْهُ بِكُلِّ مَا كَانَ بِقَلْبِهَا}. ونجد في سفر الأيام الثاني إصحاح (9) أن سليمان قابلاً {فَأَخْبَرَهَا سُلَيْمَانُ بِكُلِّ كَلَامِهَا. لَمْ يَكُنْ أَمْرٌ مَخْفِيًّا عَنِ الْمَلِكِ لَمْ يُخْبِرْهَا بِهِ}. وتكرر وصف قافلة الجمال القادمة من سبأ في سفر إشعياء. بينما أعطى الإنجيل لها صفة أخرى، إذ وصفها بملكة "تيمن" كما في إنجيل متى 12(42): {مَلِكَةُ التَّيْمَنِ سَتَقُومُ فِي الدَّيْنِ مَعَ هَذَا الْجِيلِ وَتَدِينُهُ، لِأَنَّهَا أَتَتْ مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ لِتَسْمَعَ حِكْمَةَ سُلَيْمَانَ، وَهُوَذَا أَعْظَمُ مِنْ سُلَيْمَانَ هَهُنَا}، وتكرر النص في إنجيل لوقا 11(31).

يقع معبد بلقيس -كما يعرف حالياً- اليمني في محافظة مأرب، على بعد 4.5 كيلومتر من قرية مأرب التاريخية. ولو قمنا بمقارنة الوصف التوراتي للهيكل الذي يزعم اليهود أن سليمان بناه مع شكل معبد بلقيس، سنجد التطابق التام بينهما. وقد أثبتت الفحوصات التي قامت بها البعثة الألمانية؛ أن تاريخ بناء المعبد يعود إلى حوالي (1245) ق.م، وهذا يتطابق مع زمن الملك شلمانصر الأول (1265-1235)، الذي تشير النقوش الآشورية إلى أنه بنى معبداً، ويحدد جغرافيته في: "بيت عدين، جبل بحري، عزلة مسلم"، وهذه الأسماء موجودة كما هي حتى الآن كالتالي: محافظة إب، مديرية العدين، جبل بحري، عزلة بني مسلم. وهنا نجد أن المعبد بني قبل سليمان بحوالي 300 عام.

التوراة تتحدث عن هيكل بني على قمة جبل، ونقش شلمانصر الأول يتحدث عن معبد بني على قمة جبل بحري اليمني، ووصف التوراة للهيكل يتطابق مع وصف نقش شلمانصر الأول، فهل كل هذا حدث من باب الصدفة، أم أن التوراة تتحدث عن نفس الهيكل أو المعبد؟

أثبتت الفحوصات التي قامت بها البعثة الألمانية؛ أن المعبد تعرض لعدة عمليات ترميم، الأولى حوالي (940) ق.م، وهذا يتطابق مع زمن سليمان، والثانية حوالي (850) ق.م، وهذا يتطابق مع زمن شلمانصر الثالث، والثالثة حوالي (720) ق.م وهذا يتطابق مع زمن سرجون الثاني.

التوراة تتحدث عن زواج سليمان من ملك سبأ، والقرآن تحدث عن إسلامها مع سليمان لله رب العالمين. والنقوش المسندية تتحدث عن المعبد الذي بناه سلمانو للإله الأب، إله الشمس، والقرآن تحدث عن عبادة ملكة سبأ للشمس. كذلك تتحدث النقوش المسندية عن اتخاذ ملوك سبأ جزءاً من المعبد كمقر إقامة لهم، ومجلس قضاء وحكم، أي ما يعرف بالعرش. وبالطبع وجب على سليمان بعد إسلام ملكة سبأ، أن يرمم المعبد، ويزيل كل ما يرمز إلى عبادة الشمس من داخله، وبناء قدس الأقداس في الناحية الشمالية كما تذكر التوراة بالضبط. وقدس الأقداس هو نفسه المحراب الذي يجلس فيه الكاهن أو النبي أثناء طقوس العبادة. وإذا ما تمعنا في الشرح، سنجد أن قدس الأقداس/المحراب المبني يتجه نحو مكة، ويؤكد ذلك أن المسندية اليمنية تتحدث عن تسمية المعبد بإسم الإله المقه، أي إله العقل، وليس إله القمر كما ترجمها الاستشراق التعسفي.

النقوش المسندية اليمنية تشير إلى أن المعبد بني للإله المقه، وهو الإله الرسمي للقبائل العربية اليمنية في ذلك العصر، المقه تعني المخ أو العقل، فيصبح معناه إله العقل، أو إله مكة كما تنطقه

القبائل الحميرية. أما التفسير التعسفي للتاريخ فأطلق عليه إسم إله المقه اي القمر، كي يطمسوا إسم مكة، لأن ذكرها سيهدم يهودية سليمان، وبالتالي التاريخ التوراتي كله.

النقوش المسندية الموجودة في المتحف البريطاني، تتحدث عن طقوس دينية كانت تقوم بها القبائل اليمنية في معبد المقه الموجود في مأرب، تبدأ بالذهاب إلى المعبد للاعتراف بالذنوب والطلب من الكاهن التوسط للعفو عنها، وعن اللباس الأبيض المخصص لدخول المعبد، والامتناع عن ملامسة النساء، وتجميع المواشي المراد تقديمها كقرابين، وكل ذلك استعدادا للرحلة إلى معبد المقه الأكبر. وهذه كلها طقوس تتطابق مع طقوس الحج الإسلامية، فالاعتراف يقابله التوبة، والإحرام باللباس الأبيض، والبعد عن معاشره الناس، وسوق الهدى والذبائح كلها طقوس إسلامية.

الأبنية، والمحاريب، والتمائيل، والجفان، والقذور

{وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ. قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ. فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ. وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ} 245.

تحفل كتب التفسير الإسلامية بأقوال غريبة شرحاً لهذه الآيات، وإدعى أكثرهم أن سليمان فقد ملكه بفعل مكيدة شيطان اسمه "صخر"، بينما قال آخرون أن اسمه "حقيق"، وقال غيرهم أن اسمه "أصف". وقالوا البعض أن الله من فتنه وسلبه ملكه، ليختبره، وأنه استرده بعد أن وجد خاتم الملك في جوف سمكة. وكل ذلك لا أصل له إلا في المرويات الإسرائيلية. والظاهر أن سليمان داخله نوعاً من الغرور كأبي بشر، فامتحنه الله بأن جعله جسداً على كرسيه بدون حراك، أي لا سلطة له حتى على جسده، فأحس بذنبه، فاستغفر ربه، وطلب ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده. وهنا تدخل المفسرون وقال أكثرهم: إن معنى ذلك ألا يسلبه الملك بعد ذلك أحد، وهذا أيضاً من وهمهم. الظاهر من سياق الآيات ومطابقتها مع الآيات التي نتحدث عن عرش ملكة سبأ: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ} 246، يؤكد أن قصة سليمان مع ملكة سبأ حدثت بعد إتيانه الملك، لأنه استعان بالجن لإحضار عرش ملكة سبأ. وفي القرآن نجد أيضاً الأعمال التي كانت الجن والشياطين تقوم بها، كما في: {وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغْوُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ} 247. وفسرت الآيات التالية معنى {وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ}، هكذا: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ} 248.

التوراة لا ترى في داوود وسليمان أنبياء، بل ملوكاً. لذلك لم يجد مدونها حرجاً عند الطعن بهما وتسفيه أعمالهما، لدرجة الادعاء بأن سليمان كان ساحراً يسخر الجن والشياطين كي يبقى ملكاً، بل وادعى أن سليمان عبد أصنام زوجاته المشركات كي يكسب رضاهم.

الآيات القرآنية واضحة، وأعمال الجن والشياطين التي قاموا بها استجابة لأمر سليمان، لا يجادل فيها إلا منكر ضال. لكن إذا كانت القدس وفلسطين هي أرض مملكته، فأين نجد فيها الأبنية، والمحاريب، والتمائيل، والجفان، والقذور؟ والأهم أين نجد الهيكل، وعرش ملكة سبأ، وكل ذلك

²⁴⁵ ص من الآية 34 إلى الآية 37.

²⁴⁶ سورة النمل الآيتين 38 39.

²⁴⁷ سورة الأنبياء الآية 82.

²⁴⁸ سورة سبأ الآية 13.

من صنع الجن والشياطين؟ القول بأن نبوخذنصر هدمه أولاً، ثم فعل ذلك الرومان لا دليل عليه. فنقوش الأول تخلو من ذلك، والتاريخ الروماني يجعله. وعلى افتراض أن الرومان هدموا النسخة الأخيرة من الهيكل، فأين ذهبت حجارته الضخمة التي استخدمت في البناء؟ إذ لا يعقل أنه تم بحجارة صغيرة أو متوسطة الحجم، فهذا يمكن للإنسان العادي فعله، والأهرامات المصرية خير شاهد، ولا داع لاستخدام الجن والشياطين للقيام به. وهنا نجد أنفسنا أمام الاحتمالات التالية:

- أن الجن والشياطين لم تصنع شيئا، فلا هيكل ولا غيره.
- أن فلسطين لا علاقة لها بسليمان وجنه وشياطينه وما صنعوا.
- أن البناء تم، لكن في بقعة جغرافية أخرى.
- أن البناء كان موجودا قبل سليمان، وفعله اقتصر على الترميم والتجديد.

الاحتمال الأول مرفوض، لأن القرآن يؤكد بعضا من أعمال الجن والشياطين. والثاني صحيح لأن كل أحداث التوراة تجهلها الجغرافية الفلسطينية، والاحتمال الثالث لا دليل عليه، وبيقى الاحتمال الأخير.

نعود إلى موضوع معبد بلقيس، لنجد أن نقش سرجون الثاني يحدثنا عن أفعال الرجل خلال غزواته التي شنها على اليمن لإسكات القبائل المتمردة.

عندما تولى سرجون بن تغلث فلاسر الثالث (765-705) ق.م الحكم خلفا لأخيه شلمانصر الخامس، ظن بنو إسرائيل أن الوقت قد حان للتمرد على الحاكم الجديد للإمبراطورية الآشورية، فأعلنوا العصيان، وتوقفوا عن دفع الجزية، مما دفع الإمبراطور الجديد إلى تجريد حملة عسكرية للقضاء على تمردهم، وتمرد العديد من الممالك/المخاليف اليمنية. وقد دامت غزوته ثلاث سنوات، انتهت بسحق التمرد، وإخضاع جميع المتمردين، وسبي بعض القبائل. وقد دون معظم أعماله على نقوش تحمل إسمه، موجودة في متحف اللوفر، سرقها القنصل الفرنسي "بول إميل بوتّا Paul Emile Botta" الذي قاد عمليات التنقيب التي بدأت علم 1843 شمال الموصل.

النقوش تلك دون عليها سرجون الثاني، معظم أعماله أثناء غزو بلاد اليمن، لكن ما يهمنا هنا، ما ذكره عن معبد بلقيس. يقول النقش كما الترجمة الموجودة في المتحف البريطاني من صفحة 72: "في شهر أبو، شهر نزول إله النار المدمرة لزراعة النباتات. شيدت أساسات معبد إبا. البيت والمدينة. شيدت أساساتها بالطوب. وبنيت مزارات للآلهة بالطوب وخشب السرو. واصطدمت بقبائل السبنيين والحميريين، وتوغلت في مأرب. واحتلت بعض مدن الإسماعيليين، وغيرت إسم معبدهم في مسلمه. وأنا سميته "بعل قيس".

سرجون الثاني يقول بأنه توغل في مأرب، واحتل بعض مدن الإسماعيليين، وهو من غير المعبد عند مسلمه، وسماه "بعل قيس". لو عدنا إلى بداية هذا الجزء، كي نستذكر ما ذكرنا عن بناء شلمانصر الأول (1265-1235) ق.م، معبدا وحدد جغرافيته في: "بيت عدين، جبل بحري، عزلة مسلم"، وقارنا ذلك بما دونه سرجون الثاني، نجد أن النقشين يتحدثان عن نفس المعبد. وهذا يتطابق مع ما قالته البعثة الألمانية أن المعبد رُم في المرة الثالثة حوالي (720) ق.م، لأن

النقش يصور لنا عمليات الترميم والإضافات التي تمت، مثل بناء قدس الإله "بعل قيس"، وألوان الطوب المستعمل، والأخشاب والطيب والبخور.

يعد الإله الوثني بعل، أحد أشهر الآلهة التي عبدتها القبائل العربية في بلاد الرافدين، وسوريا التاريخية، وسيناء، والجزيرة العربية. ويختلف نطقه من منطقة لأخرى، فهو الإله بال في عصر شلمنصر الأول والثاني والثالث والرابع، وبعل في زمن شلمنصر الخامس وسرجون الثاني وأسرحدون، وبعل عند السبئيين والحميريين، وهبل في قلب الجزيرة العربية. وكلمة "قيس" تعني القوي الشديد، وبذلك يصبح معنى "بعل قيس"؛ الإله بعل القوي/الشديد. وهكذا يتضح لنا أن بعل قيس تعني إسم المعبد، ومع تداخل الحدث بالموروث الشعبي والأساطير، تحرف الإسم إلى بعلقيس، ثم حذف حرف العين لتسهيل النطق، فأصبح بلقيس. وسواء نطق بعل قيس، أو بعلقيس، أو بلقيس، فإنه يعني إسم مكان وليس إسم لشخص سواء كان ملكاً أو ملكة. لكن التلفيق التوراتي والاستشراقي أطلقه على ملكة سبأ، وربطها بالملك سليمان، واختلق رواية خرافية حولهما.

تطلق كلمة عرش على السرير/ الكرسي الذي يجلس فوقه الملك، وكلمة عظيم يفهم معناها من سياقها في الكلام، ومنها الفخامة والمهابة والإبهار. ووصف عرش ملكة سبأ بأنه: **{وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ}**، يعني عرش فخم يبهر ناظره. وطلب سليمان إحضاره لا يعني استحالة ذلك لكبر حجمه، بل المقصود سرعة الإحضار، وذلك من سياق الآية: **{قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}**، فسرعة الإحضار هي مدار الطلب.

لذلك فإن اختفاء العرش أو ضياعه أو تلفه أو أخذه من قبل القبائل الأخرى أمر سهل وعادي، في ظل الحروب التي دارت بين قبائل الأسباط الإسرائيلية ذاتها، أو بينها وبين باقي قبائل اليمن الأخرى.

السرديات المسندية اليمنية، تتحدث عن تبادل السيطرة بين القبائل على معبد مأرب، وعن حرقه عشرات المرات، لذلك فإن الادعاء بأن نبوخذنصر نصر أحرقه أولاً، ثم كرر الرومان ذلك، يعتبر من أكاذيب مدوني التوراة. فهم يقرون بأن العديد من ملوكها حرقوا الهيكل، وسرقوا ذهبه وأنيته، وأحرقوه خلال المعارك التي جرت بين الإسرائيليين الشماليين واليهود الجنوبيين.

{فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ}²⁴⁹.

هذا مشهد صورته لنا القرآن بدقة، ولو أخذنا كل الآيات المتعلقة به، سنجد سليمان عليه السلام وقد حشر له جنده، **{وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ}**، وبعد استعراض الجند، لاحظ غياب الهدد، **{وَوَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ}**. وكأي ملك يغيب عنه جندي بدون إذن، توعدده بالعذاب أو الذبح، إن لم يأت بحجة

²⁴⁹ سورة النمل الآية 22.

تبرر سبب غيابه، **{أَعْدَبْتَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}**. نتوقف هنا قليلا لنؤكد؛ أن غياب الهدد كان بدون علم سليمان، وليس كما يدعى المفسرون أن سليمان ارسله كي يبحث عن الماء.

لم يمض زمتا طويلا من ذلك النهار، حتى عاد الهدد مبينا سبب غيابه، ويدلي بحجته، **{فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ}**. والنص القرآني يسقط الإدعاء بأن سليمان كان أحد الملوك الذين خضعت له الأرض كلها. فهو حسب التوراة كان في القدس، ولا يعلم شيئا عن ملكة سبأ على بعد 2500 كيلومتر تقريبا. وحسب التاريخ اليمني وسردياته، فقد كانت حاضرة بني إسرائيل في مملكة قتبان، أي على بعد لا يتجاوز 40 كيلومتر من سبأ. وفي كلتا الحالتين، فإن ذلك يسقط روايات الموروث المتعلقة بمملكة سليمان.

باقي الرواية القرآنية معروفة، لذلك سنتجاوزها، فحن لسنا في معرض تفسير القرآن، أو شرح هذا الحدث. لذلك سنتوقف عند عدة محطات.

الأولى: أن تفقد سليمان للطير، وتوعده الهدد بالعذاب أو القتل، وعودته نبأ ملكة سبأ حدث في نفس اليوم، أو حتى جزء منه.

الثانية: لو أخذنا برواية التوراة التي تدعي وجود سليمان في فلسطين، فإن الهدد يحتاج إلى شهر في رحلتي الذهاب والعودة، وهذا يتعارض مع النص القرآني الذي يقول: **{فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ}**.

الثالثة: إذا أخذنا الرواية على أنها جزءا من التاريخ اليمني، وأن تواجد القبيلة الإسرائيلية كان في مملكة قتبان، يصبح الأمر منطقيا، إذ يحتاج الهدد الرجل إلى عدة ساعات لا تزيد على بضع ساعات في رحلتي الذهاب والعودة، وهذا ما أشار إليه النص القرآني **{فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ}**.

الرابعة: الرواية التوراتية تخلو من رحلة الهدد، وتصر على أن ملكة سبأ هي من سعت إلى سليمان بعد أن أعجبت بحكمته، كما بينا ذلك سابقا.

هناك ملاحظة لم يعرها المفسرون اهتماما، وتتخلص في عدم وجود نص صريح في القرآن يشير إلى أن داوود وسليمان عليه السلام من أنبياء بني إسرائيل الخالصاء. فلم يأت ذكر داوود مقرونا بالقبيلة الإسرائيلية الا مرتين. الأولى في قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى.....إِلَى قَوْلِهِ: فَهَرَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالوتَ وَعَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}**²⁵⁰

²⁵⁰ سورة البقرة من الآية 246 إلى الآية 251.

والثانية في قوله تعالى ﴿لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾²⁵¹. في حين نجد حياة موسى عليه السلام ورسالته مرتبطة بها، كذلك المسيح عليه السلام كما في الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾²⁵². أما سليمان فقد جاء ذكره في القرآن 17 مرة، خلت كلها من ربطه ببني إسرائيل.

نحن لا نشك في نبوءة داوود وسليمان كما فعلت التوراة، إذ جعلتهما ملوكا فقط، بل نؤمن بهما كنبیین وملكيين أيضاً. فهما نبیین لبني إسرائيل، وملكيين من ملوك قتيان، التي ضمت قبائل أخرى أشهرها قبيلة العمونيين عبدت الإله الوثني "عم"، والكنعانية عبدت الإله الوثني "كنعان". أي أن مملكة قتيان كانت متعددة الأعراق والأديان، حكّمها داوود أولاً، ثم خلفه سليمان.

نعود إلى موضوعنا، قصة الهدد مع سليمان، يستحيل تصديقها عقليا إذا اعتمدنا الرواية التوراتية التي تدعي أن القبيلة الإسرائيلية التي حكمها سليمان كانت في فلسطين، بينما تصبح منطقية حسب السرد القرآني، إذا اعتمدنا على المسنديات اليمنية، التي تشير إلى أن مخلاف بني إسرائيل كان جزءاً من التاريخ اليمني.

²⁵¹ سورة المائة الآية 78.

²⁵² سورة الصافات الآية 6.

سليمان وإعادة بناء معبد المقه/ الهيكل

نحن كاتباع الدين الإسلامي لا نعتزف بتعدد الأديان السماوية، لأن النص القرآني واضح، إذ يقول: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} 253، فالإسلام هو دين كل الأنبياء من آدم حتى محمد عليه السلام، ورسالته قائمة على الإيمان بوحداية الألوهية، وفضل الربوبية، مع وجود اختلاف في شريعة كل نبي، بما يتلاءم مع طبيعة البشر، كما جاء النص القرآني: {وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} 254.

أما باقي ما يطلق عليها أديان سماوية، فهي معتقدات اختلقتها الأمم الأخرى، وألصقتها بالسماء لتضفي عليها نوعا من القداسة.

فسليمان عليه السلام باعتقادنا نبي مسلم، لا علاقة له بما يعرف بالديانة اليهودية بنسختها الحالية، والتي تشكلت بداياتها خلال ما عرف بالسبي البابلي.

وحسب الموروث الإسلامي، فقد تم لقاء سليمان بملكة سبأ، ودخلت في دينه، بينما لا نجد ذلك في الموروث التوراتي. وكنتي مسلم وجب عليه إعادة تشكيل وترميم معبد "بعل قيس" حيث كانت تعبد الشمس وغيرها من الكواكب. وهنا جاء دور الجن، إذ أراد سليمان من إسناد ترميم المعبد إليهم، سرعة الانتهاء من العمل. لأن تغير ملامح المعبد من مركز وثني إلى معبد توحيدي، يحتاج إلى أشهر، وربما إلى سنوات، وهذا يتعارض مع سرعة التغير التي أراها سليمان، لطمس عقيدة الشرك في أذهان السبئيين.

تحدثنا عن التشابه الكبير بين طقوس الحج عند اليمانيين، وطقوس الحج الإسلامية التي شرعها الله لنبيه إبراهيم عليه السلام. وحسب المسنديات اليمانية، فقد كانت جموع الحجيج تتقاطر من كل مناطق المملكة الحميرية/اليهودية الجنوبية إلى معبد المقه لتعلن توبتها، ثم تتجه إلى معبد مكة الكبير لتؤدي حجها.

أعاد سليمان لمعبد المقه صبغته الإسلامية، فأصبح نقطة تجمع الحجيج، وهذا يستدعي تجهيزه لتلك المهمة الروحية. ومن هنا نفهم لماذا طلب من الجن: --يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ (جمع محراب العبادة) ... وَجَفَانٍ كَأَجْوَابِ (جمع جفنة، والجواب جمع جابية، فيصبح المعنى؛ أنية كبيرة كأنها أحواض لجمع الماء)، وَفُدُورٍ رَّاسِيَّتٍ (قدور جمع قدر، فيصبح المعنى قدور

253 سورة آل عمران الآية 19.

254 سورة المائدة الآية 48.

طهي الطعام الضخمة، الراسية، التي لا يمكن تحريكها لعظمها)، وكل ذلك لخدمة المجتمعين في معبد المقه، قبل الانطلاق إلى مكة، ويقابله ما عرف عند المكيين بالسقاية والرفادة.

كما نعرف، وحتى زمن قريب، فإن رحلة الحج كانت عبارة عن قوافل عمادها الجمال والخيل والبغال والحمير كوسائل ركوب، والبعض يذهب سيراً على الأقدام. وكانت تعد الهوداج (جمع هودج) للنساء والشيوخ الطاعنين في السن، وتسوق القافلة أمامها قطعان الماشية والأبقار التي ستقدم كأضاحي كمنسك من مناسك الحج. بمعنى أن سير القافلة كان بطيئاً، بحيث كانت الرحلة من صنعاء إلى مكة تستغرق شهراً للذهاب، وآخر للإياب، في حين كانت رحلة الحج من فلسطين والأردن تستغرق ستة أشهر ذهاباً وإياباً، وهذا أمر يعرفه المسنون إلى وقت قريب.

نعود إلى الآيتين أعلاه، لنجد أن الله سخر لسليمان الريح {عُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ} وهو ما يتناسب مع رحلة الحج من سبأ حيث المعبد الذي أعاد ترميمه، إلى مكة حيث مناسك الحج التي أرسى نسختها الإسلامية جده الأعلى إبراهيم. ولو كان سليمان يقيم في فلسطين والقدس خاصة، لما أصبح معنى الآية منسجماً مع رحلة الحج.

أعود وأكرر، أنا لست في معرض تفسير القرآن، فهذا شرف لا أدعيه، مهمة أنا أقل شأنًا من التصدي لها، لكن ما أقصده، هو تبيان تطابق النص القرآني مع المسنديات اليمنية، الأمر الذي يهدم السرد التوراتي عن مملكة سليمان الخرافية. فملك سليمان الذي وهبه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، سخر لخدمة الدين التوحيدي، وما صنعتة الجن ما زال قائماً في اليمن، في حين تجهل فلسطين كل ذلك. فلا هيكل في قدسها، ولا خاتم تخضع له الشياطين، ولا بساط ريح خرافي استخدم لرحلات بين مشرق الأرض ومغاربها، كما يهذي مدونو التوراة وشراحها. وإلا، إذا صدقنا خرافة هدم نبوخذنصر أولاً، والرومان ثانياً لهيكل القدس السلیماني الوهمي، فأين حجارتة الضخمة التي استخدمتها في عملية البناء؟ فحجارة البناء الأول، بما فيها حجارة حائط البراق، يعود تاريخها إلى (4500) ق.م، أي قبل سليمان بحوالي (3500) سنة، وحجارة مسجد بيت المقدس الحالي يعود تريخها إلى (700) م، أي بعد سليمان بحوالي (1600) سنة، ولا يوجد بين المؤرخين شواهد على بناء آخر، كما بينت البعثات الأثرية الألمانية وحتى الإسرائيلية.

بعد كل ذلك يتضح بما لا شك فيه، أن سليمان عليه السلام رغم كونه نبياً تمتع بهبات ربانية، شملت معرفته منطق الطير، والسيطرة على الجن والشياطين، وتسخير الريح له، لم يتمتع بأي سلطة لا كملك ولا كنبی، خارج حدود تواجد قبيلته الإسرائيلية، التي هي جزء من مملكة قنتان، على حدود مملكة أوسان، وكلاهما -قنتان وأوسان- تشكلنا أرض كنعان اليمنية، ولا زال أهل تلك المنطقة يعرفون سليمان على أنه؛ ملك الأوس والجن، ملك اليمن، حتى يومنا هذا.

المصادر والمراجع

- (1) الكتاب المقدس التوراة.
- (2) القرآن الكريم.
- (3) العهد الجديد (الإنجيل).
- (4) لسان العرب.
- (5) تاريخ هيرودوت.
- (6) كتاب الأدب الجغرافي العربي " تأليف أغناطيوس كراتشلوفسكي "
- (7) كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام " تأليف جواد علي "
- (8) كتاب انتصار اليهودية على الألمانية 1879 " تأليف فيلهلم مار "
- (9) كتاب اليهود ومعاداة السامية تاريخ وحقائق " تأليف معمر فوزي الخليل "
- (10) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " تأليف عبد الوهاب المسيري "
- (11) كتاب معجم الحضارات السامية " تأليف هنري سعيد عبودي "
- (12) كتاب نهاية إسرائيل تأليف منصور عبد الحكيم "
- (13) كتاب القبيلة الثالثة عشرة " تأليف آرثر كوستنر "
- (14) كتاب أوهام التاريخ اليهودي " تأليف أجود السعد "
- (15) كتاب شعوب إسرائيل وخرافة الأنساب السامية " تأليف عبد الفتاح مقلد الغنيمي "
- (16) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة " تأليف مانع بن حماد الجهني "
- (17) كتاب المدينة المسحورة " تأليف وليام داري ميل "
- (18) دراسة بعنوان " السلاسل المقدسة " تأليف نورمان كانتور وشولاميت جيفا.
- (19) دراسة بعنوان اختراع الشعب اليهودي القديم وخلق التاريخ الفلسطيني كله للدكتور كيث ويتلام.
- (20) كتاب خداع مخطوطات البحر الميت " تأليف مايكل بيجنت وريتشارد لي "
- (21) كتاب حضرموت كشف النقاب عن أسرارها " تأليف المستشرق دانيال فان در ميولين وهـ فون "
- (22) تفسير القرطبي.
- (23) تفسير الألوسي.
- (24) تاريخ الطبري.
- (25) كتاب تاريخ الشعب اليهودي " تأليف ماكس مارغوليز وألكسندر ماركس.

- (26) كتاب الجريمة المقدسة " تأليف عصام سخيني " .
- (27) كتاب القوة والإيمان والخيال، أمريكا في الشرق الأوسط 1776 " تأليف ميكل بي " .
- (28) دراسة بعنوان " من الدمار إلى العمار أثر مفهوم توراتي في علم الآثار الشرق أوسطي لـ "نيل سليرمان" .
- (29) كتاب مستشرقون في علم الآثار " تأليف محمد الأسعد " .
- (30) كتاب وصف جزيرة العرب " تأليف الهمداني " .
- (31) كتاب الأصنام " تأليف ابن الكلبي " .
- (32) كتاب نخلة طي " تأليف زكريا محمد " .
- (33) كتاب مصر الأخرى " تأليف فاضل الربيعي " .
- (34) كتاب إسرائيل المتخيلة " تأليف فاضل الربيعي " .
- (35) كتاب حقيقة السبي البابلي " تأليف فاضل الربيعي " .
- (36) كتاب الأمة اليهودية في القرن الأول الميلادي " تأليف يوسف يوسيفوس " .
- (37) كتاب عوائل اللغات " تأليف أسابيوس القيصر " .
- (38) كتاب الأمم السامية " تأليف حامد عبد القادر " .
- (39) المحيط الجامع في الكتاب المقدس " تأليف بولس الفغالي " .
- (40) كتاب العرب واليهود في التاريخ " تأليف أحمد سوسة " .
- (41) كتاب اللاهوت المقارن " تأليف البابا سنودة الثالث " .
- (42) كتاب التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها " تأليف زائيف هيرتسوغ وإسرائيل فنكلشتاين " .
- (43) كتاب تاريخ العالم " تأليف القسيس بلو اوروسوس " .
- (44) كتاب طبقات الأطباء والحكام " تأليف ابن جلجل " .
- (45) كتاب المقدمة " تأليف عبد الرحمن بن خلدون " .
- (46) كتاب معجم المدن والقبائل اليمنية " تأليف إبراهيم أحمد المقحفي " .
- (47) كتاب القبائل الثمودية والصفوية " تأليف محمود محمد الروسان " .
- (48) كتاب تاريخ العرب القديم " تأليف فيليب حتي " .
- (49) كتاب الجوهرتين " تأليف الهمداني " .
- (50) مقال بعنوان " حكاية التزوير لنقش ميشع " البروفيسور إبراهيم سالوم يهوذا .
- (51) كتاب الإكليل " تأليف الهمداني " .
- (52) كتاب تاريخ الشعوب المشرقية في الدين والسياسة والاجتماع " تأليف المطران يوسف الدبس " .
- (53) كتاب اليهود في المصادر المسمارية " تأليف ابتهاج عادل إبراهيم " .
- (54) كتاب أسرار بابل " تأليف فليافسكي " .

- كتاب نبوخذنصر الثاني " تأليف حياة إبراهيم محمد " . (55)
- كتاب عظمة بابل " تأليف هاري ساكر " . (56)
- كتاب تاريخ أورشليم والبحث عن يهوذا " تأليف فراس السواح " . (57)
- كتاب البداية والنهاية " تأليف ابن كثير " . (58)

يدعو كل فلسطيني يريد أن يحرر أرضه، التحرير من قيود التزوير الاستشراقي التعسفي الشيطاني الذي طمس هوية تاريخ بلاده، وصنع له خرافة تاريخية بنكهة توراتية كل باحث أن يعلم أن العراق الحالي لا يعرف عن إبراهيم(ع) شيئا، ومصر الحالية لا علاقة لها بهجرة اليهود الخرافية إليها، ولا تعرف يوسف وموسى وهارون(ع)، لا كأنبياء ولا شخوص تاريخية، فلا فرعون فيها ادعى الألوهية، ولا سحرة اجتمعوا، ولا بحر إنشق، ولا تيه حصل، وتجهل عصاه، ولا علم لها بتفجر الماء من الصخر، ولا تذوقت المن والسلوى وأن كل أحداث التوراة كما هي مدونة، حصلت في جغرافية أخرى، يتطابق تاريخها كما هو منقوش، مع السرد التوراتي أعي جيدا صعوبة إقناع من سيطرت على عقله خرافات توراتية لبست ثوبا إسلاميا، بفعل عدم تحقق أهل التفاسير من صحة الأخذ منها، وقلة درايتهم بالمادة التاريخية. سنخوض المعمعة متسلحين بنصوص التوراة ذاتها، ومطابقة ما فيه مع النص القرآني إن وجد، وما نطقت به آلاف النقوش التي ضمتها المعابد، والمسلات وأوراق البردي، ومدافن وادي النيل وبلاد الرافدين، وسرديات جزيرة العرب، خاصة اليمنية وخمسة مجلدات يحتضنها المتحف البريطاني، وما رشح من كتب التاريخ العربي، ونتائج أبحاث كوكبة المبدعين العرب في هذا المجال، والمنصفين من علماء الغرب واليهود



مكتبة

دهوك

00964 750 761 6273

Duhok Bookshop

دهوك - مقابل شارع الشاعر

L

luqman_1ali